PJ
78
. H
. A
c.

BOBST LIBRARY
3 1142 02906 8924
NEW YORK UNIVERSITY
PERSTARE ET PRAESTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES
GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Phone Renewal:
212-998-2482
Wed Renewal:
www.bobcatplus.nyu.edu

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL		
		DUE DATE JUL 1 0 2004 BOBST LIBRARY CIRCULATION RETURNED MAY 18 2004
	DUE DATE JUL 2 2 2005 BOBST LIBRARY CIRCULATION RETURNED MAY 07 2005	

PHONE/WEB RENEWAL DUE DATE

NYU Repro:159185

al-Sharqāwī, عبدالرحمن الشرقاوى
ʻAbd al-Raḥmān

al-Arḍ

الأرض

رواية مصرية

1954

دار النشر المصرية

Near East

PJ
7862
.H27
.A7
c.1

الطبعة الأولى ١٩٥٤

دار الشناء للطباعة
ابراهيم محمد عيسى
شارع الجيش ت : ٤٣٨٩٢

الرسوم بريشة « حسن فؤاد »

— ١ —

لست أريد بهذه الصفحات أن أكتب رواية طويلة ، ولا أنا أروى هنا تاريخ بعض الرجال أو النساء ... ولا ذكرياتى .

ولست أحتال على القارىء لأسرق اهتمامه ويقظته ، فأؤكد له أن الأبطال الذين يضطربون عبر هذه الفصول ، لم يعيشوا أبدا إلا فى الخيال .

لن أخدع القارىء إلى هـذا الحد ... نخيالاتنا فى النهاية لا تستطيع أن تخلق الكائنات التى تمضى مع الحياة مثقلة بالحياة : تحلم وتتعـذب ، وتعرف المتاع واليأس والهوى والدموع والضحكات ، والأمل الغامض ؛ وتصنع المستقبل فى إصرار حزين .

وما أنا بزاعم إنى عرفت قصة الذين أتحـدث عنهم ، فنحن فى مصر لا نكاد نعرف قصة كاملة لإنسان ... وقصة الإنسان فى مصر تظهر فجأة ، وتمضى فاترة رتيبة يخالجها الاحتدام والغليان لبعض الوقت .. ثم تهمد وتغيض : تغيض شيئا فشيئا كمياه منسية على الرمال !

هكذا كانت حياة « وصيفة » و « عبد الهادى » و « خضرة » و « علوانى » و « محمد أبو سويلم » و « الشيخ يوسف » و « الشيخ الشناوى » و « محمد افندى » و « الشيخ حسونة » وكل النساء والرجال والأطفال الذين عرفتهم فى قريتى منذ عشرين عاما .

ولست أذكر على التحديد متى بدأت أهتم « بوصيفة » ، ولكنى عدت من القاهرة فى أجازة الصيف ، بعد أن حصلت على الشهادة الابتدائية ، ولم أكد أخلع البنطلون القصير والجاكتة المسدودة ، وألبس الجلباب الأبيض ، وأنطلق

مزهوا فى طرقات القرية بالشبشب المفتوح الأحمر ، حتى أدركت أن قريتى تتحدث عن « وصيفة » كما لم تتحدث من قبل عن فتاة أخرى .

وأنا أعرف قريتى تماما ...

أعرفها بصفة خاصة فى تلك السنوات الطاحنة منذ عشرين عاما ، عندما كانت القرية تقذف ببعض فتياتها وفتيانها إلى المدينة باحثين عن عمل ، ليعودوا من بعد صفرا مهزولين ، أكثر صفرة وهزالا مما ذهبوا ، ومعهم آخرون عاشوا فى المدينة طويلا ، ثم عادوا كلهم ينبشون فى طين الحقول عن طعام .

أنا أعرف قريتى تماما ...

وأعرف أنها لم تكن تستطيع أن تقف عند شىء أو تشغل بشىء على الاطلاق فى تلك السنوات التى يلهبها صراع لا يهدأ من أجل القوت .

من الحق أن فتيان القرية الذين يجدون العمل والطعام قد يشغلون أحيانا بفتاة تنضج فجأة ولكنها ماتكاد تتزوج ويحمل إلى بيتها الصندوق الأحمر المخطط ، حتى تفرغ القرية بسرعة من الهمس الشائع المعروف عن خيبة الزوج فى أول ليلة ، ثم تخرج الزوجة من بعد هذا فى الصباح البكر لتملأ الماء من النهر الصغير وهى تلوح بيدها المصبوغة بالحناء .

وأنا أعرف أن القلائل الذين يملكون أرضا فى القرية ، كانوا وحدهم يشغلون بالضرائب المتجمدة على الأرض ، وبالصراف الذى يطالبهم بمال الحكومة ، ويهددهم دائما بالحجز على الأطيان .

على أن بقية الرجال والفتيان لم يكن يعنيهم أن تنتزع الأرض من أيدى الملاك أم تظل ، مادام كل واحد منهم يجب أن يبحث آخر الأمر عن حقل يعمل فيه طول النهار ... وفى الحق أنهم لم يحاولوا أبدا أن يخفوا ضحكاتهم الشامتة كلما شاهدوا الصراف يدخل - ومعه خفير ببندقية - إلى بيت أحد الذين يملكون أرضا فى القرية .

ولكن « وصيفة » شغلت قريتى كما لم تشغلها فتاة أخرى ، وكما لم تشغلها أبدا قصص الأيام الأولى من الزواج ، أو حديث المال والصراف والحجوزات .

وعندما عدت إلى قريتى فى ذلك الصيف بعد أن حصلت على الابتدائية ، خيل إلى من كثرة ماسمعت عن « وصيفة » أننى لا أعرفها .

لم يسألنى الصبيان كعادتهم كل صيف عن مصر وما بمصر ، ولم يطلب واحد منهم - كما تعودوا - أن أتحدث أمامه باللغة الانجليزية أو أضحك بالانجليزية أو أفتح له كتابا ليرى فيه الكلام الذى يكتب ، وانما حدثنى الجميع عن « وصيفة » ، ونحن واقفون بعد العصر بالقرب من دكان « الشيخ يوسف » بقال القرية ، فى الطريق الرئيسى الذى يمتد من القرية إلى جسر النهر .

وسألت الأولاد الذين وقفوا معى عن « وصيفة » هذه من تكون .

فشد أحدهم طاقيته الصوف الرمادية على رأسه وزام :

- هيه .. يعنى نسيت ؟ يعنى مصر تخليك تنسى وصيفة ؟

وابتسم الصغار .

ولم أكن قد تذكرت بعد ، فرفع أحدهم حاجبه وقال وهو يبلع ريقه :

- بقى ما تعرفشى وصيفه اللى كانت طول النهار بتنط معانا فى الترعة من قيمة أربع خمس سنين ...

وقال ولد آخر وهو يستند إلى عصا صغيرة من التوت كما يستند الكبار إلى الشماريخ :

- حاكم هيه فارت بسرعة ياجدعان ، وهيه لسه راجعه من البندر فى الشتا !

ثم التفت إلى وهو يحك جسده :

- لكن بقى يعنى ما انتش فاكرها . . ؟ ! وصيفه مراتك يا أخى ! !

وضحك الأولاد ... وتذكرت وأنا أضحك كل ما كان بينى وبين « وصيفة » !

كنا قبل أن أذهب إلى المدرسة الابتدائية بعام واحد نستحم فى ترعة صغيرة إلى جوار دور القرية ، وكنا نحن الصغار من أولاد وبنات ، نمرغ أجسادنا على التراب ونكسو وجوهنا ورؤوسنا بالطين لنصبح شكل العفاريت ... ثم نقفز إلى الترعة الصغيرة ، ونغطس فى الماء المثقل بالطمى ، وزعيقنا يختلط بصياح الأوز والبط الذى يسبح إلى جوارنا ويستقبلنا مصفقا بأجنحته ..

وذات يوم التقينا كلنا على هـــذه الترعة الصغيرة قبل صلاة الظهر كما تعودنا دائما .. وقبل أن نخلع ملابسنا قالت لنا وصيفه بتألق :

- تيجو ياعيال نستحمه فى البحر ؟

وأقسمت « وصيفة » أنها تعرف مكانا فى النهر غير عميق نستطيع أن نستحم فيه ، ونقف على أرجلنا فى الماء . .

ولم نكن فى تلك الأيام قد استطعنا أن نقرب ماء النهر ، وإن كنا لنحلم أن نسبح فيه ونعبره ذات يوم كالكبار . .

كانت « وصيفة » هى أكبرنا ، تعرف كثيرا من الأشياء التى لانعرفها نحن : تعرف النهر وتحمل جرتها الصغيرة وتذهب اليه لتملأ كما يملأ النساء ...

كانت وحدها تستطيع أن تتسلق أشجار التوت ، وتهزها علينا فنأكل الثمار الطيبة ، وكانت وحدها تنط على أشجار « الزغلنت » وتصنع العقود من حباته الصغيرة . . وكانت تطلع جميزة « عبد الهادى » المخيفة الارتفاع وتنزل مسرعة ومعها كوم من التين الجميز توزعه علينا لنلعب به أو نأكله وهو أخضر .

كانت هى وحدها التى تستطيع أن تصنع هذا كله .

وهكذا تعودت «وصيفة» أن تفتح أمامنا أسرار الأشياء فتبهرنا ، وتعودت أن ترد فى طلاقة على الرجال الذين يصرخون فى وجوهنا ونحن نلعب ، وتشتمهم إن لزم الأمر .

ولم تكد «وصيفة» تقترح علينا أن نذهب لنستحم فى النهر بعيدا عن الأوز والبط وعن دور القرية حتى مضينا نجرى وراءها فرحين ، لنضرب الماء بأيدينا وأرجلنا ونقفز فى الماء بظهورنا كالذين يكبروننا فى العمر . .

وقادتنا « وصيفة » إلى مكان قريب من ساقيه مهجورة وبدأنا نخلع ملابسنا .

كان واضحا أن « وصيفة » هى أكبرنا ، فلبدنها شبه قوى بأبدان النساء .

وكنا قد تعودنا عندما نخلع ملابسنا عند الترعة الصغيرة أن ننظر إلى « وصيفة » معجبين ، فلم يكن فينا ولد أو فتاة فوق الثامنة ، أما هى فكانت تعبر الحادية عشر ، بادية الخصر والردفين ، ذات جسد محدد الخطوط . .

وخلعنا ملابسنا وكومناها كلها تحت شجرة ثم نزلنا إلى النهر ومشينا فى الماء بخيلاء تخالجها الرهبة . . وأقبل بعض نساء يملأن بالقرب منا ؛ ونظرت إلينا إحداهن ، ثم جرت نحونا وهى تمسك ذيل جلبابها الأسود بأسنانها وانقضت على « وصيفة » من بيننا فقرصتها فى فخذها وهى تصيح :

– إطلعى يامفضوحة ... إنت محشوره ليه فى وسط الصبيان . .

فصرخت فيها « وصيفة » متحدية كعادتها كلما شتمها رجل أو امرأة :

ـ الله ! واتى مالك . . ؟ إتى كنتى أمى ولا أبوى . . إوعى كده . . ماحدش له ضرب على . . أنا بنت شيخ الغفر .

وإذ ذاك قذفتها امرأة أخرى بحفنة من الطين قائلة :

ـ ياوكستى ! هو انت لسه صغيره . . دا خراط البنات قرب ينيلك . . دا انت غلبتى خضره .

فصاحت فيها « وصيفة » :

ـ واتى مالك يا كسيفه يابارده . . يابتاعة الموالد .

وعجبنا نحن لجرأة « وصيفة » ووقفنا فى الماء ثابتين . غير أن امرأة ثالثة هددتنا بأن تحمل ملابسنا إلى أهلنا فى القرية وتتركنا عراة .

فأسرعنا بمغادرة الماء والشتائم تلاحق « وصيفة » .

وتبعتنا « وصيفة » ، فارتدينا ملابسنا ، وهى تقول لى :

ـ تيجى نروح عند ساقية « عبد الهادى » ابن عمك نلعب هناك فى الضل تحت الجميزة ؟

وتحمست أنا للفكرة ، وجريت إلى « ساقية » ابن عمى ، وجرى من خلفى الأولاد و « وصيفة » .

وسبقتنا « وصيفة » إلى الساقية فاستلقت إلى جذع شجرة قديمة بجوار الساقية على حافة النهر حيث تقوم مصلى ذات سور منخفض تحت ظلال الجميزة .

وجلسنا حول « وصيفة » وبدأنا كلنا ننظر إليها متلهفين إلى معرفة اللعبة التى ستقترحها بينما كان « عبد الهادى » ـ من بعيد ـ يهوى بفأسه على الأرض .

ونظرت « وصيفة » إلى « عبد الهادى » وهمست لنفسها :

ـ الحمد لله . . لسه ماقيلوش .

ثم تلفتت حولها ، تسأل عن « خضرة » فقال لها أحد الأولاد إن « خضرة » اليوم تنق الدودة فى عزبة « محمود بك » مع غيرها من الصغار . . فتنهدت « وصيفة » وبلعت ريقها ، ونظرت فى وجوهنا جميعاً .

وانتظرنا أن تقترح لعبة . . وكانت تعرف الكثير

ولكنها لم تقترح علينا لعبة .

وإنما بدأت تروى لنا ماشاهدته هى بنفسها فى زفاف أختها بالأمس إلى فتى من القرية يعيش فى البندر ويلبس على جلبابه الجاكته والطربوش .

فأختها دخلت إلى القاعة ومعها الداية كما تدخل العرائس ، وتسللت « وصيفة » ومعها « خضرة » إلى قاعة العروسة .. وانتظر الجميع العريس .

ودخل العريس يلبس جلبابا من حرير القز وطربوشا فاقعا مائلا على جبينه . ولم يكن معه المنديل الابيض الذى يدخل به كل عريس ..

وإذ وجد العريس قاعته مزدحمة بالداية وأم العروس والصغيرات ، وقف فى وسط القاعة غاضباً وطرد الجميع وأصر أن يبقى وحيداً مع عروسه .

وخرجت الداية تلطم على وجهها تروى لشيخ الخفراء - والد العروس - عن بدع عريس البندر .. ودخل « محمد أبو سويلم » غاضباً إلى القاعة وضرب العريس بالكف على صدغه ، وطلب منه أن يدخل على ابنته العروس كما يدخل كل العرسان على البنات الشريفات فى القرية . .

وبعد قليل دخلت الداية ولف العريس حول أصبعه منديلا أبيض ، وتسللت « وصيفة » « وخضرة » إلى الحجرة من جديد .

كنا نسمع من « وصيفة » بشغف كبير ، وقلوبنا الصغيرة تدق . واقتربنا منها ونحن جالسون حولها ، وهى تحكى بلذة ، وعيناها الواسعتان مفتوحتان فى تألق ، وشفتاها تنفرجان قليلا عن لحظات صمت وابتسام . . ولكننا بعضنا ونحن نلتصق بها ونطلب منها أن تتكلم على طول ، وتكمل لنا حكاية أختها والعريس والمنديل الأبيض .

ومضت « وصيفة » تروى لنا كل شيء . منذ صرخت أختها ، حتى انطلقت الزغاريد ؛ عندما رمى على الواقفين أمام قاعة العروسين منديل أبيض عليه نقطة من الدم ، ومضى الرجال فى طرقات القرية يحملون على أطراف الشماريخ مناديل بيضاء ، تملأها بقع دم قاتم وهم يزعقون : « الحلو أهه » ، ومن ورائهم حلقات نساء يرقصن ويصفقن بأيديهن المرفوعة ، ورؤسهن مائلة وهن يغنين فى نغم سريع :

« قولوا لأبوها ان كان جعان يتعشى »
« بنت الأكابر شرفتنـــا الليـــلة »

لم تترك « وصيفه » من القصة شيئاً .

وعندما انتهت منها سكتنا ، ووقف بعضنا يبحث لنفسه إلى جوار المصلى عن قطعة من ظل الجميزة .

وفجأة نظرت « وصيفة » إلى المصلى وقالت .

ـ تعرفوا نلعب إيه ياعيال ؟ تعالوا نعمل فرح .

واختارت « وصيفة » أبطال اللعبة . . فاقترحت أن تكون هى العروسة ، وبحثت عن فتاة تقوم بدور الداية وتمنت لو أن « خضرة » كانت معنا بدلا من بقائها طول النهار تنق دود القطن فى حقول بعيدة . . وعلى أية حال فقد اختارت فتاة لدور الداية .

أما العريس . . فقد اختارتنى أنا لأن لى صلة بالبندر : فإخوتى فى القاهرة يتعلمون ، ومسيرى للبندر فى الآخر .

واختارت « وصيفة » المصلى لتكون مخدعاً للزواج ، ودخلت المصلى ودخلت وراءها الداية الصغيرة وأخيراً دخلت أنا .

وظل الصغار خارج المصلى : البنات يزغردن ويغنين ، والأولاد يمسكون عصياً صغيرة من التوت يلوحون بها وينتظرون .

غير أن اللعبة لم تتم رغم أن العروس كانت قد تهيأت تماماً لاتمام اللعبة . . فقد أقبل « الشيخ الشناوى » فجأة . . !

« والشيخ الشناوى » هو فقيه القرية ومفتيها ، وخطيب مسجدها ، ومأذونها الشرعى ، ومعلم الأولاد فيها ، وواعظ الكبار .

وهو رجل طويل عريض ضخم الجثة ، غليظ القفا ، عظيم الكرش ، يحب الموالد والطعام ، وكنا نحسب نحن الصغار أنه يستطيع أن يضع فى بطنه بقرة . .

وهو رجل يحبه الجمع ويضحكون معه ولا يكاد يوجد فى القرية رجل لم يذق عصا سيدنا « الشيخ الشناوى » عندما كان يقرأ فى « الكتاب » !

وسمعنا نحن من وراء سور المصلى غناء الصغار ينقطع ، وأصواتهم ترتفع مضطربة مختلطة بحركات الأقدام على التراب . .

وفى اللحظة الحاسمة انتهت إلينا أصوات الصغار :

ـ سيدنا الشيخ الشناوى ! ! يادى الحوسه . . إجرى يا بنت . . قوم ياوله إجرى يا واد اجرى ! سيدنا طب ياجدعان . .

وسمعنا « الشيخ الشناوى » نفسه بصوته المتهدج الوقور الذى يحمل إلينا ذكرى تلاوة القرآن من اللوح الصفيح فى الكتاب . .

كان الشيخ ما يزال على الجسر عند الجميزة يشخط فى الصغار :

- انجر منك له لهـا . . انجروا بعيد عن المصلية أحسن تنجسوها . . يعنى طهايين قوى . . اللى أهاليكو ما بتهوب ناحية الجامع . .

وابتعد صوت الصغار وسمعنا رنين حبات مسبحة سيدنا وصوته يرمر بآيات من القرآن . . واقترب الشيخ ، فتمخط وبصق بعيداً . . ثم خلع حذاءه ودخل المصلى . . . والهواء يحمل إلى وجوهنا رذاذ بصاقه . .

وكنا نحن — « وصيفة » والدايه الصغيرة وأنا — نشعر أننا دوهمنا تماما ؛ فالتصقنا بجدار المصلى المصنوع من الحصير والطين ، وحاولنا أن نغطى أنفسنا بالخوص المفروش على أرض المصلى ، ولـكننا لم نملك الفرصة لنصلح من حالنا .

ووقعت علينا عين « سيدنا » فذهل .. وحملق فينا وقد راح لونه .. واسترقت إليه النظر فوجدته يتراجع قليلا ويتلفت بسرعة وهو يتمتم بكلام لم أفهمه ، ثم يميل برأسه ليتأمل كل بدن « وصيفة » .. ويتراجع وهو يقول :

- أعوذ بالله من الخبث والخبائث . . أعوذ . . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. اللهم اللهم .. إنس ولا جان ؟ .. قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق .. قل أعوذ برب الناس إله الناس ....

وجف ريق ، والتصقت « بوصيفة » ، والتصقت بى الداية الصغيرة .. فصرخت « وصيفة » باكية :

- معلهشى والنبى يا سيدنا . . أنا ماليش دعوة . . هه ! ! والنبى هو اللى دحك عليه وقال لى تعالى يا وصيفه نلعب لعبة العروسة والعريس .

وهنا اطمأن سيدنا وارتفع صوته فى انفجار :

- هوانتو ؟ ! آه يا أنجاس يا خنازير . . وفى المصلى كمان ؟ والله لأرميكو فى البحر ! !

وملأنا الرعب ، وتأكدنا أن سيدنا سيرمينا فى البحر حقاً ، فقد كان يصنع أى شىء فى القرية ، ويروى له حديثاً أو قصة لتبرر ما صنع .

واحتضنت « وصيفة » مستنجداً ، واحتضنتنى بوجل شديد ، وارتمت الداية الصغيرة فوقنا ، وكناما نزال على حالنا استعداداً للحظة الزفاف . . فانهال سيدنا بيديه الثقيلتين علينا :

ـ وكمان قدامى ؟ على بعض قدامى يا كفرة يافجرة ؟.. غوروا من هنا .. غوروا .

ثم صفق بيديه ، وهز رأسه قائلا :

ـ يا اخواتى هى البلد دى جرى لها إيه ؟ كلها متنيله بنيله كدهه من مصغرها لمكبرها ؟! أعوذ بالله يا اخواتى ! ! يا عبد الهادى . . يا عبد الهادى . . تعالى يا عبد الهادى تعاله ! !

وكان عبد الهادى يهوى بالفأس على أرضه الممتدة تحت بطن الجسر أمام الساقية على مرمى البصر .. فأقبل مسرعا على نداء سيدنا ، بينما سيطر علينا الفزع ولم نعد نعرف ماذا نصنع .. وظل سيدنا يقول لنفسه :

ـ ياخويا العيال دى ما بتقيلش ليه ؟ ! طالعين على البحر فى وسط القياله ؟ ؟ يعنى لو خطفتكم جنية ؟ إلهى تخطفكم جنية بدل ما تطلعوا فسدانين ! .

وطافت فى رءوسنا صور سريعة عن الجنية تظهر على النهر بأصابع حمراء فى ساعات الظهر لخطف الصغار . . فإذا رأت صغيراً يمشى وحده خايلته بالأصابع الحمراء قائلة : « تعالوا كلوا بلح » فإن ذهب واحد إليها أخذته إلى أعماق النهر بلا عودة .

ولكن قصة الجنية التى أشار إليها « سيدنا » والتى سمعناها من الأمهات دائما لم تكن هى التى تخيفنا بالتحديد ! !

كان هناك « سيدنا » .. هو كل ما يرعشنا فى تلك اللحظة .

وأطل سيدنا من جديد على « وصيفة » وكانت ما تزال على حالها ، فهز رأسه وشوح بيديه قائلا :

ـ ياستتك سوده يادى البنت !! دا انتى على وش جواز !

ثم عاد يطل عليها وهى تلتصق بى وزعق :

ـ فزوا اطلعوا بره المصلية دا انتونجستوها .. أقفوا هنا هه .. بره سور المصلية .

وسأل سيدنا « وصيفة » :

ـ إنت بنت مين ؟

فقالت « وصيفة » وهى تقف إلى جوارى خارج المصلى باكية :

ـ بنت شيخ الغفر .

ـ بنت محمد أبو سويلم ؟ والله النار بتخلف تراب يا أولاد !

وكان « عبد الهادى » قد أقبل ، يمسح عرق جبينه بظهر كفه . .
وقال عبد الهادى :
- خبر ايه يا « سيدنا » ؟
وقبل أن يجيبه سيدنا كان قد فطن إلى وجودى أنا فمصمص شفتيه وقال متعجباً :
- إيه جاب العيال دول هنا فى عز نقرة القيالة !
ومضى سيدنا يروى لعبد الهادى كل ما رآه بألفاظ ملأتنى خجلا وفزعاً وأضحكت « عبد الهادى » فأمسك بشعرى قائلا وضحكاته تتوالى :
- يعنى طالع فرخ من يومك !
غير أن « الشيخ الشناوى » لم يضحك ، وإنما نهر « عبد الهادى » وتحدث طويلا عن اهتمام أبى بتأديبى بآداب الدين .
وسمعنا ألفاظاً رهيبة تسقط من فم الشيخ .
سمعنا لأول مرة كلمة الفحشاء . وسمعنا لأول مرة كلمة الزنا . . الزنا الذى قال عنه سيدنا أنه يخرب البيوت !!!
وظل الشيخ يتحدث عن النار والزنا والخراب .
ورأيت «عبد الهادى» يلتقط عصاً رفيعة من الأرض ويضرب بها «وصيفة» قائلا :
- طب الواد لسه صغير ما يعرفش الحاجات دى ولا يفهم العيب . لكن انتى يا مقصوفة الرقبة ؟ ! إنتى اللى تعمرى دار ؟ ماتعرفيش غير اللعب الأغبر ده ؟ هو دا لعب ؟ !
وإذ كان « عبد الهادى » يضرب « وصيفة » وهى تبكى ، جرت الفتاة التى كانت تقوم بدور الداية . . فالتقط « عبد الهادى » طوبة من الأرض وقذفها فى ظهرها صائحاً :
- استنى جالك سخونة !
ولكن الداية الصغيرة تابعت جريها على الجسر وهى تتحسس ظهرها ، وجرت من ورائها « وصيفة » . . وجريت أنا .
وإذ أصبحت « وصيفة » بعيداً عن سيدنا « وعبد الهادى » ، التفتت قائلة :
- جالك ضارب ياعبد الهادى إنت وسيدنا .
وأخذتنى الرهبة وأنا أجرى ، وما زال صوت سيدنا ينطلق وقد احمر صدغاه المنتفخان وهو يتحدث عن الفاحشة والنار وخراب البيوت ! !
وفى الحق أننا لم نفهم سر ما يغضب علينا « الشيخ الشناوى » .

ودخل الشيخ « الشناوى » ...

لقد كنا سعداء للغاية ونحن نلعب .

كنت أنا و « وصيفة » والداية الصغيرة نضحك طول الوقت فى المصلى ، والصغار يغنون وراء السور المنخفض فرحين . ولم نشعر أبداً أننا نرتكب شيئاً يستحق هذا كله .. وبصفة خاصة يستحق النار .

كان أبى قد قال لى ذات مرة : « لا تكذب فالذين يكذبون يحرقون بالنار » ولم أكذب بعد ذلك فى تلك السن منذ قال لى أبى هذا الكلام ، رغم أنى رأيت كثيرين يكذبون ويحرقون غيرهم فى النار ورأيت آخرين يكذبون فيحترق غيرهم بالنار . . وعلى أية حال فلم يكن أحد قال لى بعد إن الصغار حين يلعبون يمكن أن يلعبوا بأشياء يحرقون من أجلها بالنار !

ولم أجرؤ على أن أسأل أبى فى هذا أبداً . .

ولكن « الشيخ الشناوى » عندما زارنا فى ذلك المساء ، همس فى أذن أبى بكلمات ، وارتفع صوته مطالباً بمولد لأهل الله . . وهز أبى رأسه ثم نادانى ، وضربنى ، ولم يقل لى لماذا يضربنى . . غير أنى فهمت ، فلم أعد إلى هذه اللعبة مرة أخرى . وعرفت أنها كالكذب يمكن أن تجعلنى أحرق بالنار ، وربما لعبها آخرون فلم تحرقهم النار وإنما أحرقوا غيرهم بالنار !

ولم أسأل أبى عن تفسير لكل هذا . . ولكنى حاولت أن أسأل « وصيفة » ، فقد كانت تعرف الأسرار !

ولكنى لم أعد أراها . . . لم تعد تخرج إلى الترعة قبل الظهر ، ولم تعد تجلس على باب دارها فى المساء وتضع طشتا صغيراً مقلوباً على الأرض وتنقر عليه ، وتغنى ونحن من حولها نرد ونسمع .

ويقولون أن أهلها ضربوها ومنعوها من اللعب بعد المغرب ، وأن « محمد أبو سويلم » شيخ الخفراء فرض على « عبد الهادى » أن يقيم على المصلى سوراً عالياً وباباً يغلق حتى لا يتسلل إليها الصغار .

وسافرت إلى القاهرة بعد ذلك بعام لأقيم مع أخوتى الكبار استعداداً لدخول المدرسة الابتدائية . . ولما عدت إلى قريتى أول صيف عرفت أن « وصيفة » قد سافرت مع أختها إلى عاصمة الاقليم ، حيث يعمل زوج الأخت ساعياً فى مدرسة الزراعة المتوسطة . .

* * *

ومرت أربعة أعوام . . خمسة . . وانهيت من دراستى الابتدائية ، وأقبلت إلى قريتى مع الصيف محملا بالكتب ، وبأحلام المدرسة الثانوية ، وأحلام بالبنطلون الطويل والجاكتة المفتوحة ذات الجيب الصغير فى داخلها ، والكرافته التى تتراقص مع الريح . والحذاء القصير بلا رقبه .

ورجوت أمى — وأنا أقبل يدها — أن تتوسط عند أبى ليحول مصروفى اليومى إلى مصروف شهرى محترم بما أنى حصلت على الابتدائية . . .

وأخذت أمنى النفس بقطع فضية تملأ الجيب الصغير فى داخل الجاكتة المفتوحة ، وجيب بنطلونى ، وأنتشى بتصور نفسى أضع يدى فى جيب البنطلون لأعبث بالنقود فأتمتع بملمسها ورنينها الجميل .

وحلمت بساعة ، وطلبتها من أمى ، ولكنها قالت لى إن الساعة تعطل الذين فى مثل سنى ، وإن الساعة - مثل طول الشعر - ميزة للذين يدرسون فى السنوات النهائية من المدارس العالية كإخوتى الكبار . ! !

ومع ذلك فقد ظللت أحلم بالساعة وأتخيل نفسى وأنا أدرس اللغة الفرنسية وأنظر فى الساعة ، وعشت أياماً فى لحظات الحلم أدير رأسى ويدى على حركة من يلقى نظرة خاطفة على ساعة يده !

وحلمت أكثر من هذا بأننى أسير فى المظاهرات التى يقوم بها طلبة المدارس الثانوية وأطلق حنجرتى بالهتافات التى تنطلق بها الحناجر . . وكنت قد سمعت من أخوتى الكبار كثيراً جداً عما صنعوه فى الجامعة عند ما فصل طه حسين من الجامعة .. واسم طه حسين إذ ذاك يملأ نفوسنا برهبة غامضة ! !

وفى غمار هذه الأحلام كنت قد نسيت « وصيفة » . . وظل أصدقاء صباى فى القرية يتحدثون عنها أمامى ، ولكنى أقبلت أروى للصغار كثيراً مما شاهدته فى القاهرة . . وفى ذلك العام بالذات شاهدت فى القاهرة ما لم أشاهده فى عام آخر من قبل .

ولم يسألنى الصغار - كما تعودوا أن يسألوا - عن « مصر » ولكنى بدأت أنا أحدثهم عما رأيت فى « مصر » !

وفى تلك الأيام كانت القاهرة لا تهدأ أبداً . وكنت أعرف من أحاديث أخوتى الكبار ومن الجرائد التى يحملونها أن رجلا اسمه « صدقى » يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن ألغى الدستور لحساب الانجليز . وكنت أراه يطلق فى

القاهرة جنود الانجليز حمر الوجوه ليحموا له سلطانه على رقاب الناس !

وكنت فى المدرسة المحمدية الابتدائية أسمع دوى الرصاص كل يوم، وأعرف عند ما أنصرف إلى البيت فى العصر، أن دوى الرصاص كان يزلزل القاهرة كلها.. ومع ذلك ففى صباح كل يوم كانت عنابر العمال تسكب الآلاف فى الشوارع من جديد، وهتافات الطلبة تهز ركود الحياة.

وكانت المدرسة الخديوية الثانويه تخرج إلى الطريق كل صباح فتهتف بحياة الدستور والاستقلال والحرية وبسقوط صدقى والانجليز.

واقتحم طلاب مدرسة الخديوية علينا باب المدرسة ذات صباح من مارس؛ واضطرب الناظر والمدرسون وضباط المدرسة، ولكننا اندفعنا مع طلاب الثانوى، وقد ألهبنا الفرح وسرنا فى موكب كبير يتصايح بهتاف واحد، وشعر كل منا بقلبه ينبض وبجسمه يحمى والدم يغلى فى العروق، ومضينا نردد هتافات الكبار فى شوارع الحلمية الجديدة وازدحمت الشرفات بالنساء يصفقن لنا، وفتحت الشبابيك وظهرت الفتيات المختبئات خلف الشيش، وصفقن بحماس.

وفجأة واجهتنا جماعة من الجنود الانجليز حمر الوجوه.. كانوا يسددون نحونا البنادق، وتعالت الصرخات من الشرفات والشبابيك.. وصاح فتى منا «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» وطلبت النساء فى ضراعة أن نرجع إلى الوراء. ورجعنا قليلا إلى الوراء.. فوجدنا جنوداً مصريين، سمر الوجوه كالرجال فى قريتى: يتنادون بعضهم بنفس الأسماء.. أسماء الرجال فى قريتى، ولكنهم كانوا يحملون العصى الغليظة، يقرعون بها الرءوس والأرض!!

مضيت أروى لزملائى فى القرية كل هذا: أحلامى بالمدرسة الثانوية وماشاهدته فى القاهرة.. حديث البنطلون الطويل، والانجليز، والساعة، واسماعيل صدقى، والدستور والجنود.. وكانوا يسكتون أحيانا ويسمعون بشغف، وأحياناً يتحدثون عن «وصيفة» فى إكبار، وأسمع أنا بعجب.

ووجدتهم يعرفون «صدقى»..

وسألنى أحدهم مرة:

- هوه صدقى ده قد إيه؟ يعنى هو اللى يغلب ولا الواد عبد الهادى لو نزلوا لبعض لعب عصا؟

فرد عليه آخرون أن «صدقى» هذا كائن عجيب يغلب مائة من عبد الهادى

ولكن فى غير لعب العصا .. وأنه يأكل خبزا كله من القمح .. وهو لايعرف خبز الذرة الذى يأكلونه فى القرية .. وهو يشرب الماء بالثلج من الحنفية لامن الزير !

وسألنى ولد آخر إن كان « صدقى » يستطيع فى المرة الواحدة أن يأكل عشرين رغيفاً من خبز القمح ، ويشرب ملء جرة من ماء نقى كماء طلمبة المسجد !.

ولم أستطع أن أجيب .

وسألنى أحد زملاء طفولتى عن هذا الدستور الذى هتفنا بحياته مع الكبار وأوشكنا أن نقتل من أجله .. ولكنى لم أستطع أن أجيب ، وقلت له إن الكبار يعرفون ، فحدثنى هو عن فلاحين سجنوا وضربوا فى المركز من أجل الدستور وعن « الشيخ حسونه » ناظر المدرسة فى القرية المجاورة ، وقال لى إنه نقل إلى بلد فى آخر الدنيا من أجل الدستور .

واقترب من أذنى ولد آخر وهمس أن شيخ الخفراء عم « محمد أبوسويلم » والد « وصيفة » قد فصل من وظيفته فى جرائر الدستور . فالقرية قاطعت الانتخابات التى يجريها صدقى ويدخل فيها حزب الشعب وحده . ولم يذهب رجل إلى الصناديق ليعطى صوته ، وطلب المأمور من « محمد أبو سويلم » أن يسوق الرجال إلى صندوق الانتخابات ، ولكنه رفض ورآهم يجمعون أصوات الموتى فتشاجر . . !

وأخذنى ولد من يدى وابتعد بى خطوتين عن دكان « الشيخ يوسف » الذى كنا نقف أمامه فى فضاء الطريق ، ليقول لى إن « الشيخ يوسف » نزعت منه ملكية نصف فدان من الفدان الذى يملكه بعد ذهاب الدستور !

ومضى زملائى يرون لى أشياء عن الدستور ، وشعرت أنهم فى القرية يعرفون عن الدستور — بكثير من المرارة — أضعاف ما أعرف أنا ، رغم أنهم لم يشتركوا مثلى فى مظاهرات من أجل الدستور . .

وملأنى الاكبار « للشيخ حسونة » الذى كان ناظراً على فى المدرسة الأولية بالقرية المجاورة . .

وأحسست بإشفاق على « الشيخ يوسف » ، وعم « محمد أبوسويلم » ، والد « وصيفة » صديقة صباى . .

وعرفت أن « محمد أبوسويلم » يشتغل بنفسه الآن فى نصف الفدان الذى يملكه وقد عادت « وصيفة » من عند أختها فى البندر ، لتساعد أباها . .

فمنذ فصل الرجل لم يعد الخفراء يساعدونه كما كانوا من قبل وهو بعد لا يستطيع أن يؤجر الانفار ليزرعوا له !

عادت « وصيفة » من عند أختها ، وهبطت القرية بجلباب ملون كبنات البندر ومنذ هبطت « وصيفة » إلى القرية ، والقرية مشغولة بها . . وهى وحدها دون بقية الفلاحات تمضى بجلبابها الملون لتملأ من على الجسر وتروح وتجىء بجلبابها هذا إلى الحقل ، غير حافلة بما تثير من همسات الفلاحين .

ويقولون إن عم « محمد أبو سويلم » لا يستطيع أن يشترى لوصيفة الجلباب الأسود المعهود الذى تلبسه كل الفتيات والنساء فى القرية . ويقول آخرون بل هو يستطيع أن يشترى هذا الجلباب ولكنه لا يريد أن يكسر خاطر « وصيفة » فهو يتركها تلبس كأهل البندر بعد أن حرمها من الاقامة مع البندريات .

وسمعت أن « وصيفة » أصبحت كالشهد ، وأنها تتحدث بلغة أهل البندر وسمعت أن « محمد أفندى » المدرس الالزامى طلبها من أبيها ، ورغم أنه يقبض أربعة جنيهات كاملة كل شهر فإن « محمد أبو سويلم » لا يريد أن يزوجها من أهل البلد .

وسمعت أن « عبد الهادى » قرأ الفاتحة سراً مع زوج أختها الذى يعمل بمدرسة الزراعة المتوسطة فى عاصمة الاقليم ، وهما صديقان قديمان . .

وسمعت أن « عبده » ابن خال « وصيفة » طلبها من أمها ، ولكنه عاد من مصر متعطلا فرفض « محمد أبو سويلم » .

وهكذا مضيت فى دوامة من الحديث عن « وصيفة » .

وأقبل العصر على قريتى وأنا مع زملائى فى الطريق الواسع أمام دكان « الشيخ يوسف » نتحدث عن كل شىء . . ومر حمار عجوز عليه شاب يلبس طاقية يبدو من تحتها شعره الطويل وقد ظهرت خصلة ترتفع على جبهته . . وكان جلبابه المخطط متسخا بعض الشىء .. وكان يقعد على الحمار ورجلاه تتدليان من ناحية واحدة ، وفى القرية يسمون هذه الطريقة « بالخسروان » وهمس ولد :

ـ أهه . . أهه . . « عبده » ابن خال وصيفة ، طول عمره فى مصر من يوم أبوه ما طلع من البلد علشان يشتغل سايس . . وبعد أبوه ما مات قعد له سنتين تلاته ورجع علشان يساعد عمك محمد أبو سويلم . . ولكن دا لا هو عارف يزرع ولا يقلع ! شوف ياخويا راكب خسروان إزاى . . ؟ تقولشى عنده أبعاديه ؟

ومضى الحمار العجوز بعيداً حتى اختفى فى أحد دروب القرية ، وأخذت أسراب الفتيات تمضى إلى النهر بالجرار الفارغة . . ومن بعيد من جهة النهر تهادت فتيات يلبسن ثيابهن الطويلة السوداء إلا واحدة منهن تلبس ثوباً ملوناً . . وكان يرتفع من بينهن صوت واحد وسط الضحكات . .

كن عائدات من النهر ، وقد مالت الجرار المليئة على رؤوسهن فى اتساق واحد إلا جرة واحدة كانت أكثرهن ميلا . .

وكانت صاحبتها أطول الفتيات قامة ، وأثبتهن خطوة ، وكانت وحدها تلبس ثوباً ملوناً ضيقاً من على خصرها ، وتضع فوق رأسها طرحة سوداء شفافة ، تظهر من تحتها حمرة فاقعة لمنديل الرأس الذى يلقى على جبهتها العريضة الناصعة كرات صغيرة زاهية من القماش . .

وهمس بى غلام :

ـ أهيه وصيفة أهيه . . ياترى حاتفتكرك ؟

واقترب سرب الفتيات . . كن يتكلمن مع بعضهن وقد هدأت ضحكاتهن والرؤوس متجهة إلى أعلى ، ونظراتهن تتجول فى الطريق .. إلا واحدة كانت عيناها الواسعتان تلقيان نظرات بعيدة إلى الامام . .

وسمعت « وصيفة » تقول لفتاة مرتفعة الصوت :

ـ اختشى يا بت خضرة بقى أحسن احنا دخلنا البلد .. بقينا فى وسط البلد !

وتقدم السرب .. ولاحت لى « وصيفة » بيضاء شاهقة بضة أكثر مما تحتمل أرض قريتى ذات البيوت الوطيئة الداكنة . .

كانت ناصعة النحر ، ممتلئة ، راسخة البدن ، ذات نهدين متماسكين . . وكانت يدها التى تسند بها جرتها تتكشف قليلا عن ساعد رقراق به أساور من زجاج أزرق خاطف البريق !

وكانت تتقدم الفتيات وحدها . .

وحدها دائمـــاً . . .

وكانت وحدها تلبس « الشبشب » يقرع كعبها فى دقات متتابعة منتظمة . . ووجهها رائق أبيض كاللبن الحليب ، وعلى احمرار خديها شحوب فاتن . .

وكان شعرها الأسود الكثيف المسترسل على كتفيها من تحت المنديل الأحمر .. وكان فمها الواسع الغليظ الشفتين ، وأنفها الصغير المكور ، وذقنها العريضة المرتفعة فى كبرياء . . وكان صدرها المفعم البارز . . كان كل هذا . . ونحرها المتألق . . يجعل لها بين الفتيات سحراً خاصاً . .

وأصبحت « وصيفة » قريبة منا ، وانقطع حديث الفتيات . .

وناديتها وهى تمر أمامنا :

« وصيفة » !

ولم تنظر إلينا ، وذهل الصبيان من حولى وسمعتهم يهمسون أن أحداً فى القرية لم يعملها من قبل . .

فمن يحدث « وصيفة » فى الطريق لا يسلم أبداً !

وهمس غلام وهو يشير إلى خفية أن « وصيفة » ستدور الآن لتصب الماء على رأسى من جرتها كما صنعت مع آخرين . .

وتقدمت أنا إليها وأبديت لها عجبى لأنها كبرت إلى هذا الحد ، وأحنت « وصيفة » عينيها قليلا لترانى فقد كنت أقصر منها بشكل واضح.. وارتفعت نظراتى إلى ذراعها العارى وهبطت على كل جسدها الملىء البض .. وسألتنى « خضرة » زاعقة :

ـ الله . . . أنت جيت ؟ ازى مصر ؟ . . . حمد لله عالسلامة . . يابختكم ياللى بتروحوا مصر ! !

وابتسمت « وصيفة » ، وابطأت فى مشيتها قليلا وقالت مبتسمة :

ـ الله ! يا حلاوه ! ! هوانت ؟ . . ازيك ؟ . . والله زمان !

وضحك وجهها كله والتمعت عيناها ببريق جميل ، وأشاعت المفاجأة السارة فى حاجبيها وكتفيها حركات من المدينة ، ولاح فى خديها غمازتان تعطيان لبسمتها عذوبة حبيبة .

وتابعت سيرها وهى تقول :

ـ جبت لنا معاك حاجه حلوه من مصر ؟

ولم أجب فلم أكن قد فكرت فى هذا أبداً . .

* * *

ولم يكد يمضى أول أسبوع من أجازة الصيف حتى عرفت أشياء كثيرة عن « وصيفة » .

عرفت أن « علوانى » وهو فتى عربى ولد فى القرية ، رآها يوماً تسير وحدها بجرتها إلى الجسر ، بينما كان هو يجلس فى حقل البطيخ الذى يحرسه ، والمساء ينشر أول ظلاله على الدور والحقول والماء . وإذ مرت « وصيفة » أمام حقل البطيخ الذى يحرسه ، صفق وهو يصيح طرباً :

ـ أهلا وسهلا . . اتفضل يا جدع !

ولكنها اندفعت فى طريقها دون أن تلتفت إلى ترحيب « علوانى » بوجودها وحيدة فى فضاء الحقول .

وشجعت وحدتها علوانى فتقدم منها وهو يحمل بطيخة كبيرة قائلا :

ـ أنا عبد الأسياد ولو قطعوا مراسيلى . . أنا عبد الأسياد . . خدى البطيخة دى . . دا النبى قبل الهدية . . خدى البطيخة الحلوة دى طرى بها على قلبك فى الحر ده .

وفاجأته « وصيفة » بقولها :

ـ جاك وجع قلبك يا عرباوى يا صايع .

وأطلق « علوانى » ضحكة متكسرة قصيرة وحك قفاه :

ـ يه . . ؟ مقبول منك . . حلوه قوى المهارشة دى . . حاكم ضرب الحبيب زى أكل الزبيب .

وسد عليها الطريق ومد إليها يديه بالبطيخة ، فدفعته بيد وأسندت جرتها بيد صارخة :

ـ إنت فاكر نفسك إيه يا واد يا عرباوى انت يا واد ؟ . دا انت حتة خدام بتحرس بطيخ شيخ البلد ! سارق لى واحدة منه يا خطاف ؟ ياما جاب الغراب لامه !

وضحك « علوانى » وتكسرت ضحكاته وطالت . . واستمر يقول :

ـ كلامك حلو . . خدى البطيخة خدى . . والنبى تاخديها يا شيخة .

فصاحت وصيفة وهى تبتعد عن يده الممتدة :

ـ جاتك البله فى خطافينك . . كن إيدك دى بأقول لك . . إبعد إيدك دى عنى . . وللا يعنى علشان ما بتخوف العيال الهبل اللى زيك . . أنا لا أسعرك

لا انت ولا حتى شيخ البلد بتاعك . . أمال ياخى لو كنت تحتكم على قيراطين أرض !

على أن « علوانى » لم يتركها تذهب فقد ظلت يده ممدودة بالبطيخة وهو يقول :

ـ كله مقبول منك بس اقبلى الهدية . . دى العبارة بسيطة برضه وأنا شيخ عرب يا وصيفة . . . خدى يا بت !

فانفجرت « وصيفة » .

ـ إخرس قطع لسانك . . بته تبتك إنت واللى جابوك ! دا انت مررت عيشى يا واد يا عرباوى . . بت ؟ قال بت قال ! ! ؟ . . دانا ستك وتاج راسك ، وست أسيادك كمان ! هو انت يا واد يا خطاف فاهم إنى أنا مش عارفة شغلك وملاعيبك . . دا انت حرمتنى أنزل البحر . . قال إيه ألاقيك طالع على جميزة عبد الهادى زى عفريت القياله وعمال تبص علينا من بعيد واحنا بنستحمه . . والنبى والنبى دا لو أبو ياعرف وللا عبد الهادى وللا محمد افندى ، وللا أيها واحد من اللى رايحين جايين يقولوا عليه ، لكانوا قطعوا رقبتك .

ـ كلامك حلو . . والنبى كلامك حلو . . طيب وأيمان النبى انتى عمرك ما اتكلمت مع حد فى الملك كله قد ما اتكلمت معايا دلوقت ! قولى كمان قولى . . قولى أيها حاجة .

ثم مد يده بالبطيخة حتى لامست يده صدرها وهو يكمل :

ـ طيب ياستى .. ولا تزعلى .. خدى البطيخة دى حق عرب ونصطلح بق ..

وهنا وضعت وصيفة جرتها على الأرض بسرعة وقالت له بحنق :

ـ طب هات !

وأمسكت البطيخة فقذفتها بكل قوتها فى وجه « علوانى » .

وتركته يترنح ، واندفعت إلى النهر . . إلى المكان الذى تملأ منه القرية الماء ، ويستحم فيه النساء غير بعيد من جميزة « عبد الهادى » ، ووراء دغل من البوص المرتفع يحجب النهر عن الجسر .

وقد شاعت القصة .. ومنذ شاعت لم يجرؤ واحد من فتيان القرية على أن يتعرض لوصيفة . . « فعلوانى » رجل تهواه غير واحدة من نساء القرية ، ويهابه بعض الرجال ، فهو كأبيه الذى نزح إلى القرية ، شجاع يتقن ضرب النار ، خفيف اليد فى لعب العصا ، وقد ورث عن أبيه مهنته : فهو أحياناً يرعى أغنام الملاك الكبار

فى القرى المجاورة ، وأحياناً يحرس حدائق البرتقال أو حقول البطيخ هنا أو هناك .

وكان يملك بندقية قديمة يسميها « المقروطة » ورثها عن أبيه الذى أقبل إلى القرية ذات شتاء ..

ورث علوانى عن أبيه البندقية ، وورث معها شجاعة القلب والجرأة .. ولاشىء بعد !

وعلى أية حال فقد كان رجال الليل الأغراب وصعاليك القرية يحسبون له ألف حساب .

وقد أصبحت قصة « وصيفة » و « علوانى » على كل لسان حتى غدا فتيان القرية وأطفالها عند ما يتندرون يقولون : « دى يعنى ولا بطيخة علوانى » !

حمتها قصة البطيخة من معاكسة الفتيان الآخرين .

وانصرف عن وصيفة كل الذين فكروا فى خطبتها منذ أعلن أبوها أنه لن يزوجها من أهل البلد .

أما « عبد الهادى » فلم ييأس أبداً . . . وقال للشيخ يوسف بقال القرية :

ـ أبوها لاراضى يدينى حل ولا عقد . . كل ما اجى أقول له إدينى عقاد نافع يقول لى تتعدل ! يعنى هو رايح يجوزها لابن السلطان ؟ ! بكره آخدها من جوز أختها .

وقال له « الشيخ يوسف » وهو يسلم عليه ليدخل باب الجامع قبل صلاة العشاء ذات ليلة :

ـ والله ما له حق أبداً محمد أبو سويلم فى العايل دى .. هو انت تتلوع كده .. دا الناس كلها تتمنى تناسبك يا عبد الهادى .. إدا لولا إن بنتى مخبيه وما يلزمهاش إلا واحد افندى كنت أجهزها لك وأجيبها لحد الدار .

وانصرف « عبد الهادى » شاكراً للشيخ يوسف عواطفه .. ومضى إلى داره يفكر فى أنه سيأخذ « وصيفة » من زوج أختها .. وزوج أختها صديق قديم : عاشا معا طفولة واحدة ، وقرآ معاً فى كتاب « الشيخ الشناوى » وفى المدرسة الأولية بالقرية المجاورة ، وذهبا معا لزيارة أخت « وصيفة » أيام الخطبة . واتفقا معا شبابا جميلا ملآه بالمواويل .. وعنى « عبد الهادى » فى أول أيام زواج صديقه

باستحضار حجاب من أحد العارفين المقيمين فى قرية مجاورة ليعصمه الحجاب من السحر الذى ينفثه الحساد فى مخادع الأزواج الجدد !.

وحل الحجاب عقدة الزوج الجديد بالفعل ، وسافر بزوجته سعيداً إلى البندر ولم ينس صديقه « عبد الهادى » فكان يرسل إليه أحدث ماتصدره المدينة من كتب المواويل ، وأرسل إليه نسخة كاملة من ألف ليلة ، وسيف بن ذى يزن

وكانت « وصيفة » تعرف هذا كله وتعرف أن « عبد الهادى » هو وحده الذى يستطيع أن يصلح بين أختها وزوج أختها كلما زار عاصمة الإقليم ووجد فى البيت مشاجرة .

وكانت « وصيفة » تنظر إلى « عبد الهادى » فى حيرة ، وتعرف أنه يخطبها ، وتفكر أحيانا فى أنها يجب أن تتزوج رجلا يلبس الطربوش كما تزوجت أختها ، ومع ذلك فقد كان يسرها أن ترى « عبد الهادى » يجلس مع الرجال وهى تغنى فى أى فرح تقيمه القرية ..

وما زالت « وصيفة » كما كانت وهى طفلة : تحب الغناء والرقص ، وتمسك العصا ، وتضع على وجهها طرحة سوداء ، وتدخل فى حلقات الرجال الذين يصفقون « كف العرب » فترقص محتشمة وهى تغنى فى نغم سريع :

« وفرش منديله . . . »

فيردد الرجال :

« عالرملة »

وتعود تغنى :

« والحلوه تيجى له »

فيردد الرجال :

« عالرملة »

فتستمر مغنية :

جدع ياللى ورا الحيط
انت حللى وللا ضيف
أنا ضيف ومعايا سيف
أقطع روس الظالمين
الظالمين الظالمين

ما زالت « وصيفة » ترقص وتغنى وتفتن الجميع ، ويخشاها الجميع ..

وكنت أنا مولعا بغناء الفتيات فى قريتى .. وكان « عبد الهادى » يعرف هذا .

وذات يوم جاء « عبد الهادى » إلى دارنا قبل العصر ، وطلب منى أن أذهب معه إلى فرح كبير .. وكان يلبس جلباباً فضفاضا من الكشمير الكحلى ، ويمسك بيده الشمروخ الطويل ذى الشهرة الواسعة بين هواة لعب العصا فى قريتنا والقرى المجاورة .

وبعد العصر تقدم الطبل البلدى زفة الفرح ، وسرت مع عبد الهادى ، مزهوا به ومن ورائنا زغاريد النساء ، وغناء مختلط ، ووقف الطبل فجأة فى فضاء واسع ، واتخذ الناس شكل حلقة وبدأ « عبد الهادى » يلعب العصا مع رجل مشهور ماهر من قرية مجاورة . . وضرب « عبد الهادى » الأرض بعصاه ووثب .. وفعل الرجل الذى كان يقف بعيداً نفس الشىء ، وأخذ « عبد الهادى » يدور حول نفسه ويقرع عصا زميله ثم يرقد ويقوم ويقف ويتلوى وزميله يصنع نفس الأشياء ، وأخيرا انقض « عبد الهادى » فى ضربة مفاجئة على عصا زميله اللاعب الماهر . . وضج الناس فرحين :

- يدوم الحماس يا عبد الهادى .. براوه يا جدع .. تسلم إيدك ! .

ولم يضرب « عبدالهادى » زميله .. إنما عانقه فى سماحة .

وكان الرجل الآخر قد ارتبك . ولكنه لم يملك إلا عناق « عبد الهادى » .. ومشى الطبل بالناس مرة أخرى ثم توقف للعب العصا .

وظل « عبدالهادى » يلعب العصا و يقفز ، وينام ، ويقوم ، ويدور .. وفى كل مرة كانت الزغاريد تتصاعد والفتيان يصيحون فى حماس وتعصب لعبد الهادى .

وفى آخر موكب الرجال ، كان الصبيان يلعبون العصا بأعواد رفيعة من التوت ويقلدون حركات « عبد الهادى » . .

وانتهت الزفة فعدت إلى بيتى .

وعندما أقبل الليل جاء « عبدالهادى » وأخذنى لأسمع غناء « وصيفة » .. وأمسك عصاه الطويلة بيد ، وأمسكنى بالأخرى ، وانطلقنا إلى درب طويل فى القرية . وأمام إحدى دوره ، كانت الدكك الخشبية قد صفت وجلس عليها بعض الرجال .. بينما جلس على الأرض عدد كبير من النساء والفتيات .. وجلسنا فى آخر دكة بجوار

الفتيات .. ورأينا « وصيفة » فى الصدر .

وقال لى « عبد الهادى » إن العريس هو ابن خالها الذى كان يعمل بالقاهرة .

وكانت الطبلة الصغيرة أمام « وصيفة »، وقد وقفت « خضرة » ترقص وبعض الفتيات ينظرن إلى حركاتها فى خجل ، وانطلق صوت « وصيفة » بالغناء ، ورأسها مائلة ، وحاجباها يرتفعان قليلا ووجهها مشرق مبتسم حالم ، ونظراته الغائمة الفاترة تتجه إلى المجهول .

كانت تربط عنقها بمنديل ، وصوتها الدافىء يفيض أحياناً فى بحة تمنحه جمالا خارقا ، وما برحت ترفع يدها عن الطبلة وتحرك ساعدها المشمر البض فتحدث الأساور الزجاجية رنيناً يملأ الأسماع براحة حزينة .

ولم تتوقف « وصيفة » عن الغناء أبداً ؛ حتى عندما كانوا يأخذون منها الطبلة ليشدوا جلدها على النار . .

وبدأت تغنى :

« أنا كل ما أطلب وصالك بدك تمضيعنى »

« علشان ما انت الحليوة والجميـــل يعنى »

كان النغم أنينا هادئاً يتساقط من بحة صوتها فى جلال عميق ، كمأساة . . ودارت رأسى وأنا أحاول بنظراتى المقتحمة ، أن أواجه عينيها الغائمتين فى رأسها المـائل بانشوة النغم .. وسمعت « عبد الهـادى » يوشوش :

ـ « بدى أضيعك ليه ياوصيفة ؟ دانت تضيعى بلد .. طب قولى لأبوكى .. »

وأخيراً سكتت « وصيفة » عن الغناء . فقامت تهز كيانها الطويل ، وترتب شعرها بيدها ، وتمسح وجهها بكفها . . وجلست مكانها « خضرة » تلقى أغنية خليعة بصوت متحشرج :

« على السرير ودلعنى ليـه ليـه يا مناه »

« على السرير الجـوانى ليـه ليـه يا مناه »

وترددت الفتيات فى الرد عليها ، بينما مشت « وصيفة » حتى أصبحت قريبة منى ، وأشرت إليها برأسى ضاحكا فرحاً ووجهى يتضرم وداست فى طريقها على بعض الفتيات وتلقت الاحتجاجات عليها بابتسامة . . وعندما بلغتنى ضربتنى على صدرى بيدها ضاحكة ، وسحبت نفسا قوياً من أنفها وزفرت قائلة وهى ما تزال تضحك :

— عجبك الغنا ؟ . . والنبي ماتضحك علينا أصل احنا فلاحين .. مانعرفش غنا مصر !

ومسحت أنفها بيدها ، ثم أخفت بها فمها الضاحك . .

ولم أجبها ، وشعرت بسعادة قوية تغمرني ويدها الطرية تربت صدري وقلت لها فجأة في شبه همس :

— انتي مش سألتيني جبت إيه من مصر ؟ أنا جبت لك حاجة حلوه . . قرازة ريحه ! !

كنت أهمس في حذر ، وعبد الهادي إلى جواري يتحدث إلى رجل وقف وراء الدكة الخشبية .

وسألتني « وصيفة » في همس لاهث فرح :

— صحيح ؟ ! والنبي . . قزازة عتر . . هيه فين ؟

— تعالى خديها مني دلوقت عند ساقية عبد الهادي .

فقالت بنفس الهمس :

— طيب .. دلوقت اشحت جلابية سوده واطلع لك على طول !

ثم أكملت « وصيفة » :

— بس نرجع دغرى علشان نسمع المواويل . فيه اتنين مغناوية . . واحد يقول والثاني يغطي .

وسكتت قليلا ثم قالت وهي تغمز بعينيها :

— قابلني في المصلية الوقت . .

وضحكت وترجرج وجهها بغمزات البشر ، وتألق كله . . ثم انصرفت وشعرت بقلبي يخفق وأنا أحاول أن انتزع نفسي من مكاني .. وأنسحب بعد قليل دون أن أقول كلمة لعبد الهادي . . وكان هو مايزال يتحدث إلى الرجل الواقف من خلفه في موضوع لم أتبينه .

وعندما خرجت من الدرب الضيق الذي كنت فيه ؛ شعرت بالدنيا تنفسح أمامي . . . وبكل رحابة السكون تفيض على نفسي بالسكينة . . ومضيت في الطريق إلى الجسر . . إلى الجميزة . . ومصلى الذكريات !

— ٢ —

ظللت أمشى على الطريق المترب إلى الجسر .

كان الطريق خاليا : أنا وحـدى .. والليل . !

وكان الجوحارا فى تلك الليلة من الصيف ، وبدا الطريق أمامى موحشا طويلا لانهاية له .

لم يكن فى السماء قمر ، والحقول لاترسل النسمات . وكانت النجوم فوق رأسى تلمع كعيون عفاريت فى ظلمات من فوقها ظلمات !

وانتهى الطريق المترب وصعدت إلى الجسر ، بجوار النهر ، الذى يحجبه غاب البوص فى أكثر من مكان .

وملأتنى صوررهيبة من الجنية ، التى تطلع كل ليلة على الجسرفى شكل امرأة فلاحة بيضاء طويلة الشعر إلى جوار بلاص ملىء بالمـاء ، وتنادى من يمر على الجسر ليساعدها على رفع البلاص . . فاذا ذهب إليها إنسان جذبته من فورها إلى الموج الساكن المظلم إلى حيث لايسمع عنه أحد بعد شيئا !

طالما سمعت عن هذه الجنية فى قريتى ، وإن كنت لا أعرف أحدا على الاطلاق مضى اليها .

وتذكرت أسماء الذين قتلوا على الجسر قبل أن أولد ، وفى طفولتى الأولى . . متى ياترى تخرج عفاريتهم إن لم تخرج فى هذه اللحظات السوداء من الليل ؟

وثقلت على دوامة من الأشباح والمسوخ التى سمعت عنها من أهل قريتى ، مختلطة بصور المومياء وفرانكشتين التى رأيتها فى دور السينما بالقاهرة .

وكدت أصرخ من الرعب والوحدة ، ولـكنى خفت من صوتى . . وحاولت أن أرجع إلى « عبد الهادى » أو إلى بيتى ، غير أنى كنت قطعت معظم الطريق إلى جميزة « عبد الهادى »

ولاحت لى الجميزة من بعيد كشبح هائل له ألف ذراع يقف شامخا فى الليل المظلم .

وأخيرا رأيت وجه « وصيفة » تحت الجميزه تجلس فى ثوب أسود كقطعة من السواد تائهة وسط الظلال .. ولكن وجهها كان يضىء وتبدو ملامحه الوسيمة واضحة فى الظلام ..

وعجبت لأنها لاتخاف ، وخجلت فى نفسى بعض الشىء .. ولم أكد أقترب منها حتى توالت دقات قلبى ، وشعرت فى الأعماق من صدرى بمثل قرع الطبول .

فقد اكتشفت فجأة وأنا أتقدم لأقف إلى جوار «وصيفة» ، أننا لم نوجد وحدنا من قبل أبدا وحتى عندما كنا صغارا !! فقد تعودنا أن نلعب مع صغار آخرين ، وكان الكبار يثورون ويقولون أشياء رهيبة إذا عثروا بطفل وطفلة يلعبان منفردين ، فقد علمهم سيدنا « الشيخ الشناوى » أن الشيطان يكون بين كل أنثى تخلو إلى ذكر .. حتى الأطفال !

وهكذا تعودنا نحن الصغار أن نلعب فى جماعات ، وحين لعبت مع « وصيفة » لعبة العريس والعروسة ، لم نكن وحدنا ، فقد كانت معنا الداية الصغيرة وجمع كبير من صبيان وبنات .

على أن الأمر لم يكن لعباً هذه المرة .

وأنا لم أعد بعد صغيراً لأجهل أسرار اللقاء بين فتى وفتاة ، ومع ذلك فما كنت أدرك على التحقيق كل أسرار هذا اللقاء !

كنت فى الثانية عشرة ، وقد سعيت بأعوامى القليلة الغضة لأكون وحدى مع فتاة تضطرم فى أعماقها أنوثة ألف امرأة ، ومن حولنا الليل الساخن العريض !

ورثيت لنفسى ، فقد كنت قبل هذا اللقاء بخمسة أعوام ، أثب فى الترعة مع « وصيفة » وأجذبها بيسر من أى مكان فى جسدها ، وأتحسس — فى دهشة واستطلاع — قوامها العارى الطفل الذى ينضج يوماً بعد يوم ... وكانت هى تصنع نفس الأشياء !

كنت أعرف كل جزء فى بدنها ، وكانت هى الأخرى تعرف كل شىء منى ، ولم يكن أحدنا يرتجف من الآخر .

أما فى هذا اللقاء تحت جميزة عبد الهادى ، فقد أخذت أنظر برهبة إلى صدرها

الملىء وبدنها المفعم البديع ، نفس البدن الذى عرفته وتحسست كل جزء فيه ، عند ما كنا أطفالا .

ظللت أنظر إلى هذا البدن نفسه ، وأنا أعانى مع هذا كله دوى النبضات فى قلبى ، وأشعر بخفايا عديدة كالأسرار الهائلة تستلقى فى جسدها الرائع .

ومدت « وصيفة » يدها إلى وقالت فى ثبات وبساطة :

ـ واقف تبص لى ليه ؟ . . . إنت خايف ؟ . تعالى اقعد ريحى !

كان الليل يلقى كل ظلاله الداكنة الزرقة على المصلى والجميزة والساقية والنهر والحقول ، ويسكب على كل الأشياء لوناً واحداً لا يتغير .

ولم يكن للنهر صوت ، ولا للحقول .

لا شىء غير سمكات تتواثب من حين إلى حين وتلطم وجه الماء بذيولها الرفيعة ، ونقنقة رتيبة تتصاعد من الحقول ، والفضاء بعد هذا راكد مثقل بالحرارة ، وبأصداء خافتة لكلاب تنبح فى القرية من بعيد .. ثم دقات قلبى وصوت أنفاسى ، وهمس الراحة توسوس به حنجرة « وصيفة » ، فى رسوخ !

ورفعت طرف جلبابى الأبيض من الخلف لأجلس على جذع الجميزة إلى جوار « وصيفة » ، ويدى على صدرى أحاول أن أخفى بها دوى النبضات .

واقتربت « وصيفة » بوجهها من وجهى ، وشعرت بأنفاسها تتراسل هادئة .. وسألتنى فى همس مبحوح : إن كنت أتذكر آخر لقاء كان بيننا .. هنا فى هذه المصلى ! !

وباغتنى الخجل ، ولكنى ضحكت ، وضحكت هى ، وأخذت تسترجع حالة « الشيخ الشناوى » حين دخل المصلى علينا فى لحظة الزفاف بالتحديد !

لم يكن فى صوتها اضطراب . . فقد كانت تضحك بيسر ، وتريد أن تتحدث بلا انقطاع .. ولاحظت فى كلماتها خليطاً من لهجة قريتى ولهجة عاصمة الاقليم .

ولم أقل لها شيئاً .

ومدت « وصيفة » يدها فوضعتها على ذراعى ، ونهضت طالبة منى أن أمضى معها إلى المصلى بعيداً عن طريق الجسر .

ووقفت منتشياً ، واستدرت إلى النهر المثقل بالليل ، ورأينا من بعيد شعاعاً أصفر يخفق على صفحة المياه السوداء .

وحمل إلى المنظر صوراً من قصص غرام نشرتها المجلات التى كان اخوتى الكبار فى القاهرة يغالون فى إبعادها عنى ، وقرأتها أنا خفية .. وظلت صور من خارج القرية تلح على ، وازدحم رأسى بالأفلام الغرامية التى كنت أشاهدها فى دور السينما بالقاهرة ، وتذكرت كلمات قرأتها فى الترجمة العربية لفيلم أمريكى غرامى رأيته فى سينما أجنبية .. خلسة من وراء إخوتى .. فقد كانوا — ككل الطلاب الكبار فى ذاك الوقت — يتشددون فى مقاطعة السينما الأجنبية ، والبضائع الأجنبية ، وكل ما هو أجنبى .

واقترب منا الشعاع الخافت ، فألحت على صور مما قرأته أو رأيته فى السينما واستجمعت شجاعتى وحاولت أن أمسك « وصيفة » من كتفيها لأقول لها كلاماً ملتهباً ثم أغيب معها فى عناق حار حتى الصباح .. تماماً كما رأيت فى الأفلام وقرأت فى القصص التى كانت تنشر فى مجلة الفكاهة والجامعة والصباح وروايات مسامرات شهر زاد !

ولكن يدى أحاطت بجزء من خصر « وصيفة » ، ولم تبلغ كتفيها .. فقلت لنفسى : « حسناً .. » يجب على « وصيفة » الآن أن تنثنى إلى الوراء وتتنهد وتقول : « يا دنياى ! » ، تماما كما كانت تقول القصص الشائعة التى قرأتها فى القاهرة ..

إنها — كما قرأت تماماً — فتاة طويلة مليئة ، فى جمالها كبرياء كأميرة هندية .. ولكننى لسوء الحظ لم أكن بعد قد أصبحت كفارس من فرسان العصور الوسطى .. كما كانت تقول القصص التى قرأتها !

ومع ذلك فقد بادرت فأمسكت « وصيفة » من خصرها بعنف ، وشددت حولها ذراعى ، وفى صوت هامس — حاولت أن أجعله حنوناً — وقفت أقول :

— ياغرامى .. أحبك ...

ووقفت « وصيفة » وأمسكت ذراعى بيدها — وكانت يدها خشنة فى الحقيقة — وقالت :

— إه !.. زعق شويه .. على حسك حبه !

وأعدت عليها ما قلته بصوت نصف هامس هذه المرة ..

وانتظرت منها أن تغلق عينيها فى ذهول ، أو تنظر إلى المجهول بعين نصف مغلقة على الأقل .. وانتظرت من شفتيها الدسمتين أن تختلجا وأن تنفضا الدفء ، وانتظرت منها أن تزفر أو تشهق ، وانتظرت من صدرها أن يعلو أو يهبط وتسألنى : (أصحيح ... ياحبيبى !) .

وانتظرت منها بعد هـــذا كله أن تستلقى برأسها على كتفى ، وينسدل شعرها الأسود الكثيف كالأجمة المعطرة على وجهها ، فأرفع رأسها بين راحتى ، وأنظر فى عينيها بهيام شديد ، ثم ينقض كل واحد منا على الآخر فى قبلة . . وأحدثها عن جمالها ؛ وتحدثنى عن جواها .. ولا نفترق إلا مع الفجر !

انتظرت أن يحدث هذا كله كما قرأت فى القصص المصرية ورأيت فى الأفلام الأمريكية ... ولكن « وصيفة » لم تصنع شيئا على الاطلاق من كل هـذا ، بل سحبت نفسا سريعا من أنفها ، ودعكت وجهها بيديها ، وفتحت عينيها الواسعتين مكحولتين قائلة :

ـ يا اختى بلا وكسة !! انت بتتكلم كده ليه يا اخويا ..؟ والنبى ما انا فاهمه منك حاجتن تخلق ! أصل أنا ما اعرفش الكلام الانجليزى اللى انت بتقوله ده .. ماتقول يا اخويا كده بالمفتشر .. عايز إيه .. عايز إيه ياضناى !

ولم أقل شيئا .. فمشت « وصيفة » بعيدا عنى لتبصق فى ماء النهر وهى تقول :

ـ تعالى هنا نقعد على حرف البحر .

ولم تنتظرنى . فجلست هى على الساقية ، وأعطتنى ظهرها ، ونظرت بوجهها إلى النهر الصغير ، وأخذت تتمتم بأغنية سمعت منها :

قدام بيت اللى باحبه
بحره وضلله ومغنى وهوا
إن كنت خايف من أبويه
دانا ابوى يحبك زى انا
وان كنت خايف من عمى
دا انا عمى يحب الصهينا
وان كنت ما حاتعومنى
لاقلع خنقاتى واعوم انا

وقبل أن أفرغ من نشوتى بصوتها ، قطعت غناءها لتسألنى :

ـ أمال فين اللى قلت عليه . . فين قزازة العتر يا أخويه ؟!

ولم أعرف كيف أقول . . وأخذت أنظر إلى الضوء الشاحب الذى يتقدم من بعيد على صفحة المياه السوداء ومن حوله همهمة رائعة . .

وتعثر صوتى فى حلقى ، وأنا أحاول أن أقول أى كلام ، وباغتتنى سخونة حلمية بالوخزات حتى الأذنين .

وابتلعت ريقى ، وأخذت أتنحنح وأنا أحاول أن أطرد الكلمات الغائصة فى حلقى .

واستطعت آخر الأمر أن أعترف « لوصيفة » أنى لم أحمل إليها زجاجة عطر ، ولكنى حملت لها عشرة قروش ثمن زجاجة ، تستطيع أن تشتريها بنفسها عند ما تذهب إلى أختها فى عاصمة الإقليم .

وتناولت «وصيفة» قطعة النقود من يدى بسرعة كأنها تخطفها ، ووثبت فجأة ، وقد تهلل وجهها وأشرق ، ورقصت فيه الغمازات . وأوشكت أن تتعثر بحافة بئر الساقية ، فوثبت إليها أسندها ، وقلبى يثب معى فى إشفاق كبير ، ووقعنا على الأرض معاً إلى جوار البئر ، فقبلتنى من رأسى ضاحكة . ثم وقفنا ، وهى تنفض لى جلبابى .

وجرت بعيداً عن ظلال جـــدار الساقية ، إلى الفضاء على حافة النهر ؛ تتأمل القطعة ، وتقلبها فى يدها فى حرص وفرح ، قائلة :

ـ حلاوة يا أمه ! بريزه ؟ ! بريزه بحالها !

وعادت بسرعة فوقفت عند سور المصلى ، وارتكنت عليه وهى تطلق ضحكات متكسرة سعيدة .

وفى بطء واعتزاز وحذر ، فتحت الجلباب من على صدرها ، ثم وضعت قطعة النقود تحت نهدها المفعم .

وارتمت نظراتى على صدرها الوضىء الساطع ومنبت نهديها ، واختلجت أنا وشعرت بلذة غريبة تدب فى كل بدنى .

وشدتنى « وصيفة » بيديها فى قوة ، وهى ترتكن إلى سور المصلى ، وقالت :

ـ فاكر لما لعبنا فى المصلية آخر مرة ! ؟ آخر مرة لعبنا فيها واحنا صغيرين كانت فى المصلية ! وأول مرة حانلعب فيها وإحنا كبار حاتكون برضه فى المصلية ! وأخذت « وصيفة » تضحك وتهز نفسها ، فقلت لها إن سور المصلى قد ارتفع اليوم ! . فقالت لى ، والغمازات على خديها ، وعيناها تتألقان ، إننا نحن أيضاً قد كبرنا !

وسكتت قليلا قبل أن تقول لى إن سيدنا « الشيخ الشناوى » لا يستطيع الليلة أن يفسد علينا اللعب .

كانت تتراقص وهى تتكلم ، وقد سرت فرحة جديدة فى كل عروقها ، والتمعت منها العينان بنور غريب أخاذ .

وامتلأت احساساً بأنى رجل ، رغم سنواتى الاثنتا عشرة . .

ولكن (وصيفة) ظلت وهى تتراقص تحـدثنى ، بسخرية عن (الشيخ الشناوى) . . وتتقصع وتبرز نهديها المترعين .

وملأنى هذا كله بالرعب . .

وخيل إلى أن لديها فى بدنها الفائر - الذى يرعشنى - أشياء كثيرة تستطيع أن تتحدى بها (الشيخ الشناوى) ، وكل شيوخ الأرض ، أما أنا فلم أكن قد أصبحت بعد مالكا لشىء أتحدى به !

وذكر (الشيخ الشناوى) ما زال يحمل إلى صور النار والفاحشة وخراب البيوت ، ويحمل إلى بصفة خاصة غضبة أبى ، ويثير - فى نفس الوقت - ألواناً من الرعب تزلزلنى حتى النخاع .

وخيل إلى أن أبى ربما أرسل إلى من يبحث عنى فى الفرح . . فماذا لو لم يجدنى ؟

وتهيأ لى أنى ربما رأيته أمامى فجأة ، يقف بينى وبين (وصيفة) ، وغضبته تحمل إلى شيئاً قاسياً رهيباً .. كاللعنة .

وقلت (لوصيفة) وصوتى يرتعش :

- اسمعى (ياوصيفة) . أنا لازم أروح دلوقت .

فقالت باستخفاف :

- خايف من ايه ؟ دا أنا اللى حتى أخاف أكتر منك ! أهو انت برضه اسمك راجل ! والراجل ما ينفضحشى ! لكن هو فيه حد من البلد يقدر يطلع البحر دلوقت ؟ السواقى بطالة والدنيا كحل . ماتخافشى ياعينى .. دا حتى الواد علوانى اللى دايماً مغروس على الجسر يحرس البطيخ طول الليل ، أهه راخر متلقح فى الفرح ! ما تخافش أبداً ! . .

وسيطر على جسدى ، طغيان رغبة جارفة فى أن أحتضن (وصيفة) . وأن أقبلها فى صدرها الملىء ، ونحرها الساطع ، وذقنها وشفتيـها المليئتين ، وخدها المكور ذى الغمازات .

ومددت يدى اليها فأمسكت بى ، ولفت ذراعيها حولى ، وشعرت بدفء بدنها ينفذ من جلبابى . .

وسألتنى عن فتيات مصر وما يصنعن وما أصنع بهن !

ولم أقل لها شيئاً .. فلم أكن أعرف ماذا تعنى « وصيفة » !

فمضت تلاحقنى بالأسئلة عن نساء المدينة : كيف يلبسن ؟ كيف يأكلن ؟ كيف يصنعن مع الرجال ؟ هل تستحم الواحدة منهن بزجاجة عطر كاملة ؟ هل تملك كل واحدة منهن نقوداً ؟ وأين تضع نقودها ؟ هل تنفق « بريزة » فى كل يوم .. ففى القرية لايكاد شيخ البلد نفسه يملك « بريزة ! »

ورفعت ذراعيها عنى ، وانتظرت منى جواباً عن هذا كله . .

ولم أجب .. فما كنت أعرف شيئاً عن كل هذا ؟ وأنا أعلم من اخوتى الكبار أن الدنيا كلها أزمة ، وأنهم فى أمريكا يرمون الذرة والبن فى البحر ، وفى الهند والصين . . يموتون من الجوع !

وكنت أسمع من أبى أن الأزمة هزمت الناس : فالقطن يباع بالتراب ! والفلاحون يسقطون فى أيدى المرابين ، والذين يملكون أرضاً تحجـز عليها من أجل ضريبة اسمها المال : والذين يبيعون القمح فى الأجران المحجوز عليها يسجنون ، على الرغم من أنهم باعوا القمح الذى يملكونه !

وكنت أعرف من المدرسة أن كثيراً من التلاميذ يقبلون بأحذية ممزقة . . وكنت أرى زملائى فى المدرسة « المحمدية » يدارون جواربهم المثقوبة فى أحذيتهم المرقعة ، وبعضهم يمشى بحذر ويجرى بحذر حين يلعب ، حتى لاتبدو آثار الثقوب والنحول فى البنطلونات .

وكان أبى فى أول كل عام يصلح لى بدلة أحد اخوتى الكبار .

ولم يعد أحد من التلاميذ يعرف البدل الجديدة فى أوائل الدراسة أو فى الأعياد . . إلا القليل .

وحدثت (وصيفة) عن بعض هذا ، وقلت لها ان الناس فى شوارع مصر يسيرون : رؤوسهم منحنية ، وعلى الوجوه وجوم ، حتى لقد حسبتهم لا يضحكون ولا يعرفون الضحك ، أما النساء فى القاهرة فلا يكاد أحدى يرى وجوههن من تحت الحجاب ، ولكن النحور عاريه والفساتين تكشف منبت النهد ، وترتفع

إلى ما فوق الركبة ، فيرى الرجال فى الطريق سيقان النساء !

وتنهدت (وصيفة) قليلا ، ثم دست يدها فى صدرها ، وتحسست القطعة الفضية وعادت عيناى تستلقيان على نهديها الراسخين !

وسكتنا .

وشردت أنا بفكرى فى الطريقة التى أحصل بها على نقود من أهلى : اننى أظل أصرخ ساعات كاملة وأملأ الدنيـــا بالضجيج ، وأمى تناقشنى فيما أصنع بالنقود مادمت آكل وأشرب فى البيت . وعجبت لنفسى لأننى - بعد المجهود الشاق الذى بذلته لأحصل على هذه القروش العشرة لتكفينى طول الصيف - تنازلت عنها بيسر واعطيتها (لوصيفة) ! غير أنى على الرغم من كل شىء شعرت براحة عذبة ، لأنى استطعت أن أصنع مسرات صغيرة ، لصديقة قديمة ما زلت أستمتع بذكرى حلوة من شعاع هادىء برىء التمع فى عينيها ذات مرة ونحن أطفال ، فملأ قلوبنا الجديدة إذا ذاك ببهجة حب عجيب !

ولبثت أنظر فى الفضاء من حولى وأنا سعيد .

وابتعدت عن (وصيفة) واتجهت إلى الماء . . واقترب منا النور الذى كان يسرى على صفحة النهر . . ووضحت لنا أصوات رجال ونساء يتحدثون فى سفينة كبيرة بشراع .

وأقبلت (وصيفة) ووقفت بجوارى ونظرت إلى النهر قليلا . ثم قالت :

- المركب دى رايحه مصر ؟

وقلت لها أنى أتمنى أن يحملنى زورق إلى مكان بعيـــد فى هذا الليل . - فلم تقل شيئاً .

ومرت لحظة صمت .

ورأيت (وصيفة) ترفع يدها ، وتلف جسدى بذراعها فى قوة ، وتحتضنى وتلصق خدها برأسى قائلة :

- مش بنات مصر بيعملوا كده ؟

ولم أجب .

وأمام المفاجأة . أخذت أفكر فيما صنعت قروشى (بوصيفة) .

وبدأ الندم يزحف إلى قلبى لأنى أعطيت « وصيفة » نقوداً . وتهيأ لى أننى أشتريت منها اللحظات السعيدة . . وكأنما أنا واحد من الذين يخدعون الفتيات الفقيرات بالمال ! واحد من الذين تتحدث عنهم القصص التى قرأتها . .

وغاظنى هذا التصور ، فنحيت « وصيفة » بعيداً ، وأوشكت أن أصرخ فى وجهها بما فى نفسى :

فلو أننى لم أعدها بزجاجة عطر ، لما أقبلت إلى الجميزة فى هذه الساعة من الليل ، ولو لم أعطها القروش العشرة لانصرفت منذ حين !

غير أن « وصيفة » لم تكن تشعر بأنى اشتريت منها شيئاً ، أو حاولت شراء شىء . . فعند ما دفعتها ، ضحكت ، وقالت :

ـ ماتخافش !

وعادت تعانقنى .

ثم جذبتنى من يدى إلى داخل المصلى ، فوقعنا معاً على الأرض ، وهى تحتضننى بقوة ، وتلهث بصوت واضح . . بينما كانت صور النار والفاحشة وشراء فتاة فقيرة تملأ منى القلب بالندم وترهق إحساسى بالعار .

. . وأخيراً وقفت « وصيفة » فى ضيق ، ودفعت يدها فى صدرى بقوة وهى تقول فى ألم ويأس وندم :

ـ دا انت باين عليك لسه صغير قوى ! أمال مطلعنى البحر ليه ؟ ! ياخويا بلا نيله ! .

وانسحبت أنا بلا كلمة ، إلى خارج المصلى ، وأنا أعانى وخزاً شديداً فى كل جسدى .

وشرحت لها ما كنت أعانى ، وحدثتها عن العار الذى يرهق إحساسى لأنى أشترى منها لحظات جميلة فهزت رأسها قائلة باستخفاف :

ـ والنبى ما أنا فاهمة حاجة من الكلام اللى بتقوله ! وحا كم أنا ما اعرفشى كلام المدارس والأفنديات .

وتحركت بعيداً عن المصلى لأصعد إلى الجسر ، فاستوقفتنى لتقول فى ضراعة :

ـ إسمع ! ! وحياة أبوك وحياة ربنا وحياة النبى وحياة ترب الميتين بتوعك

إوعى تقول لحد على اللى حصل ده ! إوعى وحياة أبوك وامك واخواتك ! ! إوعى تقول لأبيها واحد ! هه ! خللى عشقنا كده فى السر . دا أنا عمرى ما عملتها . وبعدين أولاد الحرام يطمعوا فيه ! . آه يا نايبتى ! إوعى يا ضناى ! . حاكم بلدنا دى بلد خباصة !

ثم قبلتنى فى رأسى ، وهزت كتفى فى حنو وتأثر وهى تزال تقول :

- إوعى والنبى وحياة غلاوتى عندك .

وشعرت أنا بأننى أريد أن أبكى إشفاقاً على (وصيفة) ، وتمنيت لو أجد نفسى فى تلك اللحظة رجلا قوياً يستطيع أن يحميها ! . .

وأكدت لها أننى لن أقول لأحد ، وتابعت سيرى وهى ورائى .

وغادرنا الساقية والجميزة ، وبدأت خطانا تنغرس فى تراب الجسر أمام حقل (عبد الهادى) .

ولكننا توقفنا معا واستدرنا إلى الوراء دفعة واحدة . . وكانت ترتجف !

كان أرغول من ورائنا قد أطلق نغماته فجأة .

وبعد قليل رأينا الضوء الشاحب على النهر يحاذينا والسفينة تمضى ، محملة بالتبن .

وزفرت (وصيفة) كأنها تخرج من ذعر مميت :

- يوه ! قطيعة منيعة ! . دا أنا افتكرته عبد الهادى . .

وهزتنى كلماتها ورجفتها .

ولكن أنغام الأرغول فى الليل الصامت امتلكتنا تماما .

وجرت (وصيفة) عائدة إلى الساقية وهى تقول :

- تعاله . . تعال نقعد على حرف البحر .. تعال نشد عليهم المسخرة .

وجريت وراءها وجلسنا معا بجوار المصلى ، عند منحدر إلى النهر يتوضأ منه المصلون .

وحاولت (وصيفة) أن ترفع صوتها لتنادى (ياريس البحر) ؛ فنهرتها ولكزتها بقوة .

كنت أعرف نوع الكلمات التى يتبادلها الملاحون مع الجالسين على البر باسم (شد المسخرة) .

كانوا يسخرون بكل شيء : بالآباء والأمهات وكل العلاقات ويقولون ألفاظاً مكشوفة ، لا نستطيع نحن الصغار أن نقولها إلا من وراء الكبار !

وخجلت (وصيفة) فلم تحاول أن (تشد المسخرة) بعد ، وأنصتت إلى الأرغول فى صمت وانطلق من على السفينة صوت جاف مرتفع يغنى :

غليون واسق جمـــالات عالمينا الشرقية
أيا عاشق البنات البيض تقتل ولا ليك دية
أيا عاشق البنات السمر .. خضر بلا مية

وملأتنى النشوة .. وأحسست بطاقات هائلة ، وبالقدرة على أن أصنع كل شيء .

وملت على (وصيفة) وقبلتها فى خدها ، وأنا سعيد !

فضحكت وهزت نفسها دون أن تلتفت إلى .. وظلت نظراتها متجهة - فى حلم - إلى المركب المحملة بالتبن ، والغناء .

وابتعد الصوت قليلا قليلا .. حتى ذاب فى صمت الليل .

ووجمت (وصيفة) وزحفت على نفسها المرارة والأحلام ، فقالت بصوت يشبه البكاء :

- لو كانت الواحدة تلاقى الأكل والشرب قدامها ، وتقعد طول عمرها كده تغنى وترقص ولا تحملشى هم حاجة فى الدنيا ! !

وسكتت قليلا ثم خلعت الشبشب من قدمها ، وغيرت من جلستها ، ومدت قدمها إلى الماء وتركت قدمها تعبث فى الماء .. وسرت فى الماء مرمرة جميلة تحت قدمها واستمرت تقول :

- لو كنت أصبح ألاقى فى دارنا زلعة مليانة براز !

ثم التفتت إلى .. ومالت بخدها نحو فمى وقبلتها مرة أخرى ، فضحكت ، ورفعت قدمها من الماء وجففتها بطرف ثيابها ، ونهضت قائلة إن أباها يروى الشراقى فى حوض الترعة الكبيرة ويجب أن تذهب إليه الآن بالعشاء .

وأبديت لها مخاوفى من أن تذهب وحدها فالطريق بين القرية وحوض الترعة طويل مخيف .

غير أنها قالت باستخفاف واعتزاز :

ـ هوه حد فى البلد يقدر يهوب ناحيتى ؟ . دانا بنت وراجل كمان يا جدع ؟ هوه يعنى علشان محمد ابوسويلم ما اترفد من مشيخة الغفر تقوم الطير تاكل لحمه ؟! يا اخى لا ! !

وتحركت « وصيفة » فى طريق العودة ، وطلبت منى أن أسبقها وأبتعد عنها حتى لا يرانا أحد معا .

وسألتها وأنا أمضى إن كانت تخاف من « علوانى » الذى يجلس الآن فى حقله بلا ريب .

فقالت غاضبة إنها لا تخاف أحداً فى القرية كلها ، ولا يهمها أحد .. فقد عاشت فى البندر خمسة أعوام مع أختها فعرفت هناك أشياء كثيرة ، فعلوانى » وشيخ البلد الذى يعمل عنده ، والعمدة نفسه .. كلهم لا يساوون فى البندر شيئاً . وقد حدثها زوج أختها أنه رأى المأمور الذى يهز الدنيا . . رآه يرتجف أمام الحكمدار ، ورأى الحكمدار يرتجف أمام المدير ، ورأى المدير يكاد يقبل يد وزير كان فى زيارة مدرسة الزراعة بعاصمة الإقليم .

إنها لا تخاف من « علوانى » ، ولا من سيده شيخ البلد ، ولا من (المأمور) وقد رأت بنفسها طلبة مدرسة الزراعة يخرجون فى مظاهرات إلى الشارع ويضربون المأمور الذى يحمل الرعشة إلى قلب أكبر رجل فى المركز ! .

وسكتت لحظة .

ثم قالت إنها ضربت (علوانى) فى الصباح بطشت الغسيل ، عندما دخل دارها ووقف صامتا ينظر إليها وينقرها بعينه ، وهى تغسل ملابس أبيها . . فمشى بلا كلمة !

وقلت لها إن علوانى يريدها زوجة .

وهنا ضحكت (وصيفة) وقالت لى إن (علوانى) يصلح أجيراً عند أبيها ، يرعى له الغنم إن اشترى غنما ، أو يحرس له بطيخا ! وإذا كان علوانى يريد أن يتزوج فعليه أن يتزوج إحدى الفتيات اللواتى يشتغلن فى الحقول بالأجرة لأنهن لا يملكن حقلا يشتغلن فيه !

ثم تحسست صدرها ورأسها المعصوب واستمرت تقول إن الذى لا يملك فى القرية أرضا لا يملك فيها شيئا على الإطلاق حتى الشرف !

« وقف صامتا ينظر إليها ... »

وهذا النوع من الفتيات هو الذى ينفع علوانى ويشجعه على مغازلة الأخريات !

وسكتت قليلا ثم عادت تقول — وقد تغيرت نبرة صوتها — إن هؤلاء الفتيات مسكينات يعشن على اللقمة ، وهن يذهبن فى التراحيل إلى البرارى .. وهناك يعشن يوما بيوم ، ولا يبلغ ثمن الواحدة منهن عند رجال مثل (علوانى) أكثر من كوز ذرة أخضر يسرقه الرجل من حقل يحرسه !

ولم أفهم جيداً كل ما قالته لى (وصيفة) ولكنى أدركت أنها حزينة متأثرة !

ومشيت أنا وسمعتها تمصمص شفتيها وهى تقول :

ـ عينى عليكى يا خضره ! ! آهو انتى ما تسويش فى أى مولد أكثر من كف حلاوة سمسمية . ويمكن كف حلاوة معفنة كمان .

ومضيت فى طريقى أمام (وصيفة) .

وسمعت رنة شبشبها من بعيد ، وهى ورائى يشق الظلمات بدنها الفارع .. مهيبا كأنه يتحدى قوى الخفاء !

— ٣ —

لم أستطع أن أنام فى تلك الليلة فقد سهرت فى فراشى أفكر فى « وصيفة » وتمنيت لو أنى أستطيع أن أجعلها واسعة الغنى .

لو كنت كبيراً بعض الشيء . . لتزوجتها !

أتزوجها ؟ ! . .

ان فكرة كهذه تقلب على الدنيا : فأبى وأمى وأهلى كلهم لا يمكن أن يوافقوا !

ومع ذلك فأنا لا أستطيع بعد ان أكون زوجاً ! فلا أزواج فى الثانية عشر !

وعند ما أصبحت ، أحسست بشوق جارف إلى رؤية « وصيفة » وتمنيت لو أنى لقيتها كل ليلة تحت الجميزة !

وأخذت أستعيد الكلمات التى قلتها لها ، والكلمات التى قالتها لى . وشرعت أدير فى رأسى كلمات كثيرة كان يجب أن أقولها ، وصممت على أن ألقاها وأقول لها هذه الكلمات .

ولكنى لم ألقها .

وعندما كنت أفكر فى أن أذهب إلى دارها -قبل الضحى - نادانى أبى وطلب منى ان ألبس حذائى ، فأنا ذاهب معه إلى عاصمة الاقليم . لأمس عينى عند طبيب العيون . .

كنت أعرف جيداً هذا العذاب الذى ألقاه فى كل صيف عند طبيب العيون . ولكنى لم أستطع أن أرفضه .

وكان طبيب العيون رجلا يلبس المنظار الأسود ولا يبتسم .

وكان صارماً حاد الصوت ، يتحدث إلى أبى كلما ذهبنا إليه عن الدستور والانتخابات والأزمة وما يصنع الانجليز .

وكان واضحاً لى أن أبى يعجب بأحاديثه ويوافق على كثير جداً من آرائه .

وذهبت فى ذلك الصباح إلى الدكتور مع أبى فى العربة الحنطور وبعد أن فرغت من دكتور العيون طلبت من أبى نظارة سوداء فاشتراها لى ، وتركنى على مقهى يملكه رجل أرمنى ، وأخذت آكل قطع البقلاوة وحدى - على حساب أبى ! - وأقلب الصحف ، حتى عاد .

وجلست إلى جواره فى العربة وأنا صامت .

وخشيت وأنا جالس إلى جوار أبى ان أفكر فى « وصيفة) !

وظللت لحظة مضطرب التفكير ، ثم شرد فكرى فى المدرسة الثانوية ، وفى أحلامى بالبدلة المفتوحة ذات البنطلون الطويل .

وطلبت من أبى البدلة الجديدة .

واهتز أبى قليلا .. فقد كانت البدلة الجديدة تكلف أكثر مما يطيق كثير من الآباء فى تلك الأيام .. وكان الرجل منهم يدارى عن أولاده انهياره المالى ، ويحاول جاهداً أن ينقذ مظهره أمام الناس ، وهو لا يملك نقوداً يضعها فى جيبه لأيام طوال !

وبعد قليل ابتسم أبى ، وطلب منى ان أنتظر ، فما زلنا فى أوائل الاجازة ، وربما تسهل قبل دخول المدارس !

وكانت العربة قد قطعت الطريق من عاصمة الاقليم على جسر النهر إلى قريتنا ولم يعد غير الطريق الضيق الذى يصل بين الجسر والقريه .

ودخلت العربة فى هذا الطريق ، فلمحت من بعيـــد ثوباً ملوناً مع ثلاثة جلاليب سود .

أنها هى .. « وصيفة » .

كان أثر المس ما يزال فى عينى ، ورفعت منظارى الأسود الذى اشتراه لى أبى فطلب منى أبى أن ألبسه ولا أخلعه الا فى الليل .

وخجلت ، واضطربت،وخشيت أن يكون أبى قد لاحظ أنى حاولت اختلاس النظر إلى « وصيفة » ..

وسارت بنا العربه الحنطور ، وتنحت الفتيات عن الطريق ، وأدرن رؤوسهن المحملة بالجرار المليئة .

ولكن (وصيفة) لم تدر رأسها تماماً فقـــد كانت ترشق نظراتها إلى داخل العربة .. إلى أنا ..

وكانت تبتسم !

فقفز قلبي بين ضلوعي .. وكدت أنا أقفز من العربة .

وعندما وقفت العربة أمام بيتنا التفت إلى وراء ، فوجدت (وصيفة) تقبل مع زميلاتها .

وصعد أبي إلى البيت وأبطأت أنا قليلا فقال لي :

ـ بتتلكع كده ليه ؟ . اطلع ريح عينيك من الشمس .

وطلعت أريح عيني من الشمس .

ومن شباك الطابق الثاني وجدت (وصيفة) أمام البيت تمشي في الطريق ، وهي تدير وجهها قليلا إلى الباب .

وتأكدت أنها تبحث عني ، وتمنيت لو أقفز إليها وأقع أمامها تماما وأطلب منها موعداً آخر عند الجميزة .

ولكنها مرت إلى دارها ، ولم أفارق الشباك منتظرا أن تعود (وصيفة) ، فتخرج إلى الجسر لتملأ مرة أخرى .. ولكنها لم تخرج ولم تمر أمامي من الطريق .

وبعد العصر استطعت أن أتسلل ، وأقف أمام باب البيت في انتظار قدومها .

ولم تكد تقبل حتى ناديتها أمام الفتيات .

وضحكت ، وابتسمت الفتيات .

وقلت لها هامسا :

ـ قابليني زي امبارح ... بعد صلاة العشا .

* * *

وخرجت بعد صلاة العشاء مباشرة أبحث عنها عند الجميزة .

لم أشعر بالخوف من الطريق هذه المرة ، ولم أشعر بالوحشة من حولي في الفضاء الساكن !

كنت أفكر في (وصيفة) ، وفي أشياء لم أقلها ولم أصنعها .. أشياء ويجب أن أقولها وأصنعها .

ومررت بحقل البطيخ الذي يحرسه (علواني) ، فلم أجد أثرا له .

وانتهيت إلى الجميزة ولكني لم أجد أحدا .

وأخذت أبحث على الساقية وداخل المصلى ، ولكن بلا جدوى ..

وعدت محنقا وأنا أتلفت ورائى فى كل خطوة أبحث عن (وصيفة) .

وقطعت الجسر كله ، وبدأت أنحدر فى الطريق الضيق إلى القرية ومازلت أتلفت ورائى . . فربما رأيت (وصيفة) .

ولمحت خيال امرأة تلبس السواد . .

أخيرا فهذه هى (وصيفة) بلا كلام !

ورجعت مسرعا إلى الجسر . . ولكننى وجدت الخيال يدخل حقلا . . ثم يختفى فى الظلام .

كان هو حقل البطيخ الذى يحرسه (علوانى !)

وهزنى غيظ مخيف : إن (وصيفة) تسخر بى لأنى مازلت طفلا !

وسيطرت على فكرة أن (وصيفة) لم تكن مخلصة أبدا حين حدثتنى عن (علوانى .)

ربما كانت تلقاه خفية ، وترجوه هو الآخر ألا يروى لأحد قصة اللقاء ، تماما كما صنعت معى منذ ليلة واحدة !

ربما كان لها مع (علوانى) عشق آخر ، فى السر ، (وفى المصلى) بالذات !

واضطربت بالحنق ، ولم أدر كيف أصنع .

ولكننى مضيت فى الطريق حتى وصلت باب دارى .

وأمام باب البيت وجدت (عبد الهادى) . . وتلقانى فرحا كأنه كان يبحث عنى وقال لى أن أبى قلب البلد بالسؤال على .

وخفت .

ولكن (عبد الهادى) همس فى أذنى أن أدخل ، وسيتطوع هو بالقول لأبى أننى كنت فى داره ألعب ، ويضمننى ألا أخرج مرة أخرى فى الليل . .

وألح على (عبد الهادى) أن أدخل إلى البيت مسرعا لأنه يريد أن يروح إلى الجسر .

كنت أعرف أنه يصعد إلى الجسر عند ما تدور ساقيته ، ليسهر عندها طول الليل يقطع الوقت بغناء المواويل الطويلة التى تروى قصصاً بأسرها عن أبطال الحياة والحب ، بينما الماء يجرى فى قناة صغيرة تمر من تحت الجسر إلى حقله ، ثم تطوف بالحقل كله .

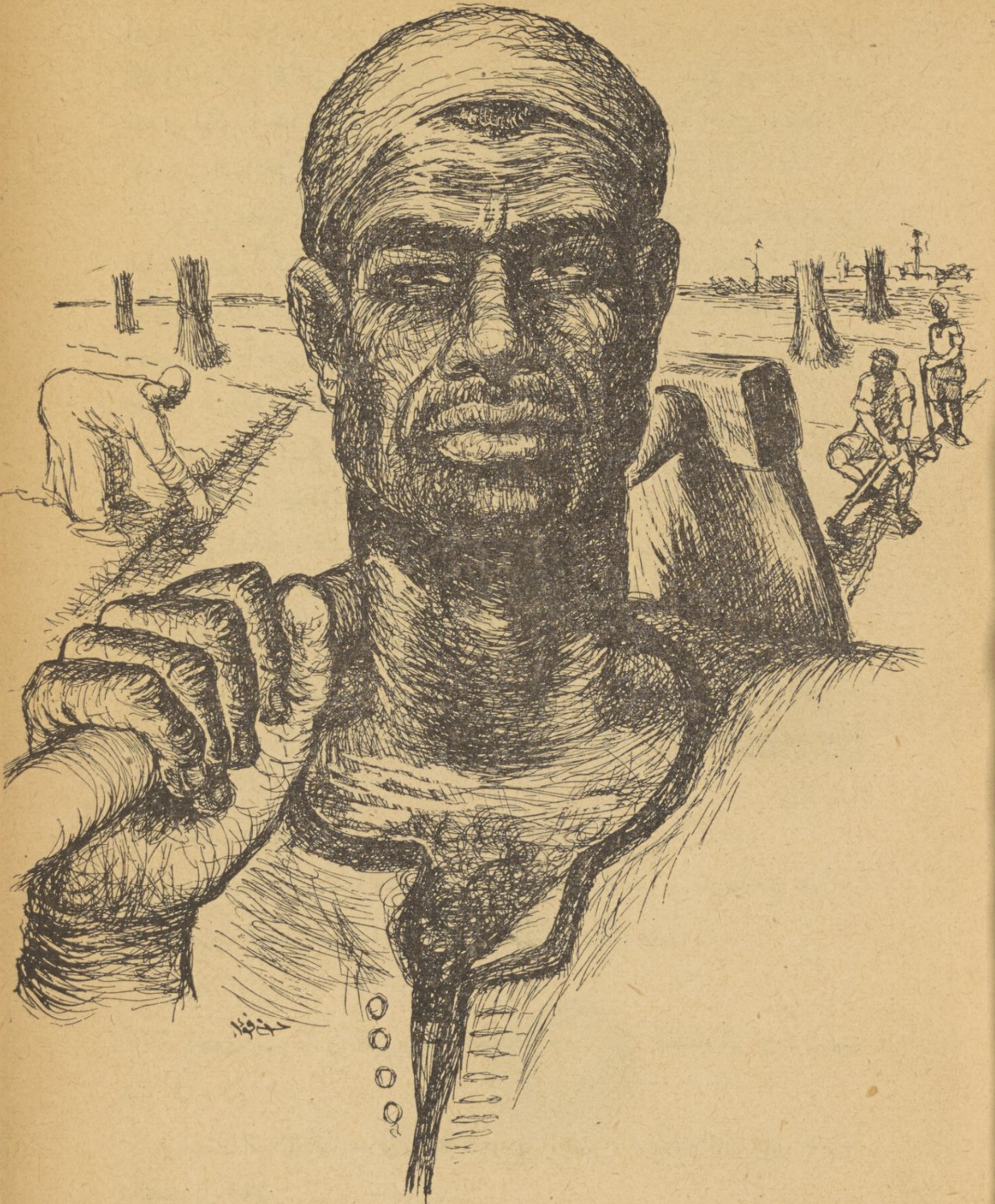

« عبد الهادى »

وكنت أجلس مع «عبد الهادى» على الساقية أحيانا فى النهار، أسمع المواويل والحكايات، ثم يصحبنى إلى بيتى فى مهبط الليل. ويعود هو لينفق الليل كله وحيدا مع الفأس والماء والزرع وأبطال المواويل.. لكم تمنيت أن أسهر معه! ولكن أحداً من أهلى لم يسمح لى بهذا أبدا، حتى «عبد الهادى» نفسه.. كان يرى السهر على الساقية لا يليق بى. أنا الذى أتعلم فى مصر!!

على أن ساقية «عبد الهادى» لم تكن تدور فى تلك الليلة المظلمة الحارة من الصيف، ولم أكن خالى البال لأسأل عبد الهادى إلى أين يمضى: فاختفاء «وصيفة» أمام الحقل الذى يحرسه «علوانى» كان داهية كبيرة أطبقت على... وهذه داهية أخرى تطبق، داهية أسخم من الأولى: فقد اكتشف أبى أننى خرجت من البيت دون إذن منه بعد صلاة العشاء!

وبينما كنت أفكر فى طريقة أتسلل بها إلى البيت لأضع بدلتى وكل ما لدى من ملابس تحت جلبابى قبل أن ألتى أبى، لأخفف عن جسمى وقع عصاه الرفيعة إن لم تفلح شفاعة «عبد الهادى» فى تخليصى من الضرب هذه المرة.. وبينما صورة العصا تختلط أمامى بشبح «وصيفة»، إذ بعبد الهادى يسألنى:

- إنت كنت عالبحر بتعمل إيه لدلوقت؟

لم يكن «عبد الهادى» عندما قابلنى يحمل على وجهه أى تعبير.. غير انه عندما سألنى، شاعت الابتسامة الماكرة فى قسماته، كأنما هو يعرف جيداً مع من كنت!..

واحتدم فى نفسى الحنق وقلت له وأنا أكاد أبكى:

- انت مش عاوز تقرا فاتحة وصيفة؟! طب اطلع البحر بق شوفها مع مين؟.

واهتزت العصا الطويلة فى يد «عبد الهادى» وقال مبهوتا:

- إيه...

ثم انفلت مسرعاً فى الطريق إلى الجسر، وقد نسى شفاعته التى وعدنى بها عند أبى...

وهبطت السلالم أمام منزلى، لأعود معه إلى الجسر، ولكنه كان يمضى مسرعاً والتفت إلى قائلا:

- ارجع..

ورجعت أنا مثقل القلب .

وتسللت إلى حيث وضعت كل ما لدى من ملابس فوق جسدى تحت الجلباب وقابلت أبى كأننى كرة . .

فابتسم أول الأمر ، ولكنه أخفى ابتسامته ، وقام إلى عصاه . .

وأنذرنى ألا أخرج من البيت مرة أخرى بعد صلاة العشاء ، وأمرنى أن ألزم البيت طول أجازة الصيف .

وبت ليلتى وأمامى وجه أبى فى غضبه الذى يخالجه الابتسام ، وفكرى هناك على الجسر ... حيث اختفى شبح « وصيفة » .

أكانت هى « وصيفة » بالتأكيد ؟ ! .

ربما لم تكن هى !

لا بد أنها كانت هى !

ولكن من يدرى ؟ . .

إن « عنوانى » وحده يعرف ... وسيعرف « عبد الهادى » كل شىء ، واعرف أنا فى الصباح عندما أقابل « عبد الهادى » .

وزحفت إلى رأسى من جديد أحلام المدرسة الثانوية التى سأذهب إليها بعد شهور ، والبنطلون الطويل الذى سألبسه لأول مرة وأعود إلى القرية به ، وبصوت غليظ فأبهر « وصيفة » وأحميها !

— ٤ —

أما «عبدالهادى» فقد ظل يندفع فى الطريق إلى الجسر حتى غاب فى الليل تماما ، وعصاه تقرع الأرض بعنف فتثير الدوى فى الصمت الحالك ، وغباراً كحبات الظلام .

وبلغ « عبد الهادى » حقل البطيخ الذى يحرسه « علوانى » فوقف لحظة على رأس الحقل ، وفتح عينيه ثم زر جفنيه ، وحاول أن يخترق بنظراته الحادة الغاضبة ظلمات الليل التى كانت تمتزج بسواد الأرض .

ولم يستطع «عبد الهادى» أن يرى شيئاً .. ولم يستطع حتى أن يسمع صوتاً أبعد من صوت أنفاسه التى ترددت فى أنفه بقوة .

وأمسك بعصاه ، وهزها فى الفضاء .

ثم أمسك عصاه بذقنه وشمر ساعديه ووضع العصا على كتفه ، وأسند اليها مؤخرة رأسه ، وأرخى عليها يديه ، ودخل حقل البطيخ .

ومشى «عبد الهادى» قليلا فى تحفز .

ثم توقف عند مكان من الحقل تعود أن يجلس فيه « علوانى » وينام .

ولم يجد «عبد الهادى» غير بقايا بطيخة مفتوحة على الأرض ، فركلها بقدمه .. ثم وجد قلة بها ماء بارد ، فشرب ، بصوت مرتفع ، ومصمص بلسانه وشفته ، وأطلق نفساً ثقيلا ، ثم وضعها إلى جوار كوب غليظ للشاى ، وبراد أسود .

ولمح « علوانى » الحرام الصوف الذى يتغطى به « علوانى » من ندى الفجر . كان متكوماً . . فتتابعت أنفاس « عبدالهادى » ، وأضطرم ، وانقض على الحرام بيد ، ويده الأخرى تحكم مسك العصا .

ورفع الحرام المتكوم بسرعة وتوثب . .

ولم يجد تحته شيئاً غير الأرض السوداء . . فرماه بغيظ يغشاه الارتياح !

وعاد يضع عصاه على كتفه وراء قفاه ، ويرخى على العصا ساعديه ، وأخذ يذرع حقل البطيخ من أوله إلى آخره وينظر فى الأرض ويركل بقدمه الكتل السوداء ، ولكنه كان دائماً يركل البطيخ ! . .

لم يستطع أبداً أن يسمع شيئاً غير أنفاسه الثائرة .

وصعد إلى الجسر وأخـــذ ينظر فى الفضاء من حوله ، وهو ينادى فى تحرش وتحد :

- ياعلوانى . . ياواد ياعرباوى

ولكنه لم يظفر بجواب .

وتذكر « عبد الهادى » فجأة أنه ترك « علوانى » عند « الشيخ يوسف » بقال القرية .

و « علوانى » العربى الذى يعيش فى القرية بلا أعمام ، ولا أخوال ، ولا أرض ، ولا شىء على الاطلاق غير البندقية ، والمهارة فى التحطيب ، والأجرة التى يأخذها على الحراسة .. « علوانى » هذا ، لا يجد شيئاً يملأ وحدته إلا مجلس « الشيخ يوسف » فهو يهبط إلى القرية بعد كل مغرب ليشترى الشاى والسكر والدخان ويسمر قليلا مع بعض فتيان القرية أمام دكان البقال ثم يعود إلى الحقل بعد أن تنام القرية .

وتذكر « عبد الهادى » أنه رأى « علوانى » بعد المغرب يضحك مع «خضرة» وهى تفتح يديها وراء ثور تنتظر ما يسقط منه ، لتضعه فوق رأسها مع ما جمعته من روث البهائم . . . انه يذكر الكلام الخـــارج الذى قالته « خضرة » عن الثور . . .

« وخضرة » فتاة ترقص فى كل فرح ، وتتكلم عن العلاقات الجنسية بلا تحرج ، وتبيع نفسها فى الموالد والأفراح والأعيـــاد ومواسم الذرة والقصب والقطن بعلبة من الملبن أو بكف من الحلاوة السمسمية أو ربما بكيزان خضراء من الذرة وأعواد من القصب !

وارتاح «عبد الهادى» قليلا . . .

وهمهم لنفسه أن « علوانى » يشبه « خضره » تماماً ، وأن ماجمع بينهما وفق حقا : فهى أيضاً تعيش فى القرية بلا أرض ولا أهل . . وأقاربها قد تنازلوا عنها

منذ تركوها « للبيه » الأعزب تخدم فى عزبته الصغيرة ذات الثلاثين فداناً ، وطردها « محمود بيه » بعد أن خدمته سنتين .

كانت إذ ذاك نضرة راسخة النهدين .

وعادت إلى القرية لتعيش على عملها فى الحقول ، أو لتغسل القمح فى البيوت الثلاث التى يختبىء نساؤها .

ومضى « عبد الهادى » يهمهم بأغنية حزينة ، واتجه إلى ساقيته ماراً بالمكان الذى تملأ منه النساء ، ويرتفع منه صوت « خضرة » فى النهار بالكلمات الخارجة ، وحركات الذراع المخجلة كلما رأت « محمد أفندى » يمر بمنشته الخوص ، وجلبابه المخطط الافرنجى ، وشبشبه الفاقع ، وطاقيته الطويلة البيضاء .

وظل « عبد الهادى » يمشى على الجسر .

ومر بساقيته وعاد فى الاتجاه الآخر . .

وفجأة قطع الأغنية عند ما وجد نفسه أمام مكان مهجور كان ماكينة طحين يملكها « محمود بك » ، ثم احترقت وتعطلت ، ولم تعد تصلح لشىء إلا لمقابلات « خضرة » من من يدفع لها .

ودق قلبه بعنف . .

أتكون « وصيفة » هنا مع أحد ؟

مع (محمد أفندى) ! ! ؟

أتكون « خضرة » قد جلبت « وصيفة » إلى هنا ؟ !

وحميت رأسه ، وأخذ يفتش كل ركن فى المكان ، حتى الجحور التى تسكنها الثعابين . .

ولم يعثر بشىء ، ولم يسمع نفسا . . .

وعاد يمشى على الجسر ، ويتابع الهمهمة بغنائه الحزين حتى اقترب من ساقيته وقد انتهت الأغنية الحزينة .

وهاجت نفسه فى الصمت والظلام والفضاء . .

وشعر بالحاجة إلى أن يحدث أحداً . .

إن هذه الأرض الواسعة التى تمتـــد إلى جواره تملؤه إحساسا بالثبات ، والرسوخ والشرف !

لم يكن يرى منها شيئا فى الليل ، ومع ذلك فقد كان يعرفها . . يعرفها جيداً : يعرف وجهها ، وقنواتها ، وكل شىء فيها . . ويعرف كل شكل أعواد الذرة الغضة التى بدأت تنبثق من الأرض على مهل .

أنه الآن ليقف إلى جوار الأرض التى يملكها هو ، والتى ورثها عن أبيه ، وحمل الفأس الصغيرة عليها وهو طفل .

إنها نفس « المنقرة » التى حملها أبوه عند ما كان طفلا ، حتى إذا كبر عبدالهادى ومات أبوه ، كبرت الفأس معه !

إنه ليعرف قصة هذه الأرض كلها منذ كان يدق الوتد للجاموسة - وهو فى الثامنة من عمره - لترعى البرسيم بحساب . .

إنه مازال يذكر قصة هذه الأرض ، ولن ينساها أبداً ، وسيحفظها عنه ولده من بعده .

وقد أدرك أنها تنبت الذرة والبرسيم والقطن مع أول الأشياء التى أدركها فى الحياة . . وزرعها أبوه حديقة ، ثم قلعها بعد سنوات . .

وزرع فيها هو القلقاس فرمت له الكثير ، وزرع فيها القصب فرمت له الكثير ، وزرع فيها الحلبة والفول فلم تخيبه أبداً . ورفعت رأسه على الدوام .

اشترى لها أجــود أنواع السماد ، وظل يبرها ويرعاها ويعزها ، ولم يفرط فيها يوماً واحداً ولم تفرط هى فيه .

فدان ! ؟

فدان قطعة واحدة !

إن هذا الفدان ليجعل له مكاناً خاصا فى القرية ، ويسمح له إذا ذهب إلى عاصمة الاقليم أن يجلس على مقهى الخواجة الأرمنى الذى يجلس عليه عمه ، وعمدة البلدة والكبار هناك فى المركز .

فدان ؟ . .

كم من الناس فى القرية يملك فدانا مثله ؟

إن العمدة نفسه لا يملك أكثر منه ، وقد أكملت له عائلته زمام العمودية بعقود صورية .

إنه واحد من عشر رجال فى القرية يملكون هذا القدر أو أكثر منه . .

ومع ذلك فلو أن أخاه الكبير الموظف فى (مصر) ترك له الفدان الآخر ! !

ولكن لا يهم . . فليسعد أخوه وزوجة أخيه وأولاد أخيه بايجار الفدان . .

« فعبد الهادى » هنا فى القرية : وأقدامه مغروسة فى أرضه ، يشعر بقوة لا يعرفها أخوه الموظف فى (مصر) مدينة الحكومة !

وجلس عبد الهادى قليلا على أرض الجسر أمام الجميزة ، ولف سيجارة . .

وألح عليه الشعور بالحاجة إلى أن يحدث أحداً . .

وتمنى لو أن معه « وصيفة » - زوجة له - تجلس إلى الساقية أمام ثور كبير يدور بالساقية ، وهو يروى أرضه من بعيـــد : هى تغنى على الساقية ، وهو يغنى هناك وسط الماء المنسكب . . .

وهز « عبد الهادى » رأسه بجوى ، وتنهد ، ورمى سيجارته .

وبدأ يهمهم :

ياولدى ياولدى ياسيدى . . . آه

وشعر بحب مباغت لكل شىء : « لوصيفة » ولعلوانى ، وخضرة ، ولكل مافى القرية . . .

ثم انطلق صوته حزينا هادئا :

حط الحمام يوم على أرض الحبيب ولا طار

مسكين محتار مقصوص الجناح ولا طار

وارتفع صوته قليلا ، وتردد فى الفضاء الواسع الحالك واستمر يغنى .

* * *

كان الليل الهادىء يحمل رنين صوته الجاف الحزين ، مختلطا برجع ساقيه تدور على الشاطىء الآخر . .

وسمع من بعيد صوتا يقول فى طرب :

- آه ياحلاوتك ياعبد الهادى ! أى والنبى قول موال أخضر قول . . ياحبيبى يابو قلب أخضر !

وتوقف « عبد الهادى » وصاح . .

- سلامات يا شيخ العرب ! .

ومضى من فوره على الجسر حتى بلغ حقل البطيخ الذى يحرسه « علوانى » ، ورأى ناراً صغيرة تتوقد ، وسمع كركرة الشاى فوق النار .

وقف « علوانى » ومشى إلى « عبد الهادى » يستقبله ، وهو يصطنع اللهجة البدوية :

ـ يامراحب يازين الفتيان ! مراحب بالجدعان . اتفضل الشاى .

وأمسك بيده .

وسار « عبد الهادى » مع « علوانى » وجلسا قرب النار .

وشد « علوانى » الحرام الذى يتغطى به من ندى الفجر ، وفرشه « لعبدالهادى » قائلا بنفس لهجة البدو :

ـ استرح هنا يا زين العرب ، والله شرفتنا !

فنحى « عبد الهادى » الحرام بقدمه ، ولكز « علوانى » بشدة وقال مبتسما :

ـ جاتك الغم ! يعنى خواجات ياخى ؟ حانقعد عالحرام ! يعنى الواد خواجه قوى ! ! والأرض مالها ؟ دى واخده منا راقات يا جدع ! « وللا يعنى شايفنا فارقين شعرنا ؟

ثم جلس على الأرض إلى جوار « علوانى » وهو يضحك ، فضحك « علوانى » وأكمل كلام « عبد الهادى » دون أن يصطنع اللهجة البدوية :

ـ أيوه ! وللا يعنى متربيين فى مصر ؟ . . وللا بنشرب سجاير مكنه ؟ . دهدى ! ولا يمكن بهوات ! ! ؟

وأطلق الاثنان قهقهات سريعة متلاحقة قصيرة ، والشاى يكركر على النار .

وتحرك غطاء الأبريق الأسود ، واندفعت من ورائه دفقات بخار الغليان ، فرفعه « علوانى » بيده ، وأبعد الكوب السميك المضلع عن الأبريق ، وصب فيه الشاى فانسكب فى خيط طويل . .

واستنشق « عبد الهادى » رائحة الشاى ، وتابع خيطه الطويل المنسكب ، وتلذذ بكركرته .

وقال « علوانى » وهو يقدم له الكوب الساخن :

ـ خد يا عبد الهادى خد ! شاى بيدحك ويدلع زى العروسة أهه . .

فتناوله « عبد الهادى » مرحباً .

ورشف منه بصوت مرتفع وفى بطء . ثم وضعه أمامه على الأرض ، وهو يرسل من حنجرته صوتاً مبحوحاً راضيا :

ـ احم . . شاى عرب صحيح ! تسلم !

وعرض «علوانى» على «عبدالهادى» أن يحضر له بطيخة : فلديه بطيخ استوى وطلب الأكالة ، وهو بطيخ يستأهل « عبد الهـادى » .

ولـكن « عبد الهادى » اعتذر .

وساد الصمت .

وعاد « علوانى » يحدث « عبد الهادى » فسأله ما إذا كانت ساقيته تدور ؟ فقال « عبد الهـادى » باقتضاب :

ــ لا . .

كان صوت « عبد الهادى » قد انخفض ، ونـكس رأسه قليلا .

ولـكن صوته ارتفع فجأة ــ كعادته ــ ليسأل علوانى . . أين كان . .

وأجابه علوانى أنه كان عند شيخ البلد ومن بعده راح يشترى الشاى من عند « الشيخ يوسف » .

ثم انفجر علوانى » يشكو لعبد الهـادى سوء معاملة « الشيخ يوسف » ، وقلة الرحمة فى قلبه : فهو بقال القرية الوحيد ، وهو يكسب من البقالة كسباً طيباً ، وهو أيضاً يقرأ الموالد أحياناً مع فقهاء البلد ــ فسيدنا « الشيخ الشناوى » لا ينساه ــ ومع ذلك . . كان لايريد إعطاء « علوانى » الشاى ، وظل « علوانى » يتحايل عليه ، وأخيراً رمى فى وجهه بورقة الشاى وأقسم أن هذه آخر مرة . فلن يعطيه شيئاً حتى يدفع ما تأخر عليه من ثمن الشاى والسكر وورق الدخان !

« وعلوانى » لا يعرف شكل القرش إلا عندما ينتهى موسم البطيخ فيأخذ أجره عن الحراسة ، وحتى هذا الأجر لن يكفى « الشيخ يوسف » .

وحين انتهى « علوانى » من شكواه ، قال له « عبدالهادى » بسرور :

ـ تتعدل ياعلوانى .

فقال «علوانى» بحسره :

ـ تتعدل ازاى ؟ تتعدل منين ؟ دانا على ما يخلص الموسم أكون جريت بزياده عن اللى حاقبضه كله ؟ !

ولم يعلق « عبد الهـادى » وظل شارداً ، وكأنه نسى الشاى . .

فصب له علوانى مزيداً من الشاى فى الـكوب ، وسأله إن كان يستغنى إلى آخر الموسم عن ريال .

فهز (عبد الهـادى) رأسه :

ــ ريال ؟ هوه حد لاقى ريحتهم والله لو معايا كان بكل ممنونية ! هوه حد لاقى اللضى يا علوانى ؟ . ماحدش عنده فلوس غير اللى نفسه فى بطنه . لـكن

احم . . شای عرب صحیح !

اللى زى حالاتى نفسه مكروش ! يادوبك أهى الحكاية مستوره !

ـ يادى السنه السوده يا رجاله ! ياسنه غبره وزى الهباب !! دانا حتى سمعت أن البيه حجزوا على عزبته !

فقالى « عبد الهادى » بهدوء :

ـ الكلام ده كان زمان . . من قيمة سنه ! لكن وحياتك ياخويا دا من يوم الوزارة دى ماجت وأشيته بقت معدن هوه وخاله الباشا ! يا عم دا لهم رجل فى الحكومه !

ـ طب ما انت كان لك رجل فى الحكومة يا عبد الهادى ؟ ما أخوك مستخدم فى مصر . . فى عز الحكومه ! !

وابتسم « عبد الهادى » وسكت قليلا وهو يقول :

ـ يا جدع دى الحكومة حكومتهم والكلمه كلمتهم ! دا الباشا فى حزب الشعب اللى ماسك البر وحارقه بولعه ! الله ؟ ! خبر إيه يا علوانى ؟ مش تاخد بالك ! .

وهمس «عبدالهادى» ساخراً :

ـ ليه رجل فى الحكومة ؟ لا رجل ولا يد ! هىء ؟ دا الحكومة كاسره رجلنا يا عم !

وهز « علوانى » رأسه وعاد يمصمص شفتيه فى حزن ، ثم استطرد يتحسر لعبد الهادى على أيام خدمته القديمة فى عزبة محمود بك .

كان « علوانى » يرعى غنم « البيه » . . وهناك كان يحمل فى جيبه حافظة كبيرة للنقود ، فقد كان يجد شيئاً على الدوام ! وفى أيام السوق ، تعود أن يروح إلى السوق بالغنم ، فيبيع بعضها ليصرف « البيه » وفى السوق كان « علوانى » يجد فرصته : فالأمر لا يخلو من عنزة أو نعجة صغيرة يدعى « علوانى » أنها تاهت أو ماتت فى الطريق . . وأحيانا يمكن حجز عدة قروش من ثمن كل رأس !

ولكن «البيه» تعب من الغنم ، رغم أنها كانت ترعى على هواها فى أى أرض بلا حساب أو اعتراض .

واحتاج مرة أخرى إلى مبلغ كبير بعد عودته من إقامة طويلة فى «مصر» فباع كل الغنم ولم يعد لعلوانى عنده مكان . . ورجاه «علوانى» أن يبقيه عنده ليحرس له حديقة البرتقال إذا جاء الشتاء ، وفى حديقة البرتقال كان « علوانى » يجد فرصاً أخرى . .

فالفتيات والنساء بائعات البرتقال كن يقبلن بلا انقطاع ليشترين سقط البرتقال وكان هو يكسب من هذه الصفقات مبالغ طيبة ، ولكن « خضره » فضحته . . وكانت تخدم إذ ذاك عند « البيه » ولا يستطيع أحد من الأنفار أن يفتح عينه فيها أو يرد لها طلباً . . وطلبت يوماً من علواني برتقالة كبيرة من على شجرتها ، فرفض وأعطاها برتقالة من السقط قائلا :

ـ خدى الحبه دى واخلصى ! بردقان الشجر دا ما ينقطعش حتى ولا للبيه نفسه انتو حاتطفحوه حبه ورا حـــبه ؟ ؟ أمال يبيع إيه ؟ . اللى يجى يشترى حايشترى إيه ؟

ورمت « خضرة » البرتقالة فى وجه علوانى ، ثم قامت بنفسها فقطعت برتقالة من على غصنها . . وهاج «علوانى» فقذفها بقطعة من طين الحديقة . وبكت « خضرة » وشتمته ، فضربها « علوانى » .

وذهبت مقصوفة الرقبة إلى « البيه » تشتكى علوانى ، وفضحت كل أسراره وراقبه « البيه » خفية دون أن يدرى . . حتى ضبطه يضحك مع فتاة بيضاء ويضربها على صدرها وهو يبيع لهـا السقط خفية .

وفتشه « البيه » ، وأخذ محفظته بمـا فيها ، وظل يضربه بالـكف والرجل ، « وخضرة » واقفة تضحك فى شماتة .

وعندما انتهى « علوانى » من رواية هذه الحكاية لعبد الهادى ، صفق متعجبا :

ـ شوف الظلم يا عبد الهادى ؟

وصب « علوانى » كوب الشاى لنفسه ، وسكت . وبعـد أن رشفه هز رأسه وهو يتنهد قائلا :

ـ والله ياعبد الهادى لولا أن شيخ البلد . بيبعت لى الأكل لـكان الواحد بقى ياكل من الغيطان زى الديب !

ولم يجب «عبدالهادى» وساد صمت طويل

وأخيراً قال « عبد الهادى » وهو ما يزال شارد الفـكر :

ـ مسيرها تتعدل ! ربك بيستر ياشيخ العرب . ربنا يستر !

كان « عبد الهادى » قد شرع يفـكر فى « وصيفةّ » .

ربما كانت قد ذهبت إلى « البيه » الذى يتخايل فى عزبته بجلبابه الـكشمير الفاخر ، وشعره اللامع المفروق !

ولـكن لمـاذا تذهب إلى « البيه » ؟

ان « محمود بك » يخرج أحياناً فى الليل على ظهر حصانه الفاره القوى الأبيض .. وكثيراً ما رآه « عبد الهادى » رائحاً إلى عاصمة الاقليم أو راجعاً من هناك أو من عزبة خاله الباشا بالقرب من عاصمة الاقليم .

ولا طريق له غير الجسر .

أيكون «البيه» — وهو على الجسر — قابل « وصيفة » فعاد بها إلى العزبة ؟ ؟

إنه يفعل هذا أحياناً فى الليل عند ما تروقه فتاة على الجسر . . والبلد كلها تعرف هذا جيداً .

ولكن أيمكن أن يصنع شيئاً كهذا مع « وصيفة » بنت «محمد أبو سويلم» شيخ الخفراء السابق ؟ !

و « وصيفة » نفسها .. أمن الممكن أن تقبل هى ؟ !

ولم يحتمل « عبد الهادى » التفكير فى كل هذا . .

وحين كان « علوانى » يشرب الشاى ويفكر فى حياته التعسة ، فاجأه « عبد الهادى » بالسؤال عن « محمود بك » : هل مر على الجسر ؟

فهز « علوانى » رأسه ونفى الأمر بطقطقة متلاحقة تردد بها لسانه !

وعاد « عبد الهادى » يسأل بضيق :

ـ ما حدش فات عليك من أصله ؟

فقال علوانى باقتضاب وهو ساهم :

ـ أبداً ... من أصله !

* * *

وانتهى الشاى ، ولم يجد «عبد الهادى» كلاما يقوله فنهض مستأذناً ، و «علوانى» يلح عليه أن يبقى للدور الثالث فى الشاى .

ولكن « عبد الهادى » كان قلقاً موزعا . . فقال « علوانى » متمسحاً بلهجة بدوية ، وهو يتلطف :

ـ وبعدين نزردك ! حكم الشاى كده .. أقعد أقعد !

فابتسم « عبد الهادى » بلا استعداد للضحك ، وبدأ يتحرك .

ووقف « علوانى » وسار قليلا بعد «عبد الهادى» يودعه فى صمت .

غير أن « عنواني » توقف فجأة ، ومال برأسه يتسمع همهمة من بعيد .

وطلب « علواني » من « عبد الهادى » أن يتوقف ، وأن يجلس فى مكانه !

وركز « عبد الهادى » انتباهه ، بينما قفز « علوانى » راجعاً إلى الوراء . ثم نبش قليلا تحت الحرام ونزع بعض الحجارة بخفة والتقط بندقيته القديمة ذات الماسورة المقصوصة ثم كسر الماسورة ، ووضع فيها طلقتين ، وهمس لعبد الهادى :

- معاك الفرد بتاعك ؟ . عمره إن كان معاك وتعالى هنا بشويش نلبد تحت بطن الجسر !

فقال « عبد الهادى » باستخفاف :

- ليه بق !

فأجاب « علوانى » ، وقد امتلكه الاهتمام :

- باين فيه رجاله انسقطوا على البلد !

فقال « عبدالهادى » بصوت مرتفع :

- رجاله ! رجالة إيه وهباب إيه ! ورجالة الليل بيجو بلدنا يزروطوا إيه ؟! يعنى حايسرقوا الأبعدية ؟ ولا يعنى هنا الوسية ؟ دى البلد تسرق اللى معاهم !

وضحك « علوانى » و « عبد الهادى » .

واقتربت الهمهمة ، وأصبحت أصواتاً واضحة تلتقط منهما الآذان كلمات كاملة تجرى إليها بسرعة عبر الفضاء الساخن !

كانت اللهجة غريبة عن القرية .

واتضح فى الظلام شكل بسكليت يجرى ومن ورائها بسكليت آخر .

وقال « علوانى » هامساً باطمئنان :

- دول راكبين حمار السكة ! الحمار الحديد ! دى لغوتهم لغوة أهل البندر .

ثم ضحك مستطرداً ، يسخر مما كان يفكر فيه :

- قال أنا فاكرهم رجالة الليل ! ؟ بق رجالة الليل حاينسقطوا علينا راكبين حمير حديد ؟ ! هى . . . . دول لازم رجالة خواجات ! ! هى.هى. ! دول لازم من لندرة !

وضحك « عبد الهادى » وهو يلتقط كلمات الرجلين المقبلين وقال :

ـ دول ناس من البندر صحيح . . لغوتهم بانت خالص !

ووضع « علوانى » البندقية مكانها .

وظهر الرجلان بوضوح : كان أحدهما يلبس البدلة والطربوش والمعطف الأبيض ، والآخر يلبس جلباباً من حرير القز وجاكتة بيضاء وطاقية من الصوف .

وأصبحا على الجسر أمام « عبد الهادى » و « علوانى » . . تماما .

وهبط الرجل ذو الجلباب عن البسكليت ، وأمسكها بيده وأمسك بيده الأخرى البسكليت التى هبط من عليها الرجل ذو الطربوش والبدلة وقال الأفندى بهدوء :

ـ السلام عليكم .

ورد «عبد الهادى» ، وهو يصعد إلى الجسر ووراءه علوانى :

ـ انفضلوا . . . اتفضلوا . . نجيب عشا . .

وزاحمه صوت «علوانى» مصطنعاً لهجة بدوية :

ـ اتفضلوا ياعرب نجيب عشا ! العشا جاهز ياعرب ! ننحر لكم الضأن يا عرب . . والله شرفتونا فى هدا الليل !

وقال الرجل ذو الجلباب :

ـ اسمع يا أخينا انت وهو ... مين فيكم معلق ساقيته ... مين فيكم طالع يعلق الساقيا ؟

فهمس « عبد الهادى » « لعلوانى » ساخراً من لهجة الرجل :

ـ الساقيا ؟ . .

ثم استمر يقول لعلوانى فى همس :

ـ دول بتوع الهندزة .

وأجاب « علوانى » بصوت مرتفع :

ـ ساقيه ؟ ! ماحدش هنا معلق سواقى !

كان « عبد الهادى » قد أدرك بتجربته أنهما من رجال هندسة الرى فى عاصمة الإقليم .

وتقدم إليهما . . إنه يعرف وجه المهندس ومساعد المهندس ، ووجوه بعض عمال الهندسة .

ورأى وجهاً غريباً . .

ولم يكن هو المهندس . والمهندس على أية حال لا يأتى على بسكليت . . .

وأدرك أنه مساعد للمهندس نقل حديثاً إلى الإقليم . ولكنه تعرف على وجه العامل الذى يلبس الجلباب . . إن هذا الرجل نفسه يعود إلى السواقى بعد أن يعطلها المهندس أو مساعده ، فيديرها مقابل عشرين قرشاً للساقية . . . ولكن لا أحد الآن فى القرية يستطيع أن يدفع هذا الريال فى هذه السنة السوداء .. لا أحد عنده فلوس !

ونظر « عبد الهادى » إلى العامل وقال له بعشم :

- انتو فتشتم بنفسكم . . لقيتو حاجة ؟

فاندفع الأفندى يقول بصرامة وحزم :

- بتوشوشه ليه ؟ اسمع يا جدع انت وهوا . ، أنا عارف لماضة الفلاحين وشغلهم ولؤمهم ! . . . فين الساقية اللى كنتوا طالعين تعلقوها ؟ بلاش حداقة !

فقال عبد الهادى محتداً :

- حدا . . إيه ؟ حداقة ؟ ! عيب يا أفندى الحاجات دى فى البندر بس . . مش عندنا هنا !

وتدخل علوانى . تاركا اللهجة البدوية التى اصطنعها :

- لا والنبى يا جناب الباشمهندس ، وحياة مقامك ورقبتك .. والله مافيه حاجة من دى أبداً ياحضرة المندزه ! واحنا أصلنا قاعدين هنا كده يعنى . . . أصل الحكاية ياحضرة الحكومة ...

فقاطعه الرجل ذو الجلباب :

- أمال اية البنت اللى شفناها عالجسر من قيمة ساعة ، وجريت تستخبى فى الغيطان ؟ إيه دى؟ مش طالعة تدور الساقية ؟.. مش انتو اللى باعتينها تدور الساقية ؟

فقال « علوانى » مستنكراً بإخلاص :

ـ بنت ؟ .. وهيه البنت حاتجر الساقيه . . . طب وفين البهيمة ؟ هو عدوك أهبل انت وهوه .

فصاح فيه الأفندى :

ـ اخرس . . اتكلم كويس .

فقال علوانى باعتذار :

ـ دهدى . . ما احنا عارفين ان كلامنا زى الهدد !.. بنحدف طوب !.. احنا يعنى كنا رحنا مدارس يا سيدنا الأفندى ! وإلا كان حد لبسنا الزاكتة والبانطلون ! ؟

وهمس « عبد الهادى » كأنه يخرج من حلم :

ـ بت ؟ ! شفتها فين هيه فين ؟

ولم يهتم أحد بما قال .

وعاد الأفندى يقول :

ـ هوا احنا ماعندناش شغل غيركم ؟ ! اه دا ؟ ... حانسهر لكم طول الليل .. هيا دردشة ! ؟ يعنى نكسر لكم سواقى الجسر كلها من الوقت ونخلص ؟

فقال عبد الهادى محنقا :

ـ إيه ؟ تكسروا سواقى الجسر ؟ ليه يعنى ؟ وحتى ان لقيتوها دايره ؟ دا لسه قدامنا خمسة أيام رى يا جدع ! خمسة أيام بلياليهم نروى فيهم على كيفنا وندور سواقينا على كيف كيفنا ولا حدش له كلام عندنا ! ... والا وحشكو الريال ؟

وثار الأفندى على « عبد الهادى » ، والتفت إلى الرجل ذى الجلباب يسأله عن مسألة الريال هذه ، فهمس فى أذنه ان مساعد المهندس الذى كان قبله تعود أن يأخذ ريالا من كل صاحب ساقية ليغمض العين ... ولكن الحالة الآن تستحق خمسين قرشاً عن كل ساقية !

واضطرب الأفندى وشتم العامل وتوعده عندما يعودان إلى الهندسة

فضحك علوانى صائحاً :

ـ دهده ! .. دى الحكومة وقعت فى بعضها !

بينما أخذ « عبد الهادى » يزعق ، ويحاول أن يناقش الأفندى .

وزام الأفندى محاولا أن ينهى المناقشة التى دخلها متأففاً ، متقززاً ثم صاح

فى « عبد الهادى » أن دورة الرى الآن ليست ككل سنة ، فقد أصبحت خمسة أيام بدلا من عشرة .

وأضاف الأفندى ان المغرب كان آخر موعد يحق للسواقى فيه أن تدور ، وعند العمدة إشارة بهذا المعنى منذ أيام .

فصاح عبد الهادى :

- عمدة ؟ عمدة إيه يا جدع صلى عا لنبى ! أنا حادورها من بكره وجميلك وجميلة العمدة على اللى فى رجلى ! خليه ييجى يحوشنى وأنا أرميه لك فى البير ! . . أضربه بالعيار زى شاب الحكومة لما يعجز !

وضج « الأفندى » وعاد يصيح إن هذه هى أوامر الحكومة فقال « عبد الهادى » :

- حكومة ؟ سلامات يا حكومة ! ما احنا برضه لنا رجل فى الحكومة . . خد عندك : أخويه مصطفى مستخدم فى مصر فى المساحة ما بعتش يقول لنا كدة ليه ؟ . قال الحكومة قال ! ؟ تعطشوا لنا الأرض وتقولوا الحكومة ؟

وتلطف الرجل ذو الجلباب وقال لعبد الهادى .

- ياراجل انت دانا عارفك راجل طيب وبتفهم ! كلام الحكومة اهه كدا . دورة الرى فى الزمام هذا تكون خمس أيام فقط لا غير . وبعد كدا لافيه رى من البحر ولا من الترعة . . بلاش مناكفه بقى . . بلاكتره .

فقال « عبد الهادى » محنقا :

- لا ياشيخ ! خمسة ؟ . خمسة أيام ؟ ! ياجدع قول كلام غير ده ! يعنى نعطش الدره ! يعنى تموتوه لنا من العطش ؟ . طب دا فيها خلق لسه ماطفتش الشراقى ! يا ليله غبرا يا اخواتى ؟ هو جرى ايه السنة دى . ؟

وهمس « علوانى » محاولا أن يهدىء الجو :

- يا عبد الهادى دى الحكومة بتقول كده ! خلاص بقى !

فصاح « عبد الهادى » بأعلى صوته وهو يضرب الأرض بعصاه :

- حكومه ايه دى باولية ؟ ماتفاقونيش يأخى تاخد منا نص المية ازاى ؟ ! مين دا اللى ياخد منا خمسة أيام من العشرة بتوعنا . . . وبقية المية رايحة فين ؟ هه ؟ بقى يبطلوا السواقى هنا وتقلعوا الترعة الكبيرة هناك ! ؟ ليه بقى ؟ مين اللى فوقنا حياحد المية ؟ المخروبة أرض الباشا اللى اشتراها جديد وما تسواش كلب

يا كلها ؟ . ياسلام ياسلام ! ! . . ياسلام كده على الحكومة ! ! وحياة النبى المية ماهى منحاشة عنا أبداً ! تقفلوا الترعة وتبطلوا السواقى ؟ ! والنبى لتجرى دماها قبل مياها ! ! وسع ياجدع !

وضرب « عبد الهادى » الأرض بعصاه واقتحم الطريق .

وهمهم الأفندى وزميله ، « وعبد الهادى » يمشى مسرعا إلى القرية ، وعصاه تشق صمت الظلام وهو يزعق :

ـ دى مصايب ايه اللى بتتحدف علينا دى . أوامر الحكومة ! والله عال ! سلامات ياحكومة ! هى دى بقى أوامر الحكومة ؟ . سلامات سلامات ! طب وأيمان النبى لأدورها من بكره ! . من بكره ! هه ! خلى حد ييجى يكسرها بقى وأنا أكسر رقبته وأدفسها فى الطين !

وكان الرجلان قد ركبا ، وانطلقا على الجسر فى الطريق إلى المدينة عاصمة الاقليم . .

وتحرك الغاب الطويل على حافة النهر ، وبرزت منه فتاة تلبس السواد . . وقالت لنفسها بهمس :

ـ رجلى اتهرت من جدور الغاب ! قطيعة يا أهل البندر ! مشوار ايه الأغبر دا اللى كانت بعتانى فيه وصيفة لحتة ولد ما يطلعش طول رجلها ؟؟ هوه علشان ما بيتعلم فى مصر ، فى البندر ؟ طب ودا ينفع فى ايه ؟ آه لو كانت هى اللى طلعت الليلة دى كمان زى ما طلعت ليلة امبارح ، وشفوها رجالة البندر دول ! !

وألم يشعر بها « علوانى » ، فقد كان ما زال ينظر فى ظهر الرجلين .

وحين اطمأن إلى أنهما ابتعدا تماما ، بصق على الارض قائلا :

ـ هى خلاص الحكومة ما عندهاش شغلانة غير بلدنا ؟ مرة ترفد ومرة تحبس وجايه فى آخر المواخر تحوش عنا المية ؟ ! يا للا انجر منك له ! . حكومة نجسة !

وضحكت الفتاة وأحس بها « علوانى » ، فالتفت ونظر إليها مدققا بينما خرجت هى تتقصع وتقلد لغة الرجلين بسخرية :

- دا ! كدا .. أنا ! انتا ! قطيعة يا أهل البندر ، وانتو لسانكو معووج كده زى الغوازى . رجالة ايه دول يا أختى ؟ دول يابن عليهم . . .
وقاطعها « علوانى » :
- هس ! ايه اللى جابك دلوقتى ياخضرة طب تعالى بقى .
ثم قال مغازلا :
- حاديكى بطيخة ياللى تنزغدى ! تعالى . . تعالى ياللى تنحشى .
وجرت إليه « خضرة » فرحة وهى تقول :
- جيالك ياشيخ العرب أهه . .
وقفزت إلى حقله وهى تتراقص وتهز ثديها المترهلين ، وتمسح وجهها الجاف المقدد .
ولكنها وقفت مكانها متباطئة ثم قالت مترددة :
- بس أوعى ياخويا تعمل فته زى ماعملت فى ستهم بنت شعبان ابن خالتى . . أوعى تضحك على زى ما دحكت عليها . ولا طالت منك مطال ، ولا عرفت تاخد منك لا أبيض ولا أسود .
فقال « علوانى » :
- دهدى ؟ ومالها ستهم دلوقتى ؟ ما بيقولوا عليها بقت حاجة كبيرة فى مصر ! وأنا كنت دحكت عليها يا خضره .
ثم سكت قليلا قبل أن يقول :
- وحياة النبى كنت ناوى أسرق لها كيلة الدرة لكن ماملكتش ! . . تعالى تعالى يامقصوفه الرقبة ! . اطلبى اللى تطلبيه ! غيط البطيخ كله قدامك . . اختارى اللى يعجبك !
وسكت « علوانى » قليلا وأخذ يتحسس بقدمه الجافية الحجارة التى تغطى البندقية ، وأدار رأسه إلى حيث كان « عبد الهادى » يسير قائلا :
- والله من يوم شعبان ما مشى والواحد ما عارف يسلك البندقية .
والتفتت « خضرة » اليه ، ثم رمت بصرها إلى حيث كان يمضى « عبد الهادى » وقالت بزهو :
- يا سلام عليك يا عبد الهادى . . . راجل بالدنيا !
فقال علوانى :

- أيوه .. دكر صحيح ! يضرب بلد لوحده .

ثم شد يد « خضرة » وجلس ، وأجلسها بجانبه ، وهو يقول ضاحكا :

- الأكادة انتى حلوة . زى الحلاوة الطحينية يا للى تنزغدى فى قلبك !

وشد الحرام عليها ، فقالت « خضرة » وهى تضرب على صدره بكفيها :

- هات البطيخة الأول .. بطيخة كبيرة !

وقام «علوانى» فقطع بطيخة كبيرة ، وعاد بها ورماها أمام « خضرة » وهو يقسم انها بطيخة تساوى ثمن كيلة ذرة !

وجلس « علوانى » راضياً ، والتصقت به « خضرة » ، وشعرت بالسعادة الساذجة تغمرها !

ولكزها « علوانى » وهو يقول :

- لو كنا نصبح نلاقى الغيط دا كله بتاعنا !

وضحكت « خضرة » قائلة :

- يا .. ريت ! ..

وشدت الحرام !

بينما كان «عبد الهادى» يدخل القرية راسخ الخطوات : الثورة يغلى بها دمه ، وعصاه تحرك صمت الظلمات !

— ٥ —

عندما عاد «عبد الهادى» إلى داره فى تلك الليلة ، لم يفكر فى « وصيفة » بعد ، فقد شغله حديث الرى ، ورجال الهندسة وما يصنعون ، وأوامر الحكومة !

وأخذ يلف السجائر ويشعل سيجارة من سيجارة حتى فرغت علبة الدخان .

كان يفكر فى الساقية ، والترعة ، ودورة المياه ، ويحاول تدبير أمر الذرة الصغيرة الغضة التى بدأت تظهر وتكسو الأرض بخضرة حلوة أحبها « عبد الهادى » دائما وتمرغ فى طراوتها منذ كان طفلا .

إنها أول ذرة خضراء تظهر فى صفرة الشراقى الواسعة من حوض الجسر .

أتراها تذبل وتموت لمجرد أن الحكومة أرادت هذا . . ! ؟

أيترك «عبدالهادى» ذرته المبكرة لتحكمات رجال الهندسة ، وهو الفلاح الشاطر الذى لم تخب منه زرعة من قبل ! ؟

وصمم « عبد الهادى » على أن يحافظ على زرعه مهما كلفه الأمر .

لن يترك الذرة تموت .

سيدير الساقية بعد العصر ليشرب زرعه وتروى على مهل !

وعندما أشرقت الشمس على القرية ، وبدأت البهائم تزحم الدروب فى طريقها إلى الحقول ، كانت النساء الذاهبات إلى النهر يتحدثن عن كل ماجرى بين «عبدالهادى» ورجال الرى .

وأخذ رجال القرية يقولون الحكاية لبعضهم وهم يسوقون الحمير والمواشى .

فعلوانى قد ملأ القرية بالقصة ، وروتها « خضرة » أيضاً دون أن تقول لأحد لماذا كانت على الجسر فى الليل .

و « محمد أبو سويلم » هو الآخر يحكى ما حدث له لكل من قابله : إذ فاجأه رجال الهندسة فى حوض الترعة ، وأمروه أن يسد الترعة ، وعند ما اعترض

هددوه بعقاب شديد ، ولمحوا له بأن المركز كله يعرف أنه رجل مشاغب . . ضد الحكومة !

وسد «محمد أبو سويلم» الترعة بالفعل ليقصر الشر ، وترك بقية أرضه الشراقى عطشى تتحرق إلى الماء .

ولكن « محمد أبو سويلم » عزم على رى الأرض .

وخرج « محمد أبوسويلم » بالفعل إلى حوض الترعة قبل أن تلتهب شمس الضحى وفتح السد .

وصنع مثله رجال آخرون .

وخرج «عبد الهادى» إلى الساقية فأدارها ... ومضى يخوض فى حقله بأقدامه العارية ويهوى على الأرض بفأسه ليفسح الطريق أمام الماء . وترك على الساقية ولداً صغيراً استأجره بقرش ليدور وراء البقرة المغماة ويدفعها بيده أو بالنداء كلما توقفت من الاعياء .

وظل عبد الهادى فى حقله إلى ما بعد العصر .

وقبل أن يهبط المغرب على القرية ، مر رجال الرى .

ورأى رجال الرى ساقية « عبد الهادى » تدور ، فعطلوها وكتبوا اسمه فى ورقه معهم كما كتبوا اسم « محمد أبو سويلم » من قبل .

وجرى الولد الصغير الذى كان يحرس الساقية باكياً مرتعشاً من الخوف . . يجرى إلى القرية يقول ان الحكومة كسرت كل السواقى على الجسر .

وكان «محمد أبو سويلم» قد عاد إلى داره وشاع فى القرية ان رجال الرى كتبوا اسمه فى ورقة .

والقرية تعرف بتجربتها أن الحكومة حين تكتب اسم رجل فى ورقها ، فهو رجل لا سلامة له أبداً !

وذهب رجال من القرية إلى عم « محمد أبو سويلم » يسألونه ويخففون عنه .

وكانت ابنته « وصيفة » فى وسط الدار تجلس أمام الرحى ، وتديرها على حبات من الذرة .

وقامت « وصيفة » ، ورفعت الرحى على رأسها ، ثم دخلت بها إلى القاعة ، وعادت تختلط بالناس .

وماجت دار « محمد أبو سويلم » بالذين يسألونه عما حدث له مع رجال الحكومة .

وازدحم وسط الدار بالنساء والفتيات ، وجلس الرجال على المصطبة خارج الدار .

وأمام المصطبة ثنى بعض الرجال ركبهم وجلسوا مستندين على سيقانهم .

ووقف الأولاد يزاحمون النساء والرجال ، ويدسون رؤوسهم كلما انتظم حديث . . وكان بعض الرجال ينهر الأولاد ، ويبعدهم لبعض الوقت ، ولكنهم يعودون ليتمسحوا كالقطط ويصغون لما يقال بذهول ووجل !

وسأل أحد الفتيان عمه « محمد أبو سويلم » عن هؤلاء الرجال الذين كتبوا اسمه فى ورقة . . . أجاءوا يطالبونه مرة أخرى بأن يرسل أسماء الأموات لتوضع أصواتهم فى انتخابات جديدة يجريها حزب الشعب ؟

ولم يبادر محمد أبو سويلم بالرد عليه . . بل أسرع الشيخ يوسف بقال القرية فقطب حاجبيه وصاح فيه :

ـ جاتك داهية فى زناخة عقلك ! احنا فى ايه ، وانت فى ايه ؟ دلوقت ياواد انت ابن مين ؟ .

ـ فأجابه فتى آخر متحرشاً :

ـ دا ابن أخت شعبان !

ـ ولدين لخاله ! جاتكو شوطة ! مرحتش معاه ليه مطرح ما راح ؟ هيه البلد دى مش حاتخلص بقى ؟ اسمعنى بتفهم قوى فى الحساب ! ناكفتنى ساعتين فى طلعة النهار على سعر ورقة الدخان ! أقول له بخمس كيزان درة يقول لأ بتلاته . طب بأربعة . . . يقول لى بتلاتة . . . بقى دى بلد ؟ ! تقول على بتوع الهندزة انهم بتوع الانتخابات ؟ لأ ياسيدى ! جايين ياخدوا المال بدل الصراف ! . هه ! انبسطت !

وتدخل « محمد أبو سويلم » وبدء يشرح بصوت هادىء فارقته الرعشة التى سيطرت عليه عند ما عاد من الترعة .

وأحس شيخ الخفراء السابق بلون من الامتياز الفائق الذى مارسه طويلا عند ما أخذ يؤكد للذين من حوله أن رجال هندسة الرى يقبلون من أجل الماء ، لا من أجل الانتخابات أو المال .

على أن حكومة حزب الشعب التى أرسلت رجالا يغصبون الفلاحين على انتخاب رجالها . . هى التى تحرم أرض الفلاحين من الماء وترسل مستخدمين من أقارب الفلاحين لينفذوا أوامرها على الرقاب .

وتهامس بعض الفتيان ان « محمد أبو سويلم » سيلقى الليلة فى السجن ، ما داموا قد كتبوا فى أوراق الحكومة !

واختلطت غمغمة الناس لبعض الوقت .

كانوا يجلسون من أول الضحى عند ما عاد « محمد أبو سويلم » من حوض الترعة ولم يقم منهم واحد إلى بيته ليأكل ، ولم يأكل محمد أبو سويلم نفسه . .

وكان المغرب قد أوشك أن يهبط على القرية وهم ما زالوا يتحدثون ويفكرون فى طريقة و « محمد أبو سويلم » يحنق ، ويهدأ ، ويتحدث ، ويسكت ، وهو دائماً يخبط كف على كف ليقول فى حيرة وغيظ :

- ياخدوا منا نص دور الميه ؟! ، ياخدوا منا خمسة أيام بزيهم ! ! ؟ ليه ؟ . ونروى الأرض ازاى ؟

وأقبل « عبد الهادى » مندفعا قبل أن يهبط المغرب . .

كان حافيا قد ترك مداسه وجلبابه عند الساقية ، وجاء بقميصه ، وقدماه مثقلتان بطين الحقل .

وسلم « عبد الهادى » وقام له أحد القاعدين فجلس مكانه على المصطبة أمام الدار . . وما زال وسط الدار يعج بالنساء .

وتهامست النساء باسم « عبد الهادى » وارتفع صوت « خضرة » يعيد رواية ما جرى بين عبد الهادى ، ورجال الرى فى ليلة البارحة !

كانت « خضرة » تروى وهى تتقصع وتقلد لهجة الأفنديه من البندر !

والتفت محمد أبو سويلم إلى « عبد الهادى » وقال .

- قل لى بقى ياعبدالهادى ! ايه الخبر وايه السيرة . طب والميه اللى حاياخدوها منا دى كلها حا يهببوا بيها ايه ؟ حايدردعوها فى بطنهم ؟ الميه دى رايحة لمين قولى ؟ يانهار أغبر ياولاد ! خدوا منا مشيخة الخفر واسكتنا لهم . ورموا لنا الشيخ حسونة فى آخر الدنيا وسكتنا لهم ، وحجزوا على نص البلد وسكتنا لهم ! الله ! ويموتوا لنا الأرض من العطش كمان ! ؟ هو احنا خلاص كده بقينا هفية ؟ . هى البلد خلاص كده بقت كلها حريم ! مفيش رجالة ؟

وسكت « عبد الهادى » وعضلات وجهه تهتز فى توتر وعيناه تومضان بالشرر .

ودعك صدره العارى المكسو بالشعر الكثيف الأسود المترب وترددت الأنفاس قوية فى خياشيمه .

وهمس أحد الأولاد لجاره :

ـ شوف شعر الأسد اللى فى صدر عبد الهادى ! بيدعك شعرة الأسد . .

وأجابه زميله همسا .

ـ دا شرانى خالص دلوقت ! . يانهار أسود ! دا العفاريت بتنط قدامه ! .

دا بعون الله يا بنى يضرب الهندزة كلها . . يسوقهم بالعصا !

وضج الولد الأول بصوت مرتفع .

ياولد !

فالتقط أحد الرجال الجالسين عصا صغـــيرة وهش بها على الأولاد وهو يصرخ فيهم :

ـ روح ياواد عند أمك . . روح انت وهوه . . .

وارتفع صوت « الشيخ الشناوى » طالبا من الجالسين أن يصلوا به على النبى بينما كانت « وصيفة » بالداخل بقامتها المديدة ، ترفع رأسها فى تطلع وتختلس نظراتها إلى الرجال الجالسين .

ولم تستطع أن ترى أحداً .

كانت ظهورهم جميعا إلى الحائط بحذاء الباب . . ولم يكن تجاه الباب غير أولاد يتسللون إلى الرجال بعد أن أبعدوا .

وترددت على الأفواه همسات الصلاة على النبى .

وأمسك الشيخ الشناوى سبحته ، ورفع يديه بالمسبحة ، وقربها من عينيه وطلب من الموجودين أن يقرأو عدية ياسين على من قصر مواعيد الرى : أن ينتقم الله منه بحق جاه النبى !

فانفجر « عبد الهادى » يعارض الفكرة ويطلب من سيدنا أن يفكر فى غير هذا . . أو فليسكت هو . . ويترك أصحاب الشأن يفكرون !

فاحتقن وجه الشيخ « الشناوى » وصاح فيه :

ـ يه ـ يه ! انت حاتخوض ياعبد الهادى . أنا عارفك ضلالى وما بتركعهاش . طب قوم قوم . . قوم بنا دا المغرب قرب يوجب . . قوم بنا عا الجامع .

فقال عبد الهادى .

صلاة المغرب قاعدة ياسيدنا . . ما تخلينا بس نشوف تصريف للمصيبة اللى حطت علينا دى ! هو المغرب حاتروح فين ؟ لازم يعنى نصليها حاضر فى الجامع ؟ حبك الجامع دلوقت ؟

ونهض الشيخ « الشناوى » مغضبا وهو يتمتم :

- روح الله يلعنك ، ما أكفرك .

ثم استدار إلى إلى الرجال الجالسين :

- قوم فز انت وهوه صلوا لكم ركعة ، اياك ربنا ينارك فى رزقكم .

وقام بعض الفتيان الذين يعملون فى الحقول بأجر ، وكانوا فى هذا الموسم من كل عام لا يجدون عملا منتظما . . فقد انتهى حصاد القمح وما زال القطن صغيراً فى الحقول .

وهمس أحدهم فى أذن زميله وهو ينهض :

قوم ياخوية قوم اخبط لك ركعتين . . يمكن نلاقى شغلة ! يمكن ربنا يطلع القطن بدرى ويجرى منه الدودة ! خللينا نهيص !

ونهض كل الجالسين إلى الأرض أمام المصطبة ، وبعض القاعدين على المصطبة وصاح أحد الرجال فى النساء وهو ينصرف :

ياللا روحوا بقى يانسوان .

وبقى « محمد أبو سويلم » وإلى جواره « الشيخ يوسف » « وعبد الهادى » « ومحمد أفندى » الذى كان صامتا طول الوقت .

ولم يعد فى وسط الدار إلا وصيفة وأمها .

وأمام الطاحونة التى كانت تقابل بيت «محمد أبو سويلم» جلست فتيات صغيرات يغنين ويرقصن وشرد « عبد الهادى قليلا » !

لقد كانت وصيفة هى الأخرى تغنى وترقص فى هذا المكان بالذات ومن قبلها كان جيل آخر يصنع نفس الشيء : كانت أختها الكبيرة التى تزوجت فى عاصمة الاقليم ! . .

وسيأتى من بعد وصيفة جيل جـــديد يغنى نفس الأغانى الجميلة الحزينة . ويرقص بنفس الحركات السريعة . ويوقع الدفات على طشت صغير مقلوب .

وحاول «الشيخ يوسف» أن يتكلم ولكن ضجة الصغيرات غمرت صوته فزعق .

هو أنا سايب الدكان عشان أسمع غناكم يا غجر ! فزى منك لها ! هيه البلد دي ياخويه بقت غوازى والا إيه ؟

وتحرك « الشيخ يوسف » إلى ناحية الفتيات ، فقامت فتاة صغيرة وحملت الطشت وجرت . . وأسرع وراءها الأخريات .

وقام عبد الهادى طالباً قلة ليشرب .

وفى وسط الدار رأى « وصيفة » فقال لها بصوت مرتفع :

— استمينا . . عندكوش قلة ساقعة ؟

وانخفض صوته وهو يقول مداعباً .

— فايت على حيكم عطشان سقيتونى . .

ياقلة الشوم . . وأنا الخالى شبكتونى . .

وضحكت « وصيفة » فى حذر فسألها هامساً . . لماذا صعدت إلى حوض الجسر منذ ليلة . .

فاضطربت « وصيفه » وانكرت . .

ولكنه عاد يسأل فى إصرار عن سر وجودها على الجسر ليلة مجىء رجال الرى لأول مرة . فتنهدت بارتياح ، وقالت بإهمال .

إن التى كانت على الجسر فى تلك الليلة . . هى « خضرة »

ثم ذهبت لتحضر القلة ، وعند ما ناولتها له قامت بشجاعة كأن أحداً لايهمها :

— إنت حاتقعد تتهمنى فى كلام فارغ ؟ ! اسمع ياعبد الهادى لما أقول لك : بقى انت لا انت جوزى ، ولا انت أبوى ! . مالك ومالى بقه ! ؟ .

وتضايق « عبد الهادى » من ارتفاع صوتها ، وعاد إلى الهمس :

— الله !! بس . . حد يسمعك !! هو انت برضه مش تهمينى يا اللى تنحشى فى رقبتك ؟ يعنى لو كنت طلعت البحر بالليل ، وحد من بتوع الهندزة اتعرض لك كده والا كده ، مش برضه فى وشنا كلنا ؟ !

واهتزت « وصيفة » وشعرت بالندم لأنها أغلظت القول لعبد الهادى . . .

وفى القرية يتحدثون فى خشونة على الدوام ، وبصوت مرتفع . . حتى عندما تحتدم منهم العواطف .

وهم يستعملون دائماً كلمات قاسية ، فلم يتح لهم أبداً أن يعرفوا لين الحياة الذى ينسكب لينا فى الطبع والمعاملة .

— لم يتح لهم أن يكونوا رفاقا ، عذاباً !

ورفعت « وصيفة » يدها لتضرب بها صدر عبد الهادى . كاعتذار !

ولكن صوت « محمد أبو سويلم » ارتفع من الخارج :

— دهدى يا عبد الهادى ؟ ! انت رحت فين ؟

فأجابه « عبد الهادى » باستنكار وخشونة .

يعنى ما اشربش ! ؟ الله يا محمد ؟ !

فقال أبو سويلم بضيق :

— ودا كله شرب يا جدع ؟ دا شىء كان يسقى غيط بحاله !

ورفع « عبد الهادى » القلة عن الأرض ، وأفرغ منها بين شفتيه ، ثم عاد إلى المصطبة ، وجلس وهو يمسح فمه ، ويزوم فى رضا . .

واستقبله « محمد أفندى » بنظرة استنكار وهز رأسه وضرب الهواء بالمنشة الخوص قائلا :

— عطلتنا يا جدع !

وصاح « عبد الهادى » بضيق .

— عطلتكو ؟ ! عطلتكوا عن إيه ؟ عن قطر السكة الحديد ؟ بقى من ساعة ما جيت وانت قاعد ساكت ، أول ما تنطق : تقول عطلتنا ! ؟ عطلتكوا عن إيه بس هو مفيش تصريف عند حد غيرى ؟ ! ما بتشوفش انت تصريفه ليه يامحمد أفندى ياللى معاك شهادة ؟ فقال « محمد أفندى متحدياً بعدم اكتراث :

— هو انت اللى حا تصرفنا لنا أمورنا ؟ هو انت عندك تصريف ؟ انت تعرف تتصرف ؟ دانت سىء التصرف !

فتلفت « عبد الهادى » حوله وقال مصطنعا الحلم :

لا إله إلا الله ! ! جرى إيه ياواد يامحمد أفندى ؟ !

فوقف « محمد أفندى » مضطربا ، وأمسك المنشة تحت أبطه ، ولوح بذراعيه قائلا :

— واد بتقول لى يا واد ؟ لأ انت اللى واد وواد وستين ولد كمان ! ! ده !

ووضع « عبد الهادى » يده على ركبته فى غيظ ، ولكنه وقف فجأة وتقدم إلى « محمد أفندى » الذى كان يقف متأهبا مرتعداً من الحنق ، والمنشة الخوص تحت أبطه . . ووقف بينهما « الشيخ يوسف » بجسده . . وتحرك « محمد أبو سويلم » قليلا فى محلة وصاح :

ـ اقعد بقى انت وهو بلاش لماضه ! احنا فى إيه وانتو فى إيه ؟ إيه كلام العيال ده ؟

ودفع « الشيخ يوسف » يده فى صدر « عبد الهادى » « ومحمد أفندى » وهو يقول .

ـ الله الله ! اضربو بعض اضربوا ! حاكم البلد فالحه قوى ! اضربوا بعض وبلاش تتكلم . .

وصاح « محمد أبو سويلم » بضيق واستصغار :

ـ خلصونا بقى . . اقعد يا عبدالهادى ، اقعد يامحمد أفندى ، واهدا . . .

وأكمل « الشيخ يوسف » وهو يمسك بمحمد أفندى ليقعد :

ـ يا سيدى ماكل مولود ولد ! إنت ولد وعبد الهادى ولد ، وأنا ولد وكل مولود ولد ! ياسيدى حقك عليه انت وهو ؟ يا اخويا اقعد بقى !

وجلس « عبد الهادى » وانشغل بلف سيجارة بينما كان « محمد أفندى » يقول ويهز المنشة :

ـ آى نعم . . لكن ما يتولش يا ولد ! ما حدش يقول يا ولد !

وأشعل « عبد الهادى » سيجارته ، ونقل قطعة صغيرة من التبغ وهو يقول بصوت هادىء كاظما غيظه .

ـ طب حقك على يامحمد أفندى . . . حقك عليه ! مانطولش فى الكلام بقى وتمتم محمد أبو سويلم .

ـ بس بقى يا عبد الهادى . العقل زينه . . آدى انت انحقيت لمحمد افندى وخلصنا . . بس يا محمد أفندى !

وعاد « الشيخ الشناوى » من صلاة المغرب ، ووراءه بعض الرجال . . واتخذوا مكانهم على المصطبة .

وبدأت الأصوات تختلط وهم يبحثون عن طريقة يدفعون بها قضاء الحكومة بهم على غير ميعاد .

واقترح أحد الرجال أن يذهبوا إلى العمدة ، فضج « الشيخ يوسف » .

ـ دا وحى الجامع ؟ ! ! هبط عليك الوحى بكده فى الجامع ؟ الله يخيب مقامك يا شيخ ! عمدة ايه يا راجل ؟ وحياة النبى دا ما يركب ذمتى بكوز درة . .

عمدة ؟ عمدة قال ؟ ! . بعد اللى عملوا فينا ؟؟ بقى دى بلد ؟ !

وقاطعه « محمد أبو سويلم » قائلا :

ـ العمدة ؟ ! ! ما هى كل المصايب جاية من تحت رأس النيلة .

وتأذى كثير من الجالسين ، وأدهشهم أن يتحدث « الشيخ يوسف » و « محمد أبو سويلم » عن العمدة بهذا الأسلوب وهز « الشيخ الشناوى » رأسه مستنكراً هذه اللهجة ، ولكن لم يعترض .

وقال عبد الهادى يقطع الهمهمة .

ـ احنا مش من االى بيتكلوا على عمدة ! عمدة إيه . . ؟

وكان « علوانى » قد أقبل يسأل عن « الشيخ يوسف » ومال على أذنه ، فصاح فيه « الشيخ يوسف » :

ـ الدكانه مقفولة دلوقتى . استنى بعد صلاة العشا . . . ساعتها أشوف رأى وياك . . . هو انت ما بتلحقش تلهف الشاى والسكر !

وجلس « علوانى » فى مواجهة المصطبة على قدميه دون أن تمس جسده الأرض ، وأرخى يديه على ركبتيه إلى جوار أنفار جلسوا مثله .

عاد « محمد أبو سويلم » يؤكد للناس أنه لن يستشير العمدة ، ولن يشركه مع رجال القرية فى أى أمر يهم القرية . فهذا العمدة يعرف أن الحكومة أمرت بانقاص مواعيد الرى من عشرة أيام إلى خمسة ، ولكنه لم يقل لأحد فى القرية ، ولم يطلق خادم الجامع بطبلة ، لينبه القرية كما تعود فى مثل هذه الحالات . ولم يخطر حتى الشيخ « الشناوى » .

وكل هذا لكى تفاجأ القرية ، وهى تخالف أوامر الحكومة . فيحكم على رجال فيها بالغرامة أو السجن . رجال يعينهم هو بالذات !

وأكمل « الشيخ يوسف » قائلا إن هذا العمدة هو الذى ساعد الحكومة فى الانتخابات بعد ان قاطعتها الدنيا كلها ، وكان بيكتب بنفسه الأسماء كما يريد : أسماء الموتى والأحياء وخدع بعض الرجال وقال لهم إن دستور حكومة الشعب سيجلب معه البركات . . فإذا بالدستور الجديد يحرم القرية من البقالة المفتخرة ، ويجعل أهلها يرهنون الأرض ، ويسمح للحكومة بأن تضع يدها على أرض الفلاحين باسم الحجز من أجل الضرائب المتأخرة ، وأخيراً ... إذا بهذا الدستور يحرم القرية من ماء الرى !

وتدخل « علواني » معلقا ، وصاح :
ـ يا سلام على كلامك اللي كله حكم يا أبا الشيخ يوسف !
وقطب « الشيخ يوسف » محاولا أن يخفى اغتباطه وهمهم .
ـ هم !
وساد الصمت .
وبعد قليل وضع « محمد افندى » المنشة على حجره ، ورفع راحته قائلا أنه وجد الفكرة الصائبة !
وتنحنح قليلا وبصق على الأرض ، وهوت بصقته إلى جوار قدم أحد الفلاحين ثم أخرج منديلا أبيض حال لونه فى الزهرة الثقيلة ، ومسح فمه ، وهز رأسه .
واقترح « محمد افندى » أن يكتب عريضة إلى (وزير الأشغال) وقال ان « محمود بك » يستطيع أن يحملها فهو من معارفه . وربما استطاع أن يقابل بها رئيس الحكومة « اسماعيل صدقى » نفسه !
واعترض « محمد أبو سويلم » على كتابة عريضة إلى الحكومة ، وقال ان التجربة علمته ان الحكومة تخاف ولا تختشى .
فعاد « محمد افندى » ليشرح فكرته من العريضة ولكن « محمد أبو سويلم » صاح مقاطعا .
ـ ما تخللى الحكومة تقول يا جدع : خليهم يقولوا ! مش نقصوا مواعيد الرى ! ؟ حاضر !!. خليهم يقولوا بس ، واللى فى القلب فى القلب ! خليهم يتكلموا على كيفهم واحنا نروى على كيفنا !
ورد « محمد افندى » بقوله أنه لا مانع من أن تروى القرية كما تشاء دون أن تحفل بكلام الحكومة ، غير أن كتابة عريضة بلهجة شديدة ، مفيد جداً . لأنه يهز الحكومة ، وربما عدلت عن رأيها الجديد فى مواعيد الرى .
واهتزت الرؤوس لهذه الفكرة .
وبان على « عبد الهادى » الارتياح الشديد ، وقال « محمدافندى » متحمساً كأنه يسترضيه وقد فاضت نفسه بالراحة والحماس :
ـ قوم يا محمد افندى اكتبها على طول ! قوم اكتبها وهاتها . نختم ونبصم عليها ! أهى كده التصاريف ولا لأ يا جدع ! قوم قوم . وحط فيها كلمتين من اللى بتقولوهم لبعض يا خوجات المدرسة . قول فيها : لاسيما ، وعندما وقبلما ! .

وحط فيها حاجات من اللى قريتها لنا مرة فى جريدة الجهاد ! .

ولكن علوانى وقف معترضاً ، بانزعاج :

- طب وعم الشـيخ يوسف ، ما هو عارف الكلام اللى يعجبك ده يا عبد الهادى ! وعارف أكثر منه كمان ! هوه اللى يكتبها ! اكتبها انت يا أبا الشـيخ يوسف ! وتلم لك من داير الناحية قيمة ريال ولا تلات براير أتعاب كتابة العريضة ؟

وابتسم « عبد الهادى » قائلا لعلوانى ضاحكا ، وقد فهم نوع الرشوة التى يريد تقديمها للشيخ يوسف :

- يا شيخ العرب ! يا جدع ! اطلع مالدره وخدلك قرقرة ! الشيخ يوسف مستغنى . بس حل عنه انت ! أهو محمد افندى حا يكتبها خدمة للبلد !

ولكن « محمد أبو سويلم » قال بهدوء :

- والشـيخ الشناوى ما يكتبهاش ليه ؟ يحط لنا فيها آيتين نستبرك بيهم ، ويمكن يجيبوا داغ الحكومة .

فاعترض « عبد الهادى » مازحاً بعبث :

- يه ! سـيدنا بقى حيحط لنا فيها النار والحساب والعقاب ، تعند الحكومة وتحوش المية كمان وكمان . . . وتقول خللى الملايكة بتوع سـيدنا تنزل لهم الميه من السما .

فاضطرب « الشيخ الشناوى » واهتز كرشه وصدغاه ، ورفع عصاه الغليظة القصيرة ، وانهال على عبد الهادى يشتمه ويتهدده بعذاب أليم .

وكان « عبد الهادى » وكل شباب القرية قد تعودوا أن يتلقوا على رؤوسهم باسمين كل شتائم الشيخ ووعيده فى بعض الأحايين . .

ووقف « الشيخ الشناوى » و « محمد أبو سويلم » يجذب عبد الهادى من كمه « وعبد الهادى » يضحك خلسة .

واستمر الشيخ يقول :

- وبتدحك كمان ؟ ياضلالى ياقليل الدين يامنجوس ! بتتمسخر على الملايكة ؟ بقى انت قد الملايكة ؟ يعنى لا بتصلى ولا حتى تلم لسانك عن الملكوت الأعلى دا انت حتى بطلت الجمعة دا أنا بقى لى تلات جمع ما شفتكش فى الصلاة !

فقال عبد الهادى وهو ما زال يضحك . . .

- ندرن عليه ياسيدنا والندر أمانه إن العريضة دى لوفلحت ورجعوا لنا الميه تانى زى ماكانت لأعمل مولد لأهل الله ياشيخ !؟ مبسوط بقى ؟ والله لا قلب لك فيه جدى ، مش بتحب لحمة اللبلوب ؟ هه .. وأخلى أهل الله يأكلوا وينبسطوا ... وانت كمان تاكل وتنبسط .

وهدأ الشيخ قليلا وبدأت الابتسامة تتسلل إلى وجهه الملىء الأشيب ، فقال وهو يقعد :

- الله يجازيك ياشيخ ! طب اقلب لنا خروف !

- خروف ! هه ! زى بعضه ... بس يرجعوا لنا الميه زى ماكانت .

- طب الفاتحة على كده ياعبد الهادى قدام الرجالة . .

وقرأ «عبدالهادى» الفاتحة بين راحتيه وعند ما انتهى منها مسح وجهه براحتيه - تماما - كما فعل سيدنا والآخرون .

وعند ما انتهت الفاتحة قال « محمد أفندى » بهدوء .

- خلاص بقى حا أكتب أنا العريضة حا اكتبها مقنعـــة تجمع بين الرجاء الهادىء والاستنكار الصارخ ... حا اكتبها بأسلوب المنفلوطى ...

وبهت الناس وهم يسمعونه كلهم حتى « عبد الهادى » !

وتهامسوا عن هذا « المنفلوطى » وهذا الأسلوب من يكون . . وماذا يكون ؟!

« ومحمد أفندى » رجل هادىء الصوت قصير ، نحيــــل ، رقيق الجسم طويل الرقبة . . يحلق ذقنه بانتظام ، ويقص نصف شاربه بطريقة لايفعلها أحد غيره فى القرية . . .

وهو يقرأ الصحف أحيانا ، ويقرأ لرجال القرية بعض المقالات التى تعجبه بصوته الهادىء العميق . وجلبابه نظيف على الدوام ، مخطط واضح الخطوط . . وشبشبه الأصفر فاقع اللون . . والطاقية المربعة البيضاء على رأسه تميل عن منبت شعر منسق هو الشعر الوحيد الطويل المنسق بين رجال القرية .

وكان « محمد أفندى » يملأ وجهه بالعطر ويهتم باختيار أنواعه الفاقعة من عاصمة الاقليم ، ويضع فى جيبه زجاجة صغيرة محكمة الأغلاق نفاذة الرائحة .

وأخذ « محمد أفندى » يتأمل وقع الكلمات فى الوجوه المتعجبة .

ثم تساءل ان كان يبدأ الآن بكتابة العريضة . .

فوافق الجميع ...

وقام « محمد أفندى » إلى بيته ليحضر الورق . .

وقال « عبد الهادى » :

- قوم بق ياشيخ يوسف هات لنا الريشة والدواية .

وعاد « محمد أفندى » بالورق الأبيض وعاد « الشيخ يوسف » بأدوات الكتابة . .

وكان « محمد أبو سويلم » قد انتقل إلى داخل الدار : وأمسك اللمبة « نمرة عشرة » التى لايوقدها إلا فى المناسبات الكبرى .

وقف « محمد أبو سويلم » باللمبة على رأس « محمد أفندى » الذى كان يجلس وحده على دكة خشبية فرشت بحصير مزركش ، وبقية الرجال يقفون أمامه ، وهو يقرأ كل كلمة وقد أسند الورقة إلى ركبته والمحبرة بيد أحد الرجال الواقفين أمامه .

وعندما انتهت العريضة قرأها « محمد أفندى » كلها كلمة بعد كلمة . .

وتوقف مزهواً وهو ينطق بعض الكلمات . . ونظر طويلا فى وجوه سامعيه وشرح الكلمات التى اعترض عليها بعض الرجال الجالسين .

ولقد طلب « الشيخ الشناوى » من الناس الذين لا يفهمون أن يسكتوا ماداموا لا يفهمون !

وسكتوا حتى انتهى « محمد أفندى » من قراءة العريضة كلها ، ثم قام وخرج من الدار وأخذ حفنة من تراب الأرض ووضعها على العريضة التى مددها على ركبته .

وعند ما تشبع المداد بالتراب ، وجف ، قال « محمد أفندى » :

- خلاص يا رجاله . .

فقال « محمد أبو سويلم » بظفر :

- خلاص العريظة يا جدعان !

وأمسك « محمدأفندى » بالعريضة مزهواً وبدأ «الشيخ يوسف» يوقع فى حرص . واستعاذ الشيخ الشناوى من الشيطان ودعا الله بالبركة ، ومال على ركبة « محمد أفندى » ووقع على العريضة وهو يكرر الدعاء ، ويدعو الناس أن يقرأوا الفاتحة .

وأخرج « الشيخ يوسف » من جيبه علبة بها حبر جاف للأختام وفتحها بعناية . . وطلب من الموجودين أن يحضروا أختامهم وأصابعهم ، وأخذ هو

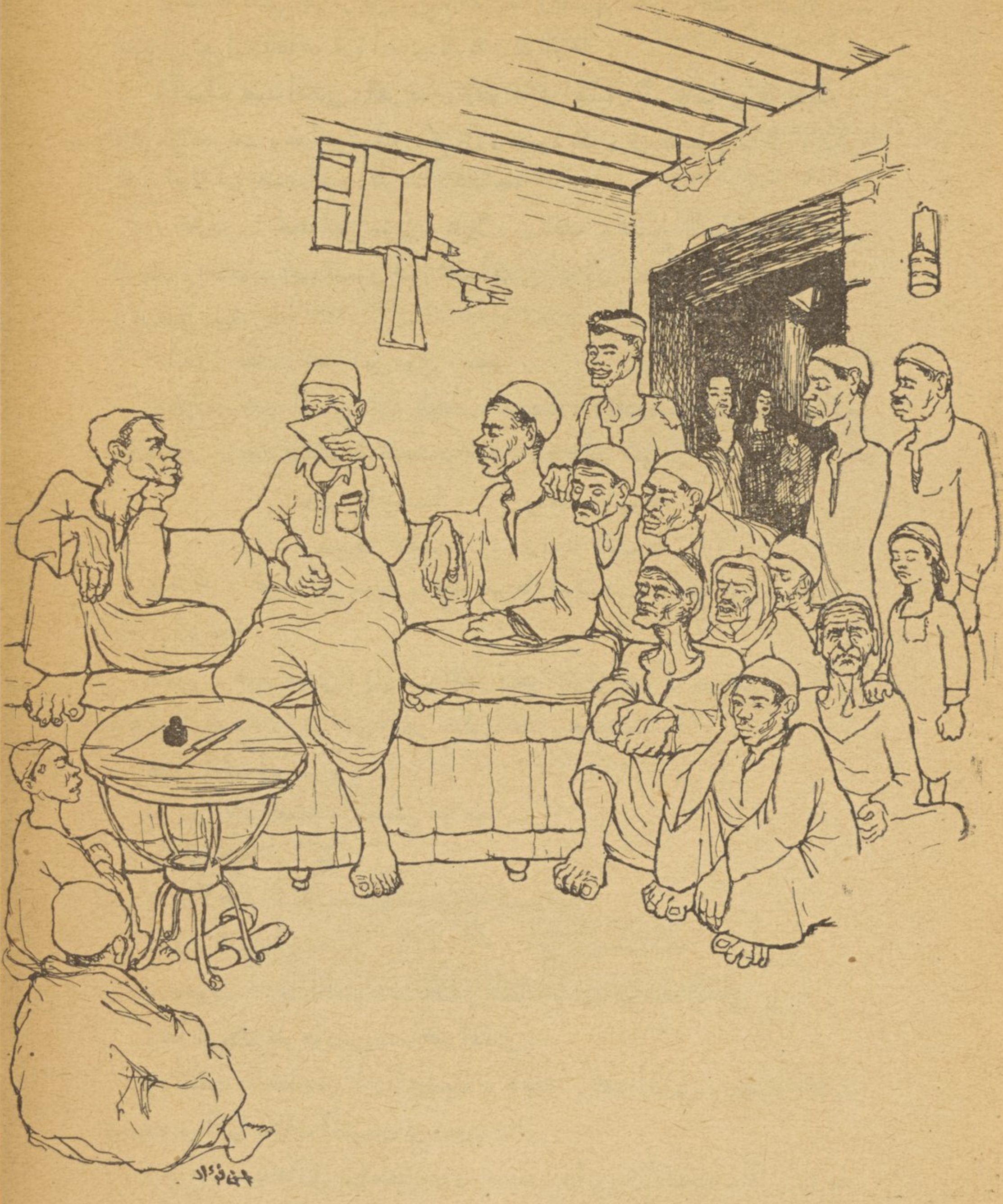

«وسكتوا حتى انتهى « محمد افندى » من قراءة العريضة

بنفسه إصبع أو خاتم كل واحد، ويضعه على العريضة فى صرامة .. وسط الضجيج الضاحك

وعند ما انتهى الناس من توقيع العريضة وبصمها طلب « الشيخ الشناوى » منهم أن يقرأوا الفاتحة مرة أخرى للبركة ، فقرأوها . .

وأمسك محمد أفندى « العريضة » وطواها فى عناية ، ثم غلفها بورقة نظيفة ، وهم بالإنصراف وهو يقول إنه رائح إلى « محمود بك » فى الصباح الباكر ولكن يجب أولا أن يحدث العمدة فلربما ذهب معه ! .

واعترض « محمد أبو سويلم » قليلا ، وناقشه « الشيخ الشناوى » وبعض الرجال واختلطت أصواتهم وصمم «محمد أفندى» على أن يذهب إلى العمدة بالعريضة ويعرضها عليه .

وأخيراً سكت « محمد أبو سويلم » مذعنا .

وتحرك « محمد أفندى » إلى الباب بالعريضة ، وكانت « خضرة » تقف مع « وصيفة » ونساء قليلات فزغردت « خضرة » وبدأت تغنى :

مين يعانينـــا واحنا السبوعة

وسيوفنا دهب واحنا السبوعة

وصاح « محمد أبو سويلم » فيها ينهرها فسكتت ، وسط تفاؤل الرجال بنجاح العريضة .

ومشى « محمد أفندى » إلى باب الدار وهو يقول بصوت مرتفع إنه الآن ذاهب الى العمدة ، وغداً من الفجر سيكون عند « محمود بك » !

فقال « محمد أبو سويلم » :

- بس إياك العمدة ما يعملش فيها ملعوب !

وسكت قليلا ثم أكمل :

- حاكم هوه أبو الملاعيب ! لعبت عليه نفسه !

فقال « الشيخ يوسف » :

- ملعوب ؟ ! ما يمكنش ! ما يمكنش أبداً ! ودى تبقى بلد إيه دى بقى ؟

وبدأ الرجال يخرجون وراء « محمد أفندى » .

ولاحظت « خضرة » أن « وصيفة » تابعت « محمد أفندى » بنظرة إعجاب فهمست فى أذنها بكلمات أضرمت فى وجهها النار .

وخرج « عبدالهادى » فاضطربت « وصيفة » وألقى عليها التحية ونظرة سريعة مليئة .. وازداد اضطرابها . .

وعادت « خضرة » تهمس فى أذنها .

فغاض لون « وصيفة » وابتسمت .

كانت هذه هى أول مرة تشعر فيها « وصيفة » بشىء مجهول يزحف إلى قلبها ، ويكاد يعصره !

وهمست لها « خضرة » وهى تتحسس قلبها متعابثة :

- عبد الهادى !!

فتنهدت « وصيفة » وسكتت ، فقالت « خضرة » :

- يبقى سى محمد ! يبقى محمد أفندى ! عبد الهادى والا محمد أفندى ؟ مش تقولى ؟ يا أختى بلا دوخة !

فانتبهت « وصيفة » على نفسها فجأة وتضرم وجهها ، ونهرت « خضرة » بعنف وارتعش بدنها ورأسها فى حيرة وتلاحقت أنفاسها وكادت تخنقها الدموع !

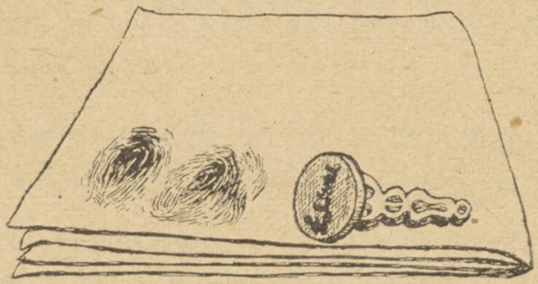

— ٦ —

مر أسبوع كامل على كتابة العريضة .. والقرية تنتظر .

وبعد صلاة الجمعة ، رفع « الشيخ الشناوى » من على أرض المسجد كتابه العتيق الأصفر الذى يقرأ منه خطبة فى صلاة كل جمعة ، ودس الكتاب فى جيبه ، ووقف فى مكانه من المسجد عند « القبلة » وطلب من الناس أن ينتظروا .

وسار فى خطوات بطيئة وهو يمسح كرشه الضخم ، ولحيته الشيباء تهتز على وقع تمتمات التسبيح . . وأخيراً بلغ الدكة التى يجلس عليها مقرىء الجمعة فى قلب المسجد .

ووقف « الشيخ الشناوى » على دكته بقامته المديدة وجلبابه النظيف التى لا يلبسها إلا فى صلاة كل جمعة ، وأمامه — على الحصير الممزق المتآكل — جلس الفلاحون بعضهم يحك القدم بالأظافر والآخرون يمدون الرؤوس متطلعين .

وقال « الشيخ الشناوى » إن الله ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها . . وسكت الفلاحون . .

انهم منذ أيام ينتظرون هذا الماء بالتحديد ، ولم يحدث بعد شىء على الإطلاق يطفىء الأرض المسكينة . . لا أمر من الحكومة . . ولا معجزة من السماء !

واستمر « الشيخ الشناوى » يلوح بيديه ، ويتحدث عن حكمة الله ، ولعنته التى أنزلها على القرية لأنها تعصاة ، فلا تصلى ، كما أنزل لعنته على عاد وثمود !

وظل ـ بعد كل مقطع من الموعظة ـ يذكر الفلاحين بأن الله قادر على أن ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض .

وتحرك أحد الفلاحين فى ضجر وتساءل آخر فى همس : ماذا يعنيهم الآن من عاد وثمود ! ان كل ما يعنى القرية هو الماء وما تصنعه حكومة حزب الشعب .

وتململ رجل فى آخر الجامع ووقف قائلا :

ـ ده كلام ايه ده ياسيدنا ؟... بقى يعنى ربنا حاينزل النطرة فى الصيف علشان خاطرك ؟ وهوه يعنى كان ربنا اللى حاش اللمية ! هوه خلاص مفيش حد فسدان غير بلدنا !

وهاج سيدنا ومد يده فى الفراغ ، كانه يبحث عن عصاه .

ولم تكن معه عصا بالطبع فأمر الجالسين بأن يخرجوا هذا الولد . . فقد ركبه ابليس ... ووجوده فى الجامع نجاسة .

ولم يتحرك أحد من الفلاحين . وقام الفلاح الشاب وحده وهو يكتم ضحكة قائلا :

ـ ياسيدى بركة ياجامع ... أنا كان حاينوبنى ايه من الوعظ ده غير قطع الرزق ؟ طب دا أنا مستأجر من البيه قيمة ما أهف الركعتين وأرجع على طول !

وأسرع الرجل إلى خارج الجامع وركض إلى عزبة « محمود بك » .

أما « الشيخ الشناوى » فاشتد حنقه وصاح :

ـ ياك تتهف بالمرزبة فى جهنم وبئس المصير .

ثم تتابعت من فمه آيات العذاب والنار ، وأحاديث لا نهاية لها تصف الجحيم ، وحكايات عن فرعون وموسى .

كان يروى الأحاديث بلغة القرية ، ولا يعنى أبداً بأن يقول الكلمات الصحيحة التى أوردتها كتب الأحاديث .

وكان مولعاً بقصص موسى وفرعون وعاد وثمود ، يرويها كما لو أنها وقعت فى القرية تماماً بنفس اللغة ونفس الاشارات .

وتململ « عبد الهادى » وهو يسمع وعظ « الشيخ الشناوى » وانسحب فى هدوء فازداد غضب الشيخ ولم يقل شيئاً . .

لم يكن « عبد الهادى » خالى البال ، ولم يكن لديه وقت للصلاة أكثر مما راح فى الجامع .

وعندما التقى « بالشيخ الشناوى » بعد صلاة العشاة على مصطبة « محمد أبو سويلم » كما تعود ؛ عاتبه سيدنا لأنه ترك الجامع قبل أن ينتهى الوعظ ، ولم يجبه « عبد الهادى » ولم يحاول استرضاءه .

وعلى المصطبة عاد سيدنا يكرر ما قاله فى الجامع ، وما قاله على نفس المصطبة منذ أيام :

« إن اللعنة تحل على القرية لأنها لا تصلى وتعصى أوامر الله »

على أن « عبد الهادى » لم يحاول أن يناقشه .. لقد تعود أن يسمع نفس الحكايات والأحاديث فى كل ليلة وهو صامت .

« وعبد الهادى » مشغول بمسألة الماء حقاً .. ولكنه قد بدأ يشغل بشىء آخر جديد : فقد لاحظ أن « خضرة » التى تعيش فى القرية بلا أرض ولا أمل ولا سمعة ، والتى تستطيع أن تقول أى كلام وتصنع أى شىء .. « خضرة » هذه الضائعة ، قد بدأت تتردد على منزل « محمد أبو سويلم » أكثر مما ينبغى ، وتهمس فى أذن « وصيفة » وتطلق ضحكات يسمعها الرجال الجالسون على المصطبة .

« وعبد الهادى » يعرف أن « محمد أفندى » يستعمل « خضرة » أحياناً لتدبر له لقاء مع بعض الفتيات والنساء المخبآت .

وقد لاحظ أيضاً أن « وصيفة » تحرص على أن تحمل القهوة بنفسها إلى الرجال حين يكون « محمد أفندى » جالساً معهم ؛ أما عند ما لا يكون « محمد أفندى » موجوداً فهى ترسل « خضرة » بصينية القهوة .. أو تنقر على الصينية بفنجان فيقوم أبوها ويعود بالقهوة .

ومع ذلك «فعبدالهادى» ليس فارغ القلب تماما ليراقب هذه الأشياء ويتابع ما يمكن أن يقع بين « وصيفة » « وخضرة » « ومحمد أفندى .. » إن مسألة الماء الذى قطعته الحكومة عن القرية تطارد فكره بالنهار وبالليل .

وكان « عبد الهادى » يسمع ما يقوله الشيخ الشناوى ويعجب ! .

من الحق أنه لم يحاول على الاطلاق أن يناقشه ، ولكنه كان يفكر دائما فى كل ما يقوله « سيدنا » .

إن « الشيخ الشناوى » هذا يتحدث بلا انقطاع عن اللعنة التى حلت بالقرية لأن أهلها لا يصلون .. « والشيخ الشناوى » أحيانا يتحدث فى إجلال عن أمر الله الذى قضى بأن تحرم القرية من الماء خمسة أيام لينعم به « الباشا » قريب « محمود بك » جزاء وفاقا لأنه يؤتى الزكاة ، بينما القرية تمنع الزكاة ! .

ولكن « الباشا » لا يصلى .. تماما كالقرية !

ولئن كان يخرج الزكاة ، فما ذلك إلا أنه يملك الكثير . أما القرية فكم من الرجال فيها يملك ما يدفعه للزكاة ؟ ! .

إنها ليست كالقرى البعيدة التى سمع عنها « عبد الهادى » .. هذه القرى التى لا يملك أهلها من أرضها شيئا ، وإنما يشتغلون أنفاراً لحساب مالك الأرض الذى يملك أحيانا أراضى عدة قرى . . .

ومع ذلك فان أهل قرية « عبدالهادى » لا يملكون ما يدفعونه للزكاة .. وفى تلك القرى البعيدة التى سمع عنها « عبد الهادى » لا يدفع صاحب الأرض زكاة ولا يؤدى صلاة ، ومع ذلك فالماء يجرى فى أرضه ، والحبوب تتكدس فى مخازنه ، وغضب الله لا يعرف طريقا إليه . وهذا الرجل يسرق من الأنفار ، ويشرب الخمر فى نهار رمضان ، ويغتصب الفتاة التى تعجبه ، ويظل بعد كل هذا بعيداً عن غضب الله .. ولا تحجز الحكومة على أرضه بل تغدق عليه الماء !

ظل « عبد الهادى » يفكر فى كل هذا . . . ويعجب لهذا الذى يقوله « سيدنا الشيخ الشناوى » .

ولقد همس « عبد الهادى » لنفسه ذات ليلة قبل النوم بأن «الشيخ الشناوى» لو كان يملك أرضا فى القرية لما قال هذا الكلام !

لو أن « للشيخ » أرضا يختلط عرقه بترابها ، ولو أنه رآها تتشقق من الجفاف تحت عينيه بعد أن شقى فيها ، ورأى أذرته الصغيرة الغضة تذوى كأطفال يموتون.. لو عرف الشيخ الشناوى كل هذا لسكت !

لو كان سيدنا يملك قيراطا واحداً على الأقل . . . ولو أنه أعمل فيه الفأس ، وانحنى عليه وحفر له القنوات ، لما اعتقد أن أمر الله هو الذى حرم القرية من الماء لينعم بها « الباشا » ، ولروى أحاديث أخرى . . . ولآمن أن الحكومة — لا الله — هى التى تحرم أرض الفلاحين من الماء وتميت أعواد الذرة الغضة ، ولتأكد أن الحكومة وحدها — لا الله — هى التى تصنع المصائب !

إن سيدنا هو الآخر - كخضرة - لديه شىء يبيعه للذين يملكون المال والجاه والكلمة .. ولا يعنيه إلا أن يبيع الشىء الذى يملكه . . ولتهلك بعد هذا أرض القرية !

إن الذين يملكون أرضاً فى القرية يضعون أيديهم فى النار . . أما سيدنا فهو - كخضرة - يده فى الماء ، ولهذا يقول كما يشاء . .

ولو كان له أرض لا لتهى ! .

وهكذا ظل « عبد الهادى » يفكر فيما يقوله « الشيخ الشناوى »

وألحت عليه أفكاره هذه عن الشيخ .. ويوماً بعد يوم ، لم يعد يحتمل أن يسمع من الشيخ حديثاً عن الجنة والنار والصلاة واللعنة والعقاب والزكاة والزنا والخراب والجزاء الوفاق ...

كان كلما استعاد وحده كلام سيدنا ، تخايلت أمامه صور فاجعة عن الأرض الملتهبة من العطش ، والذرة التى اصفرت ، ويزحف على صدره كابوس خفى ثقيل ، وتملأ الأفكار المخيفة رأسه وترهق منه الأعصاب ! .

ومع ذلك فقد ظل « عبد الهادى » يجلس مع « الشيخ الشناوى » بعد كل عشاء على مصطبة « محمد أبو سويلم » ومعهما « محمد أفندى »

وكان « عبد الهادى » يختلس النظرات إلى « وصيفة » حينما تقدم لهم القهوة .. نظرات فيها القلق والرغبة فى الطمأنينة والحلم الواسع بأن يزع أرضه فى أمان ، ويملك زوجة وأولاداً .

وذات ليلة قدمت « وصيفة » صينية القهوة إلى أبيها ليوزع القهوة على الرجال فأسرع « محمد أفندى » فى خفة رشيقة وتناول منها الصينية ، وعطره يفج أمام المصطبة .

وابتسم « عبد الهادى » وسأل « محمد أفندى » فى صوت مرتفع عن مصـــير العريضة ؟ وعيناه تلمعان فى مكر ...

وسكت «محمد أفندى» قليلا قبل أن يقول إنه سمع من العمدة أن « محمود بك » ثار عند ما قرأها واتهم لغتها بقلة التهذيب . ووعد « البيه » أن يكتب بنفسه عريضة أخرى .. فقاطعه « عبد الهادى » بصوت أكثر ارتفاعاً :

ـ ما احنا عارفين ده كله ! أنا باسأل على العريظة اللى حيكتبها محمود بك ..

ما احنا عارفين حكاية العريظة الأولانية ياسى محمد ، وعارفين ان « محمود بك » قال ازاى الفلاحين يقولوا كلام زى ده عالحكومة وقال كان مين ابن الحمار اللى كتب العريظة ؟! عارفين ياخويا عارفين ...وراسيين قوى على الدور كله !

وامتقع « محمد أفندى » واختلج ..

كان صوت « عبد الهادى » يصل إلى دار « محمد أبو سويلم » حيث عادت

« وصيفة » لتجلس على قالب من الطوب إلى جوار «خضرة» ، وتصغى إلى همساتها المتلاحقة العابثة .

وأحس « عبد الهادى » بحرج « محمد أفندى » فامتلأ بنشوة غامضة وهو يراه مرتبكا أمامه .

فعبد الهادى يحسب أن « محمد أفندى » ربما كان قد أرسل خضرة إلى «وصيفة» لتقودها إليه . .

وفضل « عبد الهادى » ألا يتكلم وظل يراقب «وصيفة» وكل شىء من بعيد .

لم يتح « عبد الهادى » أبدا « لوصيفة » أن تخرج من دارها فى الليل . . . فقد تعود أن يظل جالساً على المصطبة بعد أن ينصرف « الشيخ الشناوى » وحتى بعد أن ينصرف « محمد أفندى » . . إلى أن يغلق « محمد أبو سويلم » باب داره عليه هو وابنته وزوجته .

وشعر « عبد الهادى » أن « محمدأفندى » يوشك أن يتزايل من الخجل والضيق فهجم مزمجراً فى ضحكة باردة :

ـ يعنى لسه ما عرفتش ان محمود بك قال عليك ابن الحمار ، ؟ ! . والا يعنى ماعرفتش ؟ ده العمدة حكى للدنيا كلها ، وألبت ما حكى لك كمان . . والا إيه ! ؟ يامحمد أفندى دا أنا فاهمك قوى ! فاهمك قوى ياخويه وفاهم الدور كله ! أنا فاهم الدور وحياة النبى ! . . قوى قوى . . . حاكم المسألة طينت . . .

وأكمل « عبد الهادى » لنفسه هامساً :

ـ دول ما كانوش أربعة جنيه بيقبضهم كل شهر ويدوس بهم على الدنيا ، ابن الحمار ده كمان !

وقبل أن يجيب « محمد أفندى » ، وقبل أن ينتهى من همسه لنفسه تدخل « الشيخ الشناوى » فى الحديث .

وعاد « الشيخ الشناوى » يقول نفس الكلام الذى ما برح يقوله عن اللعنة والحساب والجزاء الوفاق .

وانفجر « عبد الهادى » قائلا :

ـ دهده يا سيدنا ؟ . . ما بلا وجع دماغ بقى ! فلقتنا من الكلام ده ، هوه ربنا كان هوه اللى حاش الميه عنه ! وإلا المهندز والحكومة هم اللى حاشوها ؟ ! طب

ما هى بتجرى فى أرض الباشا زى الحلاوة ! اطلع كده لحد المركز وشـوف أرض الباشه ! آهى بتروى بالراحة ، من غير ما يدور ساقية ولا يشق بهيمة ولا يشغل وابور الميـه ؟ هو ربنا مش فاضى إلا لأذية بلدنا ؟ اسكت بقى والنبى يا سيدنا ! قطعت سبحتنا بالـكلام بتاعك دا اللى لا بيودى ولا بيجيب ! . حاكم انت بتمرح فى قتة محلولة زى بغل الوسية ، لا مال ولا هبة ! باكى على ايه كده ؟

وانفجر الشيخ « الشناوى » يشتم « عبد الهادى » ويلعن قلة حيائه ، ويتهمه بالـكفر والمروق ، بينما ارتفع صوت « محمد أبو سويلم » :

ـ دهدى ! هيه ؟ ! ما تصلوا بنا على النبى يا جدعان ، وتقولوا لنا بس نعمل إيه ؟ البيه محمود لا هو اللى خد العريظـة وسافر بها مصر ، ولا هو اللى كتب واحدة جديدة ! والزرع أهوه حايموت والحمد لله ! حا نقعد كل مرة نخطف اللمية ونستحمل رزالة شيخ البلد ؟ عايزينها تنحل قبل دور الميه الجاى ! . كانت شوره غبرا شـورة العريظة دى ! والشـيخ يوسف أهوه مرزى فى دكانه من يوم البيه ما هاج عا العريظة ! باين عليه خايف ! كانت شورته مهببة ، وشورتك يا سى محمد كمان ! قلت لـكم بلاش العمدة ، نطيت لى يا محمد افنـدى انت والشيخ يوسف ! أقول لـكوا العمدة راح يعمل فيهـا ملعوب ، ده أبو الملاعيب ، وأنا عارفه ، تقولوا : لأ ما يمكنش أبداً ! آدى آخرتها ! ما قولك بقى يا سى محمد افندى ! آديك طلعت ابن الحمار ! آهم قالوا عليك ابن الحمار ! ويا عالم .. ! يمكن العمـدة هو اللى مطلعها من عنده ؟ تلاقى العمدة الـكهين هو اللى قايلها من عنده علشان يهزأك فى وسط البلد .

وسعل « محمد افندى » ، واستـكثر أن يقول العمدة عنه شيئا كهذا ، وبدأ يشرح سر غضب « محمود بك » على العريضة :

قال « محمد افندى » إنه كتب العريضة بفصاحة نادرة ، وأنه ـ من فرط الفصاحة ـ كتب قال « ان الفلاحين إذا قطعت منهم خمس أيام رى فإنهم سيفترشون الغبراء ويلتحفون السماء » . وهـذه الجملة من أساليب المنفلوطى البليغة . غير ان محمود بك لم يفهمها كما يجب ، فاعتبر الجملة تحدياً للحكومة وإهانة لوزير الأشغال ونشراً للفوضى .

فاعترض محمد أبو سويلم :

ـ أساليب من ! ؟ مين ؟ وإيه اللى قال لك تكـتب بأساليب ؟

واسترسل « محمد افندى » يشرح ما دار بين العمدة و «محمود بك» فقال إن « محمود بك » قذف بالعريضة فى وجه العمدة ، وشتمه لأنه يحمل ورقاً فيه كلام كهذا ، ثم تساءل إن كان الفلاح ينام على الأرض أم على السرير وهل يلتحف بلحاف ؟ .

وعند ما وصل « محمد افندى » فى شرحه إلى هذا المدى قاطعه « عبدالهادى » ضاحكاً فى شماتة ساخرة :

ـ وهى الغبراء دى اللى انت كتبتها فى العريظة ، يعنى الأرض ؟ ياعيشتك غبرا يا محمد افندى ! » طب على كده بقى ده محمرد بيه له حق فى اللى قاله عنك . ده انت تبقى صحيح كده بقى .. زى ما قال محمود بيه .. هو الله يرحمه عم رضوان كان بينام عالسرير ؟ احنا بننام على سراير يا سى محمد يا بو رضوان يا بتاع .. لا سيما ؟ ! .

وضحك « محمد أبو سويلم » وقال « الشيخ الشناوى » ضاحكا :

ـ جاتك الغم يا واد يا عبد الهادى فى طولة لسانك ...

ثم التفت إلى « محمد افندى » مستمراً فى ضحكاته وهو يحاول أن يصنع نكتاً من القرآن .

ـ أيوه يا محمد افنـــدى صحيح ! هو احنا يعنى بننام على سراير ؟ على سرر مرفوعة ؟ وإلا على نمارق مبثوثة ؟ . والا يمكن على أرائك مصفوفة ؟ دا احنا نبقى فى الجنة بقى !

وغمرت ضجة الضحكات زفرات الضيق التى أطلقها « محمد افندى » فى صمت .

ثم تحرك « محمد افندى » واستدارت رأسه ، كأنما يريد أن يقتحم بعينه دار « محمد أبو سويلم » ليطمئن إلى أن « وصيفة » لا تسمع .

وكانت « وصيفة » من داخل الدار تتابع أحاديث الرجال موزعة النفس .

لقد روعها أن « عبد الهادى » ظل يلوح لمحمد افندى بأنه يفهم الدور كأنما هو يعرف سراً خاصاً مفزعاً ، لا يريد أن يبوح به .

وخشيت « وصيفة » أن تكون « خضرة » قد باحت « لعبد الهادى » بشىء ، وسألتها فأجابت « خضرة » مسرعة وهى تدق صدرها فى استنكار .

ـ يا حومتى ! ينقطع لســانى إن كنت قلت لعبد الهادى حاجة عن محمد افندى ، والا حتى اسمه جه على لسانى وأنا بكلم عبد الهادى ! إن شا الله يا رب

ينقطع لسانى من اللغلوده إن كنت قلت حاجة لعبد الهادى ! يا حسرتى يا وصيفة ! دى تبقى فتنة والفتنة حرام ! دى الفتنة أشد من القتل . دا أنا باخاف من ربنا !

واطمأنت وصيفة إلى ما قالته « خضرة » .

وكانت « خضرة » تعطى نفسها حقاً لفتيان القرية بأى ثمن يدفعونه ، حتى بخيارة طريه فى يوم حار ، وكانت تقوم بخدمات كثيرة لمحمد افندى ولعبد الهادى مع أخريات . ولكنها مع ذلك كنت تخشى الله ! .

كانت تعرف ان الفتنة أشـــد من القتل ، وتحرص إلى آخر حد على أسرار الفتيات والنساء اللواتى تتوسط عندهن لمحمد افندى أو لغيره من شباب القرية . .

وفى الحق أن « عبد الهادى » هو الذى فطن لوحده إلى شىء ما بين «وصيفة» و « محمد افندى » . ربما لأنه أحس بانصراف « وصيفة » واهتمامها المفاجىء « بمحمد افندى » . هذا الاهتمام الذى كان يتخذ مظهره دائماً فى عنايتها بالقهوة ، وخروجها بالصينية إلى الرجال حين يكون معهم « محمد افندى » .

واستطاع « عبد الهادى » أن يخمن كل ما حدث :

أدرك أن « خضرة » فهمت بممارستها للنساء والرجال أن « وصيفة ! معجبة بمحمد افندى .

ويمكن أن يكون « محمد أفندى » حدثها عن « وصيفة » فكلمت هى « وصيفة » عنه ، فنهتها « وصيفة » عن الخوض فى حديث كهذا أول الامر . . وربما كانت « خضرة » قد مالت عليها وقالت لها كلمات مفتوحة صريحة عن علاقات الرجال والنساء ومست فى يسر كل الرغبة التى تعانيها « وصيفة » والاضطرام الذى تخفيه وراء ستار ثقيل من الحياء والخوف والجزع .

ربما حدث هذا فتلعثمت « وصيفة » وهزتها المبالغة ، واضطربت وهى تجد روحها عارية تماما أمام « خضرة » فطردت « خضرة » من دارها . . غير أن محمد أفندى كان قد وعد « خضرة » بخمسة قروش لو أنها نجحت فى تدبير خلوة بينه وبين « وصيفة » وأعطاها بالفعل قرشين كمقدم أتعاب . وعادت « خضرة » تحتال على « وصيفة » وما زالت بها تحدثها وتقلب دماغها حتى اعترفت لها « وصيفة » بأنها تريد « محمد أفندى » ولكن فى الحلال ، وفى الحلال وحده ! فان عاز « محمد أفندى » الزواج منها فهى لا تمتنع عن مقابلته فى خلوة . . ولكنها تخاف من « عبد الهادى » ومن أبيها ! وقالت « خضرة » كل هذا « لمحمد أفندى » ،

فبدأ يشعر بضيق من « عبد الهادى » ويفكر فى طريقة مأمونة للقاء « وصيفة » دون أن يتورط فى خطبتها من أبيها .

كان « عبد الهادى » قد أدرك هذا كله من معرفته الخاصة لأسلوب « خضرة » مع نساء أخريات أرادهن هـو . . ومن مراقبته الخاطفة « لمحمد أفندى » « ولخضرة » « ووصيفة » .

وأدرك « عبد الهادى » مع كل هذا ، ضيق « محمد أفندى » به ، وحرجه كلما تكلم إليه ولم يكن « عبد الهادى » على أية حال يخفى عن « محمد أفندى » نفس المشاعر .

غير أنه فى تلك الأيام كانت القرية لا تستطيع أن تفكر طويلا فى شىء غير الماء الذى منعته الحكومة .

وفى تلك الأيام بالذات كان أهل القرية جميعا قد عرفوا أن مياه خمسة أيام من أيام الرى قد أخذت منهم لتعطى لأرض الباشا القريبة من مدينة المركز عاصمة الاقليم .

ومع ذلك فقد كان الفلاحون يحاولون أن يرووا أرضهم من النهر الصغير أو الترعة الكبيرة بطريقة ما فى ساعات الظهر التى لا يمر خلالها رجال الرى متعرضين أثناء هذه المحاولات لإهانات شيخ البلد الذى أقسم لهم أنه بصفته « نائب الحكومة » سيوقعهم كلهم فى مصيبة ، ويكتب أسماءهم فى ورقة ويرسلها بإشارة تليفونية إلى المركز ، ليحبسهم الحكام هناك .

وعلى الرغم من هذه التهديدات ، فقد كان الفلاحون يضحكون ساخرين بنائب الحكومة وهم يسألونه لماذا تأخذ الحكومة منهم ماء النيل لتعطيه للباشا الذى يملك ماكينات تجلب الماء من بطن الأرض ؟

وفى تساؤل الفلاحين عن سر تصرف الحكومة معهم ، لم يصدقوا أبداً ما كان يقوله لهم « الشيخ الشناوى » عن اللعنة وغضب الله والجزاء الوفاق .

إنهم يعرفون — بتجاربهم وحدها — ان الحكومات التى تقبل فتعتمد فى الانتخابات على رجال المركز وأصوات الموتى والغائبين ، وتفصل عمدة من قرية وشيخ خفراء من أخرى ، وتنقل مدرساً من هنا وناظراً من هناك ... هـذه الحكومات نفسها هى التى تمنح الباشا دائماً كل مايريد !.. ولقد أوشكت إحدى هذه الحكومات منذ أعوام قلائل أن تنتزع الأرض من أيدى الفلاحين فى عشرين

قرية لتنشىء سكة زراعية تمر بعزبة الباشا القريبة من المركز .. سكة تصل بين المركز وطريق القاهرة ، رغم ان الجسر هو الطريق الطبيعى القديم الذى تأتى منه مركبات الحكام فى أيام الانتخابات ، والجرائم ، ولو أن الحكومة أصلحت هذا الجسر لما نزعت سهما واحداً من أرض فلاح .

الفلاحون يعرفون هـذا كله . ويعرفون ان الباشا قد بنى لنفسه قصراً كبيراً على حدود أرضه على الطريق الذى كان يريد شقه . ولكن تلك الحكومة سقطت فلم يفكر أحد فى شق هذا الطريق مرة أخرى ... وعاد التفكير فى اصلاح طريق الجسر ، وانزوى الباشا ولم يكمل بناء قصره ، ولم تعد له كلمة فى القاهرة ، وانزوى قريبه محمود بك هو الآخر ولم تعد له كلمة عند الحكام فى عاصمة الاقليم .

ويعرف الفلاحون مع كل هذا ، أن الحكومة التى لم يكن للباشا عليها كلام نافذ ، قد أجرت الانتخابات عليهم هم الأحياء ، لا على أصوات الموتى ورجال المركز ، ولكنها ذهبت لأن الانجليز أرادوا أن تذهب . بعد أن أرسلوا سفينة حربية إلى الاسكندرية !

الفلاحون يعرفون هذا . ويعرفون أن الحكومة الجديدة قد جاءت تخلقت حزب الشعب وبدأ العمدة يعد كشوف الانتخابات ، ويكتب أسماء الأموات والغائبين عن القرية ويحشد الرجال بالقوة .

وعلى الرغم من أن القرية قاطعت الانتخابات فقد أصبح لها نائب هو الباشا .. وأصبح من رجالها أعضاء فى لجنة الثلاثين التى كانت تختار النائب .

ورغم أن البلد كلها قاطعت الانتخابات ولم يدخلها إلا حزب الحكومة والمنتفعون به فالحكومة تقول إنها تمثل مصر ، وإن حزبها يمثل الشعب ..

والفلاحون يعرفون أن « الشيخ يوسف » كان من بين الأعضاء الثلاثين ، ومع هذا فقد كان يسخط على العمدة فى النهار والليل ، ويسخط فى سره على « البيه محمود » وعلى الحكومة والنائب وحزب الشعب ؟

ولقد ندم « الشيخ يوسف » على اشتراكه فى الإنتخابات وظل شهوراً طوالا يشعر بالخجل .

وعاد يقف مع القرية ...

وعند ما امتنع عن دفع المال ـ كما امتنع أهل القرية ـ وحجزت الحكومة على نصف ما يملك ، أعلن سخطه على الحكومة ولم يعد يهمس به .

لم يعد « محمد أبو سويلم » شيخا للخفراء بعد ،
ولكنه ظل مع هذا محتفظا بمكانته فى القرية . .

وتعود أن يجلس فى دكانه ويشتم حزب الشعب والعمدة والباشا والنائب والانجليز والحكومة جميعاً . . وأخذ يعدد الفظائع والبشاعات التى ترتكبها الحكومة . .

وكان الفلاحون يدركون أنه فى غمار كل هذا فصل «محمد أبو سويلم» - الرجل الشهم - من مشيخة الخفراء . . ونقل « الشيخ حسونة » خال محمد أفندى وأصبح مدرساً فى آخر فى الدنيا ، بعد ان كان الناظر المحترم فى المدرسة الأولية بالقرية المجاورة . . حدث كل هذا للقرية بينما ارتفع صوت العمدة من جديد، وعاد « محمود بيه » يزعق ويخبط فى الناس من يمين وشمال ويضرب الفلاحين بالكف والرجل ، ويرسل من لا يروقه من أهل القرى المجاورة إلى المركز ليذوق العذاب ؟ . .

وما زالوا يذكرون أن رجالا من قرى أخرى مروا عليه فى عزبته الصغيرة وهم يركبون الحمير قائلين « دستور » دون أن ينزلوا ، فلم يقل لواحد منهم « دستور معك » كما هى العادة ، وإنما أرسلهم إلى المركز وأقام كل منهم أياماً فى الحبس حيث شرب بول الخيل بعد أن حلقوا له نصف شاربه وظل يضرب ويضرب . . ثم ما برح بعد ذلك يضرب . . حتى قال لهم كما طلبوا منه إنه إمرأة . . .

كان الفلاحون يعرفون هذا . . ويعرفون أيضاً أن الباشا قد شرع يتمم بناء قصره الكبير ، وبدأوا يتوقعون - منذ إنضم هذا الباشا لحزب الشعب - أن يشق الطريق الزراعى الذى يريده ، وأن ينزع من - أجل هذا الطريق - ما بقى لهم من الأرض ، التى هى عندهم كل الأمس واليوم وكل الغد . . .

وكان الفلاحون حين يتذكرون كيف بدأ الأمر بحرمانهم من الماء من أجل الباشا يهزون الرؤوس وفى النفوس منهم تختنق الحسرات ، وقلوبهم تخفق بالوجل .. وبخوف حزين قلق من المخبأ فى الغيب ! . .

— ٧ —

ظل « الشيخ يوسف » فى دكانه لا يبرحه ، وكلما حاول بعض الفتيان أن يقفوا أمامه نهرهم « الشيخ يوسف » .

حتى الأولاد الذين كانوا يلعبون أمام الدكان فى الفضاء . . كان « الشيخ يوسف » يضيق بهم ويلعن آبائهم ويصرفهم !

ولم يعد يحتمل أن يجلس أحدهم على جذع الجميزة القديمة الملقاة أمام دكانه مستندة إلى التراب المتراكم على مر السنوات .

كان « الشيخ يوسف » خجلا من نفسه من يوم ما عرف أن « محمود بك » مزق العريضة ، وشتم أهل البلد كلهم !

وفى الحق إنه مع خجله هذا كان مسروراً ، لأن « محمود بك » قال عن كاتب العريضة « محمد أفندى » إنه : ابن الحمار .

لقد كان « الشيخ يوسف » يشعر فى أعماقه بأنه أجدر من « محمد أفندى » لكتابة العريضة فقد درس فى الأزهر بضع سنين ، بينما لم يذهب « محمد أفندى » إلى مصر أم الدنيا أكثر من مرة ، والمرحوم ـ أبوه ـ لم ير مصر على الاطلاق !

وكان « الشيخ يوسف » يشعر بضيق هائل من « محمد أفندى » ، « فالشيخ يوسف » يلوح له دائماً بأن يتزوج من ابنته ولكن « محمد أفندى » لا يهتم بهذا الأمر . . . ثم أن « محمد أفندى » هذا ، أقرضه مرة عدة جنيهات ليواجه بها التجار الكبار فى عاصمة الاقليم ، ولم يشأ « محمد أفندى » أن يقرضه لله فى الله كما كان يريد « الشيخ يوسف » ، وإنما صمم على أن يرتهن قطعة من أرضه . . . وبالفعل ترك له « الشيخ يوسف » حيازة الجزء الباقى من أرضه وركبها « محمد أفندى » بلا حياء . . .

وسمع « الشيخ يوسف » رجالا فى القرية يهمسون بأن « محمد أبو سويلم » كان على حق عند ما تخوف من العمدة « والاعيب العمدة » . . . وسمعهم يلومونه هو

« ومحمد أفندى » « والشيخ الشناوى » لأنهم صمموا على أن يذهبوا بالعريضة إلى « محمود بك » . . « فحمود بك » لا يمكن أن يسعى فى الغاء قرار أصدرته هندسة الرى لفائدة أرض الباشا فما مصلحة « البيه » فى إلغاء هذا القرار ! ؟ إن كان من أجل أرضه التى تقع فى زمام القرية ، فمن الممكن أن تروى على الرغم من قرار الهندسة ، وكذلك أرض العمدة . . والبركة فى كلمة « محمود بك » التى لا ترد !

* * *

هكذا كان يتحدث الفلاحون ويرن كلامهم فى أذن « الشيخ يوسف » فيملأه بالندم والحسرة . والفلاحون يعرفون أن العمدة هو رجل « محمود بك » ورجل حزب الشعب . . .

والشيخ يوسف نفسه مقتنع بكل هذا ، وبكل مايقوله الفلاحون ، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يذهب ليلقى « محمد أبوسويلم » ويعترف له بغلطته . لقد خاف أن تذله البلد كلها لهذه الغلطة !

وذات مساء ذهب « عبد الهادى » إلى « الشيخ يوسف » يسأله عن الخبر والسيرة وسر انقطاعه .

وتردد « الشيخ يوسف » قبل أن يتكلم ، فقد كان « علوانى » إذ ذاك واقفاً يحاول أن يشترى منه الشاى والسكر .

ولكن « الشيخ يوسف » اعترف بأنه محسور وحسرته قوية .

وسكت قليلا ، ثم قال إنه جر البلد إلى مصيبة ، وأنهم أخطأوا جميعاً حين اطمأنوا إلى العمدة « ومحمود بك » . . ثم أقسم أن « محمد أبو سويلم » رجل مجرب وعلى إنه لا يقرأ فهو يفهم أكثر ألف مرة من الذين قرأوا .

فقال «عبد الهادى» متحمساً . .

معلوم أبو سويلم له حق !

ـ يا أخى إذا كنا احنا قدرنا ناخد شوية ميه لحقنا بهم الأرض ، وشيخ البلد أهه هاص له شوية وانخمد ، يبقى محمود بك والعمدة ما يقدروش ؟ بقى ده كلام يخش عليك ياشيخ يوسف ؟ دول ياخدوا المية من عين الجن ياعم ! طب هى الهندزة رايحة تعمل ايه لمحمود بك ! قولى كده ! ما تقول ! وآهو محمود بك يدارى العمدة والعمدة اسمه الراجل بتاعه ! ياراجل ده من يوم الحكومة الغبرة

« ظل الشيخ يوسف فى دكانه لا يبرحه . . . »

دى ما حكمت البر . ومحمود بك تقولشى مدير المديرية ! جاب عربية بجوز خيل داير بها من العزبة للمركز ومن المركز للعزبة وقاعدلك مجعوص كده ! ركبة ! ركبة ! صحيح ركبة ميتين فدان ! مش تلاتين فدان عمى . .

ولكن « الشيخ يوسف » كان شارداً بعض الشيء . . .

ولم يكد عبدالهادى ينتهى من حديثه حتى انقض « الشيخ يوسف » يقول وكأنه وجد طريقاً للخلاص من ندمه . . .

ـ واحنا بس مشينا ليه ورا محمد أفندى ابن الحمار ده ! ياراجل سيبك من ذوات الأربع دول ، ولو انهم ما بقوش ذوات أربع من يوم ما جه صدقى بقوا ياخدوا اتنين جنيه مافيش غيرهم !

إسألنى أنا اللى عارف ! سيبك من الأفندية . . كل الموظفين ماهياتهم قلت ! إللى كان بياخد خمستاشر جنية بعد ما يطفح الكوتة فى التعليم ويتخرج من المدارس العليا بقى ياخد اتناشر أول عن آخر !

وهز « الشيخ يوسف » رأسه قليلا فى رضا عن الكلام الذى قاله ثم استمر يقول :

ـ ألا قول لى : محمد أفندى ده جاب الفهم منين ؟ . من أبوه ؟ والا يعنى جاب الفهم من أبوه ؟ ياراجل والله ده أبوه قلبه انقطع من أكل المش والعيش الدرة لحد ما مات ! وقال ايه جاى حضرته يشترى من عندى حلاوة طحينية ؟ ! ياسلام يا أولاد ! والله ياشيخ ده أنا لو كنت كملت فى الأزهر لكنت فقت عليه خالص ياجدع ! كنت بقيت لك مفتش عليه وللا ناظر ! . دا أنا زملائى اللى جاورو معايا وفلحوا ، كلهم داوقتى نظار ووعاظ ومفتشين ومدرسين فى الابتدائى الميرى ! قال محمد أفندى قال ! يكتب عريضة واحنا نمشى وراه ؟ ! يا أخى قول له يروح يدور على بنت صايعة يدخل عليها بقرش !

واهتز « عبد الهادى » إلى أعماقه وتذكر كل المشاهد التى اختلسها من خضرة وهى تضحك مع « وصيفة » .

ولم يقل « عبد الهادى » شيئاً .

ونظر طويلا إلى « الشيخ يوسف » وأخذ يرفع عينيه من على صدر الشيخ ـ وراء بنك الدكان ـ إلى عمامته الصغيرة ذات الشال الأبيض المتسخ ، ووجهه المقدد السقيم المتغضن الذى لا يبسم ، وكأن عليه غبار سفر طويل !

وعاد « الشيخ يوسف » يقول :

ـ حكم إحنا بلد خايبة .

وهز عبد الهادى رأسه موافقاً ، وشعر « الشيخ يوسف » أن « عبد الهادى » راض عنه وانه من الممكن أن يعود فيتحدث مع « محمد أبو سويلم » ويسمع منه « محمد أبو سويلم وعبد الهادى » والآخرون . . . فطاب نفساً . . . وابتسم . . .

وشاع فى وجهه النحيل الأسمر الملىء بالغضون سرور طارىء ومسح شاربه الرمادى الذى يغطى شفته العليا المتقوسة فى اشمئزاز ، يحمل طابع القرف من الحياة !

وانتهز « علوانى » الفرصة ، وشجعته ابتسامة « الشيخ يوسف » فانفجر بعد طول صمت ليقول وهو يلوح بذراعيه :

ـ ياسلام ياعم الشيخ يوسف ! كلامك حلو ! كله حكم ! بس ياخسارة يا ابا الشيخ يوسف لو كنت انت . . يعنى آه يا ابا الشيخ لو تبطل .. يعنى لو تخللينى ...

وقاطعه « الشيخ يوسف » ضاحكا بقوله إن المعاملة لا علاقة لها بالكلام الحلو ، وهو لن يعطيه الشاى والسكر على كل حال ما لم يدفع المتأخر عليه فالكلام باب ، والدفع باب ! .

وضحك « عبد الهادى » وأخرج قرشاً رماه على البنك الذى كان الشيخ يوسف يقف أمامه من داخل الدكان ثم ضرب « عبد الهادى » كتف « علوانى » بيده مطمئناً وقال « للشيخ يوسف » :

إدى لشيخ العرب طلباته .

ومضى « الشيخ يوسف » يفتح الأدراج ليحضر « لعلوانى » الشاى والسكر بينما تهلل وجه « علوانى » وانبسطت نفسه ، وأخذ يروى كيف أخذه مخدومه شيخ البلد ، وأمره أن يسحب معه البندقية المقروطة ، ومر معه على السواقى التى تدور خلسة .

وبعـد أن انتهى شيخ الخفراء من الطواف على سواقى الجسر أمر الناس أن يوقفوها وشتم وهدد ، ثم مضى إلى الترعة الكبيرة يفتش . . وفى الطريق قال « لعلوانى » إنه يرى أن الناس معذبون ! وطلب منه آخر الأمر أن يذهب وحده ليقطع الترعة التى تركت هندسة الرى الماء فيها لتسق أرض محمود بك وحده ، والمياه المثقلة بالطمى فى الترعة تمر عبر أرض القرية دون أن يسمح للقرية بالرى منها ! .

وهنا انخفض صوت « علوانى » ، ثم أوشك أن يهمس وهو يروى : كيف انتفض شيخ البلد حين طلب منه أن يذهب - دون أن يراه أحد - فيقطع جسر الترعة ، حتى إذا ارتوت أرضه ، سدها كأنها لم تنقطع !

وهز « الشيخ يوسف » رأسه وزفر وهو يسمع الكلام .

ولم يقل شيئاً لبعض الوقت وظل يدير نظره بين « عبد الهادى » والفراغ .

ثم رفع عمامته ذات الشال المتسخ ، وحك الشعرات الرمادية القصيرة فى مقدمة رأسه وهو يقول :

- سامع يا عبد الهادى ؟ سامع ! شايف شيخ البلد بيعمل إيه ؟

فأجابه « عبد الهادى » ساخراً فى مرارة :

- ولا العمدة اللى بيفتح الترعة عينى عينك ! حاكم المية دى مية أبوه ! هوه البيه وارثها .

ولم يعلق « الشيخ يوسف » وإنما وضع عمامته ، ونظر بعبوس إلى رجل يقف وراء عبد الهادى وقال له بغضب ودهشة وخوف .

- عايز إيه ياوله ! لابس رسمى كده وجاى هنا تهبب إيه ؟ إيه ياواد عبد العاطى ؟ ! .

والتفت « عبد الهادى » وراءه ، فوجد أحد الخفراء يلبس طربوشه الاسود الطويل وجلبابه الغامق ، ويقف مشدوداً : البندقية على كتفه ، وقدماه عاريتان .

ورفع الخفير وجهه ، وعيناه تنظران فى غير شىء ، وطلب من « الشيخ يوسف » و « عبد الهادى » أن يكلما حضرة العمدة لحاجة ضرورية !

فقال « عبد الهادى » فى استخفاف . .

- طب غور يا عبد العاطى ! غور أنت ! .

ولكن « عبد العاطى » لم يتحرك ، وظل يلح فى ثبات ورجاء أن يذهبا إلى الدوار معه ليكلما حضرة العمدة .

وتردد « الشيخ يوسف » قبل أن يجد كلاما .

ولكنه قال آخر الأمر أنه لا يستطيع أن يذهب الساعة ويترك الدكان !

ثم تساءل عما يريده العمدة . فقال له الخفير « عبد العاطى » أنه لا يعرف من الأمر شيئاً .

وعاد يلح عليهما أن يذهبا إلى الدوار وضع كل واحد ختمه ، ووقف كأنه مسمر أمام الدكان !

فصاح « الشيخ يوسف » مستنكراً .

- ختم ؟ ختم إيه يا عبد العاطى ؟ ده أنا قارى فى الأزهر أكثر من العمدة بتاعك ! بقى دى بلد ؟ ثم تعالى قول لى يا وله ! هوه جنابه عايز الأختام ليه ؟ رايح يختم البلد على إيه ؟

وترك « عبد الهادى » دكان « الشيخ يوسف » ومضى فى صمت إلى « محمد أبو سويلم » . .

أما « الشيخ يوسف » فقد ظل يصفق بيديه متعجباً ، ويشتم الخفير . والخفير يلح عليه فى ثبات أن يذهب إلى الدوار - بالختم - ليكلم العمدة ! .

وانصرف الخفير بعد قليل ، وبقى « علوانى » يسأل « الشيخ يوسف » عما يريده العمدة منه ، ويلح له بخدمات يمكن أن يؤديها ليريح « الشيخ يوسف » من العمدة . . والشيخ يوسف صامت ترتفع يده إلى عمامته فينحيها إلى أمام ثم إلى خلف ويرفعها أحياناً ليحك رأسه ثم يعود فيضعها وهو صامت على الدوام . .

وفى الحق أن الخفير عبد العاطى كان يعرف من الأمر شيئاً ولكنه لم يكن يعرف الأمر كله .

فقد مر رجال هندسة الرى فى منتصف الليلة البارحة فوجدوا آثار مياه فى القنوات الممتدة تحت بطن الجسر وتأكدوا أن الحقول حديثة عهد بالرى فعادوا إلى عاصمة الأقليم واتصلوا بالمركز . . يتصل بالعمدة فى التليفون ، وسمع العمدة فى التليفون ، وسمع العمدة كلاماً قاسيا من المأمور بعد أن سمع من ملاحظ البوليس تعريضاً صريحا بطرواته وليونته ، وسبا فاحشاً . . وأمه أيضا !

وامتلأ العمدة بالحنق ، ولكنه حمد الله بينه وبين نفسه لأن أحداً لم يسمع ما قاله له الملاحظ أو المأمور .

كان العمدة رجلا أصفر ، صغير الجسد ، دقيق التكوين ، خفيض الصوت . وكانت لحيته القصيرة بيضاء نظيفة ، تضفى مهابة خاصة على ما حفرته الشيخوخة فى وجه . . . وكانت الابتسامة تشيع دائما على محياه ، حتى عندما يغضب ! .

والعمدة هو أحد الذين ذهبوا إلى الأزهر قبل أن يذهب إليه « الشيخ يوسف » بسنوات طوال ، وأقاموا فى القاهرة حينا حتى إذا لحق بهم جيل آخر عادوا ، وتركوا أحلامهم فى القاهرة - المدينة الضخمة - وأقبلوا فى هذه القرية أو تلك على الحياة تلهبها المطامع . . ولكن بلا أحلام !

ولم يكد العمدة يستريح من حمد الله لأن أحداً لم يسمع شيئا من كلام المأمور أو الملاحظ وبصفة خاصة الملاحظ ـ حتى وصلته أشارة تليفونية فيها تنبيه له إلى وجوب مراعاة لائحة الرى الجديدة ، وإلى أنه سيكون مسئولا عن المخالفة فى المرة القادمة ، ما لم يقدم أسماء الذين خالفوا وقام العمدة من فوره متحمسا ، ليذهب إلى « محمود بك » فى عزبته المجاورة ليشكو له ملاحظ البوليس وليوسطه عند الحكام فى المركز فلا يحملونه مسئولية مخالفة القرية للوائح الرى .

ركب العمدة إلى « محمود بك » ووراءه « عبد العاطى » .. الخفير المفضل الذى يتبعه على الدوام .

وعند ما عاد العمدة كان يدس فى جيبه ورقة ويضع فى قلبه رضاً كبير ..

إن العمدة رجل يعرف كيف يعيش فى أى زمان .

ومنذ عين فى مكانه وهو ينحنى للحكام فى المركز وللذين يملكون الكلمة على هؤلاء الحاكمين ، ويسمع أى شىء وهو يبتسم .

وكان هم العمدة كله هو أن ينفذ أوامر الحكومة مهما تكن . أما ما يمكن أن ان يصيب أهل القرية من وراء هذه الأوامر فلم يكن يعنيه على الأطلاق . فهو كما تعلم فى الأزهر يطيع أولى الأمر ويؤمن أن هذا من أركان الدين !

ولئن طلبوا منه أن يسلمهم أهل القرية جميعا لضربهم بالرصاص لما تأخر لحظة ، ولقدمهم بنسائهم ورجالهم ، وضميره مطمئن إلى أنه أرضى ربه .. ولا ننتظر من ربه بعد هذا أن يرضيه ؟

وهكذا دفع بكثير من الفلاحين إلى المركز ليعذبوا عند ما قاطعوا انتخابات حكومة حزب الشعب وعندما امتنعوا عن دفع ضريبة الأرض .

وهكذا تسبب فى فصل « محمد أبو سويلم » من مشيخة الخفراء .

وكان العمدة فى عهد الحكومات التى تستخدم رجال المركز وأصوات الموتى فى الانتخابات . كان يعتمد على « محمود بك » .

كان العمدة ينحنى لمحام كبير فى عاصمة الأقليم تنتخبه الدائرة نائبا عنها وعندما يذهب الفلاحون إلى الصناديق أحرارا لا يسوقهم العساكر ولا يزيف إرادتهم أحد .

وفى عهد الحكومات التى لا يعرف لها العمدة لونا بعد كان يعتمد على الله !

وفى الحق أن العمدة حين وصلته أى إشارة لتحديد مواعيد الرى لم يسكت ،

وإنما أرسل « عبد العاطى » ليطوف على الذين يملكون أرضا ويبلغهم أوامر الهندسة ، غير أن « عبد العاطى » لم يعقل الأمر وظل يقلبه بينه وبين نفسه ، وأخيراً قرر ألا ينقل الكلام لأحد ثم عاد وقال للعمدة ـ كذبا ـ أنه أبلغ الناس ، بينما مضى يؤكد لنفسه أن العمدة شاخ وخرف. فقد اتعبته زوجته الشابة السمينة البيضاء وأصبح يقول كلاما غير معقول .

وحين رجع العمدة من عند « محمود بك » أمر الخفراء أن يلبسوا الزى الرسمى وأن يقفوا صفاً واحداً ، فى الفناء المتسع أمام سلالم الدوار .

واستعد الخفراء بالفعل ، ووضعوا الفوانيس الكبيرة ، ورشوا أرض الحوش بالماء ، وانتظروا العمدة ، حتى إذا فرغ من عشائه ، خرج عليهم بالجبة والقفطان ، والشال الشاهى ، والحذاء الأسود وكل هيأته التى يقابل بها الحكام .

ووقف العمدة على سلالم الدوار ، ووراءه « عبد العاطى » ببندقيته وأمامه الخفراء بالطرابيش السوداء الطويلة : البندقيه على الكتف والأقدام الحافية تطب التراب المبلل بماء الرش .

وأخذ العمدة يشتم الخفراء لأنهم لم يبلغوا أهل القرية أول اشارة حددت مواعيد الرى الجديدة . ولاحظ أن « عبد العاطى » وراءه يكرر كلامه وشتائمه فالتفت إليه قائلا بصوته الهادىء وكلماته البطيئة . .

ـ هو انت الوكيل بتاعى ! ـ انجر من ورايه ـ خش فى الصف . هو انت العمدة ولا أنا .. أما برود !

وقفز « عبد العاطى » إلى الصف ، وحشر نفسه وسط الخفراء ، وقد سرت فيهم همهمة التغامز والضحك المكتوم .

واحتدم غضب العمدة وتزايدت شتائمه ، وأخذ يتهم الخفراء بأنهم تركوا الفلاحين يسرقون الماء : فالرى فى غير مواعيده يعتبر عند الحكام سرقة للماء !

وسكت العمدة قليلا .

ثم عاد يقول فى صوت رهيب أن اللوائح والقوانين وشئون الضبط والربط تعتبر الرى فى غير المواعيد المحددة جريمة ... جريمة سرقة !

وتعالت همهمة الضحك المكتوم والعجب ، فانفجر العمدة قائلا ببطء وهو يمط الكلمات .

ـ طب روحو كلكم مرفودين .. كو .. ا .. كو .. مرفو .. دين !

وانطلقت الضحكات المكتومة وقال أحدهم وهو يحاول أن يخفى ضحكة .

ـ ده ده .. طب ما احنا روينا أرضك ياحضرة العمدة ! دى برضه اسمها سرقة عند الحكام واللوائح والقوانين إللى بتقول عليها ؟ والا المية ماهى لما تروح أرضك ما يبقاش اسمها سرقة ، مادام فى أرض الحكام !

وقبل أن يتكلم العمدة استطرد خفير آخر يقول منفعلا بلا ضحك :

ـ سرقة إيه ياجدع ! الميه ما هى ماشية فى البحر والترعة ! يعنى حاتخلص ؟ هوه إحنا كنا نقبنا عليها حيطة ؟ إلا سرقة دى ياجدعان ! سرقة ليه ؟ ماهى مية ربنا ؟ .. هيه السرقة فى المية كمان هى نقب حيطة ؟ ...

واضطرب صف الخفراء ونزل العمدة سلالم الدوار وصوته يرتفع صارخاً .

ـ الله الله ! . إياك تنحط عليكوا حيطة ! يابلد غجر . يا بلد مالهاش شيخ غفر هيه بلد من غير عمدة ياواد إنت وهوه ؟ ! كلام إيه ده ياخويه ! ياواد المية دى بتاعت الحكومة والحكام بس ! الحكومة تدى منها زى ماهى عاوزة وتدى اللى هى عاوزاه كمان ! مفهوم ؟

ولم يكن هذا مفهوما !

ووضح أن من المستحيل أن يصبح هذا مفهوما . فقد وجم الخفراء ، وتطلعت عيونهم فى اشفاق إلى الذى يقوله العمدة . وتلفتو إلى بعضهم كأنما يتساءلون إن كان هذا حقا ، وان كانت حياتهم نفسها ممكن أن تصبح ملكا للحكومة والحكام . إنهم يعرفون أن الماء ملك للأرض وللزرع والذى يحتاج إليه وللزرع أن يأخذ من الماء ما يريد ـ بلا حساب حتى يروى تماما !

وأخذ العمدة يقلب عينيه فى الوجوه وهو يلهث من تعبه ، وانسكبت قطرات العرق فى فجوات الشيخوخة من وجهه ، بينما تقدم عبد العاطى يتساءل إن كانت الشمس والهواء أيضا ملكا للحكومة ؟ وماذا عن ماء المطر ؟ ... وانبثق من الوجوه ضحك مجلجل ، واضطرب للصف وأخذ الخفراء فى ضحكاتهم يضربون الأرض الموحلة بأرجلهم ، وتطاير منها الطين ، وابتعد العمدة قليلا حتى لا يصيبه رشاش من تحت أقدام الخفراء !

وصاح العمدة وظل يصيح حتى سعل ، ونظرت امرأته الشابة السمينة ؟ ووقفت قليلا تبتسم ، وهزت رأسها وتحسست وجهها ، وهبطت يدها على ذقنها ونحرها وصدرها وانصرفت إلى داخل الدوار .

وعند ما هدأت الضجة قليلا تقدم العمدة من الخفراء ، واستعاد هدوء صوته وهو يقول فى بطء وعمق .

ـ الله . . . ياسى عبد العاطى ! طب على رأى الشاعر وما أنباك إن أباك ديب ؟ ہ ہه ہه ! قل لى ياعبد العاطى ياربابة محمد أبو سويلم ! بقى ياواد يا ابن شلبية بعد ما نزلتك فى الغفر وعملتك خدام خصوصى وكشفتك على حريمى ، تيجى تتمسخر على الحكومة ؟

ـ فقال عبد العاطى بثبات :

ـ ما انت أما تقول حاجة يا حضرة العمدة تسألنا مفهوم ؟ طب وجوابنا لأ . . مش مفهوم ! هه ! يعنى حاتبقى مفهوم من غير ما هو مفهوم ؟! قصدنا نعرف يعنى ! أما قول الحكومة فى الشمس لما تسوى الزرع تسويه بالمقنن .. يعنى بالقانون واللوائح رخرة والا إيه ؟ يعنى الشمس وضحاها اللى بيقراها الشيخ الشناوى دى مش هى اللى بتسوى الزرع ؟ رخره تبع الحكومة ؟

وعاد الضحك من جديد وحاول العمدة أن يتكلم ، ولكن صوت عبد العاطى ارتفع قائلا :

ـ وكمان يعنى النطرة تبقى إيه .. إيه الرأى ؟ المطر اللى بيقول سيدنا عليها ان ربنا هو اللى منزلها ؟ يعنى .. يعنى .

وأخذ العمدة يصيح فيه :

ـ انت يا واد بتحلقمنى ؟! تتكلم وأنا باتكلم ؟! وتعلى حسك على حسى ؟ الله الله يا بلد !

ولكن عبد العاطى ظل يتحدث . . وعندما هـــدأت ضجة الضحك المختلطة بتعليقات الخفراء سمعه العمدة يقول :

ـ والميه بتاعة البحر والترعة دى ، تبقى بتاعة أنهى حكومة بقى ؟ مش انت بتقول ان الميه كلها بتاعة الحكومة يا حضرة العمدة ؟ يعنى بتاعة أيها حكومة بتحكم للبر إن شاء الله حتى يكون حكومة خواجات ؟

وصاح العمدة :

ـ بس يا بهيم .... انت بتتهزأ ؟

ولكن « عبد العاطى » استمر : وإلا بتاعت . الحكومة اللى راحت ؟ وإلا بتاعت الحكومة الجديدة دى اللى اسمها حزب الشعب ؟ وهيه لو يعنى الحكومة

دى يعنى كانت جابت الميه من دارها .. دار أبوها !

وشعر العمدة بأنه يهان أبلغ إهانة . وكان يغلى ، وكل بدنه النحيل يرتجف . فتهدج صوته وهو يكاد يزأر :

- الله . الله ! . يا بلد ! طب ارقد يا وله . انجر هات العصايا من جوه !

وذهب « عبد العاطى » إلى داخل الدوار ، وعاد بعصا طريلة من الخيزران لفت عليها أسلاك محكمة .

ووضع « عبد العاطى » بندقيته على السلم ، ثم هبط ببطء وهو يزفر ، ومن حوله الصمت .

ووقف ينظر إلى الأرض المبللة فى احتجاج صامت ، ثم انفجر قائلا :

- الأرض هنا مبلولة ! بدلة الحكومة تتطين . مش انت قلبك عالحكومة يا حضرة العمدة ؟ أهى بدلة الحكومة حا تخسر ! وإلا أقلع لك ؟

فضحك الخفراء ، وأجابه العمدة بضيق :

- ارقد مطرح ما ترقد ! اياك ترقد ماتقومش .

وذهب « عبد العاطى » إلى أعلى السلم ، ورقد على البلاط .

ومشى اليه العمدة ببطء ، ثم أمسك العصا باحكام ورفعها ، وهو ينظر إلى ظهر « عبد العاطى » ، وانهال عليه بالعصا .. وظل يضربه و « عبد العاطى » يتلقى العصا فى سكون .

وشعر العمدة بيده تؤلمه ؛ ووقف الخفراء ينظرون إلى « عبد العاطى » باشفاق ، ونفوسهم تجيش بالألم . ولم يصرخ « عبد العاطى » ابداً .

وأخيراً رأى العمدة يرمى العصا بعيداً ويصيح :

- قوم بقى غور . نازل فيك ضرب ، وكأنى بالف لك سيجارة ! زى ما أكون باهرش لك فى حته بتاكلك ! جاتكو الغم ! روحوا كلكم مرفودين .

وابتسم « عبد العاطى » ثم قام ، ووقف مع زملائه منتصبا .

وعادت الضحكات تتردد فى الحلوق دون أن تنطلق .

ومشى العمدة قليلا ليدخل الدوار ، وتحسس جيبه وأخرج بحرص بالغ ورقة مطوية .

كانت هى الورقة التى عاد بها من عند « محمود بك » . وكأنما تذكر أنه جمع الخفراء ليقول لهم شيئاً عن هذه الورقة ، فالتفت اليهم وناداهم بغضب :

ـ تعالوا هنه ! روحوا لموا أختام البلد ختم ختم ! إياك تنسوا ختم . وهاتوا لى الشيخ الشناوى . ياللا . ياللا . انجروا من قدامى ! اخفوا من وشى ! واياك تغيبوا والا ترجعوا من غير الشيخ الشناوى والا تنسوا ختم . . وهاتولى عبد الهادى والشيخ يوسف كمان . وأبو سويلم ، وكل رجالة البلد ! . مفهوم ؟ هاتوا الأول شوية دكك دخلوهم الحوش . . . مفهوم ؟ وغور معاهم يا واد يا عبد العاطى .

ودخل العمدة إلى الدار .

وأخذ الخفراء يتغامزون ، ثم ذهبوا متضاحكين يجمعون من الدور بعض الدكك الخشبية وكل الأختام ، وهم يقلدون العمدة ، ويتذاكرون مع عبد العاطى من خلال الضحكات الطلقة ، كل ما كان بين العمدة وعبد العاطى .

حمل الخفراء دكة من منزل « محمد افندى » ودكة أخرى من منزل « الشيخ الشناوى » وثلاثة من دور الناحية البحرية . ولم يفكر واحد منهم أن يطلب دكة من « محمد أبو سويلم » أو من « عبد الهادى » أو « الشيخ يوسف » .

* * *

ولكن « عبد العاطى » وهو يجمع الأختام ألح على « الشيخ يوسف » و « عبد الهادى » أن يذهبا لمقابلة العمدة .

وانصرف «عبدالهادى» إلى « محمد أبو سويلم » ، وترك « علوانى » مع « الشيخ يوسف » ، وعاد الخفراء « بالشيخ الشناوى » وببعض الذين يعرفون القراءة .

وقال العمدة «للشيخ الشناوى» ان «محمود بك» أعطاه عريضة جديدة ، أحسن ألف مرة من العريضة القديمة التى مزقها . . و « محمود بك » يطلب توقيعات أهل القرية على هذه العريضة لترسل بعد هذا إلى « محمود بك » فيجمع عليها توقيعات كل القرى المجاورة التى يؤذيها نظام الرى الجديد . وبعد هذا يحملها «محمود بك» بنفسه إلى مصر ويقابل بها الحكام هناك .

وأضاف العمدة أن « محمود بك » يطلب أن تفرغ القرية الليلة من التوقيع ووضع الأختام لتصل اليه العريضة على الفور حتى يتمكن من تعديل المواعيد قبل دور الرى الجديد .

ووقع « الشيخ الشناوى » على ورقة بيضاء دون أن يسأل ، ووقع وراءه

بعض الذين يعرفون القراءة ، وأخذ الفلاحون يضعون الأختام تحت إمضـــاء « الشيخ الشناوى » ، و « الشيخ الشناوى » يستعجلهم ويشتم من يطلب قراءة العريضة أو يسأل عن الكلام الذى كتب فيها .

وبعد أن جمعت عدة أختام على العريضة ، قام « الشيخ الشناوى » من عند العمدة ، وانطلق فى القرية بجسده الملىء المتكرش وسبحته ، يهبهم بالدعوات ، ويزعق فى كل من يقابله أن يسرع بختمه إلى دوار العمدة للتوقيع على العريضة الجديدة .

ومر بمنزل « محمد أبو سويلم » فلم يجد أحداً على المصطبة ولم يلحظ نوراً من شباك المنظرة .

ووقف على الباب نصف المغلق يقول :

- يا ساتر ! يا اهل الله !

وصر الباب عند ما دفعه « الشيخ الشناوى » ، وتقدم إلى ظلمات وسط الدار ، وهو ينادى على « محمد أبو سويلم » .

ومن باب فى ركن الدار خرجت « وصيفة » وهى تحمل على رأسها لمبة الصفيح الصغيرة بلهبها الهزيل الأصفر الذى يتراقص ، مرسلا مع الشعاع الباهت خيطا من الدخان .

وطلبت « وصيفة » من سيدنا أن يتفضل بالدخول إلى المندرة لتعمل له القهوة . ولكنه سألها بعجب ولهفة عن أبيها فقالت له « وصيفة » إن « عبد الهادى » هو الآخر فات يسأل عن أبيها ويمكن أن يكون معه فى دار « عبد الهادى » أو فى دكان « الشيخ يوسف » .

فقال سيدنا بضيق إن الدكان مغلق ، ودار « عبدالهادى » بعيدة ، وهى على كل حال مظلمة !

فأطرقت « وصيفة » لحظة ، وأسندت بيدها لمبة الصفيح على رأسها ، واقترحت عليه أن يتفضل بالجلوس فى المندرة لتذهب هى تنادى أباها .. فلربما كان يجلس مع الآخرين فى جرن « عبد الهادى » .. حيث الهواء .. والطراوة !

وتردد سيدنا قليلا ولكن « وصيفة » سبقته إلى المندرة ، فأوقدت المصباح الكبير نمرة عشرة واحكمت عليه وضع الزجاجة .

وجلس سيدنا وهو يقول :

- دى ليلة بحق وحقيق ! ليلة ما يعلم بها إلا ربنا ! دورى عليهم يابنتى وهاتيهم .. والله ما انا قادر ألف بقى .

وخرجت « وصيفة » من المندرة ، وهمست لأمها ثم تركت الدار .

وعندما خرجت « وصيفة » إلى السكة ، سمعت « الشيخ الشناوى » يقول إنه لايطيق الحر فى المندرة ، والهواء على المصطبة أحسن ! وقعد خارج الدار على المصطبة فى انتظارهم وهو يهمهم :

- دى ليلة بحق وحقيق

وابتعدت « وصيفة » ومصباح الصفيح على رأسها يسكب على وجهها وكل بدنها شعاعا هادئا يخالطه ظلال الدخان .

كان قلبها يدق ، بخوف غامض ، وهى تسمع كلمات الشيخ .

« دى ليلة بحق وحقيق »

وفى الحق ... إنها كانت ليلة !.

-٨-

سارت « وصيفة » تقرع أرض القرية بشبشبها ، وترسل رناته المتوالية الرتيبة في الليل الصامت .. ورأسها يرتفع فوق بدنها المنتصب محملا في حذر باللمبة الصفيح . . .

وكانت الأنسام هادئة فاترة والطريق بين البيوت المغلقة لا يعمره غير نباح الكلاب . . . لم يكن في الطريق أحد . . حتى الخفراء . .

ولاحظت « وصيفة » - دون أن تحول رأسها - مرور بعض الفتيان من حين إلى حين . .

وكانوا يتهامسون عند ما صادفوها ، وهم عائدون من دوار العمدة إلى دورهم بعد أن وضعوا الأختام . . .

وتتبعها بعضهم بنظراته وهمس إنها تمضي إلى دار « عبد الهادي » وربما كانت قد خطبت له بالفعل ، بينما قال رجل ثان إنها ذاهبة لتقابل « محمد أفندي » عند المقابر القديمة المخيفة !

فقال آخرون إن هذا لا يمكن . . .

وانتهى الطريق الضيق الذي كانت تمشي فيه « وصيفة » - بلا تفكير - بين الدور الواطئة الداكنة المغلقة الأبواب .

وانفسح أمامها الطريق ومال .

وبدأت تمشي في صف واحد من البيوت وعن يسارها الحقول . .

وتمهلت « وصيفة » وهي تستقبل هواء الحقول بالمصباح على رأسها ، وهبت نسمات طلقة فأطفأت المصباح .

وفوجئت « وصيفة » قليلا ولكنها التفتت حولها فوجدت القمر يغمر المكان بضوء قوي باهر ؛ ومضت تسخر من نفسها لأنها حملت المصباح ، وكتمت ضحكتها .

وسمعت همسة تأتى من ناحية دار « عبد الهادى » فلم تمل إلى الجرن ، وواصلت سيرها إلى دار « عبد الهادى » الذى تترامى أمامه حقول حوض الترعة المؤدية إلى المقابر القديمة والمقابر الجديدة .

وعلى كوم مستو من التراب وجدت « عبدالهادى » يجلس على حصير ، ومعه أبوها « محمد أبو سويلم » و « الشيخ يوسف » .. وسمعت أباها يقول بضيق :

ـ دهدى ! كل حبة تقول لى كل لقمة ؟ جاك زقمة ؟ ما قلت لك اطفح انت بالهنا والشفا !

وسمعت « وصيفة » ضحكات « عبد الهادى » تختلط بصوت البصلة التى يقضمها ورغيف الذرة الجاف يتكسر فى يده . . .

واقتربت « وصيفة » فشمت رائحة المش والجبن القديم .

إن أم « عبد الهادى » بارعة فى صناعة الجبن القديم ، ولجبنها رائحة حادة قوية تثير الشهية . . لو كانت أم « عبدالهادى » تبوح لها بسر الصنعة !

وأخذ « محمد أبو سويلم » ينظر إلى الحقول الممتدة أمامه فى ضوء القمر . . كانت تترامى وراء النخيل تحت الضوء الأزرق الداكن وفى وسطها تقوم المقابر السوداء . .

وهز « محمد أبوسويلم » رأسه وهو ينظر إلى هذا الأديم الواسع العريض الذى يخفق بعيدان صغيرة من الذرة والقطن وقال فى حزن :

ـ بقى عايزين يعطشوا لنا العيدان دى ؟ ! دى لسه صغار ومحتاجة المية !

ولكن « الشيخ يوسف » قاطعه ، ليستأنف حديثاً كان قد بدأه عن العريضة الجديدة التى سمع أن العمدة عاد بها من عند « محمود بك » وأخذ يجمع لها الأختام والتوقيعات .

وكانت « وصيفة » إذ ذاك على باب « عبد الهادى » عند حافة الكوم تقول فى حياء :

ـ سا الخير . . .

واهتز « عبدالهادى » .. والتفت « الشيخ يوسف » « ومحمد أبو سويلم » على المباغتة ! لم يكن أحد منهم قد شعر بها وهى مقبلة .

وحين سألها أبوها عما جاء بها فى هذا الوقت المتأخر بعد صلاة العشاء ، قالت

له إنها خرجت من لحظة لتبحث عنه ، فالشيخ الشناوى ينتظره فى الدار . . .

ورفع « عبدالهادى » يده عن الطعام ، وحرك ضروسه ببطء ، ليخفى ارتفاع صوت الخبز الجاف ويسمع كل كلمة تقولها « وصيفة » .

ورآها وضاحة الوجه ، وضيئة ، لدنة العود ! .

وأخذ « عبد الهادى » ينظر إليها وقلبه يدق ، وفى أعماقه يسيل النغم !..

كانت تقف أمامه بقامتها المديدة ، وشعرها الأسود الحالك الكثيف ، ومحياها الناصع تشيع فيه الحيرة ، ومن ورائها ظلال النخيل والأشجار البعيدة عند الأفق ، والشعاع الهادىء الأزرق ينسكب فى هدوء حزين ! . .

وجاشت نفس « عبد الهادى » وارتفعت نبضاته ، وتمنى لو دخلت « وصيفة » إلى داره ولم تخرج منها أبداً . . !

ليتها تعيش معه إلى آخر الزمان ! . .

وقال فى صوت حنون :

ـــ اتفضلى ياوصيفة .. اتفضلى العشا

فقالت بحياء :

ـــ بالهنا لك .

وأشرقت نفس « عبد الهادى » على الفور بأشياء عديدة ، ودهمته الرغبة ـ التى لا تقاوم ـ فى أن يعيش سعيداً : يملك أرضه بلا قلق ، ويملك فى داره امرأة حانية كوصيفة . . « وصيفة » . . لا أية امرأة أخرى ! .

وأوشك أن يقوم ليكوم جسدها البديع ويضعها فى الأعماق من صدره ، أو يلقيها فى داخل الدار لتظل فيها ولا تخرج من عنده بعد !

وقام « محمد أبو سويلم » مستأذناً ليلحق بالشيخ « الشناوى » فى داره ؛ ولكن « عبد الهادى » اعترض فى ضيق ، وطلب من « وصيفة » أن تدخل إلى داره لتستريح قليلا ويروح هو ليحضر « الشيخ الشناوى » .

وتردد « محمد أبو سويلم » قليلا ، وطلب من « وصيفة » أن تدخل لتسلم على أم « عبد الهادى » وتعود .

ودخلت « وصيفة » إلى دار « عبد الهادى » . . فترقرت أمامه الأحلام من جديد ، وشعر فى دمه بشمل لذيذ ، وأضاء وجهه بغمرة من السعادة . . .

وتحرك عبد الهادى ليحضر « الشيخ الشناوى » ولـكن « محمد أبو سويلم » اقترح أن يذهب هو ، فقد تأخر الوقت . وألح « عبد الهادى » عليه فى البقاء ، فصمم « محمد أبو سويلم » أن يرجع إلى داره بعد أن تسلم « وصيفة » على « أم عبد الهادى » .

وقطع « الشيخ يوسف » المناقشة بسؤال لا مناسبة له عن « محمد أفندى » وأين اختفى الليلة ؟

وبهت «عبد الهادى»

ولـكن « محمد أبو سويلم » قال ببساطة إن « محمد افندى » فى الدوار بلا شك

فرد عليه « الشيخ يوسف » قائلا : إنه ليس فى الدوار ، والخفراء كانوا يسألون عنه فى كل مكان .

واحتقن وجه « عبد الهادى » .

وخرجت « وصيفة » من عند أمه فبدأ يتأمل فى كل بدنها ووجهها : أيمكن أن تـكون مقبلة من عند « محمد أفندى » ؟ ! أيمكن ليده الثقيلة الجامدة أن تـكون قد عبثت بجسدها هذا النقى الشريف ؟ !

وتمنى « عبد الهادى » لو أن كل لمسة من يد الرجل لبدن امرأة تترك فى مكانها حفرة شائهة واضحة كيلا ينخدع بها رجال آخرون بعد ، أو يتعذب من الظنون قلب عاشق طيب ! !

لماذا لا يصنع الله شيئا كهذا ، بدلا من أن يسمح بحرمان الفلاحين من الماء ؟ !

ووقفت « وصيفة » أمام الرجال تنتظر أن يقوم أبوها .

وتحرك « محمد أبو سويلم » لينهض ، ومن وراء « وصيفة » ينسكب نور القمر بالسكينة على الحقول ، ويلقى على « وصيفة » هدوءاً نبيلا رائعا يهز القلوب . .

وسألها « عبد الهادى » منفجراً عن «محمد أفندى ..»

وروعت هى من لهجته التى تحمل اتهاماً مخيفاً ، فأجابت بغضب واستنـكار إنها لا تعرف ولا يهمها أن تعرف . .

وشعر بها « عبدالهادى » تـكاد تتزايل .

وأحست هى بما يملأه .

وعاد يسأل إن كان «محمدأفندى» لم يمر على أبيها فى الدار ؟

أصحيح أنها هى كانت فى الدار .

فلم تجب !.

ورد « محمد أبو سويلم » فى غلاظة قائلا إن ابنته قالت مرة إنها كانت فى الدار فلا داعى للكلام الكثير . .

ومضى ، ومن ورائه « وصيفة » .

ولم يستطع « عبد الهادى » أن يجلس فى مكانه . .

وأحس «الشيخ يوسف» بقلقه ، فطلب منه أن يقوم معه إلى دار «محمدأبو سويلم» ليقابل « الشيخ الشناوى » ، ويعرف ماحصل فى العريضة الجديدة ...

ولكن « عبد الهادى » كان مثقل النفس ، فقال باسترخاء :

- يعنى حايحصل إيه ؟ على كل حال أنا مش ماضى عا العريظة ! واهو الصباح رباح بقى . .

* * *

وفى الصباح كانت العريضة ما زالت فى دوار العمدة ؛ يجمع عليها ما بقى من الأختام والتوقيعات .

وكان « عبد الهادى » يمشى فى الطريق من حقله إلى القرية ، فقابل بعض الفتيان وسمع منهم أن العمدة ثائر يتعجل بقية الأختام ليذهب بالعريضة إلى « محمود بك » ، فقد أوصاه « محمود بك » أن تنتهى التوقيعات كلها ليلة البارحة وألا تبيت العريضة .. ومع ذلك باتت العريضة ! «والبيه» غضبان من أجل ذلك !

وكان « الشيخ الشناوى » يطوف بنشاط : يطالب الناس بأن يذهبوا بأختامهم إلى الدوار . . والخفراء يجمعون من الحقول كل الفلاحين الذين لم يختموا بعد .

ورأى « عبد الهادى » جماعة من الفلاحين يشتمهم « الشيخ الشناوى » لأنهم لم يذهبوا بأختامهم ، وما زالوا يتساءلون فى شك عن هذه العريضة الجديدة .

وقال « عبد الهادى » للشيخ الشناوى فى استنكار :

— دهدى ؟ !. مش تقرا لهم العريظة فى الأول . . حد عارف إيه اللى فى العريظة ؟ .

فصاح فيه « الشيخ الشناوى » :

— أعوذ بالله منك ياواد ياعبد الهادى ! بقه انت منا كف فى كله كده هه ! ؟ ما لكوش دعوة بعبد الهادى يا اولاد ! انجروا انتو عا الدوار . .

ومضى « عبد الهادى » إلى دار « محمد أبو سويلم » ، وترك « الشيخ الشناوى »

يحاول اقناع الواقفين ولكن بعضهم تباطأ ، وبعضهم انسحب وراء «عبدالهادى» على الرغم من شتائم سيدنا وتحذيره .

وظل سيدنا واقفا فى الطريق يهز عصاه على الرؤوس ، ويلتقط أى رجل يروح أو يجىء ، ويأمره بالذهاب إلى الدوار ، ويأمر بعض الرجال بإحضار أختام النساء اللواتى يملكن أرضاً .

وظل سيدنا يقول :

— اللى يحب الله ورسوله يروح بختمه عالدوار .. ياللا يا كفرة! يابلد زنادقة !

واستطاع « الشيخ الشناوى » أن يجمع عددا من الرجال والنساء بالأختام ، ويسوقهم بعصاه وشتائمه إلى الدوار . .

أما « عبد الهادى » فقد ذهب إلى « محمد أبو سويلم » ووجده جالساً على المصطبة وحده يفكر .

وقبل أن يقعد « عبد الهادى » إلى جواره ، لمح « وصيفة » وحدها قاعدة أمام الزير فى وسط الدار تملأ القلة . . فنادى عليها أن تسقيه .

وهمهمت « وصيفة » لنفسها :

— بقى انت يا عبد الهادى عطشان كده على طول ، ودايماً عايز تشرب من إيدى ؟ !

وأقبلت « وصيفة » بالقلة ؛ وعيناها تلتمعان بضحكة خفية ، وفى وجهها تختلط الانفعالات المبهمة .

ووقفت فى فتحة الباب ومدت يدها بالقلة ، وأخذها « عبدالهادى» ورفعها إلى فمه .

وقبل أن يشرب سأل « محمد أبو سويلم » إن كان قد وقع على العريضة ، فقال له « محمد أبو سويلم » إنه لا يوقع على ورقة ما دام لا يعرف ما فيها ! . .

وبدأ « عبد الهادى » يكرع الماء إلى حلقه ، « ومحمد أبو سويلم » يتساءل إن كان أحد فى القرية يعرف شيئاً عما فى العريضة . .

ومد «عبدالهادى» يده إلى « وصيفة » بالقلة ، وأخذتها « وصيفة » بينما ارتفع صوت « عبد الهادى » :

— صحيح ! صحيح ما حدش عارف إيه اللى فى العريضة . .

ثم أكمل متحديا بصوت مرتفع مشحون غليظ ، ونظراته تتدحرج إلى « وصيفة » :

— لكن يعنى مش حا تبقى أحسن من اللى كتبها ابن الحمار ؟ .

وانثنت « وصيفة » بقامتها المديدة المليئة البضة ، وحملت القلة إلى داخل الدار

وعاد « محمد أبو سويلم » يبدى عجبه لأن أحداً لا يعرف مافى العريضة ، ومع ذلك فالناس تبصم وتختم ! .

وأخذ يفضى بمخاوفة من ملعوب جديد يعده العمدة . ثم قال فجأة :

— إسمع يا عبد الهادى . البيه محمود حا يروح بيها مصر . تروحش انت معاه ؟ . أى والله ياشيخ تسافر انت معاه .. واهو أخوك منصور أفندى فى مصر وتبقوا تشوفوا العبارة سوا هناك ! تسافرش يا عبد الهادى ؟ أنا موغوش قوى ومقبوض قوى ! حاكم أنا دايما ما أحبش العرايظ المرفوعة للحكومة أبداً ! هيه الحكومة اللى زى دى تيجى بعريظه ؟ القصد ! .

فقال « عبد الهادى » بهدوء :

— دا أنا وحدانى يابا محمد ! وأسيب أرضى لمين ؟ دا احنا داخلين عا الشهر اللى فى رقبته سنة .

وأجابه « محمد أبو سويلم » :

— طيب يا جدعان شوفوا الهبابة العريظة الجديدة دى فيها إيه حتى ؟ هوه محمد أفندى انخفى فين من امبارح العشه ؟ . حاكم أنا ما احبش أروح ناحية المخروب دوار العمدة ده ! بت يا وصيفة .. إجرى شوفى لنا محمد أفندى إجرى . .

وتململ « عبد الهادى » بينما نصبت « وصيفة » طولها ، وأقبلت ووقفت على الباب .

ونظرت « وصيفة » إلى « عبد الهادى » فى اضطراب ، واختلجت وظهرت عليها الحيرة وأخيراً لوت رأسها ، وبدأت تسير فى الطريق . .

وصاح « عبد الهادى » يستوقفها وهو يقول فى حنق . .

- خبر إيه يا با محمد أبو سويلم ؟ ! يا نهار أزرق يا جدعان ! تبعت وصيفة لمحمد أفندى ؟ دى العشا قربت تدن ! دى دهولت إيه دى اللى انت بتدهولها ؟ زرواط إيه دى اللى انت بتزروطه ؟ يا سنة سودة ! .

ودهش « محمد أبو سويلم » لانفعال « عبد الهادى » المفاجىء ، وقال متعجبا .

ـ عشه ؟ ! عشا إيه ؟ سلامتك ! إيه يا عبد الهادى ؟ إنت حصل عندك لطف ؟ إنت . . .

كان الضحى يملأ القرية ـ ولكن الكلمات انفجرت من فم « عبد الهادى » بلا حساب ، وقبل أن يفرغ « محمد أبو سويلم » عن كلامه ، قال « عبد الهادى » بصوت أقل ارتفاعا :

ـ خليكى انت مرزية يا وصيفة ! لما أروح أنا أشوف الخبر إيه . .

ورجعت « وصيفة » إلى دارها ، وهى ما تزال مضطربة ، وقد امتزج فى نفسها سرور خفى بخيبة أمل غامضة !

وقام « عبد الهادى » ، ومشى قليلا وهو يتلفت وراءه .

ورأى أمامه فى الطريق — من بعيد — ولداً يركب حماراً ويجرى به ، وناداه « عبد الهادى » فلم يسمع الولد ...

وتلفت وراء ظهره فرأى ولداً يسوق حماراً محملا بالسباخ . وانتظر « عبد الهادى » حتى أقبل الولد بالحمار . فأمسك بالحمار وجره إلى جوار الحائط ، وطلب من الولد أن يذهب إلى الدوار لينادى « محمد أفندى » من هناك . وجرى الولد مسرعاً .

وعاد « عبد الهادى » يقعد فى مكانه على المصطبة صامتاً لا ينظر إلى أحد .

وبعد قليل كان الولد أمامه يلهث قائلا إن « محمد افندى » ليس فى الدوار ، والعمدة يسأل عليه فى كل ناحية ، والخفراء لم يجدوه لا فى الغيط ولا فى البيت !

وصاح « عبد الهادى » ونظراته تقتحم مدخل دار « محمد أبو سويلم » وتستقر على كيان « وصيفة » :

— أمال راح فين سى محمد أفندى دلوقت ؟ راح فين يا ناس ! ؟

وأخذ يصر على أسنانه .

وشحب وجه « وصيفة » وازداد اضطرابه .

وخرجت بطة سمينة تتهادى على عتبة الدار ، ومن ورائها أوزة ، ونقرت البطة قدم « محمد أبو سويلم » فتبرم وركلها بقوة ، وطلب من « وصيفة » أن تأتى لتأخذ البطة والأوزة . . وقام « عبد الهادى » يهش البطة والأوزة وأدخلهما الدار ،

وألقى نظرة ثابتة على « وصيفة » وهى ترمى كل ثقلها على يد الرحى ، وتديرها طاحنة بين شقيها حبات من الذرة .

وكان للرحى طنين حاد يملأ أذنية بمثل الدوى الذى يملأ صدره .

وكاد يصرخ بأعلى صـــوته ليسألها إن كانت أمس قد خرجت من بيتها بعد العشاء لتلقى « محمد أفندى » ؟ وإن كانت على موعد معه هذا الصباح ؟

ولكن « عبد الهادى » وقف محتدما فى صمت ، وظل واقفاً فى الباب خارج الدار . . .

ونهضت « وصيفة » من أمام الرحى ، ثم اختفت عن عينى « عبد الهادى » فى ركن من الدار .

وطلب « محمد أبو سويلم » من « عبد الهادى » أن يقعد ، فلم يسمع كلامه ، وقال وهو ما يزال واقفاً يحملق داخل الدار :

— يمكن خضرة تعرف .. خضرة تعرف فين محمد أفندى !

فزعق فيه محمد أبو سويلم :

— الله ! الله ! ما تقعد ! مالك مش على بعضك كده ؟ . . . طب روح انت شوف إيه فى العريظة !

ورد عليه « عبد الهادى » بغيظ :

— مش عا العريظة يا أبو سويلم . ما هى المصايب كتيرة ! . أقول إيه بس يا ابا محمد ! أصلك ما انتش عارف يا با محمد ! .

ثم مضى فى الطريق مسرعاً دون أن ينتظر كلمة من « محمد أبو سويلم » .

* * *

وأمام دكان « الشيخ يوسف » ، كان « علوانى » يستنـــد على بنك الدكان ، و « الشيخ يوسف » ينهر بنتاً صغيرة ويؤكد لها أنه أعطاها زهرة غسيل بما يعادل خمس بيضات لا ثلاث . .

وانصرفت البنت مستسلمة ، وارتفع صـــوت « الشيخ يوسف » ينادى « عبد الهادى » وهو يفوت أمام الدكان مندفعاً فى طريقه ..

ووقف « عبد الهادى » واتجه إلى الدكان فبادره « الشيخ يوسف » قائلا :

ـــ البلد ما خلاص كلها ختمت عا العريظة ! ! والعمدة استغنى عن أختامنا وإمضانا وبعت العريظة لمحمود بيه . العريظة راحت ولا حد يعرف إيه إللى فيها ؟ عجبى عليكى يا بلد !

وقبل أن يجيب « عبد الهادى » قال « علوانى » متحمساً فى عتاب :

ـــ يعنى ياعبدالهادى لوكنتو سمعتو كلامى من الأول وخليتوعم الشيخ يوسف كتبها ، مش كان أحسن ؟ آهى كتابة محمد افندى ما لدتشى على البيه !. شوفتو بقى؟ واهى العريظة طلعت من البلد ولا حد عارف إيه اللى فيها ! دا عم الشيخ يوسف محسور قوى ، وحسرته قوية خالص ! والله ياعم الشيخ يوسف ما حد عارف مقامك ومقدارك فى البلد دى غيرى !.

فقال « الشيخ يوسف » غاضباً :

ـــ بس يا واد انت يا عرباوى ! اخرس ! جاك حسرة فى بطنك ما تقوم ! مقامى إيه يا ولد ؟ يا واد دا البلد كلها عارفانى ، وعارفة مقدارى .. وأنا مفهوم ومعلوم فى العب ده كله . ! يا واد دا اللى قروا معايه فى الأزهر ...

ثم سكت قليلا وبلع ريقه وارتفع صوته ليكمل :

ـــ إللى قروا معايه فى الأزهر ، واللى أنا قريت أكتر منهم ، بقوا دلوقتى كلهم قضاة ومفتشين ومدرسين وأخيها واحد فيهم بقى عمدة ...

وحاول « علوانى » أن يعتذر ، وأن يوضح وجهة نظره ويؤكد احترامه للشيخ يوسف . ولكن « الشيخ يوسف » لم يلتفت اليه واتجه إلى « عبدالهادى » يسأله :

ـــ فين يا خويا محمد أفندى ؟ الواد دياب أخوه فات من قيمة شوية يسأل عليه هنا ، والخفر قالبين الدنيا عليه .

فقال « عبد الهادى » بغيظ :

ـــ آهو انخفى ! إياك امال ينخفى من البلد قبل ما يشطب عليها !

وضحك « الشيخ يوسف » طويلا فنظر « علوانى » بدهشة ورضا وضحك هو الآخر ...

و « الشيخ يوسف » رجل لا يكاد يضحك ، وإن كان يقول كلاماً تضحك له القرية فى بعض الأحايين .

وعلى أية حال فقد هزه غضب « عبد الهادى » على « محمد أفندى » .

« ومحمد أفندى » هو - فى القرية - الرجل الوحيد الذى يقبض أربع جنيهات فى الشهر ، ومع ذلك فهو لا ينفق منها شيئاً ؛ فهو يذهب إلى حقله مع أخيه «دياب» الذى يشاركه فى معاش واحد ويعملان معا ، ويأكلان معا مما تنتجه الأرض . ويدخر «محمد أفندى» ، بعد هذا مرتبه كاملا : الجنيه على الجنيه ، حتى أصبح مشهوراً فى القرية بأنه يملك مالا ! .

وقد تعود « محمد أفندى » أن يقرض الفلاحين عند ما تلح عليهم الحاجة أو يشتد الصراف فى طلب المال . ولكنه يرتهن الأرض فى مقابل الدين ، ويركبها ، حتى إذا عجز مدينه عن السداد اشترى الأرض المرهونة .

وهكذا اقتنى باسمه واسم أخيه فدانا وعشرين قيراطا ، غير القراريط الخمسة عشر التى ورثها عن أبيه هو وأخوه . .

وما زال « محمد أفندى » يرتهن تحت يده نصف الأرض التى يمتلكها « الشيخ يوسف » .

« والشيخ يوسف » يضع القرش على القرش من أرباحه القليلة لاستخلاص أرضه من تحت يد « محمد أفندى » بعد أن ضاع من أرضه جزء كبير أخذته الحكومة لعدم دفعه ضريبة المال .

وفى الحق أن قلبه امتلأ بالمرارة منذ أخذت منه الحكومة هذه الأرض ، ولكنه امتلأ بالكبرياء فقدهزالحكومة حقا حين امتنع - كالآف غيره عن الفلاحين - عن دفع ضريبة المال لحكومة تصنع الأزمة والجوع للمصريين ، وتضعهم فى السجون ، لتتعاون مع الانجليز ! .

أما عن الأرض التى أخذها « محمد أفندى » فللشيخ يوسف معها شأن آخر .. وهو يحلم بأن يستعيد ذات يوم حيازة ما أخذه منه «محمد أفندى» .. ولكن «محمد أفندى» معجب بهذه القطعة ، وهو يعلق الآمال عليها ويلح كل يوم على الشيخ يوسف أن يبيعه هذه القطعة ! .

ولم يشك «الشيخ يوسف» لأحد أبداً ، وإن كان ليحتفظ فى أعماقه بحنق هائل على « محمد أفندى » وأخيه « دياب » . ومن أجل ذلك فلم يكد « عبد الهادى » يتحدث بغيظ صريح عن « محمد أفندى » حتى شعر « الشيخ يوسف » بأنه يرسل على الضحكات - زفرات متراكمة من كابوس ثقيل . .

وقال « الشيخ يوسف » من خلال ضحكه :

- آى يا أخى ! دا بارد برود ! ! ياسلام ! ! أبوه مات من أكل المش والعيش الدكر ، وهو قال داير ياكل ملبن ويشترى أرض ! لو كان امال يخفى من البلد خالص قبل ما يشطب عليها ؟ بقى يا ناس ينقلوا خاله الشيخ حسونة الراجل العاقل الأمير .. يتنقل ، والمخفى ده يقعد لنا ؟ صحيح ما يقعد عالمرابط غير شر البقر ! أنا عارف برود إيه دا ياإخواتى ؟ نصايب إيه دى ؟ ! .

ثم قطع ضحكاته قليلا وزفر بشبه همس :

- ده يا عبد الهادى عايز يسرقنى سرقة ! يخطفنى خطف ! والله يا اخويا عايز ياخد بنتى علشان يركب الأرض ! الجدع ده داوشنى كل يوم ! عايز يتجوزها من بكره ! قال عايز يورثنى ابن الحمار ! .

وكان « الشيخ يوسف » يعرف انه يكذب على نفسه وعلى الناس ، فمحمد أفندى » لم يفاتحه أبداً فى الزواج من ابنته . . وعلى العكس كان «الشيخ يوسف» دائما يلف حول الموضوع ويدور ويغرى به « محمد أفندى » ولكن « محمد أفندى » لم يجبه إلا بابتسامة تحمل كل الخيلاء ، والزهو . . والاعتذار !

على أن « الشيخ يوسف » عند ما قال هذا الكلام ، لمح الراحة تشيع فى وجه « عبد الهادى » ، وانبسطت نفسه لأن « عبد الهادى » صدق كلامه عن محاولات « محمد أفندى » للزواج من ابنته .

وقال « عبد الهادى » وهو يبتسم :

- حكم !

فتدخل « علوانى » ومال على « الشيخ يوسف » قائلا بعد طول الصمت :

- تحب أضربه لك ياعم الشيخ يوسف ؟

وانزعج « الشيخ يوسف » من الفكرة ، وباغته روع كبير أن يفكر «علوانى» - أو واحد من أمثاله الضائعين - فى ضرب رجل له مقام كمقام « الشيخ يوسف » وله فى القرية أرض ومال وكلمة . . !

فصاح فى « علوانى » مشمئزا :

- إخرس ياعرباوى ياخطاف يابتاع السكك ! هى ياواد كلابها سابت على ديابها؟..

تضربه ؟ ! تضربه إزاى ! أعوذ بالله من الشيطان ! ياواد سيبك من شغل العرب ده ياواد .

واستبد « بالشيخ يوسف » استنكاف مفاجىء لأنه ترك « علوانى » يقف معه ، فمال إلى « عبد الهادى » يطلب منه أن يدخل الدكان ليجلس قليلا ، فشمس الضحى بدأت تحمى .

ولكن «عبدالهادى» اعتذر بأنه منصرف إلى الغيطان ، فألح «الشيخ يوسف» .. وقطع « علوانى » كلام « الشيخ يوسف » فاعتذر عما قاله عن « محمد أفندى » ، وألح على « عبد الهادى » أن يدخل الدكان !

وسكت « الشيخ يوسف » ووقف يتأمل « علوانى »

ولاحظ « عبدالهادى » حيرة « علونى » وخجله وضعفه أمام « الشيخ يوسف » فباسطه ضاحكا وهو يقدم إليه سيجارة ملفوفة :

ـ خد .. خد محروقة ياشيخ العرب . عفر الهبابة دى ..

وتناول « علوانى » السيجارة وهو يطلب من «عبدالهادى» فى تأثر أن يؤكد للشيخ يوسف انه شيخ عرب حقاً وليس خطافاً وانه من نسل الإمامو على

وخبط « الشيخ يوسف » كفاً بكف ، وصاح فى « علوانى » ...

ـ آه ! انته ؟ . . . إنت من نسل الإمامو على ؟ بقى انت من الأشراف يعنى ؟ يا أخى اياك تنشرم فى قلبك !

وضحك « عبد الهادى » فابتسم « علوانى » وقال « للشيخ يوسف » متملقاً :

ـ والنبى ياعم الشيخ يوسف ده انا عايز أخدمك وبس ! ده كل مقصودى ! أنا أحب اللى تحبه وأعادى اللى تعاديه .. بس .. طب هات سيجارة . . . هات علبة دخان علشان خاطر عبد الهادى . . . وحياة النبى ده أنا لما المية انقطعت ما بقتش حامل هم حد فى البلد قد همك انته ... هات أمال . . . د أنا اللى رحت رويت أرضك ومهمنيش . . . ما تجيب ورقة الدخان أمال . . . ربنا يزود لك القيراطين إللى فضلوا لك ويخليهم لك فدانين ، . ما تجيب الدخان بقى . . !

وابتسم « الشيخ يوسف » وأعطاه علبة الدخان ، وأخذ يكتب فى دفتر الحسابات الطويل وهو يقول :

ـ إيوه ياواد اتدحلب لى ! اتدحلب زى التعلب !

وعاد « عبد الهادى » يحاول أن ينصرف ، ولكن « الشيخ يوسف » استبقاه فقد كان يريد أن يتكلم معه فى الحالة التى أصبحت لا تطاق . . . وحدثه طويلا عن القطن الذى بدأت لوزاته تترنح على أعواده القصيرة الغضة ، وأخذ يبدى مخاوفه من أن تعطش حقول القطن على الترعة كما عطشت حقول الذرة على النهر الصغير فان حدث هذا ، فهو الخراب !

ثم هز رأسه وأكمل :

ـ والبلد مش ناقصة خراب ! القطن ماراح ياولاد ! دا التراب بقى أغلى منه ياعبد الهادى . ومن يومها وسوق البنات وقف ! البنات حاتبور والأرض رخرة حاتبور ! يادى السنة اللى زى بعضها ياخواتى !

وأحس « علوانى » بأن الحديث لا يعنيه ، ولا يحتمله ، وكان يقف شارداً فى صمت . . فتحرك دون أن يشعر به أحد وانصرف إلى حقل البطيخ الذى يحرسه . . ليخطف ساعة من نوم !

وشعر « عبد الهادى » بقلق غريب ، ولم يجد كلاماً يرد به على « الشيخ يوسف » . .

وكان كل ماقاله « الشيخ يوسف » صحيحاً : فالقطن كالتراب بلا قيمة ، ولو ظللت مواعيد الرى كما حددتها الحكومة ، فمن الممكن أن تبور الأرض كما بارت البنات !

وسيطرت عليه الكآبة الغامضة ، ولبث مكانه بعض الوقت بلا كلام ، ثم تحرك لينصرف فلم يقل « الشيخ يوسف » شيئاً . وكان هو الآخر جالساً داخل الدكان ينظر فى دفتر الحسابات بشرود !

ومضى « عبد الهادى » إلى دار « محمد أبو سويلم » !

وفى الطريق فاجأته فكرة أزعجته : فلربما كان « محمد أبو سويلم » قد أرسل ابنته لتبحث عن « محمد أفندى » !

وعلى الرغم من أنه يصدق أن « محمد أفندى » تكلم فى زواج ابنة « الشيخ يوسف » ، فقد زحف الحنق فى دمه ، وكانت الشمس تلفح قفاه ، وأحس بضيق واضطراب . وتوالت دقات قلبه وأسرع فى مشيه .

وعلى مصطبة « محمد أبو سويلم » وجد الرجل جالساً ومعه « محمد أفندى » ، و « وصيفة » تصب القهوة !

وذهل « عبد الهادى » ..

إنه يلاحظ منذ زمن أن « وصيفة » حينما تقدم القهوة إلى الرجال لا تظهر أمامهم ، وإنما تمد يدها من الباب بالصينية ، وكل جسدها مختف داخل الدار ..

ولكنها هنا بنفسها .. بكل جسدها تقدم القهوة ، وتصبها أيضاً ! .

كانت هذه هى أول مرة يرى فيها «وصيفة» تصب القهوة على المصطبة لرجل غير أبيها ، وكان من الواضح أمام « عبد الهادى » أنها إنما تصنع هذا لمجرد ان « محمد افندى » موجود .

وسعل « عبد الهادى » بشدة ، وألقى السلام باقتضاب .

واهتزت « وصيفة » عند ما رأته أمامها فجأة ، ومال منها الفنجان ، فتركته يقع على جلباب « محمد افنـــدى » ، وأسرعت إلى داخل الدار تهرب من وجه « عبد الهادى » !

وضحك « محمد أفندى » بتؤدة ، وهو يدفع بيده الفنجان المنسكب قائلا :

ـــ خيراً ! طب وانكسفتى ليه ؟ ده معناها اننا حننكسى إن شاء الله !

ودفع الفنجان على الأرض بعيداً عن جلبابه النظيف .

وشعر « عبدالهادى » بثقل يهبط على قلبه ، ولاح له « محمدأفندى » مرهقاً إلى آخر حد ! . ونظر فى وجهه بضيق ، وكأنه اكتشف أنه ثقيل الظل ، معذب !

وتمنى أن يطرده .

ولم يكن « عبد الهـــادى » قد جلس بعد . فقد ظل واقفاً فى الشمس أمام المصطبة المغمورة وحـــدها بالظل بينما أشعة الشمس تتوقد فى كل مكان . وطلب « محمد أبو سويلم » من « عبد الهادى » ، ألا يقف فى الشمس ، وأفسح له مكانا بينه وبين « محمد أفندى » . وابتسم « محمد أفنـــدى » وهو يقول متلطفاً ، إن « عبد الهادى » يقف فى الشمس لأنه يمكن أن يكون عليه ذنب ! .

ولم يبتسم « عبد الهادى » ونقر بنظرة حادة وجه «محمد أفندى » . كان معطراً حليقا ، وشعره يلمع تحت طاقيته البيضاء المتأخرة إلى وراء منبت شعره .

وأخيراً .. انحط « عبد الهادى » على المصطبة فى الظل بين « محمد أبو سويلم » و « محمدأفندى » ، وتنهد .

وفجأة ارتفع صوته جافاً غليظاً :

ـ كنت فين يا محمد افندى من ليلة امبارح ؟ بتغطس فين كده ؟ لا امبارح

ولكنها هنا بنفسها ،

بكل جسدها . .

تقـدم القهوة

بالليل ولا النهارده من صباحية ربنا ماحد شافك ، والدنيا كلها بتدور عليك !

ولم يجب « محمد افندى » .

وارتعدت يده وهو يمسح صدره بحركة تحاول أن تكون مطمئنة .

وتوالت الدقات فى صدر «عبدالهادى » حتى استهيأ له أن «محمد أفندى» الجالس إلى جواره يكاد يسمعها دقة بعد دقة .

وأوشك « عبد الهادى » أن يصرخ فى وجه « محمد أبو سويلم » ليسأله ان كان قد أرسل « وصيفة » فعادت بمحمد أفندى .

ولكن « محمد أبو سويلم » كان يشرب قهوته فى هدوء دون أن يلتفت إلى « عبد الهادى » . وسكت لحظة ثم قال :

— تعرف يا عبد الهادى عترنا عليه إزاى ؟ فى دكانة المزين ! البت خضرة جت هنا ، من قيمة ساعة ، قلت لها انجرى دورى لنا على محمد افندى . غطست شوية وقبت به .. يا أخى البت دى زى العفاريت الزرق ! .

وتمتم « عبد الهادى » :

— خضرة ؟ !

وسكت « عبد الهادى » والتفت بهدوء إلى « محمد أفندى » فوجده يحك ذقنه المعطرة بحركة رشيقة .

وهز « عبد الهادى » رأسه ، وبدأت الظنون تثقله : إن معرفة « خضرة » بمكان « محمد أفندى » وظهور « وصيفة » على الباب لتصب بنفسها له القهوة كل هذا جعل « عبد الهادى » يفكر فى أشياء مرعبة . .

ثم خروج « وصيفة » فى ليلة البارحة بحجة أنها تنادى أباها ..!!

ألم يكن بينها وبين « محمد أفندى » موعد دبرته « خضرة » - وخافت أن يعود أبوها إلى داره فجأة فلا يجدها - فلفقت حكاية ، لتقول فى النهاية ، إنها إنما غابت عن الدار لأنها كانت تبحث عنه . . ؟ !

وفكر « عبد الهادى » فى أن يترك الدنيا وما فيها ، ويقوم إلى عاصمة الأقليم فيزور أخت « وصيفة » ويحكى لها ويتكلم مع زوجها فى الموضوع . .

وتحرك من مكانه بالفعل . .

ولكنه عاد فشعر بنفسه مقيداً .

إنه لا يستطيع أن يترك الدنيا وما فيها هذه الأيام . . والشغل كثير . . وأعواد القطن والذرة مهددة بالجفاف !

وقرر أن يدخل من فوره دار « محمد أبو سويلم » ، فيمسك بيد « وصيفة » ويلويها ويسألها عن سر « خضرة » هذا ، ويظل يضربها بالكف على صدغها وبالرجل فى بطنها حتى تتوب ويعتدل حالها . . .

تتوب ؟؟؟

تتوب من ماذا ؟

إنه لا يعرف بالضبط إن كانت « خضرة » قد سحبتها إلى دار « محمد أفندى » أم أن « محمد أفندى » كان مع بنت أخرى أمس !

وعلى كل حال « فالشيخ يوسف » قال إن « محمد أفندى » يخطب منه ابنته .. فهل يخطب « محمد أفندى » من هناك ومن هنا ؟ . . -

ومد « عبد الهادى » رجله على المصطبة وهو يقول فى زفرة قوية :

- هيه ! دول ! دول ياسيدى دول ! الأيام دول . ياميت ندامة على اللى حب ولا طالشى !

ونظر إليه « محمد أبو سويلم » ليقول له إن « محمد أفندى » وافق على السفر مع « محمود بيه » حين يذهب بالعريضة إلى « مصر » .

ولم يجب « عبد الهادى »

ومات الحديث شيئاً فشيئاً على شفاه الرجال الثلاثة

وتحرك عبد الهادى فجأة ليقول بصوت مرتفع :

- حاجات ! أنا غويط ياسى محمد أفندى ! وفاهم حاجات كتير قوى ! الناس اللى يخطبوا من هنا وهناك ويعشموا البنات هنا وهناك ! حاجات باردة . .

ودهش « محمد أفندى » ، « ومحمد أبو سويلم » وتساءل عن الحكاية . ولكن عبد الهادى لم يقل شيئاً .

وأحس بندم كبير لأنه لا يستطيع أن يقول شيئاً

وقال له « محمد أبوسويلم » متعجباً :

- خبر ايه ياعبد الهادى ؟ إنت جرى لك ايه الأيام دى ؟ زى ما يكون جالك لطف كده ولا عقلك ملطوط ! باقول لك محمد أفندى مسافر مصر مع البيه

علشان العريظة ، كلها يومين تلاتة على بقية البلاد اللى حوالينا ما تختم ويمشوا بالسلامة . تقوم تقول لى بنات وهبابات ، واللى حب واللى ماطالش !! إيه ده ؟ قطيعة تقطع البنات وخلفة البنات ياشيخ . .

وألح الندم على صدر « عبد الهادى »

وارتاح « محمدأفندى » بعض الشيء حين سمع هذا الكلام من « محمدأبوسويلم »

ولكن « عبد الهادى » وقف وهو يصنع الابتسام وقال متحدياً :

ـ لكن محمد أفندى حايسافر إزاى مع البيه ؟ حتسافر معاه ازاى بعد ماقال عليك ابن الحمار ياسى محمد ؟

وارتعش « محمد أفندى » من الغيظ والمفاجأة ووقف يصرخ فى صوت يائس جريح . . .

ـ اسمع بقى ياعبد الهادى انت داير تعملنى شنعة بالكلمة دى من زمان ! يعنى غرضك ايه يعنى ؟ قول لى كده غرضك ايه ؟ غرضك تخللينى مسخة ؟ . أما برود . .

ـ انت اللى عامل نفسك مسخة ودابر ورا خضرة !

ـ سامع الكلام يا با محمد ؟ غلطتش أنا فى حقه دلوقتى ؟ سامع يعنى ؟ . . بقى دى مرجلة دى ؟ والا ده مسخرة وكلام صغار وقلة حيا كمان ؟

وزعق « محمد أبو سويلم » فى ضيق وهو يقف بينهما يأمرهما أن يكفا عن هذا الكلام الفارغ .

وبدأ يؤنب « عبد الهادى » على طريقته فى الكلام مع « محمد أفندى » وهزهما وأجلسهما وهو يقول :

ـ خبر ايه ؟ . . . مالكو مع بعض كده زى الديوك ؟ هو فيه تار بايت ؟ . . .

ـ هو اللى عامل ديك ... هو اللى عامل فى البلد ديكا . على رأى لغوة العريظة المنيلة اللى كتبها ! العريظة اللى قال البيه على اللى كتبها دا ابن ...

وعاد « محمد أفندى » إلى هياجه ، فزعق « محمد أبو سويلم » فى « عبد الهادى » مقاطعا . وطلب منه أن يصفى قلبه من ناحية « محمد أفندى » .

ولم يكن فى قلب عبد الهادى شىء . . . شىء راكد عكر يمكن أن يصفى !

وقال « عبد الهادى » انه لا يحمل شيئاً لمحمد أفندى . . ولكن كل ما فى الأمر انه لا يرضى عن سيرته . . .

وأكد محمد أبو سويلم لعبد الهادى انه يغلط فى حق « محمد أفندى » كثيراً وطلب منه أن يعامله كأخ . . .

ومال على «محمد أفندى» وطلب منه أن يصفى مافى نفسه.. وأكد «محمد أفندى» أن نفسه صافية كاللبن . وانه يحب « عبدالهادى » ويفخر به ولكن «عبدالهادى» هو الذى يتعمد إهانته من حين إلى حين .

وقال « محمد أبو سويلم » « لعبد الهادى » :

ـ طب قوم ياعبد الهادى حب على راسه قوم ! جاتكو الغم ! انتو لكو غير بعض ؟ دا انتوا من غير بعض تصبحوا غلابة ! تاكلكوا الكلاب ! داانتو اخوات !

ورنت كلمات « محمدأبوسويلم » بنبراتها الحانية المفعمة فى أعماق «عبد الهادى» ووقف بعض الوقت حائراً لا يعرف ماذا يصنع . وتقدم منه محمد أفندى ونظراته تفيض بشعاع حزين .

ومال « عبد الهادى » على رأس « محمد أفندى » وقبله معتذراً .

وقال « محمد أفندى » فى طيبة وهدوء :

ـ أستغفر الله ! انت اللى حقك على ! أنا اللى محقوق لك .

والتصق الجسمان وتعانقا . . .

وإذ كانا يرتميان على بعضهما فى اعتذار متبادل ، شعر « عبد الهادى » بحب مفاجىء لمحمد أفندى

وأحس « محمد أفندى » كأن قلبه لم يحمل لعبد الهادى غير الحب أبداً .

وكانت شمس الظهر قد غمرت المصطبة ، والصهد يتوهج فى كل مكان .

فاستأذن « محمدأفندى » قائلا إنه ذاهب الآن إلى العمدة ، ومن بعده إلى « محمود بك » من فجر اليوم التالى ، ليعرف موعد السفر .

وقال « عبد الهادى » بصوت رقيق مشحون بالعطف والأمل :

ـ تروح وتيجى بالسلامة يامحمد ياخويا .

وانصرف « محمد أفندى » ـ وراءه « عبد الهادى » . . .

ودخل « محمد أبو سويلم » إلى داره ونفسه تزخر بشعور حنون .

وفى أعماق كل واحد منهم ، إحساس كبير بأن قلبه عامر بدفء خارق يمنحه القوة ، والكرامة ، والأمن ، والسلطان ، والمقدرة ..

— ٩ —

فى الصباح لم تكد الشمس تشرق ، حتى كان « محمد أفندى » يسير إلى « محمود بك » فى عزبته المجاورة . لم يأخذ طريق الجسر الطويل الذى تسلكه الحمير عادة وإنما مشى على رجليه فى طريق ضيق خلال الحقول المحصورة بين حوض الجسر وحوض الترعة . .

وعلى جانبى الطريق الضيق كانت بقرة هزيلة أو ثور أعجف يجر المحراث متثاقلا ببطء ، ويهوى المحراث بسكينه على الأرض السوداء ويقلبها . ومن وراء المحراث إمرأة أو رجل ينثر الحبوب ، وفى القلب دعاء ، وأمل يخالجه الخوف من المجهول . . .

وفكر «محمدأفندى» بأسف فى أن هذه الحبوب يمكن أن تموت فى الأرض إن لم تعدل الحكومة مواعيد الرى . . .

أتموت هذه الحبوب قبل أن تتمدد فى الأرض وتخرج منهـــا الأعواد الجميلة الخضراء المفعمة بالكيزان والخير ؟ ! . .

ولكن العريضة التى يحملها معه ربما سمحت لهذه الأعواد بأن ترى الشمس وتنمو وتزدهر وتمتلىء بالكيزان الجديدة !

إن حياة القرية ، وحياته هو نفسه الآن فى يد « محمود بك » .

أيمكن أن تكون حياة الناس والزرع فى يد رجل واحد !

هكذا ؟

حكم !

وهز «محمدأفندى» رأسه ، وقلب يديه وخطواته تبطىء على الأرض .. ولكنه تذكر فجأة أنه يجب أن يكون عند « محمود بك » قبل أن يقوم « البك » من نومه ، وأسرع « محمدأفندى » ، وكاد يعدو فى الطريق الضيق بين الحقول؛ وأوشكت قدمه أن تقع فى الأرض المبذورة ، فتماسك حتى لا يفسد بقدمه مستقبل عدة

حبات ستصبح فيما بعد أعوادا تحمل الكيزان .

ولم يكد « محمد أفندى » يصل إلى العزبة حتى استقبله « محمود بك »

وقبل أن يسأله عن موعد السفر قال « محمود بك » إنه جمع عدد طيباً من التوقيعات طوال نهار أمس . . ومن الممكن أن يسافر اليوم فى قطر الظهر لتقديم العريضة إلى رئيس الوزراء فى مصر . .

واهتز « محمد أفندى » وهو يتخيل نفسه ذاهباً مع « محمود بك » لمقابلة رئيس الوزراء ؛ واستهال الأمر ، فعاد يسأل « محمود بك » إن كان سيقابل رئيس الوزراء حقاً . . فرد عليه « محمود بك » بجفاف مؤكداً أن العريضة مقدمة لرئيس الوزراء .

وسكت « محمود بك » قليلا قبل أن يطلب من « محمد أفندى » أن يدبر له أجر السفر والأتعاب ، فمادام سبب سفره هو قضاء مصلحة لعدة بلاد ، فعلى كل بلد أن تدفع شيئاً وعلى بلدة «محمد أفندى» أن تتحمل عشرة جنيهات من مصاريف الرحلة .

وتردد « محمد أفندى » قليلاً قبل أن يقول شيئاً ، وأخذ يفكر ، و « محمود بك » يكلمه بتودد تقطعه الخشونة ولهجة الأمر فى بعض الأحايين . . .

وبعد قليل نهض « محمد أفندى » من عند « محمود بك » بعد أن اتفق على المقابلة فى محطة السكة الحديد بعاصمة الاقليم فى موعد قيام قطار الظهر .

كان « محمد أفندى » يعدو هذه المرة بالفعل ، فإذا تعب استراح على المشى السريع . .

ومر على أخيه « دياب » وهو يعزق القطن فى الحقل بحوض الترعة وصاح فيه بعجلة :

ـ هات الركوبة ياواد والحقنى عا الدار .

وتابع « محمد أفندى » سيره إلى القرية مستعجلا ، وأمام عينيه تتخايل صور غريبة مبهمة عن « القاهرة » التى لم يرها منذ سنين ، وعن رئيس الوزراء الشيخ الذى يصب الموت على الآلاف وهو يجلس على مكتبه بهدوء ، يأكل «الساندويتش» لفرط ما لديه من أعمال . . .

أما « دياب » فقد ترك فأسه ، وهرول إلى رأس الحقل ، ودخل الزريبة التى يبيت على ظهرها يحرس البهائم فى الصيف ، ففك رباط الجحشة الصغيرة البيضاء

بحذر واهتمام ، وأمسكها من رقبتها فى رفق ، وأخرجها من الحظيرة بعناية فائقة . .

« ودياب » يدرك تماماً إلى أى حد يهتم أخوه « محمد أفندى » بهذه الجحشة . .

« فمحمدأفندى » يشترى لها الفول من البندر ، ويقدم إليها العلف بنفسه وهو أحياناً يضع فى فمها قطعاً صغيرة من رأس السكر !

و «محمد أفندى» يأخذها بنفسه كل أسبوع فيغسل ظهرها فى النهر بالصابون .

إن جسد هذه الجحشة يعرف الليف والصابون أكثر مما يعرف جسد «دياب» !

ومازال «دياب» يذكر لنفسه بخجل أنه منذ سنوات ، حاول أن ينشىء بينه وبين هذه الجحشة علاقة من هذا النوع الذى ينشأ فى القرية أحياناً بين بعض المراهقين والطيور والحيوانات الصغيرة .. وضبطه « محمدأفندى » مع الجحشة ؛ فعنفه وضربه بالكف والرجل ، وصاح فيه إن الجحشة ليست كحمير السباخ !

وعلى أية حال فلم يعد « دياب » يحاول شيئاً كهذا الآن . . . فقد كبر ، ووفرت عليه « خضرة » كثيراً من هذا العناء .

ولم يعد ـ منذ دخلت « خضرة » معه الزريبة ـ يفكر فى الطيور أو الحيوانات الصغيرة .

ساق « دياب » أمامه الجحشة البيضاء ، فقفزت فى حركات رشيقة وركضت ، وهو وراءها يجرى .

لم يحاول أبداً أن يركبها ، فقد كان يعرف أنها ليست كحمير السباخ .

وكان يعرف أن مشيتها الجميلة ربما خسرت لو تعدد على ظهرها الراكبون : فقد رباها أخوه وهى طفلة على مشية تريحه ، وعلى هذه المشية ، درجت !

ولم يكد « دياب » يصل إلى الدار ، حتى وجد « محمد أفندى » يغلق على نفسه باب الحجرة التى بناها فوق سطح الدار ، منذ اشتغل مدرساً ، بعيداً عن الزريبة التى تلم البهائم فى ليل الشتاء ، وعن القاعة التى تعيش فيها أمه و « دياب » ..

وكانت أمه تسمى هذه الحجرة « مقعد الافندى » .

ونادى دياب على , محمد أفندى » فقالت له أمه :

ـ اطلع ياواد ! أخوك فوق فى مقعده . . اطلع له المقعد .

ولكن « محمد أفندى » ناداه من وراء الباب المغلق قائلا :

ـ شد عالركوبة ياواد يادياب وروح نادى لى أبوك محمد أبوسويلم .. قول له

أنا مسافر مصر مع البيه دلوقتى . قل له السفر النهارده .. دلوقتى اهه ..

ووضع « دياب » قطعة من اللباد على ظهر الجحشة ، وحط عليها بردعة من القطيفة ، وأدخل فى فمها اللجام ، وثبت طرفه الجلدى الأنيق فى حلقة دقيقة من النيكل على رأس البردعة ..

وشد خيطاً من التيل المفتول فى أرجل الجحشة ، وربطه قائلا بصوت خفيض وهو ينصرف :

- خليكى واقفة هنا يا مضروبة انتى ! أوعى تتنقلى وللا ترمحى بقى كده وللاكده !

ثم صاح وهو يخرج من الباب :

- خللى بالك من الجحشة يا امه .

ومشى يهز طوله الأعجف إلى « محمد أبو سويلم » ، تاركا أمه تحاول أن تمسك الديك البلدى لتذبحه .

وفوق السطح ، كان « محمد أفندى » فى المقعد ، قد فرغ من ارتداء ملابسه ، وأخرج زجاجة العطر من أول درج فى « البوريه » ، وسكب من الزجاجة على رأسه ويديه ، وأخذ يدعك ذقنه وكل رأسه ووجهه .

وتناول « محمد أفندى » طربوشه ، ووضعه على رأسه فى عناية بميل قليل على الجبهة .

واتجه إلى دولاب خشبى صغير غائر فى الحائط ، وفتحه ، ورفع كومة من الأوراق البيضاء ثم طاقية من الصوف ، ورفع من تحتها مصحفاً ضخما .. ودس يده فى داخل الدولاب فأخرج كيساً كبيراً من الجلد ، وأخرج منه ورقة مالية .

وتوقف وهو يقول لنفسه :

- كفاية الجنيه دى .

وفكر قليلا ثم سحب ورقة مالية أخرى :

- برضه الواحد ينزه نفسه فى مصر شوية !

ثم أخرج ورقة كبيرة ذات عشرة جنيهات ، وتأملها طويلا ، وفك قميصه الإفرنجى ، وحشر الورقة المالية فى جيب الصديرى البلدى المخطط ، وأحكم إغلاق زراير القميص ثم زراير « الجاكتة » ، وهو يقول بزهو :

وفوق السطح ، كان « محمد افندى » فى المقعد ، يرتدى ملابسه . .

ـ آدي ياسيدي فلوس محمود بك ! بس إياك نعرف نحصلها من البلد ! !
ودس الجنيهين فى محفظته ووضعها فى جيب الجاكتة الداخلى وهو يكمل :
ـ وآدي ياسيدي فلوسك انت !.. ياللا بر نفسك !
وبعد أن أعاد كل شيء إلى مكانه بالدولاب ، أغلقه بالمفتاح ، وامتحنه جيداً ثم وضع مفتاحه فى جيب البنطلون ، ومشى مطمئنا .
وقبل أن يغادر حجرته ، تحسس صدره وبدلته وجيوبه وطربوشه برضا ، ثم تنفس بصوت مرتفع !
واتجه إلى باب الحجرة فأدار المفتاح وخرج . .
وهبط السلم المصنوع من الطين ، ورأى أمه تذبح الديك ، فقال لها وهو يقف على إحدى الدرجات الضيقة الملتوية إن الوقت تأخر ، و « محمود بك » ينتظره ليقابل معه الحكام فى مصر ، ويتحدث معهم فى ماء الرى .
ثم هبط الدرجات الباقية ووقف إلى جوار أمه . .
وسألته إن كان يستطيع أن ينتظر ليحمل معه إلى خاله « الشيخ حسونه » هذا الديك وبعض الفطائر « والرز المعمر » .
فضحك « محمد أفندى » مؤكدا أن الوقت راح و « محمود بك » ينتظره فى المحطة على قطار الظهر .
وقبل يد أمه .. وقالت له وهى تقبل يده :
ـ روح يابنى مع السلامة .. ربنا ينجح مقاصدك . ربنا يجعل لك الهيبة والمال بالويبة يا محمد يا ابن بطنى .
وفك « محمد أفندى » قيد جحشته وأمسك بلجامها وخرج بها من الدار .
ووقف على الباب ينتظر عودة أخيه ؛ وأمه تسأله أن يذهب إلى خاله « الشيخ حسونه » فى شبرا .
ولمحت له أمه أن يطلب من خاله أن يزوجه إحدى بناته ؛ وقبل أن يجيبها « محمد أفندى » مرت به إحدى جاراته وهو واقف على باب الدار بالبدلة والجحشة فى يده .. فسألته جارته أن يشترى لها شيئاً إن كان ذاهبا إلى المركز . . فقال لها باقتضاب وضيق :
ـ أنا رايح مصر . .
وأبدت جارته دهشتها لسفره هذا المفاجيء . . وطلبت منه أن ينتظر حتى

تحضر زوادة لابنها الذى يعمل فى مصر على عربة حنطور . وبدأت تعاتبه لأنه لم يقل لها قبل السفر بوقت كاف .

وتذكر « محمد أفندى » أن كثيرين يمكن أن يحملوه أشياء لأولاد البلد الذين يعمـــلون فى مصر وتصور نفسه يذرع القاهرة من بولاق إلى شبرا إلى الجيزة بأحماله هذه .

وملأه الارتباك وهو يفكر فى « محمود بك » وأنفته وسرعة غضبه .

كيف يسافر معه ويركب إلى جانبه وهو يحمل المقاطف والقفف ؟ وكيف يستطيع أن يدبر وقته ليلقاه فى مقهاه المفضل بالعتبة الخضراء ومعه كل هذه الأحمال

وفجأة صرخ فى جارته :

ـ ياوليه هوأنا رايح أزورالسيدة زينب . ده انا رايح أقابل الحكام اللى فى مصر!

فقالت له جارته ببساطة :

ـ طب وماله لما تاخد معاك زواده ؟ إن شاء الله تصبح من الحكام يا محمد يابن قطايف !

وقالت أمه فى ضراعة وتوسل :

ـ إن شاء الله يا اختى من حنكك لباب السما . .

وإذ ذاك أقبل « دياب » ليقول لمحمد أفندى إنه لم يجد « محمد أبو سويلم » .

وسكت « دياب » قليلا قبل أن يقول متمتما إن « وصيفة » لا تعرف أين ذهب أبوها ، ولكنها تدعو لمحمد أفندى أن يبلغ مصر بالسلامة .

وتأمل « محمد أفندى » فى وجه أخيه وهو يتكلم وحسبه يعرض به .

وكان وجه « دياب » منكسا ، ولكنه كان جامداً أغبر كالأرض ؛ لايختلج بشىء

ونظر « محمد أفندى » فى ساعة يده بحركة متكبرة متأنقه وهو يقول :

ـ الساعة بقت عشرة و ١٢ دقيقة والبيه حايستنانى قدام شباك التذاكر فى محطة المركز الساعة الواحدة إلا ربع بالضبط .

وتحرك « محمد أفندى » مسرعا ، وتحرك أخوه وراءه ممسكا بلجام الجحشة .

وانطلقت الدعوات بسلامة الوصول من فم أمه وجاراتها اللواتى تجمعن ووقفن على أبواب الدور . وسألته بعض النساء أن يقرأ لهن الفاتحة عند السيدة زينب أو الحسين ، أو الامام الشافعى .

وفى الطريق مال « محمد أفندى » على دكان « الشيخ يوسف » . فسلم عليه وطلب منه أن يحمل السلام إلى « عبد الهادى » و « محمد أبوسويلم » .

وتمنى له « الشيخ يوسف » أن يوفق فى مهمته ، وأن تنتج العريضة خيراً ، وسأل الله له السداد بحق الست الطاهرة السيدة زينب .

وتحرك « محمد أفندى » لينصرف . وكان « الشيخ يوسف » ما يزالى ممسكا بيده وقال له مداعباً وهو يترك يده :

ـ حاسب على نفسك من مصر يا محمد أفندى ! أنا عشت فيها وعارفها . حاسب على نفسك دى بلد باكسة وبحرها غويط . إرجع لوحدك !.. إوعى تجيب معاك حاجة من مصر !

وأدرك « محمد أفندى » دعابة « الشيخ يوسف » ولم يتقبلها . فقد كان يضيق بالذين يعرضون لعلاقاته بالنساء . فقال ضاحكا وهو يتعمد أن يجرح « الشيخ يوسف » :

ـ يمكن أجيب عدل لبنتك ياشيخ يوسف ! أرجع لوحدى ليه ؟ يمكن أجيب لها عريس !

ولم يضحك « الشيخ يوسف » وابتسم ثلاثة من الرجال كانوا يقفون بلا عمل أمام دكانه .

وغادر « محمد أفندى » الدكان ، فالتفت « الشيخ يوسف » إلى من حوله قائلا فى شبه همس :

ـ عجايب !. بقى مش عجباه بنتى ؟ يتنقرز عليها ؟ هو حضرته فاكر إنى أرضى أجوزها له ؟ والله دى لو كملت ٢٠ سنة من غير جواز ما ارضى أديها له !.

وكان الذين يقفون أمام الدكان يعرفون على الرغم من كلامه الكثير أنه يحلم بأن يبيت ويصبح فيجد « محمد أفندى » زوجا لابنته الشاحبة الجافة العود التى تحمل سقم وجهه النحيل العابس . .

غير أن أحداً من الواقفين لم يقل شيئاً .

واستمر « الشيخ يوسف » يقول كالهامس :

ـ دى بنت متربية على الغالى يا جدعان . . ده أنا مخبيها من سن ١٢ . . دى متربية على الغالى قوى والله . . ده أنا مخلفها أيام ما كنت باكل تلات أرطال لحمه فى اليوم . . ايام العز الأولانى . .

كان الواقفون أمام الدكان يعرفون أن نساء بيت « الشيخ يوسف » لايخرجن إلى الطريق كالقرويات ، بل يخرجن فى الليل ، والحجاب على الوجوه .

وقال أحد الواقفين :

ـ إيه ! دى بنت أصول يا عم الشيخ يوسف .

وارتاح « الشيخ يوسف » لهذا الكلام فأكمله :

ـ أمال !.. مش تقول لى أجوزها لسى محمد افندى بتاعكم ؟ .

ومسح وجهه النحيل براحتيه ، ثم هز رأسه ، وعيناه تلقيان نظرات ساخرة على الطريق أمام الدكان :

ـ جحشة معتبرة ، وبردعة قطيفة ، وركبة ملوكى ! . والله عال ! بقى انت ياواد يامحمد افندى يابن الحمار رايح تقابل الحكام فى مصر ؟ حكام إيه ياإخواتى ؟ يقابل مين يا عم ؟ بقى انت اللى حاترجع لنا الميه ؟ طيب لما نشوف آخرة العريظة دى يا بلد ! هوه حد عارف العريظة فيها إيه ؟ . حد عارف مختمين البلد على إيه ؟ يمكن مختمينها على كمبيالة ! حد كان قرا العريظه ؟ ما يمكن تكون مغرز وانعمل فى البلد ! آه يا بلد ! .

وتلفت الواقفون على باب الدكان إلى بعضهم فى رعب مفاجىء ، وبدأت تساورهم الشكوك المخيفة الغامضة ، والكلمات تنفجر من أعماقهم تحمل كل الحيرة والاضطراب ..!

من يعرف ؟ من ؟

هل يستطيع « محمد افندى » أن يقابل الحكام فى مصر ؟ !

هل يعرف أحد ما فى العريضة ؟

إن أحداً فى القرية لم يقرأ العريضة ، حتى « الشيخ الشناوى » الذى كان يجمع الناس والأختام بحماس بالغ ، لم يقرأ هو نفسه كلمة واحدة فى العريضه .

إنه يعتقد فقط أنها التماس إلى الحكومة لتعدل مواعيد الرى ..

ولكن « الشيخ الشناوى » هذا جمع الناس ذات يوم من الحقول ليعطوا أصواتهم لهذه الحكومة ، وقال لهم إن بيدها الخير ، وإن قدومها قدوم سعد .. فكانت الحكومة نحساً على القرية : فصلت « محمد أبو سويلم » من مشيخة الخفراء ، ونقلت « الشيخ حسونة » الرجل الفاهم ، وسجنت بعض الرجال ، وحجزت على أرض الكثيرين نظير الضرائب .. وأخيراً حرمت مياه الرى على الفلاحين !

ومن قبل امتنع الفلاحون عن إعطاء أصواتهم لها وسمعوا كلام « الشيخ حسونة » و « محمد أبو سويلم » . وحسبوا أنها ستمشى . ولكنها بقيت مع هذا على قلوب الناس كالحمل الكريه !

أتراها ستظل باقية تحرم الفلاحين من ماء الرى ، وتميت الأعواد الخضراء التى ستحمل الكيزان والطعام ذات يوم إلى الدور ؟ !

على أية حال سيفتضح كل شىء بعد عودة « محمد افندى » من مصر .

وقد أوشك دور المياه الجديد أن يقبل وستعرف القرية إلى أى حد أفادت العريضة .

أيظل خمسة أيام كما تشاء الحكومة فتعطش نصف الأرض ، أو يعود - كما كان من قبل - عشرة أيام ؟

ولئن لم تفد العريضة فماذا يستطيعون هم أن يصنعوا ؟

أيمكن أن يتركوا الحكومة تأمر كما تشاء ، ويبقى ما فى القلب فى القلب ، كما قال لهم « محمد أبو سويلم » يوم كتابة العريضة ؟ !

ولكن .. لو أنهم رووا الأرض على الرغم من أوامر الحكومة فماذا يكون ؟

من الممكن أن تلم الحكومة رجال القرية وترميهم فى السجن .. وماذا بعد ؟

لا أحد يعرف !

ماذا يصنعون إذن ؟ !

لا « الشيخ يوسف » ولا « عبد الهادى » ولا « محمد أبو سويلم » ، ولا أحد على الإطلاق يعرف ماذا يجب أن تصنع القرية . .

أتترك لوزات القطن تذبل أمامها بالآمال ، وأعواد الأذرة الغضة تصفر وتموت عوداً بعد عود ؟

أتترك تعبها وعناءها وعرقها كله يجف على الأرض العطشى ؟

أم تراها ترفع الفؤوس على الرغم من كل شىء ، وتقطع الترعة وتدير السواقى على الجسر ، وتضرب رجال الحكومة حين يقبلون ؟

ولكن الحكومة تستطيع دائماً أن ترسل رجالا آخرين .. تستطيع أن ترسل رجالا يلبسون الطرابيش ، والبدل الصفراء المخيفة ويمسكون البنادق .

وما زالت القرية تذكر ماصنعت الحكومة فى أيام الانتخابات ، عندما رفضت القرية أن تنتخب حزب الشعب !!

* * *

وحين كان « الشيخ يوسف » والرجال يتحدثون فى كل ذلك كان «محمد افندى» قد بلغ آخر القرية وأول الطريق الضيق إلى الجسر .

ووقف على حجر مرتفع فى الطريق ، وقفز على ظهر الجحشة ، وأخوه « دياب » يحاول أن يسنده ، وأن يضع حذاءه فى ركاب البردعة .

وانطلقت الجحشة « بمحمد افندى » تركض متوثبة وعنقها الرشيق الملىء يتلوى فى اللجام ، ومن وراءها يجرى « دياب » .

والتفت « محمد افندى » وراءه ، فوجد القرية بمئذنتها وبيوتها الصغيرة السوداء تبعد عنه فى بطء . فزحف عليه إحساس بالوحشة وبدأ يشعر حقاً أنه سيغترب !

وهز رأسه وحرك قدميه ، كأنما يريد أن يهرب من زحف مشاعره .

وأسرعت الجحشة فى العدو .

وعاد «محمد افندى» ينظر إلى الوراء فرأى أخاه « دياب » يجرى فى سرعة شديدة حافى القدمين فشد « محمدافندى » إليه لجام الجحشة لتبطىء ، وبدأ « دياب » يخفف من سرعة العدو .

وقابل «محمدافندى» فتاة تحمل جرة فارغة فى طريقها إلى النهر ، فاستدارت الفتاة وتنحت عن الطريق ، ودخلت أحد الحقول ، ووضعت جرتها على الأرض وأحنت رأسها إلى الجرة وظهرها إلى الطريق .

واغتبط « محمد افندى » لما صنعته الفتاة ، وتفاءل خيرا بينه وبين نفسه ثم سأل أخاه عن الفتاة فقال له « دياب » إنها ابنة « الشيخ الشناوى » .

فاستطرد « محمد افندى » يمدح تربية الفتاة . . . فقد خافت أن يقابل « محمد افندى » فى الطريق جرة فارغة ، فتكون الجرة الفارغة دليل شؤم ، وهو ذاهب يسعى فى حاجة له وللناس !

وابتسم «دياب» راضيا .

كان — كغيره من أهل القرية — يستشعر مخاوف كثيرة غامضة من المجهول ويتشاءم ، ويتفاءل من أشياء عديدة لا يفهمها !

وقال « دياب » عن الفتاة إنها بنت سيدنا « الشيخ الشناوى » ، وهى — كأبيها — تحسن الفهم وتدرك أسرار الأشياء ! ولم يجب « محمد افندى » ، وأخذت قدماه تبتعدان عن جانبى الجحشة ثم تلتصقان بها ، وقفزت به الجحشة وهى تصعد إلى الجسر مسرعة ، ثم استقامت فى الطريق الواسع إلى عاصمة الإقليم ..

وأسرعت الجحشة فى عدوها إلى الجسر و « محمد افندى » يلتفت عن يمينه وشماله ليلقى السلام على كل من يلقاه .

وقال « دياب » لنفسه وهو ينظر إلى الحقول .

ـ إحنا خلاص طلعنا من البلد .

كانت هذه حقيقة واضحة ، فالجحشة قد جاوزت زمام القرية ، وبقى أمامها خمسة قرى حتى تصل إلى عاصمة الإقليم .

وارتفعت الشمس قليلا — وقدما «دياب» تغوصان فى تراب الطريق — وبدأ يلهث وهو يتابع الجحشة فى ركضها المتوثب الذى يثير على عينه حبات الغبار .

ولم يعد « دياب » يقول شيئا ولم يكن « محمد افندى » هو الآخر يكلمه .

ونظر « محمد افندى » إلى النهر الصغير : يستدفع فيه الماء على موجات هادئة مثقلة بالطمى .

وقال « محمد افندى » لنفسه وهو ينظر إلى الماء الذى كاد يبلغ الجسر :

ـ الفيضان جامد !

فرد « دياب » :

ـ أمال حايشين منا الميه ليه ؟ إياك تنحاش روحهم !

وسكت « محمد افندى » وسكت دياب .

وأخذ « دياب » ينظر أمامه على الجانبين .

وكان يشعر بالارتياح كلما رأى شجرة على الطريق : فالسخونة قد بدأت تسرى فى التراب تشوى قدميه ، والصهد يلهب كل بدنه ووجهه .

وكان يتمهل كلما ظللته شجرة ويمتع قدميه بملمس التراب البارد الرقيق .

وسرح « دياب » يفكر فى أمر طريق الجسر هذا : إنه يشوى الأقدام لكثرة التراب الدقيق فيه ..

لو أن الحكومة أصلحته ، واهتمت بهذا الموضوع بدلا من اهتمامها الفارغ بأخذ ماء الرى من الحقول العطشانة !

وهز دياب رأسه متعجباً وهو صامت .

وكان أخوه صامتا ... والشمس تلهب الطريق و « دياب » يفكر بينه وبين نفسه فى هذا الطريق إلى المركز : إنه صعب كالمركز نفسه ! إنه يشعر بسخونة تؤلمه فى هذا الطريق . وهو الذى لا يكاد يشعر بالسخونة فى قريته ذات الأرض السخية بالتراب الدسم !

ولم يكن « محمد افندى » ملتفتا إليه ، كان لديه زاده من الأفكار .

وفى منتصف الطريق قال « محمد افندى » :

ـ نجوزكشى البنت دى بنت سيدنا ياواد يادياب بعد ما نبيع القطن ونخلص ؟

فسكت دياب قليلا ثم قال بجفاف :

ـ قطن ؟ طب وان مابعناش القطن .. يعنى مفيش جواز ؟ هيه قلة فلوس ؟

ولم يجب « محمد افندى » .

وعاد « دياب » إلى صمته ثم أسرع فى جريه وراء الجحشة حتى أصبح إلى جوارها وهو يقول :

ـ هوه يعنى أنا لما آجى أتجوز ما لاقيش غير بنت سيدنا ؟ هيه حيلتها اللضا ما تتجوز واحد فقى زى ابوها !!

فالتفت إليه « محمد افندى » قائلا :

ـ يعنى حانجوزك بنت المدير ياخى !.. جاتك الغم فى كبر نفسك ! ومالها بنت سيدنا !..

وسكت دياب وتنحنح « محمد افندى » قليلا قبل أن يقول مبتسما :

ـ والا يعنى ماينفعش معاك إلا خضرة ؟!.. عايز تتجوز خضرة ؟!..

وزم دياب شفتيه فى احتجاج ولوى رأسه قائلا :

ـ دهدى !

وسكت دياب من جديد .

وظلت الجحشة تجرى ، والمراكب المحملة بالقلل والبلاليص والأحجار والتبن تخطر على صفحة النهر من حين إلى حين .

كان الصمت اللاهث يخيم على كل شيء .. والحقول تمتد تحت حرارة الشمس

إلى جوار الجسر وعلى رأسها تتناثر أشجار هجرتها العصافير . . لاشيء يقطع الصمت غير صوت أجسام تطفىء الحر فى المـاء . . أجسام عارية هنـا وهناك لأولاد ، ورجال . . أو نساء ، وبعض البهائم !

وبعد أن جاوزت الجحشة ثلاثة بلاد بدأت الحياة تدب على الجسر ، فالسواقى تدور والأصوات المختلطة ترتفع ، والرجال يعملون . . وأخذ « محمد افندى » يلقى عليهم السلام وهم يمهدون القنوات للماء ، فيسيل بالراحة من النهر إلى الحقول .

وقال دياب متعجبا فى حنق :

ـ الله ! يعنى السواقى دايرة هنا اهوه بتروى أرض الباشا ! يعنى أرضنا احنا اللى كفرت ؟ . ما هى الميه عاليه . ودول حتى بيرووا بالراحة من غير سواقى . . إشمعنى هنا ؟!..

ولم يجب « محمد افندى » ، وهز رأسه ، وتحسس جيوبه ، وهز قدميه على جانبى الجحشة .

وظلت الجحشة تجرى وتجرى .

وعند ما اقتربت الجحشة من مدخل المركز ، كانت الشمس تكاد تتوسط السماء وترسل وهجا يلفح الحقول وأجساد الناس ، وأنفاس الحر تلهب الفضاء .

وأحس « دياب » بتراب الجسر كأنه رماد نار ما زالت تشتعل ، وباعد قدميه عن الأرض وهو يقفز عن الأرض .

وارتفع صوته فجأة :

ـ ومحمد أبو سويلم ماله ياسى محمد افندى ؟..

فقال « محمد افندى » دون أن يلتفت إلى « دياب » :

ـ ماله ؟

وجرى « دياب » حتى أصبح إلى جوار الجحشة ، وحاول أن يضع يده على ذيلها ، واستمر يقول فى صوت مرتفع :

ـ يعنى ماله محمد أبو سويلم يعنى ؟ يعنى مش نسبه أحسن من نسب سيدنا الشيخ الشناوى ؟

يعنى لما تناسبه يجرى إيه ؟ ما اخد بنته ؟.. دى بنت بالمعنى صحيح !.. حلوة زى لهطة القشطة ! ما تاخد لى وصيفة من دلوقتى .. وأنا لسه حا استنى القطن !.. ده أنا دافع بدلية الجهادية عامناول ! الواحد كبر ومالوش يستنى كده من غير جواز ما تقرا لى فاتحة وصيفة ياسى محمد أفندى ، واهى أرض الشيخ يوسف اللى احنا راكبينها جنب أرض أبو سويلم سوا ، ومسير أرض الشيخ يوسف تبق بتاعتنا والواحد يعنى يبقى يحرت بالطول وبالعرض .

وضحك دياب وهو يتكلم ، وأشرق وجهه على أحلامه .

أما « محمد أفندى » فقد فوجىء بكل ما يقوله « أخوه دياب » .

- ونظر إلى « دياب » يسأله متمهلا باستنكار خفى واستكثار :

- عاوز تتجوز وصيفة ؟!..

فقال « دياب » ببساطة ووجهه فى الأرض :

- آى نعم ! قشطة ! وزى اللبن .. زى ما ترد اللبن الصابح !

وبلع ريقه وزم شفتيه ، ولم يقل شيئاً بعد

فسكت « محمد أفندى » هو الآخر ، وهز رأسه وشرد

وتقدمت الجحشة وبدأت أرجلها تقرع أرضا صلدة .

وامتلأت أذن « محمد أفندى » بقرعات حوافر جحشته على أرض المدينة وأحس بالكبرياء والسكينة .

ولم يعد « دياب » يحتمل لذعات الطريق فى قدميه الحافيتين !

كان الطريق مسودا بالأسفلت ، والصهد الحارق يرتفع منه كأنه فرن محمى .

ولم يكتم « دياب » ضجره ، وأخذ ينظر فى الطريق الأسود المتوهج ، والعرق يسيل من جبينه ووجهه وكل جسده واللسعات ترهق قدميه وصاح :

- دى السكة بقت ولعة ! قطيعة تقطع المركز على أصحابه ! أنا عارف الناس بيمشوا ازاى فى الولعة دى !

ثم همس لنفسه .

- ياريتنى جبت البلغة !

وأخذت الجحشة تضطرب فى سيرها والعربات تزاحمها ، وأربكتها أبواق

السيارات وأجراس الحناطير وفرقعة السياط ؛ واجفلت عدة مرات وأوشكت أن تقذف « بمحمد أفندى » على الأرض .

واضطربت نظرات « دياب » بين صفوف البيوت والدكاكين على الجانبين وامتلأت خياشيمه برائحة الطعمية ، فانتشى وأعجبه منظر أرغفة القمح المعروضة أمام واجهة الدكاكين . .

وظل يلتفت حوله وأوشكت رأسه أن تدور من ازدحام المناظر

وقطع « محمد افندى » تأملات « دياب » فقال وهو ينظر فى ساعة يده بعظمة :

ـ لسه فاضل ساعة على ميعاد محمود بك . خد الجحشة بقى انت وارجع يا دياب وانا حاكمل على رجليه ، ومال إلى أحد جانبى الطريق وهبط من على ظهر الجحشة وهو يوصى أخاه بها وبحجرته الخاصة فوق السطح .

وعند ما سلم عليه عاد « محمد افندى » يقول :

ـ ابقى اركب الجحشة وانت راجع . . وما أوصكشى تانى عليها ، وعا المقعد . خليه مسكوك على طول ، وخد بالك من الشغل يا دياب . إنت سنك عشرين سنة ، يعنى ما بقيتشى صغار . أنا راجع بعد حسبة يومين تلاتة . سلم على أهل البلد واحد واحد . سلم على عبد الهادى وأبوك محمد أبو سويلم . وخد بالك من أمك يا دياب . . اوع تزعلها والا تتخانق وياها . . . وانا مسافر ! اوع تنا كفها وانا غايب !..

ومرة أخرى سلم « محمد افندى » على « دياب » .

وقبل « دياب » يده .

ومشى « محمد افندى » يتحسس بدلته وجيوبه !

وثنى دياب لجام الجحشة ، وسحبها حتى خرج من المدينة تماماً وهو يمشى على حذر .

وعند ما وجد الحقول أمامه ، قفز على ظهر الجحشة ، وشعر بجسده يرتاح على البردعة القطيفة السخية .

وأخذت الجحشة تنطلق على الطريق الواسع .

وأدار « دياب » ظهره إلى المدينة ، فملأته الرهبة . . وحاول أن يتبين أخاه فى شوارع المدينه ، ولكنه لم يستطع أن يرى شيئاً غير البيوت العالية ذوات الطوابق ، والعربات ، والزحام !..

ووجد نفسه وحيداً ، والمدينة تبتعد عنه ، فصاح فجأة كأنما تذكر شيئاً مهماً :

ـ الله ! يعنى ماخدتش منك عقاد نافع يامحمد أفندى ! الله !.. يعنى ناوى تحوش لى وصيفة والا لأ ؟ عاوزين نقرا فاتحة وصيفة ياخواتى !

وتخايل على الجحشة فى كبرياء ، وعيناه تمتلئان بصورة « وصيفة » وجسدها الأبيض الطويل الربراب كالقشطة ، ووجهها الرائق كالفل ، وفكره يسرح فى أرض « الشيخ يوسف » التى تجاور أرض أبيها .

وأمامه يمتد الطريق الواسع إلى القرية . . .

وظلت الجحشة تجرى وتجرى على طول الجسر . . نفس الجسر الذى كان « دياب » يجرى على ترابه الملتهب منذ لحظات .

وكان «دياب» يعيش لساعته فى مشاعر سعيدة وإحساس فائق بالأمتياز ، وهو فوق ظهر الجحشة الفارهة المطهمة التى تشبه الحصان العربى الأصيل .

ولكنه لم يكد يبتعد قليلا عن مدينة المركز حيث ترك أخاه « محمد أفندى » ، حتى دهمه شعور مباغت بالوحدة والفراغ .

وأخذت الوحدة الداكنة تلح عليه ، وهو يضرب فى صفرة النهار ذى الصهد .

وتمنى أن لو استطاع أن يمنع أخاه من السفر .

ومع ذلك ، فقد ظل يهز قدميه الحافيتين ، ويهمز بطن الجحشة بكعبه الجاف فتجرى الجحشة وتجرى .

كانت الشمس تتوسط السماء المفرغة من الغيوم ، ويذوب فى وجهها كل شىء حتى الظلال . .

ومر « دياب » برجال على مسافات متباعدة ، يستريحون تحت أشجار على الجسر فحياهم واحداً بعد واحد ، وكانوا يردون التحية بفتور . . لم ينشطوا للرد عليه كما فعلوا مع « محمد أفندى »

وفى تلك الساعة من النهار لا ينبض الجسر بحركة على الاطلاق ، ولا يستطيع العابر الغريب أن يتلقى حلاوة الأصوات ، تحييه وترحب به فى احتفاء ، مؤكدة ـ فى خشونتها وصدقها ـ أن الانسان على الرغم من كل شىء ، ليس وحيداً فى فى عالم الحقول !

وظلت الجحشة تجرى «بدياب» من أرض قرية إلى أرض قرية اخرى ومازالت

الكآبة تخنقه ، فتذكر أنه فى هذه الساعة الهامدة المتوهجة من سكون النهار ، يظهر الجن الأحمر ، الذى سمع عنه طويلا ، وهو طفل .

وحاول أن يصفر نغما من موال حزين ولكن همساته لم تنطلق وفاضت فى نفسه سكينة كالموت ، والجحشة تقترب به من أرض قريته . . وهنا أو هناك على طول الجسر يغطس فى الماء رجل أو إمرأة . . أو تستحم جاموسة !

وعند ما بلغ أول الطريق الضيق الذى يفضى إلى دور قريته ، شد لجام الجحشة باحكام فتوقفت به قليلا .

ونظر إلى صفحة النهر التى تسطع فى بريق خاطف تحت قرص الشمس .

وتعبت عيناه من سطوع الضوء الخاطف على الماء ، فأرخى لجام الجحشة ، ثم انحدر إلى طريق القرية وهو يفكر فى أخيه « محمد أفندى » وفى « وصيفة » التى يستطيع أن يتزوجها على الفور لو أن أخاه قال لأبيها كلمة واحدة !

ولمح دياب من بعيد فتاة تنحدر على الطريق الضيق . .

لم تكن مجرد فتاة من القرية تعود من على الجسر بجرتها المملوءة .

كانت تتمايل وتهز خصرها على غير عهده بنساء القرية .

وكانت على غير عهده بالقرويات ، كانت تلبس جلبابا ملونا ، وتسند جرتها المائلة بيد مكشوفة بضة تلمع فيها أساور من زجاج أخضر .

وخفق قلبه ، وزايلته وحشته لبعض الوقت ، وهمس لنفسه بفرح :

ـ وصيفة ! ! ياوعدى ! !

وشد جسده بخيلاء على الجحشه ، وفتح صدره بفروسية ، ولكزها بكعبه فى قوة ، ومد يده تحت البردعة فقرص ظهرها .

ووثبت الجحشة فجأة ، ورفعت رأسها ، ونهضت وأخذت تعدو كما لم تعد من قبل وتثير الغبار الكثيف .

وشعرت الفتاة بضجة الجحشة ، فاستدارت بحركة بارعة حاذقة لتلقى بعض الماء من فوهة الجرة فى دلال .

ثم رفعت عينيها مبتسمة .

وإذ رأت «دياب» على ظهر الجحشة المطهمة ، أطلقت ضحكات متوالية ، ثم قالت بصوت مرتفع وهى ما تزال تضحك :

ـ هوه انت ياذياب ؟ وجاى ترمح ورايا وترهون كده ليه يامنيل !..

يعنى دياب ابن غانم يا خى ؟ والا يعنى فاكرنى السفيرة عزيزة !.. جاى كده بالهرجة والمرجة !..

وفوجىء « دياب » بصوتها وهو يقترب منها ، فقال بجفاف وخيبة أمل :

ـ الله ! خبر إيه يابت ياخضرة . إيه الجلابية دى !.. خيلتينى داهيه تخيلك !

واستمرت «خضرة» تطلق قهقهات خشنة ناعمة خليعة ، وأمسكت لجام الجحشة وأوقفتها لتقول لدياب إنها أرادت أن تغسل جلبابها اليوم ، وحاولت أن تقترض جلباباً لتخرج به تملأ جرة لزوجة شيخ البلد فلم تجد فتاة أو امرأة فى القرية ترضى باعارتها الجلباب .. إلا « وصيفة » !.

وسكتت قليلا ، وحاول «دياب» أن ينحى يدها عن لجام الجحشة فتمسكت به .

وسألت «دياب» وهى ماتزال تضحك :

ـ جبت لى حاجة من البنـدر ! . . ما جبتش عيش قمح والا طعمية ؟ ما جبتش حاجة ؟ ! . . .

فهز « دياب » قدميه على بطن الجحشة لتنطلق ، وقال وهو ينحى يدها عن اللجام :

ـ حاجة إيه إياك تنحوجى ! :

ثم ضحك . .

وتوقفت « خضرة » عن الضحك بغتة ، وتركت اللجام بهدوء واستسلام ، وتراخت يدها إلى جانبها . . ودهمها الكدر ، وغشت وجهها صفرة ، وانخفض صوتها وهى تقول بحسرة :

ـ ليه كده يا دياب ؟ إخص عليك ! ! . ما كفاية حوجة ! .

وتنهدت . .

ولاحظ دياب تغيرها ، فأراد أن يصالحها .

وقال ببرود :

ـ تيجى العصر عند الزريبة تاخدى لك زرين خيار ! !

فقالت باهمال وما زالت المرارة فى حلقها :

ـ يعنى عايز منى الشىء الفلانى ؟!..

واضطرب « دياب » أمامها ، ودارى اضطرابه فى قهقهة متكسرة جافة ، وهز اللجام لتنطلق به الجحشة .

وعند ما تحركت الجحشة ، أمسكت « خضرة » جرتها بيد ، ثم تقدمت من « دياب » مسرعة ومالت على ظهره بقبضة يدها الأخرى وتركته يمضى .

وسارت به الجحشة « وخضرة » تشيعه بكلمات أخجلته .

وعادت خضرة تضحك فى استسلام ، وتطلب منه أن يحضر لها الخيار ..

وتابعت مشيها تهز عودها الجاف ، وصدرها المستهلك الضامر المترهل ، والضحكات تشيع بلا معنى فى وجهها الأصفر الذابل ..

وظل « دياب » يسمع كلماتها الجارحة ، والجحشة تدخل به القرية ..

لم يجد فى الطريق أحداً على الأطلاق إلا وهج الشمس والدجاج . لا ظل ولا ناس ! .

ورأى من وراء أبواب الدور المفتوحة بعض العجائز يستلقين على الأرض تحت العتبات يتثاءبن ويعبثن فى شعور نساء أخريات ويفلين الصغيرات ..

وكان دكان « الشيخ يوسف » مغلقاً والمصاطب على طول الطريق تتوقد فوقها الشمس .

وهكذا ظل « دياب » راكباً حتى وصـــل إلى داره فنزل أمام العتبة وسحب الجحشة .

وقامت إليه أمه تسأله فى لهفة إن كان « محمد أفندى » قد ركب القطار ..

فأجابها فى صوت خشن هادىء :

ـ آه ركب .

ورفع البردعة عن الجحشة ، وأخذ يمسح العرق من على ظهرها بيده دون أن ينظر إلى أمه .

وكادت أمه تسأله من جديد إن كان أخوه قد ركب القطار حقاً أمام عينه ؟..

فقال دون أن يلتفت إليها :

ـ ما قلت لك ركب ! دهدى !.. بلاش أر !

فقالت أمه فى سكينة :

ـ طيب يا بنى ربنا ! يكفيكوا شر المخبى فى الغيب ! .

واهتز « دياب » أمام كلمات أمه وأحس بالشوق إلى أخيه يلح عليه .

ووضع أمام الجحشة كمية كبيرة من الفول والتبن أكثر من المعتاد ، ووضع أمامها طشتا فيها ماء نظيف . ثم ربت على ظهرها فى عطف ، وتركها .

ورفع ذيل جلبابه ومسح به عرق وجهه ، وطلب من أمه أن تحضر له الغداء وجلس على المصطبة الكبيرة فى مدخل الدار فأكل فى صمت .

ولم يرتفع طوال الأكل غير صوت أرغفة الذرة التى تتكسر ، وصوت البصل عند ما يقضم . .

وبعد أن أكل « دياب » مسح فمه بيده ، وتكرع ، وساق أمامه الجحشة إلى الحقل .

لم يكن « دياب » طفلا صغيراً بعد ، ومع ذلك فقد ظل فى الحقل وحده يعانى الخواء الرهيب الذى يعذب طفولة الصغار ، عند ما يغيب عنهم فجأة أب أو أخ كبير يقودهم فى كل طريق ، ويعرفون من خلال نظراته المشجعة الحانية كثيراً من أسرار الحياة ! .

وفى الحق أن « دياب » لم يكن يصنع شيئاً غير ما يأمره به أخوه الأكبر « محمد أفندى » .

و « محمد أفندى » هذا الذى يفكر دائماً ، هو الذى يهتدى إلى حلول تبهر « دياب » عند ما لا يستطيع فهم شىء ! وحتى فى سوق المدينة الملىء بالمؤامرة والمناورة كان « محمد أفندى » هو الذى يشترى البهائم ويبيع بسهولة وبلا اكتراث وهو الذى يقترح على « دياب » أن يزرع الفول بدلا من البرسيم ، أو البرسيم بدلا من القمح وهو الذى يشترى السماد ويعرف أنواعه ومزايا كل نوع منه ! .

وهو الذى يعرف كل كبيرة وصغيرة فى الحقل والدار . .

ومن أجل ذلك فقد بدأ « دياب » يشعر بخوف . عند ما وجد نفسه ـ مرة واحدة ـ وحيدا فى البيت والغيط والقرية . .

كان « محمد أفندى » هو الحقيقة الكبرى فى حياة دياب . هو الذى يبر الأرض ويشترى عليها المزيد ، ويعرف مزاج كل قطعة ويرضيها ! .

ولو لم تكن « لمحمد أفندى » هذه القدرة ، لما استطاع « دياب » أن ينتج شيئا ولما كانت زراعته من أجود زراعة فى القرية . . . أجود من زراعة

« عبد الهادى » نفسه فى بعض الأحايين ! . .

لكم تألم دياب عند ما أحس فجأة بغياب أخيه ! ! .

إن « محمد أفندى » عند دياب هو كل شىء .

هو الكبرياء ، والقدرة التى يمنحها امتلاك المال ، والجاه الذى توفره المعرفة . . .

هو المستقبل ، وهو كل ما يثير الزهو فى نفس الإنسان ! . .

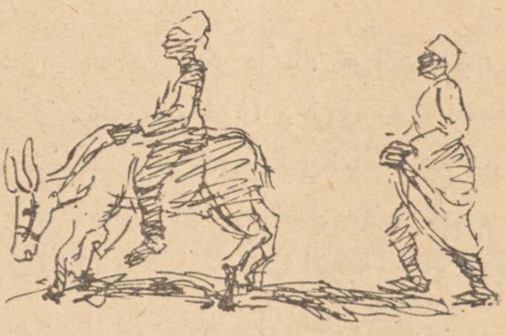

— ١٠ —

جلس «دياب» بعد العصر على رأس حقله فى حوض الترعة ، وانتظر .

وأخذ يتأمل الطريق الضيق ، وفى يده الخيار والقثاء .

وقضم خيارة وتململ . إن خضرة لن تأتى الآن ، فالبهائم أوشكت أن تعود من الحقول إلى القرية ، «وخضرة» تعتبر هذه الساعات فرصتها للكسب فهى تمشى وراء البهائم ، وتزاحم الأخريات ، وتلتقط ما تسقطه البهائم من روث لتصنع منه أقراصاً كبيرة تجفف فى الشمس وتوقد بها الأفران .

وصناعتها هذه تكفيها حاجتها من الطعام .

وانتظر «دياب» حتى بدأت الشمس تغيب فرمى الخيار والقثاء ، وأغلق الزريبة على البهائم وعاد إلى القرية ليبيت مع أمه .

لقد فرغ من عزق غيط القطن ، ولكن أتراه ينزع كل ما بين الأعواد من من شجيرات الخيار والقثاء . لقد شاخ الخيار الآن ولبلابه الأخضر يسرق طعام أعواد القطن التى بدأت ترتفع باللوز الصغير ، أينزع هذا اللبلاب من الأرض ؟ .

لقد نسى أن يسأل «محمد أفندى» قبل أن يسافر ، «ومحمد أفندى» وحده الذى يعرف كل شىء وهو الذى يحسب متى تعزق الأرض ومتى تحرث وهو الذى يعرف متى يروى أرض الجسر وحوض الترعة .

هو وحده .

ولم يحدث من قبل أن وجد «دياب» نفسه مضطراً إلى تدبير الأمر أو التفكير فيه .

«ومحمد أفندى» يصنع أكثر من هذا ، فهو أحياناً يخلع جلبابه النظيف وحذاءه ويقطع القنوات ليسيل الماء فى الأرض بالقدر الذى يحتاج إليه كل زرعه ، وكأن فى يده ميزان المياه .

وفكر «دياب» فى أن يسأل عبد الهادى عما يصنع بحقل القطن ولكنه خجل ولم يكد يصل إلى داره حتى طلبت منه أمه أن يعود إلى زريبة البهائم ليبيت مع البهائم . أما هى فلن تخاف من المبيت وحدها فى الدار .

وعاد دياب إلى الزريبة بالفعل ومعه عشاؤه وبات عليها .

وفى الصباح واصل عمله فى الحقل . وفى الظهر حين كان يفكر أن يعود إلى الدار ليأكل لقمة رأى «خضرة» مقبلة تحمل إليه الطعام من عند أمه .

وتناول طعامه مع «خضرة» فى الزريبة وظلت معه «خضرة» إلى العصر وقامت من عنده تحمل على رأسها ربطة من الخيار والقثاء .

ومشت مغتبطة تقضم خيارة ، وقالت «لدياب» وهى تسير ضاحكة إنه يجب أن يكتفى بزيارتها هى ولا يوجع دماغها بالكلام عن «وصيفة» فنجوم السماء أقرب إليه من «وصيفة» .

وابتسم «دياب» وقام إلى ظل شجرة فتمدد فوق الزريبة ولم يقل شيئاً .

وعاد يشعر بالوحدة بعد أن انصرفت «خضرة» .

عاد يفكر فى أخيه الغائب ، ويحاول أن يدبر أمر الأرض . .

أيقلع لبلاب الخيار أم يتركه ؟ . أيغيب «محمد افندى» حتى تأتى دورة الأرض فى الرى ؟ وهل يروى أرض الجسر هذه المرة أم يروى حوض الترعة ؟ .

وأكد «دياب» لنفسه أن الأرض كلها لن تساوى شيئاً ولن تنتج شيئاً بدون «محمد أفندى » .

وتقدم النهار «بدياب» وهو متمدد فوق الزريبة وغابت الشمس .

وسيطر على «دياب» فى مهبط المغرب حزن ثقيل . . ونزل من على الزريبة ، وأخذ يمشى أمام باب الزريبة وأحس كأنما هو يريد أن يبكى !

وفى الحق أنه لم يحتمل مشاعره ولا أفكاره ، فأغلق الزريبة على البهائم ومضى من فوره إلى القرية .

وأمام دكان «الشيخ يوسف» وقف «دياب» يفكر فى أشياء كثيرة .

ان أخاه «محمد أفندى» قد أمره منذ عامين ألا يقف أمام الدكان . . وهو يقف الآن لأول مرة منذ أمره أخوه به ولكنه على أية حال لن يغضب أخاه . . فلن يشرب الدخان ولا المعسل ولا الشاى ، ولا كل الأشياء التى تعلمها هنا من وقفته أمام الدكان .

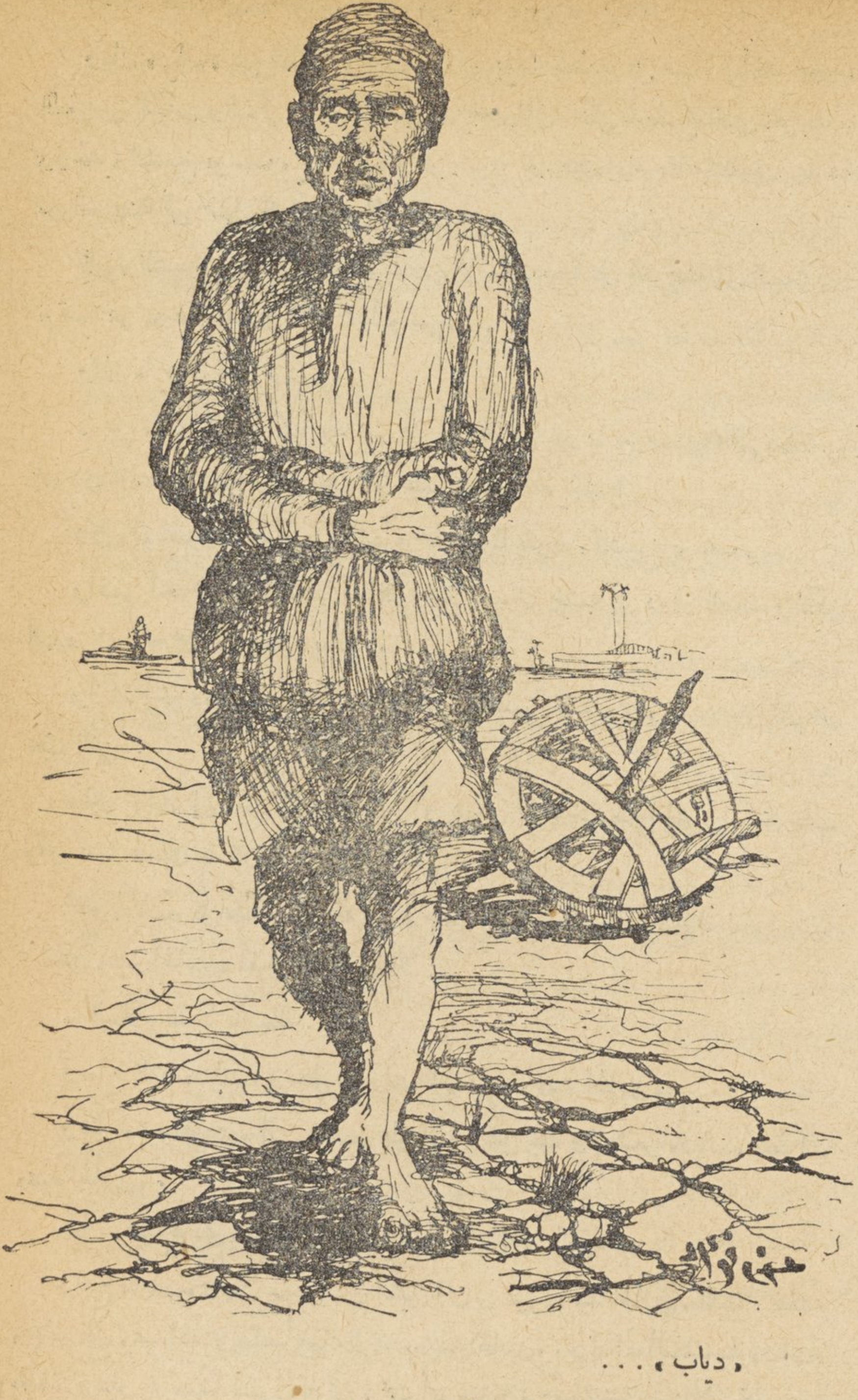

« دياب » . . .

لم يحدث من قبل أن وجد نفسه
مضطراً إلى تدبير الأمر أو التفكير فيه

إنه قد تحدث إلى «خضرة» لأول مرة منذ عامين هنا أيضاً .

ومال «دياب» على الدكان فوجد «علوانى» يقف كعادته كل مساء ليأخذ نصيب الليل من الشاى والسكر والدخان قبل أن يمضى إلى حقل البطيخ الذى يحرسه . ووجد « الشيخ يوسف » يهز رأسه وهو يشرح للواقفين أمام دكانه مخاوف عديدة من العريضة التى حملها «محمود بك» إلى مصر .

كان « الشيخ يوسف » ما زال يتعجب لأن العمدة أعاد العريضة إلى البيه دون توقيعه هو «وعبد الهادى» « ومحمد أبو سويلم » . .

وكان ما يزال يصرخ :

- بقى فيه فى الدنيا كلها بلد تختم على عريظة من غير ما تعرف إيه اللى فيها ! . . هى دى كانت تجرى ؟ جالنا منين إنها علشان اللمية آه يا بلد !

وكان الواقفون يبدون موافقتهم وحماسهم لما يقوله « الشيخ يوسف » .

وأقسم أحدهم أنه لم يكن موافقاً على إرسال ختمه إلى دوار العمدة ولكن البنت امرأته هى التى جعلته يغلط .

وأكد آخر أنه لم يذهب بختمه إلا لأن « الشيخ الشناوى » طلب منه الختم على حب النبى .

وقال ثالث إن الجن الأزرق كان لا يمكن أن يأخذ منه الختم ولكنه خاب وأرسله ، فكان ما كان .

سمع «دياب» كل هذا ، فانتزعه الكلام من أفكاره المختلطة وفتح فمه ليقول شيئاً ولكن «عبد الهادى» أقبل بنشاط قائلا :

- السلام عليكم يارجالة .

وضاع كلام «دياب» وسط عبارات الترحيب «بعبد الهادى» .

ونظر «عبدالهادى» إلى «دياب» طويلا ولم يقل شيئاً ولم يشعر «دياب» بنظرات «عبد الهادى» .

وكان «عبدالهادى» مضطرباً بعض الشىء ، مكفهر الوجه ..

وسمع «دياب» رجلا يهمس بأن الشر بائن فى عينى «عبد الهادى» الليلة . فتقدم «دياب» إلى «عبدالهادى» ليسأله ماله فلم يجب «عبدالهادى» . ولكنه أمسك بيد «دياب» فجأة ، وسار به بعيداً ليقول له أن « محمد أبو سويلم » سمع «خضرة» الآن تمزح مع

«وصيفة» بكلمات قبيحة مفضوحة واسم «دياب» يتردد على ضحكاتهما ، فقام من فوره وضرب ابنته وخبط «خضرة» بالكف وطردها من داره ، وهددها بأن يقطع رجلها إن مدتها إلى داره مرة أخرى .

ولم يجب «دياب» وظهر عليه ارتباك واضح وأخذ يبلع ريقه .

فتركه «عبد الهادى» وعاد إلى الدكان يسأل « الشيخ يوسف » بسرعة إن كانت دورة الرى القادمة تحل بعد ثلاثة أيام ؟..

فقال « الشيخ يوسف » بيأس إنه قد بقى يومان لا ثلاثة وتبدأ الدورة بأيامها الخمس المشئومة .

وصرخ دياب» من بعيد :

- يومين ؟! يومين بس !! «ومحمد أفندى» يلحق يروح ويرجع فى اليومين دول ؟!..
وأقبل مسرعاً يندس فى وسط الرجال أمام الدكان .

وزعق «عبد الهادى» :

- والحكومة رايحة تعدل المواعيد فى يومين ؟ ! حاتلحق تقرا العريظة وتنفذ اللى فيها فى يومين ؟!..

فقال أحد الرجال الواقفين :

- حكومة إيه ياعم ؟ ! دا احنا لازم نعرف شغلنا احنا . إن ماكناش نشوف لنا تصريف لرى الأرض من ورا الحكومة يبقى انشا الله عمرنا ما روينا ، على رأى اللى بيقول ، خلى الحكومة تتحكم واللى فى القلب فى القلب ! ! حانمشى ورا الحكومة والعرايظ !..

وخلع « الشيخ يوسف » عمامتـــه ذات الشال الأبيض المتسخ المفعم بلون زهرة الغسيل ، وأخذ يصلح من العمامة ويلبس زرها الأزرق القاتم وينظف بأظافره طربوشها المغربى وهو يقول إنه من المستحيل أن يستطيع « محمود بك » «ومحمد افندى» تقديم العريضة فى يومين ولئن أمكن هذا فالحكومة فى مصر لن تصلح الأمر قبل شهر على الأقل .

وشرد «دياب» قليلا ثم ارتفع صوته يسأل عن مصر هذه وماتكون ؟.. وكيف لايستطيع «محمد افندى» أن يقابل حكومتها فى يومين كاملين ؟..
أليست الحكومة هناك فى دوار كدوار العمدة ؟

وقبل أن يجيب « الشيخ يوسف » اقترح « عبد الهادى » حين يحل موعد دور الرى أن تدور كل السواقى على الجسر وأن يقطع الجسر ليتدفق الماء ويروى الحوض كله فى خمسة أيام .

وأضاف أحد الرجال الواقفين أن الترعة أيضا يجب أن تقطع من أكثر من مكان ليمكن رى حوض الترعة هو الآخر فى الأيام الخمسة المقررة .

ووضع « الشيخ يوسف » عمامته على رأسه ونظر إلى «دياب» بعمق قائلا :

- سألتنى عن مصر ؟

ثم هز رأسه واستمر يقول إن مصر الآن لم تعد تطاق ... لقد كانت مصر هى مصر بحق فى الأيام الجميلة الماضية عندما كان « الشيخ يوسف » يعيش فيها يتعلم بالأزهر . . كان لا يذهب اليها إذ ذاك إلا الكبار أما الآن فقد هانت . . وأصبح أى إنسان يملك جنيها أو جنيهين يستطيع أن يسافر اليها ويقعد فيها !..

وابتسم « عبد الهادى » ونقل عينيه بين «دياب» الذى لم يفهم وبين « الشيخ يوسف » الذى استطرد فى رنة ساخرة :

وعلى كل حال ياسيدى أهه على رأى الشاعر :

ولا كل من لبس العمامة يزينها

ولا كل من ركب الحصان خيال

ولا كل من قال يافلان أنا صاحبك

فأكمل «عبد الهادى» ضاحكا :

- أى والله يا « شيخ يوسف » « والسن يضحك والقليب مليان »

وحاول « علوانى » أن يتحدث متملقا « الشيخ يوسف » فقال بطرب :

- يا اخويه عارف كل حاجة !.. عارف شعر العرب كمان . عارف كل حاجة وفاهمها زى القرد !..

فغضب « الشيخ يوسف » وزعق فى «علوانى» :

- قرد لما ينطك !. خطاف من سلسال خطافين، امشى انجر من هنا واوعاتهوب ناحية الدكان تانى . إيه الملافظ دى ! قرد ؟ اياك تنقرد !

وبهت علوانى ووقف يعتذر ، ويحاول أن يشرح وجهة نظره .

غير أن « الشيخ يوسف » قطب وجهه ولم يفرجه تلك الليلة .

وابتعد «علوانى» آسفا فجلس وحده على الجميزة الملقاة فى الفضاء أمام الدكان .

وأراد «دياب» أن يغير الحديث . . وفى الحق أنه أراد أن يريح قلبه فسأل الشيخ

يوسف ، إن كان من الممكن أن يتسلم فى الغد خطابا من «محمد أفندى» فقال «الشيخ يوسف بضيق إن هذا مستحيل فالخطاب يصل من مصر إلى القرية بعد ثلاثة أيام بالقليل !.

فاعترض «دياب» على هذا وهز «الشيخ يوسف» رأسه وأخذ يفسر له الأمر فى عصبية وضيق .

ولكن «دياب» عاد يصيح فى «الشيخ يوسف» أن «محمدأفندى» يجب أن يرسل خطابا بسرعة ويجب عليه أن يتسلم هذا الخطاب قبل بدء دورة الرى ليعرف رأسه من رجليه ، ويفهم إن كان يبدأ فى رى أرض الجسر أو حوض الترعة .

ولم يجب «الشيخ يوسف» وتململ بصوت مرتفع .

وانتهز «علوانى» المناسبة فعاد إلى مكانه أمام الدكان واعترض على «دياب» قائلا:

ـ يا أخى افهم الكلام الحلو اللى بيقوله أبوك الشيخ يوسف يا أخى اسمع الكلام !

وسكت «الشيخ يوسف» ، ونظر إلى «علوانى بحيرة» .

أما «دياب» فلم يسمع الكلام ولم يصدقه ، ولم يرد أن يناقش فيه .

وفى اليوم التالى ، لم يكد الضحى ينفض من على الحقول ندى الصباح حتى كان يقف عند صندوق البريد الكبير المثبت فى سور داور العمدة .

وبعد ساعة من الانتظار ، أنفقها جالساً على الأرض يلعب السيجة مع «عبدالعاطى» .. رأى ساعى البريد مقبلا من بعيد .

وتحرك «عبدالعاطى» ، وهو الخفير المكلف باستلام البريد ، ووقف إلى جوار الصندوق تاركاً خطوط السيجة على الأرض ، وقطع الطوب الحمراء التى اختارها لنفسه ثابتة فى أماكنها وقام «دياب» من لعبة السيجة وهو يرمى آخر نظرة على قطع الطوب السوداء التى اختارها لنفسه مغتبطاً بقدوم ساعى البريد فى هذه اللحظة بالذات ، لأن كلاب «عبد العاطى» الحمراء كانت قد أكلت معظم كلابه السوداء ، وأوشك «عبدالعاطى» أن يغلبه دوراً يسقط مكانته فى لعبة السيجة بين الرجال

وقام الصغار الذين كانوا يشاهدون السيجة باهتمام فالتفوا حول الصندوق كما تعودوا أن يصنعوا كل يوم .

وتقدم الحمار العجوز الأزرق بساعى البريد ، مطأطىء الرأس ونزل الرجل

ببدلته الصفراء المتربة ، وحقيبته الكبيرة المحشوة المهلهلة وطربوشه المتآكل الحواف يستقر فوق منديل كبير مخطط يغطى قفاه وجبهته .

وطوى الرجل شمسيته المرقعة السوداء وأعطاها «لعبد العاطى» ، وأقبل على حقيبته المترهلة فدس فيها يده ، وبدأ يتحسس الأوراق فى بطء وأناة . . وسأله «دياب» قبل أن يخرج يده بالظروف :

- ما عندكش جوابات من محمد أفندى ؟

ورفع ساعى البريد رأسه ، ونظر إلى «دياب» فى غيظ .

ثم تنهد وأحنى رأسه على الحقيبة وأخذ يخرج منها بريد القرية .

كان لساعى البريد وجه معفر ملىء بالغضون ، وكانت شفتاه تتقوسان تحت شارب رمادى غليظ ، وأنف أفطس متكور مسدود الفتحات بالشعر الكثيف وكان كل هذا يرسم مع عينيه العكرتين وذقنه المعقدة صورة رجل يتألم ويبكى بلا دموع .

وكان شكله الجاف العابس ، ومقدمه كل يوم من المركز ، يقيم بينه وبين الفلاحين حائطاً كريهاً من الريبة والرهبة والحذر .

وتقدم منه « دياب » فى وجل يسأله مرة أخرى :

- حضرتك يعنى ياحضرة اللفندى جنابك ياحضرة البوستجى ما معكش جواب من محمد أفندى ؟

وأجابه ساعى البريد بحنق مكتوم وهو يزم شفتيه ويصر على أسنانه

- والله لسه ما حطناش نفسنا جوا الجوابات كمان ؟

فاستسلم «دياب» قائلا بهدوء وبساطة :

- طيب .

وأخذ ساعى البريد يقرأ العناوين المكتوبة على الظروف . .

وتسلم بعضها الصبيان الواقفون والخفير يتمم عليهم .

ودفع ساعى البريد بباقى المظاريف إلى الخفير «عبد العاطى» ليوزعها بمعرفته ، ثم أخذ منه الشمسية واتجه إلى حماره العجوز ذى الرأس المطاطىء ، وركب .

وتضايق « دياب » .

ورأى الرجل يتحرك بحماره دون أن يقول له كلاماً صريحاً . . ولم يطق أن

يخطىء خطاباً من «محمد أفندى» بهذه السهولة ، فاتجه إلى ساعى البريد وأمسك بحماره وصاح فيه بغلظة :

- يعنى ما قلتش فيه جوابات من محمد أفندى والا لأ ؟ ! فين جواب محمد أفندى ؟ . اقرا الظروف إللى فى الشنطة دى كويس . مكتوب على الظرف يصل ويسلم لأخونا دياب .

فصرخ فيه ساعى البريد أنه سلم البوسطة كلها ولا يوجد ظرف باسم دياب ولا يمكن أن يعرف إن كان محمد أفندى قد كتب له خطاباً أو لم يكتب فالخطابات داخل الظروف مغلقة ، وهو يعمل ساعياً للبريد لا منجماً . .

ثم أدار حماره بملل وهو يكاد يعوى :

- ربنا يتوب علينا من الشغلة المهببة دى ! ! بقى لنا فيها ثلاثين سنة لا عرفنا نوفر قرش ولا نربى عيل ولا .

وضاعت كلماته وهو يبتعد فى صيحات «دياب» :

- دهدى ؟ طب ما تزهقش قوى كده ! انت خلقى كده ليه ؟ يعنى ما فيش جوابات ولا هبابات ؟؟ طب ماتقول كده من الصبح ! . جاتكو الغم يابتوع البندر فى كبر نفسكو ولماضتكو !

وفى مساء ذلك اليوم كانت القرية كلها تروى قصة ساعى البريد «ودياب» .

وعندما ذهب «دياب» إلى دكان «الشيخ يوسف» قبل صلاة العشاء قال له أحد الواقفين ضاحكا :

وأبعت له جوابات ... ولا جواب جانى .

خف المنزول درجات . . .

وضحك «الشيخ يوسف» طويلا .

وأضحك الناس على «دياب» .

وغضب «دياب» وتحرك لينصرف قائلا :

- دهده ياعم الشيخ يوسف !؟ يعنى طول عمرك مقنب واسمعنى غزالتك راقت دلوقت ؟ لا ياسيدى أنا بقول لك أهه . ماتشدش عنيه المسخرة بعد كده وتخلينى مسخة فى البلد . . بقى انت تقدر تعمل كده ومحمد أفندى هنا . .

كان يقول هذا الكلام وهو يبتعد ! «والشيخ يوسف» يشيعه بالشتائم

وبالسخرية منه ومن « محمد أفندى » ..

ولم ييأس «دياب» ، من وصول خطاب من « محمد أفندى » ..

وذهب فى الصباح التالى فلعب السيجة وانتظر ساعى البريد . . وسأله نفس نفس السؤال فثار الرجل فى وجهه وشتمه ، ورفع عليه الشمسية فانصرف «دياب» حائراً ، وهو يقول :

- دهده . . هو كل واحد يشتم فيه من ناحية ، جاتكو شوطة فى الجوابات وسنين الجوابات .

وعند ما سخر منه « الشيخ يوسف » مرة أخرى فى مساء ذلك اليوم ، صاح «دياب» فيه :

- جرى ايه ياشيخ يوسف ؟ مولع منى أنا وأخويا سى محمدأفندى ؟! البلد كلها مولعة منا ليه . . يابلد غيارة . . يابلد بتهرى وتنكت وما حواليها غير الكلام الفاضى ! أنا عارفك مفلوق من إيه ؟ ما تسق ياشيخ يوسف زى ما بنسق !! فاكر ان الزراعة الحلوة دى جاية بالساهل . . هيه أرضنا بترمى أحسن من أحسنها أرض ليه ؟ هه . . عارف ليه ؟ دا شقانا ياجدع . . دى خدمة عالغالى يا جدع !! بنعرف نعزق فى الأرض ونديها حقها ياراجل دا الحتة بتاعتك اللى احنا راكبينها كانت حاتبور فى إيدك لولا لحقناها منك . . إيش عرفك انت بالفلاحة . وحياة النبى دا أنا بازرعها برجلى . فالح لى بس تولع من الخلق وتتمسخر عليها . . آه يابلد غيارة يابلد سو !

كان « دياب » ينفجر ولا يكاد يترك فرصة «للشيخ يوسف» ، وقد أخذ يلوح بيديه حتى أوشكت إحدى يديه أن تدخل فى عينى « الشيخ يوسف »

ولم يحتمل «الشيخ يوسف» مايقوله «دياب» .

واصفر لونه ، وغارت غضون وجهه وتتابعت أنفاسه ، ووجم الذين يقفون أمام دكانه .

ورفع « الشيخ يوسف » كفه المعروقة النحيلة فهوى بها على صدغ « دياب » ورنت الصفعة فى أذن «الشيخ يوسف» فهوى بكفه على الصدغ الآخر .

وتحسس « دياب » وجهه وذهل لبعض الوقت ، وساد الصمت تماماً . .

وتوترت أعصاب الواقفين .

ودارت نظرات « دياب » بينهم .

وزحفت على حلقه غصة فقال يغالب نفسه بصوت خفيض :

ـ بتضربنى على خلقتى يابا الشيخ يوسف ؟ . وبتقول إنك قريت فى الأزهر ؟ تضربنى على خلقة ربنا ؟ . معلهش يابا الشيخ يوسف . . إنت برضه راجل كبير وزى أبويا .

وصمت قليلا . . ثم قال :

ـ الله يسامحك .

وزلزل الشيخ يوسف وانفلتت منه أعصابه .

واهتز كل بدنه على خوف مفاجىء من كلمة الله يسامحك ! ! وصاح فى انهيار :

ـ غور من قدامى . . إيه اللى جابك هنه ؟ ؟ خدوه من قدامى ياناس ربنا يسامحنى . . إنت بتدعى عليه يا وله ! إنت بتدعى عليه .

وجذب الواقفون « دياب » وأبعدوه عن دكان « الشيخ يوسف » ، وأخذوا يهدئون من غضب « الشيخ يوسف » .

ولكنه أغلق الدكان على الفور ، ومضى وهو يغلى ويرتعد واتجه إلى دار « محمد أبو سويلم » فوجده يجلس على مصطبته مع « عبد الهادى » وضوء القمر يملأ المكان بالهدوء والسكينة .

كان « عبد الهادى » على طرف المصطبة يجلس إلى جوار الباب يتسمع كل حركة ويصطنع أية مناسبة ليلتفت باحثاً بعينيه فى داخل الدار عن « وصيفة » .

كان يريد أن يراها .

وكان يعانى لفحات ألم خفى كلما تذكر أن « وصيفة » لم تعد تحمل القهوة إليهم منذ سافر « محمد افندى » .

أيكون « محمد أفندى » وحـــده هو الذى يستحق منها أن تعمل القهوة وتقدمها بنفسها . . وتصبها أيضاً ؟ !

وتمتم « عبد الهادى » وهو ينظر إلى السماء الساكنة الرائقة فى ضوء القمر :

صاحبت صاحب وأتارى صاحبى مصاحب

وصاحب اتنين ما يثبت على صاحب

وابتسم « محمد أبو سويلم » قائلا :

ـ آى والله يا عبد الهادى صدقت يا ولدى .

وصاحب اتنين ما يثبت على صاحب

يا هنترى البيه حايثبت على صحوبية البلد ولا صحوبية الحكومة ؟

وكان « عبد الهادى » شارداً عنه فأكمل تمتمته :

والصاحب اللى سبب ذلى مخاصمنى

فقاطعه « محمد أبو سويلم » ضاحكا :

ـ دهدى ؟ دانت قلبته موال أخضر .. دا انت قلبك أخضر قوى .. خلاص يعنى حبكت يا عبد الهادى . . عدلنا مواعيد الرى وروينا وزرعنا وجمعنا مافاضلش غير المواويل الخضر ؟

وضحك « عبد الهادى » ونظر إلى « الشيخ يوسف » مستجدياً بعينيه ضحكات منه .

ولكن « الشيخ يوسف » لم يبتسم .

وسأله « عبد الهادى » عما به فمضى يروى لعبد الهادى عن « دياب » وقلة أدب « دياب » وما قاله له « دياب » فى وجهه .

وعند ما وصل فى الحكاية إلى أنه ضرب « دياب » كفين على صدغه ضحك « عبد الهادى » وشعر براحة صغيرة تغمره .

ولكنه شرد قليلا ، ونظر فى السماء وتنهد وقطب وأحس بحنان جديد وإشفاق فأكمل :

ـ بس الواد ده غلبان !. مخه ديق وغلبان ومنكسر ! والله دا غلبان يا شيخ !

وأشاح « الشيخ يوسف » بوجهه فى رفض ، ودمدم بكلمات لم يسمعها أحد .

وساد السكون لحظة .

وبعد قليل أقبل « الشيخ الشناوى » وسبقه صــوت المسبحة وتمتمة التسبيح .

ولما رأى « عبد الهادى » عاتبه بغضب لأنه لم يصل العشاء الليلة . وانقطع تماماً عن المسجد مع أنه بجوار داره .

فقال « عبد الهادى » ضاحكا :

- بقى يعنى هو الجامع دا معمول علشانى لوحدى يا سيدنا ؟ . كل ما تحط وشك فى خلقتى تقول لى الجامع ؟ الله ! . ما عندك أهو « الشيخ يوسف » ، وعم « محمد أبو سويلم » .

فضحك « الشيخ الشناوى » متحولا وقال :

- بقى انت يعنى محضر الجواب كده ؟ . الأ كادة إنك لمض !

وضحك الجميع .

وقام « عبد الهادى » من مكانه قائلا إنه راجع إلى داره لينام حتى يقوم قبل الفجر فيدير الساقية .

فدورة المياه تبدأ من الغد .

واقترح « الشيخ يوسف » أن يقوم الجميع مع « عبد الهادى » ليرووا أرضهم ما دامت دورة المياه لم تعدل .

وقال « محمد أبو سويلم » إن حوض الترعة لا يحتاج إلى الرى قبل خمسة أيام ، وبعد خمسة أيام تكون الدورة قد انتهت .

وتنهد « عبد الهادى » قائلا :

- تتعدل !

- ووقف « الشيخ الشناوى » يسلم على « عبد الهادى » قائلا :

- تتعدل ازاى ياعبد الهادى ؟ من غير صلاة ؟ ابقى حود على الجامع فى الفجر اخطف لك ركعتين خللى ربنا يبارك لك فى الأرض .

فانصرف «عبد الهادى» وهو يقول مبتسما :

- ياسيدنا دانا على ما أخطف ركعة واحدة تكون الميه انخطفت . . لما نبقى نروى الأرض الأول والصلاة أهى ملحوقة .

وانصرفوا جميعاً وهم يضحكون « والشيخ الشناوى » يقول :

- والله الواد عبد الهادى ده عمره ما هو وارد على جنة . . لا بيصلى ولا لسانه بيبطل .

وأغلق « محمد أبو سويلم » باب بيته وهو يقول ضاحكا :

- ياخبر ياسيدنا ؟ ! دانت خليت واقعته غبرة بقى يعنى نار فى الدنيا ونار فى الآخرة كمان !..

ودخل لينام وهو يحلم بالجنة .. جنة الدنيا ..

* * *

فى الفجر كانت الشمس مازالت مختفية وراء الأفق الشرقى وضياؤها يملأ القرية بالنور .

وارتفع صوت «الشيخ الشناوى» من على مئذنة المسجد . متهدجاً حزينا متثائبا .

وفى الحقول كانت الأعواد الصغيرة الخضراء تتمايل مثقلة بحبات الندى ، والأنسام الرطبة تسرى خفيفة لينة مفعمة بعطر الحقول .

كان الفضاء ساكنا بديعا والعصافير تزقزق هنا وهناك . . والسماء والنهر والأشجار وكل شىء يبدو كأنما هو جديد تراه العين لأول مرة .

وقبل أن ترسل الشمس أول شعاع فى اليوم الوليد كان « عبد الهادى » يخوض بقدميه العاريتين فى ماء القناة الصغيرة التى تنحدر من تحت الجسر ويهوى بفأسه على قاع القناة ثم يزيح طينها بيديه ليمهد الطريق للماء خلال حقل الذرة .

كانت بقرته تدور فى الساقية ، وإلى جوارها غلام صغير يدعك عينيه . وغير بعيد منه كان فلاح آخر يهوى بفأسه على الأرض ليفسح طريقا للمياه ، وكان «دياب» يقطع بيديه مروى لحقله .

وهنا وهناك فى حوض الجسر تناثر الفلاحون ، أنصاف عراة القامات منحنية على الماء والأيدى تدفع به فى حماس إلى الحقول العطشانة . .

أما « علوانى » الذى كان يحرس حقل البطيخ الوحيد فى حوض الجسر فقد بدأ ينام بعد أن سهر الليل كله يحرس . .

ووجد « عبد الهادى » ماءه يجرى متلكئا فى القناة . . ولاحظ انه قليل لا يكاد يكفى حاجة حقله . . ورفع رأسه وجسده مايزال منحنيا

فوجد الساقية تدور على الجسر بلا توقف . . وانتصب وفتح صدره ووضع يديه بطينها فى خصره ونظر إلى السماء . .

لم يعد فى السماء ظلال من الليل بعد ، وقد انطلقت العصافير من على الأشجار تزقزق وتتصايح ، والطيور البيضاء الرشيقة ذات المناقير الطويلة تنطلق الآن فى مواكب ، وتحط على الأرض فتعبث فى الماء ، وتنقر الأرض وتلتقط منها أشياء ثم تطير وتعود فى أمن .

ومشى « عبد الهادى » إلى الساقية ليتبين السر فى قلة الماء . .
ومر فى طريقه بفلاح يجاوره فقال « عبد الهادى » :
ـ شد حيلك دا الشمس طلعت ودلوقتى الدنيا تولع .
فقال الرجل :
ـ الميه شحيحه قوى النوبة دى ياجدع . .
فقال عبد الهادى وهو يمشى :
ـ دلوقت أشوف الخبر إيه . .
وانطلق « عبد الهادى » إلى الجسر وهو يهمهم لنفسه . .

قاضى الغرام فوق جبل عالى ينادينى
يقول يامين مفارق حبايبه قلت آدينى

وكان صوته قد ارتفع منه دون أن يدرى ، ورنت نغماته فى صمت الحقول . .
وقال له رجل من بعيد :
ـ أيوه يا عبد الهادى أيوه . سلامتك من الفراق ياخويه !
واستمر « عبد الهادى » فى سيره ، حتى بلغ الجسر ، والشمس تنفض حبات الندى الفضية عن أوراق الشجر ، والنهر يجرى هادئا بلا صوت ، ومركب صغيرة تجرى على صفحته التى تعكس كل ألوان السماء ، وشباك الصيادين الواقفين على الجسر تقرع جوانب النهر من هنا وهناك .
وكان ضباب الصباح قد بدأ يذوب فى حرارة النهار الجديد ، وفى الصمت أخذت أصوات مختلفة تنثر رنينها ، فيختلط بالأنين الذى ترسله السواقى خلال دورانها الرتيب .
وعند ما وقف « عبد الهادى » أمام الساقية رأى على البعد رجلا يجلس إلى حافة القناة التى تمتلىء من الترعة . . وقد غاص حتى ركبتيه فى الماء ، وانحنى على الطنبور ، وأخذ يميل إلى أمام ووراء وهو يمسك يد الطنبور الحديدى وصوته يرتفع بغناء حزين .

هديه . . يا هادى

وأدرك أن الماء جرى فى الترعة فهز رأسه بارتياح قائلا : عال ، ومال إلى الساقية .
وفحص « عبد الهادى » الساقية جيداً
نظر فى البئر ، وفى القواديس التى تهوى إلى البئر فارغة ، وترتفع مشدودة إلى بعضها مترعة بالماء الخصب . قادوسا بعد قادوس .

ونظر إلى النهر . . ومشى قليلا إلى الجسر ليتأمل القناة التى تستقبل الماء المنكسب من قواديس الساقية ، فوجد الماء ينصب بقوة من الساقية إلى القناة الصغيرة ، ثم يتدفق تجاه حقله فى موجة مندفعة .

وتبع القناة فى سيرها تحت بطن الجسر فى محاذاة حقول جيرانه حتى تصل إلى حقله .

فوجد موجتها القوية مازالت تندفع .. وفجأة .. يتباطأ الماء ويهبط . ويمشى قليلا قليلا إلى حقله وحقل الجار الذى يليه .

وفحص القناة جيدا فوجدها مقطوعة فى أكثر من موضع والماء يتسرب منها ليجتمع فى خيوط تسيل إلى بعيد .. إلى الحقل الذى تهوى عليه فأس « دياب »

وتضايق « عبد الهادى » لأن «دياب» يصنع معه هكذا . انه يسرق منه الماء لمجرد أنه يملك حقلا يمر بماء الساقية قبل أن يمر بحقل عبد الهادى .

أيريد « دياب » أن يصنع معه كما فعل الباشا مع القرية ؟ والنهر الصغير والترعة يمران بأرض الباشا أيضا قبل أن يمر بالقرية . . ومن أجل هذا أباح لنفسه أن يأخذ نصف الماء الذى يحق للقرية أن تأخذه . وكفى هذا الباشا . باشا ووراءه الحكومة تحميه وحوله فى عاصمة الاقليم رجال يحكمون بالسجن ، ويضعون الناس فى حبس المركز ليشربوا بول الخيل . . ولو فكر أحد فى ضرب هذا الباشا فربما ضربوه وأهل بلده ولم يتركوهم حتى يموتوا جميعا .

ولكن « دياب » هذا ؟ لماذا يسرق الماء بلا إذن كالباشا ؟ لا بد من منعه من الرى وطرده إلى القرية أدباً له .

ووصل « عبد الهادى » إلى الحقل الذى يملكه «دياب» تحت حوض الجسر .. فسأله « عبد الهادى » بعنف لماذا يسرق منه الماء على الريق ؟ لماذا يعكر اه دمه على الصباح ؟

لماذا يروى هذا الحقل اليوم . ولم يحدث من قبل أبداً أن روى حقله هذا إلا فى آخر دورة الرى .. ولماذا لا يروى الأرض البعيدة فى حوض الترعة كما تعود حتى إذا انتهى «عبد الهادى» من رى أرضه فى حوض الجسر أمكن لدياب أن يدير الساقية بجاموسته ويأخذ من الماء كما يشاء . .

ورفع «دياب» رأسه ويده على فأسه وقال بغلظة :

- يا فتاح ياعليم .. إبعد عنى يا عبد الهادى .

وانحنى على الفأس .. يضرب بها الأرض وقدماه فى المـاء .

وصاح « عبد الهادى » فى « دياب » ليذهب بنفسه ليسد القناة التى قطعها ليسرق منها المـاء ثم يعود إلى القرية ، ويترك الخلق لحالهم .. ولـكن « دياب » رمى فأسه وانتصب يلوح بيديه ويزعق فى وجه « عبد الهادى » . وعاد يتحدث كما تحدث مع « الشيخ يوسف » عن الغيرة ، والنار التى تأكل قلوب الناس فى القرية غيظاً منه ومن أخيه .

وانهمرت من بين شفتى «عبد الهادى » شتائم عديدة «لدياب» وأخيه «محمدأفندى» نفسه .

ثم أسرع « عبد الهادى » بنفسه الى الجسر ، وأمسك بيده قطعة من الطين وسد القطع الذى يسيل منه المـاء إلى حقل «دياب» .

وبعد هـذا عاد إلى حقله مطمئناً وانحنى على الأرض يدير فأسه ويديه فى الماء وانقطت خيوط المـاء التى كانت تتسلل إلى حقل « دياب » وإلى حقل جاره الذى كان يقف عارى الصدر والقدمين حتى الفخذ .

وأحس الرجل بالمـاء يشح بين يديه . فلوى رأسه إلى «دياب» وأخذ يزوم

- أم دا إيه يا أخويا ده ؟ إيه الافترا بتاع عبد الهادى ده ؟؟ هو إيه أصله هو « عبد الهادى » حيعمل زى الحكومة ؟ يعنى حيفترى زى الحـكومة ؟ دا ناقص يكسر السواقى ؟ دا إيه الشغل ده ؟ يحوش عنا المية ؟ وانتصب دياب وشد جسمه ووضع الفأس على كتفه واقسم بصوت مرتفع أن يقطع ماء القناة بالفأس وعلى من لا يعجبه هذا العمل أن يشرب من البحر أو من البرك :

وجرى « دياب » بلا تفكير إلى الجسر . وبلا كلمة ، هوى دياب بفأسه على حافة القناة فقطع منها جزءاً كبيراً مطوحا بطينه إلى بعيد ، فتدفق المـاء كله فى خيوط نشطة متوجهة إلى حقل «دياب» وجاره .

ووقف «دياب» يزعق قبل أن يتحرك من مكانه وفى صوته مغالبة للرعب .

- اسمع « ياعبد الهـادى » لمـا أقول لك . . إنت فاكر إيه يعنى ؟ أنا ليه فى الساقية يوم وجارى مسعود أبو قاسم يوم ! أخد ميه على كيفى . . آه . . آه . . بأقولك أهه . . إعرف كده يعنى . . ولا علشان ما اسمها ساقيتك ؟ ساقيتك قال !

إحنا لنا فيها يوم . . ومحمد أبو ســويلم له يوم ومسعود أبو قاسم والناحية الشرقية يومين . . وانت بقية العشرة أيام . . أنا حاخد يومنا فى الساقية النهارده . . ياللاحل بهيمتك وأهى مرات مسعود أبو قاسم جايه أهى ومعاها البهيمة ! .

هكذا كان الفلاحون الذين وزعوا ماء ساقية عبد الهادى . . وهكذا كانوا يوزعون ماء السواقى القليلة على الجسر . . كل له من الأيام على قدر ما ساهم فى تكاليف بناء الساقية التى صنعها نجار مشهور فى البر الثانى من النهر .

ولكن هذا كله حدث عندما كانت أيام الرى عشرة . ولم يتوقع أحد أن تقل أيام الرى أبداً عن عشرة .

أما الآن فلم يفكر أحد فى القرية فى تقسيم أيام الساقية من جديد على أيام الرى الخمسة التى لم تسمح الحكومة بغيرها .

ولم يكد « دياب » يفرغ من زعيقه على الجسر ، حتى كانت إمرأة مسعود أبو قاسم مقبلة تسحب جاموستة . . وكانت تلتفت وراءها أحيانا لتشتم أو ترد على شتائم فلاحين آخرين من الناحية الشرقية سحبوا جاموسة وبقرة ، وجاءوا إلى الجسر ليأخذوا يومين كاملين فى أول الدور . .

ورآهم « دياب » مقبلين فنادى عليهم ليروا شغل « عبد الهادى » الذى يريد أن يأخذ وحده ماء الساقية كله وبدأت أصوات الاحتجاج ترتفع .

وصعد « عبد الهادى » إلى الجسر وما زال « دياب » يزعق . « وعبد الهادى » يبتسم متلطفاً ويغصب على نفسه ويكتم غيظه .

وبلغ عبد الهادى مكان « دياب » فطلب أن يصلى به على النبى ويقصر الشر ، ويعود إلى القرية . . أو يذهب إلى حوض الترعة ليروى أرضه هناك كما تعود بدلا من وقوفه هنا ويسرق الماء ، ويعكر دم الناس واحتج « دياب » على « عبد الهادى » قائلا إنه لا يسرق الماء ولا غيره ، ولكن عبد الهادى هو الذى يفترى دائماً .

وتدخل فى المناقشة رجال الناحية الشرقية . ونساؤها الذين سحبوا الجاموسة ليديروا الساقية اليوم . . وهم أهل ناحية بحالها من القرية . ويجب أن يأخذوا حقهم من أيام الساقية فى أول أيام الرى .

وحاول «عبد الهادى» أن يغير عزمهم ، فقد كان لهم يومان عندما كانت أيام الرى عشرة .. أما الآن فلو أنهم تمسكوا بيومين فلن يجد بقية الشركاء فى الساقية ما يكفى لرى الأرض العطشانة .

وبدأت مناقشة أخرى بين أهل الناحية الشرقية وبعضهم : من الذى يروى أرضه أولا بعد أن قلبت الحكومة الحال وجعلت أيام الرى خمسة ؟.

وعاد « عبد الهادى » يقول إن الناحية الشرقية كان لها يومان من عشرة ، وأيام الرى الآن خمسة فلها يوم واحد .

واختلطت أصوات الرجال والنساء فى رفض لما يقول «عبد الهادى».

وارتفع زعيق « دياب » فى مناقشة ثانية مع «عبد الهادى» . .

وكان « دياب » كلما زعق ورن صوته ، وجد نفسه يقتحم الكلمات بلا خوف ويرمى بها ، وقلبه تتوالى دقاته وإحساس جديد بالشجاعة يسيطر عليه .

وارتفعت الشمس قليلا والمناقشة تحمى بين أهل الناحية الشرقية وبعضهم ، وبينهم وبين «عبد الهادى» ، وبين « عبد الهادى» و«دياب» .

وأحس كل واحد من الواقفين كأنما الآخر يريد أن يسلبه الحياة نفسها ..

وتذكر عبد الهادى فجأة أن ساقيته تدور وتصب الماء فى حقله ولا أحد يحكم توزيع الماء « على الأرض » .

وخشى أن يفيض الماء فيغرق الحقـــل فصرخ فى الناس أن يتركوه ليرى ما حصل للماء .

ولكن امرأة قالت فى صوت حاد ساخر إن الساقية لاتدور من وقت ما جاءوا هم . .

والتفت «عبدالهادى» إلى الساقية فوجدها معطلة ، وبقرته تدلك رأسها فى الجميزة ، بينما وقفت امرأة وصبى وعدة رجال يتناقشون فى مدار الساقية وبينهم جاموسة على رأسها غماء .

وأطلق « عبد الهادى » صيحة غضب واستنكار . . . فقهقه « دياب» بشماتة وقال ساخراً .

— عامل دكر وناصح قوى . أهى مرة وقفت لك الساقية ..

ودون أن يشعر «عبدالهادى» هوى بكفه علىوجه «دياب» ، ورنت الصفعه . حامية تطق الشرر .

وارتجف «دياب» وترنح .. واهتز الفأس فى يده لحظة ثم هوى بهـا فجأة على رأس «عبد الهادى» .

وتلقى «عبدالهادى» بيد ثابتة عصا الفأس الهاوية عليه قبل أن تفلق رأسه بحدها الصلب اللامع .

وفى سرعه خاطفة مفاجئة ارتفعت العصى ، وصرخت النساء .

وجرى «عبد الهادى» إلى الساقية فانتزع منها العمود الخشبى الغليظ الذى تربط اليه البهائم فى مدار الساقية .

وعاد «عبد الهادى» يحمل العمود المربع الثقيل بيديه ، ويخبط به الرءوس دون أن يرى ما أمامه ودون أن يدرى ماذا يفعل .

وفى تلك اللحظات لم يكن أحد يدرى ما يفعل .

كانت طاقات هائلة من الضيق تنفجر من كل نفس ، وتضرب كل من يتعرض لحرمان الأرض من الماء .

وباسم الدفاع عن حياة الأرض . . عن الحياة نفسها .. مضى كل فلاح يضرب ويضرب بلا توقف كل من يريد أن يناقش حق الأرض فى الماء .

كان الرجال يضربون بعضهم بلا حساب وبلا مراعاة . . كأنهم لم يعرفوا بعضهم أبداً ، ولم يحبوا بعضهم من قبل .

وكأنما قد أصبح من المستحيل أن يتحدثوا إلى بعضهم مرة أخرى ..

كان من الممكن أن يصنع كل واحد بجسد أخيه أى شىء : أن يقذف به إلى أعماق الماء . أن يقطع منه . وحتى أن يأكله .

والنساء أيضاً كن يفعلن نفس الأشياء ، ويحتدمن بنفس القسوة فى المعركة ، وشجت النساء رءوس بعض الرجال بالحجارة وسال الدم . . واختلط على الأجساد ، وسال فى عرق كل واحد دم من عروق أخيه .

وسقط رجل ، وامرأة ، ثم سقط «دياب» ورجل آخر ، وامرأتان ، ثم رجل ثالث ، ورابع ، وخامس ..

والعصى مازالت تدور ، والنساء يصرخن ، ويقـذفن فى الفضاء بـكل صوت يائس رهيب .

ولاح على الجسر أطفال ورجال ونساء آخرون أقبلوا على الصراخ .

وظلت النساء تقبل من بعيد فيرددن الصراخ دون أن يعرفوا السبب .

ولاح بين القادمين شيخ البلديهرول بقامته النحيلة ويتعثر فى جلبابه الطويل .

واستيقظ «علوانى» من حقل البطيخ على صراخ النساء وزعيق الرجال فأقبل يجرى مروعاً .

ووقف «علوانى» بالقرب من الرجال .. وحاول أن يقنعهم أن يكفوا أيديهم عن بعضهم ، فلم يحفل به أحد . ودخل وسط الرجال ليفض المعركة ولـكن بلا جدوى .. فالتقط عصا .. وأخذ يضرب على العصى ، ثم يثب ، ويقف شاهراً عصاه على رأس عبد الهادى ليحميها ممن يحاول ضربها من الخلف .

وعندما وصل شيخ البلد لم يستطيع أن يقترب من العصى والفؤوس التى تتشابك فوق الأجساد .

فأخذ ينادى على الرجال من بعيد ، ويشتمهم ويهددهم . ولـكن العصى ظلت تخبط ، وصوت النساء ينطلق حاداً حزيناً متتابعاً ..

ولم يستطيع شيخ البلد أن يبعد أحدا من المعركة غير «علوانى» فأمره أن يجرى ليحضر الخفراء .

وجرى علوانى إلى القرية من بين الحقول ليختصر الطـــريق . ووصل « الشيخ الشناوى » يلهث من التعب وأخذ يمسح عرقه بيـده وكرشه يهتز وهو يلعن كفر الرجال وافتراءهم وفجور النساء وأمسك عصاه القصيرة الغليظة التى تعود أن يضرب بها .. وتقدم إلى المتعاركين يضربهم على الأكتاف ثم يبتعد وعيناه على العصى الطويلة المتشابكة ، ثم يعود فى حذر ليضرب الأكتاف بسرعة وهو يميل برأسه بعيدا عن مواقع العصى . وما زال يصيح فى الجميع أنهم يرتكبون الحرام ، فدم المسلم حرام على المسلم ، ولـكن العصى ظلت تهوى والنساء يصرخن.

وأخيرا أقبل « الشيخ يوسف » وكانت الأيدى قد تعبت وما برح الرجال يتساقطون ، ودخل «الشيخ يوسف» بعصاه الخيزران الرفيعة بين الرجال وهو يلعن البلد وأهل البلد ويهدد بأن يرحل من هـــذه البلد ويترك أهلها يأكلون بعضهم كالوحوش .

وهدأت الأصوات بعض الشيء وما زالت العصى والفؤوس تهوى وتخبط ، وما زال الرجال يتساقطون على الأرض .

وانطلقت أصوات استغاثة من ناحية الساقية .

أصوات مروعة رهيبة ، كأنما هى انفجار يأس .

كانت مدوية عريضة ، وكانت نفاذة أليمة خاطفة كالانهيار .

والتفت «الشيخ يوسف» وهو يلعن هذه الصرخات التى تطرب الجن نفسه وتقدم إلى الساقية قليلا ثم صاح هو نفسه :

— يا دى الداهية السوده يا رجاله . الحقوا الجاموسة . . الجاموسة وقعت فى بير الساقية .

وبغتة تراخت الأيدى بالعصى المشتبكة على الجسر ، وسقطت الفؤوس والشماريخ على الأرض واتجه الرجال والنساء كلهم إلى بئر الساقية . وهم يلهثون .

واختلط الصياح بالاستغاثة وحاول شيخ البلد أن يتقدم إلى حافة الجسر حيث وقعت الجاموسة وزعق . ولكن الصرخات غمرت ضجيجه وبرز الشيخ الشناوى بقامته المديدة المتكرشة وهو يصيح :

— حاسب يا واد ! حاسب منك له . . أوعوا تقربولها لاحسن تغرقوها . اقرءوا الفاتحة ان ربنا ينتع الجاموسة . . الفاتحة لها يا ولاد .

وحاول الشيخ الشناوى أن يروى حكاية مشجعة فاستطرد قائلا :

— دا مرة بقرة سيدنا موسى . .

ولم يكمل ، فقد اندفع «مسعود أبو قاسم» فنحا الشيخ بعيدا ، وأوشك أن يوقعه فى البئر ، وهو يصيح :

— ما تغور بقى ياسيدنا . يا شيخ غور . فاتحة إيه . وبقرة سيدنا موسى إيه . اجروا يا جدعان . حوشوا يا رجالة . حوشوا يا أولاد . يا خراب بيتك يامسعود يا أبو قاسم . . يا حش وسطى يانه . . يا ضياع شقا العمر كله . . ياكسرتى يانه .

وأخذ يلطم خديه فى جزع هائل . . وتحدرت دموعه واختلطت بعرقه المتصبب ، وصوته المتهدج يرسل فاجعا .

وقعد مسعود أبو قاسم على الأرض لا يقوى على الحركة وأخذ يضرب التراب بيديه فى حسرة مخيفة . ولم يستطع أن يقف كأنه انكسر حقا .

غير أن «عبد الهادى» قفز إلى البئر لاهثا وأسند رجليه إلى القواديس ووضع يده تحت بطن الجاموسة وهو يسند قدميه إلى غور فى البئر .

وزحف الرجال الذين كانوا يرقدون على الجسر بجراحهم منذ لحظات ، ووقف بعضهم أمام البئر . وحاول «دياب» أن ينزل إلى البئر فزعق فيه «عبد الهادى» بحنان كبير .

ــ خليك انت يا «دياب» ، انت دمك لسه سايح

وهب من ناحية «عبد الهادى» رجل ثالث ، وأوشك أن يسقط فى البئر ، وأسنده «عبد الهادى» ورجاه أن يصعد هو ويستريح بعيدا ، كان «عبد الهادى» منذ لحظات يضرب هذا الرجل ، وكان من الممكن أن يقذفه فى هذا البئر نفسه . كان على الأقل مستعدا لهذا ، وكان الرجل هو الآخر مستعدا لأن يصنع «بعبد الهادى» أكثر من هذا ، ولكنهم الآن أمام ضياع جاموسة «مسعود أبو قاسم» يحسون فجأة أنه عند ما تنزل الكارثة برجل أو امرأة فكأنما نزلت بهم جميعا .

وهبط إلى البئر رجال آخرون ووقفوا كلهم يتساندون وأرجلهم إلى القواديس أو إلى غور فى البئر ، وكانوا كلهم يسندون بعضهم حين تقلق الأرجل وكانوا كلهم يشجعون بعضهم وأيديهم جميعا تحت بطن الجاموسة يحاولون دفعها بكل ما يملكون فى أجسادهم من قوة لدفع الكارثة . كانوا كلهم يعانون فى وقت واحد لحظات خاطفة من نفس اليأس المخيف ، وتلمع لهم معا ومضات بهيجة من نفس الأمل . كانوا ينحنون ويعرقون وتقدح عيونهم ، وتتابع أنفاسهم داخل البئر وخارج البئر على مدار الساقية يتدافع الرجال والنساء ، وشيخ البلد يزعق بأوامر لا يصغى إليها أحد ، «والشيخ الشناوى» يستنجد بقوة الله ، أما «مسعود أبو قاسم» فكانت عيناه على «عبد الهادى» ويداه تضرب وتلطم ، وهو قاعد يدير رأسه إلى الرجال فى داخل البئر وإلى امرأته التى جلست أمامه صفراء كالموت ، بلا حيلة ولا قوة على شىء حتى الجزع والصراخ .

ورأى «مسعود أبو قاسم» جاموسته ترتفع قليلا من مكانها فى البئر ولكنها عادت فسقطت والرجال ما زالوا يتصايحون ويتساندون من داخل البئر والأيدى كلها تحت بطن الجاموسة تحاول أن ترفعها بلا تفكير فى الفشل ، وعاد «مسعود» يصيح وهو ينظر بين امرأته «وعبد الهادى» والسماء !

ــ ضاعت الجاموسة، انقسم وسطى، ضيعتيها يا مرة ، يا ريتك انتى اللى وقعتى فى البير ، أعوض الجاموسة ازاى يا اخواتى ، اجمد يا عبد الهادى ، اجمدوا يا رجاله .

وزعق «الشيخ الشناوى» :

ــ اجمد انت ياواد وقل يارب . . اجمد الله يلعنك . . قل يارب !

والرجال يتساندون فى داخل البئر وفى كل لحظة يصعد رجل يلهث ليهبط رجل جديد .

وعادت «امرأة مسعود» تطل على الجاموسة وروحها فى حلقها توشك أن تطلع .

وأخيرا رفعت الجاموسة على أيدى الرجال ، ونزع عن عينها الغماء ، فمدت رجليها إلى المدار وسحبها الواقفون ، ومدت رجليها الخلفيتين وتحركت ثم مشت على مدار الساقية والواقفون يسحبونها ويتحسسونها .

وردت الروح على «امرأة مسعود» وزغردت .

ووقف «مسعود» فجأة ، وانتفض كأنما صبت فى عروقه دماء حياة جديدة فتية بكل الدفء والأمل .

وارتفعت زغاريد النساء ، فصرخ شيخ البلد ليسكت النساء .

وارتمى «مسعود» على جاموسته فتحسسها ووجهه يفيض بالدم ثم التفت إلى «عبد الهادى» فجذبه بين ذراعيه وعانقه طويلا . وتقدم إلى «سيدنا» فقبل يده واعتذر .

وكان «عبد الهادى» يلهث .. فمشى فى صمت حتى قعد تحت الجميزة على الجسر ، ومسح عرقه بيديه . ودعك وجهه .. وأخذ يهز رأسه فى حزن . .

وارتفع صوت شيخ البلد يأمر النساء أن ينتهين من الزغاريد والكلام الفارغ فهو رجل جد لا يعجبه الحال المائل . ولوح بعصاه ثم هزها ومضى إلى الجسر .

ولم تسكت النساء ..

ووقف شيخ البلد على الجسر واستند إلى عصاه ويده فى وسطه وسيطرت عليه فكرة أنه الآن كأحد حكام المركز .. وأخذ يقول ــ بهدوء ، وفى بطء ــ وهو يحاول أن يكون بليغا كرجال البندر :

ـ نرجع لمرجوعنا بقى.. بقى يعني مافيش لا حيا ولا كسوف.. بقى يعني يا ولد.. مالكيش لا كاسر ولا كسار ؟ ! يعني تضربوا بعض قدامى كده عيني عينك ! ! دانا نايب الحكومة .. انتو مش عارفين إن شيخ البلد ده يعني نايب الحكومة ؟ يعني الحكومة !! يعني .. يعني كأنكوا ضربتوا بعض قدام الحكومة .

وكأنما سرت على الوجوه نسمة طيبة .

فمرت ابتسامة ساخرة بكل الشفاه .. نفس الابتسامة ونفس السخرية .

وأحس الرجال الذين وقفوا على الجسر وتحت الجميزة والذين قعدوا من أعيائهم أحسوا جميعاً أن شيئاً حبيباً يجعلهم الآن أكثر قرباً لبعض .. شيئاً آخر غير اختلاط عرقهم ودمائهم وهم يرفعون الجاموسة.

كانت سخريتهم الصامتة المشتركة من شيخ البلد قد أضاءت فجأة جانباً آخر من كل نفس . واكتشف كل واحد منهم أن أخاه قريب اليه أكثر مما يظن .

لقد اكتشفوا هذه الحقيقة دون أن يقولوا شيئاً وهم يرفعون الجاموسة وأكدتها لهم محاولة شيخ البلد أن يحكم ويتحكم .

وتذكر أحد القاعدين ماكان يقوله شيخ البلد وهم يحاولون رفع الجاموسة فهمس بسخرية مقلداً شيخ البلد :

تعال هنا . . انزل انت فى البير من الناحية دي وأنت من الناحية دى . أيوه كده . شيل بقى ..

واستطرد رجل آخر :

ـ واهو حضرة شيخ البلد لا فاهم حاجه ولا محتاجة ،. ولو حد سمع كلامه ماكانتش الجاموسه طالعه فى سنتها. ولو كان هوه هوب بس ناحية البير كان انسقط زى الجاموسة

وتعالت ضحكة ، قطعها زعيق شيخ البلد . . غير أن صوت « الشيخ يوسف » غمر زعيقه ورنت كلماته فى دوى حاد وهو يقول :

بتدحكوا كمان . بتدحكوا على ايه . عل خيبتكم،. ، يا بلد. . بقى دى عمله تنعمل حتموتوا بعض علشان الميه . . طب أمال اشطروا على الحكومة.

واحتج شيخ البلد قائلا:

إنت بتوزهم على الحكومة .. يعنى كأنك بق بتوزهم عليه أنا .

ولم يحفل الشيخ يوسف باعتراض شيخ البلد .. واستمر يصيح بغضب صادق

ـــ انجروا . انجر انت وهوه اغسلوا دمكم اللى سيحتوه عالفاضى ..

وكان بعض الرجال يترنحون هنا وهناك فى طريقهم إلى القناة يغسلون الدم من على وجوههم والرؤوس .. وجر «دياب» نفسه قائلا :

ـــ كده ياعبد الهادى كده .. كده .. علشان ما أناوحدانى .. يعنى تستفرد بى بعد محمد افندى ما سافر . ما كانش العشم ياعبد الهادى .

كانت كلمات «دياب» جريحة معذبة .. كانت نغمات صوته مذعنة .

وشعر عبد الهادى بطوفان حزن غامض يرتفع من أغوار نفسه ، ويزحف ، حتى يملأ حلقه بالمرارة والندم والدموع .

وتنهد ، ثم هوت رأسه بين يديه فى بكاء كالعويل .

وذهل الجميع . وأسرع دياب فقعد إلى جانب «عبد الهادى» وحاول أن يسكته . وأخذ يقبل رأسه . ولكن «الشيخ الشناوى» صاح فيه بصوت بارد :

ـــ بتعيط على إية .. إياك يعيطوا عليك من بدرى ؟ يعنى تقتل القتيل وتمشى فى جنازته . قال يضرب البلد بزها ويقعد يعيط عليها . . جاتك الغم وانت عافيتك ماجرتش يكون راكبه عفريت .. دا أقوى من فرعون .

وضحك بعض الرجال ، و«الشيخ الشناوى» .

وشعر «عبد الهادى» كأن ريحاً لطيفة تهب على قلبه . فابتسم .

ورأى شيخ البلد أنه يجب أن يقول شيئاً وكان ما يزال متكئا على عصاه بيده ويده الأخرى فى وسطه .

وتنحنح شيخ البلد قليلا ثم طلب من الرجال الذين جرحوا أن يحشوا جروحهم بالتراب . فالتراب شفاء

واعترض الشيخ يوسف محتجا :

تراب ؟ ياجدع خليهم يحطوا بن .. وفيها ايه يعنى لما كل واحد يشترى بكوزين ولا بيضه ويسد الجرح بشوية البن . الا التراب .. تراب قال ؟ جرى ايه ياشيخ البلد . خبر ايه يابلد ..

« دياب وعبد الهادى بعد المعركة »

وضحك بعض الرجال واقترح أحدهم ساخراً :

ــ دهدى .. طب ماتروح المستشفى فى المركز .

فقال آخر وهو يضحك :

ــ لأ ولا للدكتور ؟ .

فرد ثالث وهو يكتم ضحكة :

ــ ولا نجيب الدكتور هنا ؟ .

فوقف رابع يقول وهو يقذف الجمل : جملة وراء جملة على رنة ضحكة ساخرة

ــ يمكن حصان الباشا؟. ولا يمكن ولاد البندر؟. ولا يمكن فواحش مصر؟ .

وانفجرت الضحكات .

وقطع «الشيخ يوسف» انسياب الضحكات بقولهوهو مقطب،إن من يريد أن يخف جرحه سريعا ، فعليه أن يشترى البن ليضعه فى الجرح ..

وبعد قليل استطرد «الشيخ يوسف» قائلا فى تأنيب إن عليهم الآن أن يتفقوا على توزيع الماء فى الأيام الخمسة .

واقترح هو طريقة .. ولكنه قبل أن يكمل شرحها عدل عنها ، وعاد يقترح حلا آخر . ولكنه لم يكمله ..

وفجأة تذكر اقتراح «عبد الهادى» أن يقطعوا الجسر

وهز «عبد الهادى» رأسه مؤيدا أن يقطعوا الجسر . ويرووا الأرض كلها بالراحة ولا حاجة إلى السواقى وتوزيع الماء ووجع الدماغ .

وقال «دياب» بصوت مبحوح :

ــ دى احسنها حاجة ، على رأى عبد الهادى بدل ما نزعل من بعض .

واعترض «الشيخ الشناوى» على قطع الجسر ..

فقال «عبد الهادى» للشيخ الشناوى معاكسا انه لا يفهم فى هذا الموضوع . فهو ليس موضوع جنة ونار وهو على كل حال لايزرع ولا يقلع ولا شأن له بالأرض

وسخط «الشيخ الشناوى» على «عبد الهادى» وأخذ يرميه بطول اللسان وقلة الأدب وأكد للجميع أن قطع الجسر آخرته سوداء . وعلى كل فسيأتى الخبراء ويمنعون الفلاحين من قطعه ويصلحوه .

فقال «عبد الهادى» باستخفاف :

ـ الغفرا ؟ طب وايه يعنى ؟ مايجوا ؟ يتفضلوا يا سيدنا يشربوا قهوه سخنه.

وتدخل «الشيخ يوسف» فقال متحمسا :

اسمع ياسيدنا .. اسمعوا يا أولادى.. مادام قطع الجسر مش حرام يبقى خلاص بقى ياشيخ شناوى مالكش كلام عندنا .. وساحدش له كلام عندنا وما حدش له دعوة بالغفرا ؟ غفرة ايه ياخويا ؟. هم الغفرا عارفين يرووا.. هو حد منهم عارف يروى أرضه ولا حتى لاقى ياكل . ما هى الحكاية من بعضها.. ولا ايه ياشيخ البلد؟

ثم أكمل مغيظا :

ـ ما تفتى للبلد يا شيخ البلد وأنت واقف مركون على العصا كده وإيدك فى وسطك ولا مدير المديرية .

واعتدل شيخ البلد ، وأعجابه بفكرة قطع الجسر يغمر ضيقه من لهجة « الشيخ يوسف » .. وتمتم وهو ينسحب :

ـ اعملوا اللى تعملوه بقى بعيد عنى .. ابعدوا عنى واقطعوا الجسر زى ما يعجبكم انشا الله تقلبوا البحر كله عالغيطان.. أنا اللى عليه .. انى أحوش لكم الغفر عنكم .

وصاح «الشيخ يوسف» فى النساء اللواتى يقفن عند الساقية أن يعدن البهائم

ومشى شيخ البلد عائداً إلى القرية ومن ورائه النساء والبهائم بينما كانت الفؤوس تضرب أرض الجسر فى قوة ونشاط . وتشق قناة كبيرة فى عرض الجسر بين النهر والحقول .. وتدفق الماء من القناة الكبيرة الجديدة إلى القناة الطويلة فى بطن الجسر مارا بكل الحقول . وهلل الفلاحون وهم يرون الماء يتدفق فى موجات صغيرة سريعة مثقلة بالطمى .

وانصرف «الشيخ الشناوى» مع «الشيخ يوسف» وبقية النساء والأولاد والبهائم.

وبعد قليل كان كل فلاح يروى حقله بالراحة .

وقال «عبد الهادى» وهو يترك حقله بعد أن رواه :

ـ خليهم يكسروا السواقى على كيفهم بقى .. أهيه الميه راكبه وأبرك من عشر سواقى .

وأجابه « مسعود أبو قاسم » :

ـ بس هوه دا حايدوم .. احنا حنقعد ناخد رزق الميه يوم بيوم .

وانحدر «عبدالهادى» على الجسر .. وإلى جواره «دياب» الذى انتهى هو الآخر من رى أرضه .

وقال «عبد الهادى» «لدياب» فى حنان كبير :

— أوعى تنسى يا «دياب» تحط شوية بن على الجرح .

فهز دياب رأسه ، وظل على طول الطريق إلى القرية يقول :

— بس أوعى تكون انت لسه زعلان . . أهى كانت نفس وراحت . . دى المصارين فى البطن بتتخانق مع بعضها .. داحنا عزوة بعض يا «عبد الهادى» .. والدم مش ميه ياجدع . دى البلد كلها من دم واحد برضه . والدم مش ميه بقول لك .

وفى الطريق الضيق بين الجسر والقرية كان محمد أبو سويلم يقبل مضطربا وهو يسأل عبد الهادى من بعيد عن «الشيخ يوسف» .

كان « محمد أبو سويلم » يبدو منزعجا . وقد بانت عليه شيخوخة مبكرة ، وكآبة وكان من الواضح أنه يغلى فى أعماقه .

وحسب «عبد الهادى» أن «محمد أبو سويلم» غاضب من أجل المعركة على الجسر فبادره بقوله .

— ما احنا خلاص اتصالحنا يا ابا محمد .. ما هو احنا خلاص يعنى . .

وأكمل دياب مسترضيا :

— ماهو الضفر مايخرجش من اللحم يا أبا محمد .

ولكن «محمد أبو سويلم» قال فى انفعال :

— بلا لعب صغار ، ، بلا ضفر بلا لحم بلا كلام فاضى ، ، اتصالحتو إيه ؟ وكان دا وقته ، ، روح يا شيخ روح ، , روح يا واد يا دياب انده لمحمد أفندى من الدار ، أجرى بلاش أمور صغار ،

وتحسس دياب جراحه ثم قفز ، وجرى مبتهجا ليلقى أخاه الذى عاد لساعته من السفر ،

واستدار « محمد أبو سويلم » ليعود إلى القرية مع عبد الهادى

وسكت قليلا وهو يخبط كفا بكف ويقلب يديه فى عجب .

ثم وقف مرة واحدة ، وأمسك بذراع عبد الهادى بقوة ، ومضى يقول له فى حسرة وحيرة إن العريضة التى سافر بها محمد أفندى مع محمود بك لم تكن هى عريضة ماء الرى ، وإنما كانت عريضة للزراعية ، فالعمدة ضحك على القرية بالاتفلق مع

محمود بك وجمع أختامها وأختام القريه المجاورة ، ووضع كل هذه الأختام على عريضة جاء فيها أن الأهالى الموقعين يحتاجون إلى شق سكة زراعية ، ، تمر فى أرض الذين وقعوا على العريضة ، وتمزقها ، وتصل بين عاصمة الاقليم وطريق القاهرة مارة بحدود أرض الباشا ، حيث يكمل بناء قصره الكبير ،

وفتح عبد الهادي فمه ، واتسعت عيناه ولم يعرف ماذا يقول

وانطلق «محمد أبو سويلم» يؤكد لعبد الهادى ان الذى يسمعه صحيح كله ، وانه علم لا حلم ،

واتقدت عينا عبد الهادى وقال كالذى يفيق من كابوس :

ــ محمود بيه ؟..

فقال «محمد أبو سويلم» منفجرا :

ــ ما قلت لكم ، شفتوا بقى ملعوب العمدة والبيه والحكومة؟تلاقيهم متفقين عالملعوب ده ، يبقى اسم الزراعية جاية برغبة البلاد مش غصبن عن حبابى عينها ، هزأونا وسكتنا لهم ورفدونا من مشيخة الغفر وسكتنالهم ،، وكسروا لنا السواقى وقطعوا الميه وسكتنالهم .. ولسه يا «عبدالهادى» ياما حانشوف طول ما احنا ساكتين

وسأل «عبدالهادى» بنفس نبرات صوته كأنه خارج من حلم مخيف على واقع بشع :

ــ طيب وايه العمل يا «أبا محمد ؟..

ووجم «محمد أبو سويلم» ، وأحس بحيرة مباغتته ..

إنه هو نفسه لم يكن قد فكر فى هذا من قبل ..

ولم يكن يعرف ما العمل .

- ١١ -

أخذت القرية كلها تتحدث باعجاب عن كل ماحدث على جسر النهر . . كيف قامت المعركة وكيف انتهت . وكيف وقعت الجاموسة فى البئر . وأخذت تتحدث عن بطولة الرجال الذين رفعوا الجاموسة بأيديهم .. وبسالة الذين شقوا الجسر ، أما الأطفال الصغار فقد ملأهم الكبرياء .. وهم يستعيدون ذكر ما صنعه «عبد الهادى»: فقد ضرب وحده كل رجال الناحية الشرقية ، وعندما سقطت فى البئر جاموسة من أهل هذه الناحية رفعها وحده من البئر .

ووقف ولد يمسك فرعا صغيراً جافا من التوت ، ويحاول أن يديره ببراعة وسط زملائه كما كان «عبد الهادى» يصنع على الجسر . وكما تعود أن يصنع وهو يلعب العصا فى الأفراح .

ومضت الفتيات يتهامسن بزهو عن «عبد الهادى» الذى رفع فأسه وقطع جسر الحكومة . وترك الماء يتدفق بالراحة من النهر إلى الحقول ، متحديا سلطان الحكومة ، ورجالها الذين يعيشون فى المركز بالطرابيش الشاهقة والبدل الصفراء.

ولمعت عين «وصيفة» وأشرق محياها وهى تسمع من هنا ومن هناك قصة «عبد الهادى» مع رجال الناحية الشرقية والجسر والجاموسة ، ولكنها حين سمعت ما حدث «لدياب» ازدردت ريقها واختلجت رقبتها المليئة البيضاء وهمست لنفسها فى رثاء وغضب :

— كده يا «عبد الهادى» .. طيب ودياب ماله ؟ هو دياب ذنبه إيه ؟

على أن «عبد الهادى» لم يكد يعود من على الجسر ، ويقابل «محمد أبو سويلم» حتى ذهب معه إلى داره .

كانت الشمس تملأ بوهجها مصطبة «محمد أبو سويلم» فدخل إلى المندرة . وتبعه «عبدالهادى» .

وكانت المندرة فى بيت «محمد أبو سويلم» لا تفتح إلا للضرورة أو للضيوف الكبار ومع ذلك فقد دخل الرجل إلى مندرته مسرعا دون أن يفكر ، فلم يكن فى وسعه

على أية حال أن يجلس فى الشمس فوق لهب المصطبة .

وكانت «وصيفة» ، قد فرغت لساعتها من كنس حصير المندرة . وسوت قطع اللباد فوق الدكة الخشبية .وأغلقت النافذة الوحيدة . وشعر «عبد الهادى» بطراوة الجو فى المندرة . فتنهد بارتياح وهو يمسح وجهه بيديه .

ونادى «محمدأ بوسويلم» ابنته«وصيفة» وطلب منها قلة ماء ،فأضاف «عبدالهادى» متلطفا أنه يريد قهوة من يديها .

وخلع «محمد أبوسويلم» مداسه . ورفع قدمه ووضعه على الدكة الخشبية ، ومضى يقول «لعبد الهادى» أن «محمد أفندى» مر عليه منذ لحظة مقبلا من القاهرة فى أول قطار يغادرها إلى عاصمة الاقليم .

ولمح «عبد الهادى» خيال «وصيفة» ..

كانت تذهب وتجىء وسط الدار بقـــلة فارغة .. وتتلكأ أمام باب المندر لتسمع كل ما يقوله أبوها عن «محمد أفندى» بصوته المرتفع العريض .

وأحس «عبد الهادى» بضيق غامض فقال متمثلا :

ــ ما انا عارف هو مستعجل على رجوع البلد ليه !

وازداد صوت «محمد ابو سويلم» ارتفاعا وهو يقول «لعبد الهادى» إن البلد خربت . . والحـكومة ستنزع الأرض لتشق السكة الزراعية التى يريدها الباشا من عاصمة الإقليم إلى طريق القاهرة مارة بقصره الذى يبنيه على حدود عزبته .

ورفع «عبد الهادى» حاجبه وتضامت خطوط جبهته دون أن يقول شيئا ، شعر برأسه تدور وريقه يجف .

ودخلت «وصيفة» تحمل القلة إلى أبيهـا . كانت القلة فى يدها تلمع والماء مفعم برائحة الزهر .

وأخذ «محمد أبو سويلم» القلة من يد ابنتـه وكرع منها ، وأعادها إليهـا . فمد «عبدالهادى» يده إلى «وصيفة» وحياها . وتناول منها القلة وهى ترد تحيته بابتسام وعيناها تلقيان عليه نظرات ثابتة .

وخطف «عبدالهادى» نظرة إلى قامتها المديدة الملبئه البضة وشعر بالسكينة تفيض على قلبه .

وشرب ببطء وعيناه تتدحرجان إليها فى نظرات إعجاب . ثم رفع القله بسرعه كأنما تذكر شيئا وتساءل لماذا لم يحضر «محمد أفندى» ليعرفوا منه الخبر .

وأعاد القلة إلى فمه .

فقال «محمد أبو سويلم» فى ضيق :

ــ ما بعت له دياب . . روحى يا بت ياوصيفة شوفى الخبر إيه . . الواد دياب اتلوا ليه كده ؟ .

ورفع « عبد الهادى » القلة عن فمه بغتة . وسال على ذقنه خيط الماء البراق الذى كان ينسكب فى كركعة من فوهة القلة إلى شفتيه . وأوشك ان يشرق بالماء . وسعل قليلا وهو يعطى القلة « لوصيفة » قائلا :

— استنى . . استنى . .

كان «عبد الهادى» طول الوقت ينظر إلى «وصيفة» ولكنها لم تختلج أبداً .

ظلت ساكنة بقامتها المديدة ووجهها يشرق بالإبتسام الهادىء فى الحجرة المغلقة ذات الظلال الطرية .

وغاضت الإبتسامة من وجه «وصيفة» واستدارت وهى تحمل القلة وخرجت و«عبد الهادى» يعيد عليها طلب القهوة .

ولم يقل «محمد أبو سويلم» شيئا .

وبعد قليل سأله «عبد الهادى» إن كانت الحكومة ستنتزع بالقوة ملكية الأرض فى حوض الترعة ؟.

فرد «محمد أبو سويلم» ان الحكومة تفعل كل شىء بالقوة ، وعلى كل حال فالقرية تستأهل كل ما يحصل لها ، فهى تعرف أن العمدة يعمل لها فى كل سنة ملعوباً جديداً ومع ذلك أرسلت إليه الأختام ليضعها على كلام لم يقرأه أحد .

وحين عادت «وصيفة» بالقهوة، صبتها بسرعة وخرجت، دون أن يشعر بها أحد . حتى «عبد الهادى» نفسه .

وتناول «عبد الهادى» فنجان القهوة وأخذ يرشف منه كالمأخوذ وعاد يسأل «محمد أبو سويلم» عما تستطيع الحكومة أن تصنع بالقرية لو أن القرية كلها وقفت أمام الحكومة بالعصى والفئوس .

ولم يجب «محمد أبو سويلم» وإنما غمره شعور بالدفء والقوة .

وشاعت فى نفسه طمأنينة مبهمة لا يعرف من أين انبعثت ، والتمعت عيناه ، وهز رأسه ، وهو صامت لا يتكلم .

وتلفت «عبد الهادى» حوله وسأل فى ضيق عن سر تأخر «محمد أفندى» .

وأجابه «محمد أبو سويلم» بشتائم عديدة «لدياب» الذى لم يرد عليه للآن .

على أن «محمد أفندى» كان إذ ذاك فى داره ينتظر أخاه «دياب» فى قلق وهو يصغى لأمه تروى له كل ما سمعته من أنباء الجسر .

وفى الحق أن « دياب » قد تأخر مضطرا عن « محمد أفندى » على الرغم من أنه كان يجرى على طول الطريق فى لهفة ليستقبل أخاه .

غير أنه وجد «خضره» تقف فى مدخل إحدى الدور مع بعض الفتيات تروى لهن ما حدث على الجسر ، وتطلق بلا تحرج إشارات قبيحة من يديها وألفاظاً لا تحتملها الفتيات .

وكانت الفتيات يتضاحكن على استحياء وهن يخفين وجوههن فى ظهور بعضهن وواحدة منهن تجرى هنا أو هناك ، ثم تعود مقطبة والضحك يغالبها فتنهر «خضره» ، وتطلب منها أن تكف عن كلامها وإشاراتها ، ولكن «خضرة» تجيب بإشارة أو كلمة أكثر صراحة ، فتضحك الفتاة وتخفى وجهها فى ظهر إحدى الفتيات .

وعندما كان «دياب» يركض فى الطريق إلى داره ليستقبل أخاه «محمد أفندى» مر «بخضره» والفتيات ، فنادته «خضره» باستهزاء يخالطه الأشفاق .

وتوقف «دياب» محنقا وشتم «خضرة» وتابع سيره ، غير أنها قالت له ساخرة بعد أن شتمته :

— كنت أمال أشطر كده على الجسر يا سيد الرجال !!

وأحس «دياب» بحرج هائل ، فعاد إليها ، وانقض عليها بيديه ، ثم دفعها برجله فى بطنها ، ووقعت «خضرة» على الأرض تتلوى وأطلقت صرخة .

وذهلت الفتيات من حولها .

بينما أفاق «دياب» من غيظه ، وتذكر أخاه «محمد أفندى» ، وداهمته الحيرة وشعر بندم مفاجىء لأنه يتشطر الآن على امرأة ضائعة بلا أهل ولا قوة ولا عزوة . وهى بعد امرأة التصق بدنه بجسدها واختلط منهما العرق أكثر من مرة .

ومال عليها «دياب» يسألها قلقا :

— مالك يا بت مالك ؟

كان صوته مضطربا ، فى جفافه الخوف والحنان الصادق .

ورفعت «خضرة» رأسها وقالت «لدياب» بنفس لهجتها المريرة الساخرة التى تعطى صوتها خشونة خاصة :

ـــ كده يا دياب ؟ تعمل كده فى خضره الشريفة ؟ .

واسترد « دياب » أنفاسه ليضحك ، وضحكت الفتيات من حوله والطمأنينة تعود إلى القلوب .

وقال دياب متظرفا وهو يهز رأسه :

ـــ شى الله يا سيد يا بدوى !!.

ثم همست «خضرة» لمن حولها وهى تكتم الضحك . إن «دياب» حاول أن يجهضها .

وجرت الفتيات بعيدا عنها فى خجل واضطراب وقالت لها واحدة :

ـــ قطيعه . كل حاجة ضحك عندك كده .

وصاحت «خضرة» بالفتيات تشتمهن لأنهن تصنعن الخجل بينما هى تعرف فيهن العين الزائغة .

وحاولت «خضرة» أن تقف، وعيناها على «دياب»، كان الدم من جراحه قد بدأ يتجمد على رأسه ، فطلبت خضرة من الفتيات أن يجئن بقليل من الماء والبن . وأخذت تشتم «دياب» لأنه لا يخفى جراح رأسه بالبن ويترك الجرح للشمس تبطحه .

وضحك وهى تشتمه وتمد يدها لتضربه على كتفه .

وقامت «خضرة» ووقفت تتعجل كوز الماء .

وأقبلت فتاة تحمل كوزا من الصفيح فيه ماء وتناولته خضرة فصبت منه على يد «دياب» . وأخذ هو يغسل رأسه ويدعك وجهه والدم المتجمد يتساقط .

وعادت الفتاة بالكوز فملأته وأخذت «خضرة» تصب على رأس «دياب» وهى تقول

ـــ دمك سايح ليه كده ياوله ؟ أمال أيه فايدة أكل اللحمة والعيش القمح ؟ أمال بقى اللى ما بيدقوش اللحمة إلا من العيد للعيد جرحهم عامل أيه ؟ كل ظفر كتير خللى الجرح يلم . .

وأخيراً جفف «دياب» وجهه بطرف قميصه الطويل المزدحم ببقع الطين وتناولت «خضرة» بين أصابعها الغليظة الجامدة بعض البن وحشت جرح «دياب» .

وقالت فتاة من وراء خضرة

ـــ ياترى «محمد أفندى» حايقول أيه ؟

والتفتت إليها «خضرة» وهى تملأ الجرح بالبن وقالت ببساطة :

ـــ عينك من «محمد أفندى» ليه يا . .

وقبل أن تكمل «خضرة» جرت الفتاة ضاحكة محمرة الوجه وهى تدعو على «خضرة» بقطع اللسان .

ومضى «دياب» .

ظل يجرى ويده على رأسه فوق البن حتى بلغ داره . فوجد أمه فرشت حصيرة نظيفة على المصطبة الكبيرة فى مدخل الدار وعليها «محمد أفندى» الذى كان مازال يلبس البدلة والحذاء والطربوش بينما قعدت هى على الأرض قدامه ، وتحت فخذها أوزة تلقمها حبات الذرة .

وأقبل دياب على أخية «محمد أفندى» بسرعة وارتباك فشد يده وقبلها .

ووقف «محمد أفندى» ينظر إلى جراح «دياب» فى ألم مباغت . واضطربت الانفعالات فى صدر «دياب» ، فطوق أخاه بذراعيه وأحتضنه . وشعر ببدن أخيه يملأ صدره فضغط عليه وقبله ثم أبعده قليلا وعاد فاحتضنه بحرارة وعنف وشوق . . وبكى

وجلس «محمد أفندى» وأجلس إلى جواره أخاه .

وفاضت نفس «محمد أفندى» بالحنين . وشعر برغبة جارفة فى أن يظل دائما إلى جوار أخيه «دياب» يحميه من قوى الخفاء . وقال «دياب» وهو يجهش :

ــ إلهى ما يبعدك عنى ياشيخ . . إلهى ياراجل يجعل يومى قبل يومك . . يانهار أسود . . دا الواحد من غيرك فى البلد مايساويش عود حطب .

واختلج «محمد أفندى» واهتزت أمه قائلة

ــ إلهى يجعل لكو العمر الطويل ياأولادى .

وسأل دياب أخاه «محمد أفندى» لماذا لم يرسل له لينتظره بالجحشة على محطة المركز فأجاب «محمد أفندى» بأنه لم يجد وقتاً . وعلى أية حال فقد استأجر حماراً من المركز وجاء به من الطريق الضيق على شط الترعة بعيداً عن جسر النهر لأن صاحب الحمار طلب هذا !

ومضى «محمد أفندى» ــ وهو يضحك متعجبا ــ يروى لأمه ولدياب حكاية رجل من المركز يتكلم بلغة أهل البندر ويفهم كما يفهمون هناك ، ويؤجر حماره فى الساعة بقرشين ، ولا يعرف طريقاً للقرى الواقعة على جسر النهر إلا هذا الطريق الضيق الخلفى على شط الترعة .

وضحكت أمه وضحك «دياب» طويلا ، وضرب ركبتيه بيده وهو يقاطع أخاه «محمد أفندى» من حين إلى حين ليقول له :

— سلامات كده ..

وفجأة . التفتت الأم إلى «دياب» وسألته عما حدث على الجسر . كان فى لهجتها محاولة لحصار «دياب» وتضييق خفى ..

فأجابها «دياب» فى غلظة تدارى خجله إن ماحصل خير . ولاداعى للكلام فيما حصل لأنه تصالح مع «عبدالهادى» .

فقال «محمد أفندى» لدياب» أنه علم بكل شىء .

وأخذ يعنفه لأنه تحرش» بعبد الهادى» .

وفرغ من كلامه قائلا إن «دياب» يستاهل ماحدث له لأنه يغلط دائما مع الناس .

ولكن الأم انفجرت تلعن «دياب» . وتذكره بأن أحداً من القرية لم يجرؤ أبدا على ضرب أبيه ، لأن أباه كان يعرف كيف يكسب احترام الناس . ولقدحاول أحد الفلاحين أن يتحرش به يوما ورمى عليه كلاما غليظاً . فلم يغضب وإنما ذهب إلى العمدة وشكا له المعتدى فحبسه العمدة يومين فى حجرة التليفون .

وتضايق «دياب» من حديث أمه ، وأدرك أنه لن يخلص منها طول النهار . فزعق فيها لتسكت .

وتدخل «محمد أفندى» قائلا :

— صلوا بينا على النبى. بس يادياب اخرس .. ما تزعقش فى أمك كده ياوله .

وسكت «دياب» .

ونهض «محمد أفندى» إلى حجرته التى يتكون منها وحدها الطابق الثانى . فخلع ملابسه وارتدى جلبابه الأفرنجى والشبشب والطاقية المخططة العالية .

وهبط فوجد أمه تمسك بعلبة صغيرة من الخشب الأبيض وتقول «لدياب» :

— خد افتح حلاوة مصر يا دياب .. وشوف حد يحمى الفرن علشان أعمل لكم فطيرتين تاكلوا بيهم الحلاوة الطحينية .

وفكر «دياب» من فوره فى أن يذهب ويستدعى «خضرة» ، ولكنه قبل أن يخرج تذكر إن يقول «لمحمد أفندى» أن «محمد أبو سويلم» ينتظره فى داره ومعه «عبد الهادى» منذ وقت طويل .

وتحرك «محمد أفندى» ليلتقى بهما وهو يلوم «دياب» على نسيانه كلاما كهذا .

وخرج «دياب» من الدار منكس الرأس ووراءه «محمد أفندى» . ولكن أمه استوقفته قائلة :

— اقعد شوية يا «محمد أفندى» يا ابنى مع أمك . دانت واحشنى قوى .. والنبى لك وحشة جامدة قوى .. بقى خالك «الشيخ حسونة» قابلك فى مصر ؟ وجاى البلد امتى ؟.. هو خلاص بقى . والله وحشنا قوى حضرة الناظر ، وهو مش عارف منزلته عندنا . !

وقال لها «محمد أفندى» وهو واقف . إنه تأخر عن «محمد أبو سويلم» و «عبد الهادى» ثم أضاف إن خاله «الشيخ حسونة» فى طريقه بعد أيام إلى عاصمة الاقليم ليجد حلا هناك لموضوع الزراعية الجديدة . فمرورها فى حوض الترعة يمزق أرضه التى تقع كلها فى حوض الترعة .

و «الشيخ حسونة» رجل فى الخمسين من عمره أشرف على تعليم «محمد أفندى» ، وعندما كان والد «محمد أفندى» حيا كان «الشيخ حسونة» يشير عليه بكل ما يصنعه ، ولم يحسب «محمد أفندى» لأحد حسابا «كالشيخ حسونة» .

كان يخافه أكثر مما يخاف من أبيه . وفى الحق أنه كبر ودخل مدرسة المعلمين ولم يعد يخاف من أبيه . ولم يكن يقبل يده وإنما كان يقبل يد «الشيخ حسونة» ويلقى باله إلى كل ما يقوله من كلام .

وعندما كان «محمد أفندى» يتعلم بمدرسة المعلمين فى عاصمة الاقليم كان «الشيخ حسونة» يزوره فجأة . ويقف على الباب الخارجى للحجرة التى يسكنها ليتصنت ويرى ماذا يصنع «محمد أفندى» ويحاسبه وكان يسأله دائما فيما يدرس . أو إن وجده متخلفا عن دروسه .

ولم يكن «الشيخ حسونة» مع هذا شقيق أمه وإنما كان ابن عمها وكبير عائلتها ، وقد ترك الأزهر من زمن طويل . واشتغل مدرسا بالصعيد ، وعاش فى بلاد لم تكن القرية تسمع بها من قبل . ونام هناك على سرير من جريد النخل تزحف من تحته العقارب . وهو منذ زمن بعيد يعمل ناظراً للمدرسة الأولية فى إحدى القرى المجاورة ، وقد ظل يعمل بهذه القرية ويحظى باحترام أهلها واحترام أهل القرية . ثم جاءت حكومة حزب الشعب ، فقاومها ، وأعلنت حكومة حزب الشعب أنها ستجرى

الانتخـــابات ، ودخلت وحدها الانتخـابات بعد أن قاطعتها كل الأحـزاب وقاطعها الناس .

وطلب «الشيخ حسونة» من أهل القرية أن يقاطعوا الانتخابات ، وأذن للمدرسين أن يتركوا المدرسة ليشجعوا على مقاطعة الانتخابات .

ومع ذلك فقد أجريت الانتخابات ووضعت أوراق فى الصناديق تضم أسماء الموتى والذين لم يذهبوا لينتخبوا .

وزار نائب حزب الشعب القرية التى يعمل بها «الشيخ حسونه» فرفض «الشيخ حسونة» أن يستقبله فى المدرسة وصرف التلاميذ وأغلق الأبواب وانصرف هو نفسه

وعندما قابله النائب صدفة فى الطريق . حذره «الشيخ حسونه» من زيارة قريته التى فيها أرضه ، وهدده إن هو زارها بأن يقطع الفلاحون رقبته بالفؤوس .

وشيعت القرية المجاورة النائب الزائر بالطوب وصراخ النساء ، فلم يكد يعود إلى عاصمة الاقليم حتى طالب بنقل «الشيخ حسونة» إلى مكان بعيد. أو بفصله إن أمكن .

فنقل إلى بلد بعيد جداً عن قريته ليعمل مدرساً بجوار القناطر حيث لا يستطيع أن يصل إلى المدرسة إلا فى « وابور البحر » .

وطالب الشيخ حسونة أهل قريته والقرية المجاورة بأن يثوروا كما صنعوا عندما نفى الانجليز زعماءهم . . ولـكن أحد رجال القرية المجاورة قال لنفسه ساخراً

— يعنى سعد زغلول ياخى ؟ ! ولا يعنى وليم مكرم ! .

وعلى أية حال ففى القريتين لم يتحرك أحد . . ولم يتجمع الفلاحون فى الطرقات ليقولوا يحيا العدل كما كان يحدث فى تلك الأيام المجيدة الباهرة

وامتلأ «الشيخ حسونة» ضيقاً بالقرية التى كان فيها . وبالقرية التى منها ، فأجر أرضه لرجل من أعيان قرية مجاورة . وأقسم ألا يعود إلى قريته أبدا . .

وأخذ معه زوجته وأولاده الخمسة . واستأجر لهم بيتاً من بابه فى شبرا البلد ، وأقام هو فى حجرة بالمدرسة ، ورتب نفسه على أن يعود الى أهـله فى شبرا كل ليلة جمعة وفى أيام الأجازات .

وعلى الرغم من أن «الشيخ حسونه» قد نقل مدرسا . فقد ظلت قريته والقرى المجاورة تسميه « حضرة الناظر » . وحتى المدرسون فى مدرسته الجديدة كانوا يطلقون عليه

« حضرة الناظر « فى نوع من الاصرار . والمقاومة الذين نقلوه مدرسا .

وقد استطاع «محمد افندى» حين وصل الى القاهرة مع «محمود بك» أن يعثر على عنوان خاله من بعض أهل القرية المقيمين فى شبرا .

وعند ما التقى «محمد أفندى» بخاله «الشيخ حسونه» ، روى له حكاية ماء الرى والعريضة ، وقال له أيضا أن «محمود بك» أخذ العريضة ووضعها فى جيبه ، وأعطاه عدة مواعيد فى مقهى بالعتبة الخضراء ، وفى كل مرة كان يقبل متأخراً عن الموعد ثم ينصرف على عجل ، ويحدد موعداً آخر .. وهكذا عاش يومين فى القاهرة دون أن يستطيع الكلام مع «محمود بك» ، وأخيراً جلس «محمود بك» معه على المقهى، ولاحظ محمد افندى أن محمود بك شخصية معروفة . « الجرسون » يحييه بترحاب وماسح الأحذية يهمس فى أذنه وهو يغمز بحاجبه ا .. ولقد استطاع «محمدافندى» أن يلتقط من همسات ماسح الأخذية كلمة بنت تركية صغيرة.. ومرة أخرى التقط كلمة تلميذة « فرنساوية » و « بنات افرنج » و « ست انجليزية » . .

وكان «محمود بك» ينصرف عن «محمدافندى» تماما إلى همسات ماسح الأحذية ولكن «محمد افندى» سأله مرة بتردد ووجل أن يخلصه، ليعود الى بلده .

وأخرج «محمود بك» علبة سجائره . وتناول سيجارة وأشعلها ونفخ دخانها بسرعة فى وجه «محمد افندى» وسأله عما يريد منه .

وعاد الى «محمد افندى» وجله فطلب من «محمود بك» أن يقرأ له العريضة لأن أهل بلده استحلفوه ان يقرأها قبل أن تقدم إلى الحكومة، وقرأ محمود بك العريضة باهتمام وثبات .

فوجدها «محمد افندى » التماسا بشق طريق زراعى ..

بهت «محمد افندى » وأخذ يمسح عرقه وأنفه، وينظر فى عربات الترام التى كانت تسير أمامه على خطوط متقاطعة ، تزاحم الناس — فى ميدان العتبة الخضراء — تحت وهج شمس الظهر ..

وعند ما حاول أن يناقش فى الموضوع ثار «محمود بك» وأهانه وقال له :

— انت عارف الحكاية كويس ؟ جاى تستعبط هنا ؟ عمدتك قال لى إنك فاهم أمال دفعت فلوس على إيه ؟ هو لعب عيال .

ثم انصرف «محمود بك» دون أن يدفع ثمن القهوة وهو يتمتم بألفاظ جرحت «محمد أفندى» حقا .

ولقد روى «محمد أفندى» كل هذا لخاله، عندما زاره بعد العصر فى بيته بشبرا البلد.

وسأله خاله إن كان يعرف حقا مكيدة العريضة، فأكد «محمد أفندى» لخاله أنه لم يكن يعرف شيئا.

وعاد «الشيخ حسونة» يسأل بهدوء لماذا أعطى «محمود بك» نقودا؟ وكم من النقود؟.

فارتبك «محمد أفندى» وأقسم لخاله أنه لم يدفع مليما.

وضاق «الشيخ حسونة»، واتهم «محمد أفندى» بالكذب وصاح فيه أن ذيل الكلب لا ينعدل أبدا.

وسكت «الشيخ حسونة» قليلا، وهو ينظر إلى «محمد أفندى» قاعدا فى ارتباك على الكرسى المغطى بالقطيفة الحمراء الباهتة وعيناه مفتوحتان على صور كثيرة معلقة فى الحجرة التى يسميها خاله «أودة المسافرين».. تماما كأهل مصر.

وخفض «محمد أفندى» رأسه، وتنهد عندما لاحظ نظرات خاله ترسل اليه الشرر

خبط «الشيخ حسونة» كفا بكف وهو يقول:

— هيه دى تجرا؟! هوه فيه حد يآمن لمحمود بن انجه هانم؟ والله عال.. عملتوه بيه وخليتوه ريس عليكوا. طب شوفوا بقى.. ذوقوا بقى بما كنتم غافلين. بكره يذلكو ذل الكلب فى الطاحونة.. دا ان كان هوه ولا عمدتكم، لو واحد من الجوز دول طال يبيعكوا بقرش مش حايتأخر..

ولم يستطع «محمد أفندى» أن يعلق على كلام خاله.. وعلى أية حال فقد شعر براحة لأن خاله لا يخصه بالكلام اللاذع.

غير أن «محمد أفندى» لم يسترح طويلا، فقد فاجأه خاله بقوله:

— وانت ماشى ازاى فى البلد؟ داير تشرب شاى هنا وهناك ولا عقلت وبقيت تحترم نفسك وتعرف قيمتك كمعلم.

فقال محمد أفندى:

— الحمد لله يا خال...

وساد بينهما صمت قطعه «الشيخ حسونة» بقوله إن الحكومة لا تستطيع أن تشق الزراعية غصبا عن أصحاب الأرض. ولئن شقتها الحكومة، فهو الخراب العاجل للقرية والقرى المجاورة من أجل ترف الباشا عضو حزب الشعب...

ثم هز «الشيخ حسونة» رأسه ، وعض شفته السفلى وهو يتمتم فى حسرة لو أن القرية والقرى المجاورة تقف فى وجه الحكومة فلن يستطيع أحد أن ينزع منها أرض حوض الترعة . . ولو أن القرية والقرى الأخرى المجاورة وقفت فى وجه الحكومة عندما نقلته هو إلى بعيد لما طمعت الحكومة إلى هذا الحد . . ولكن الناس سكتوا للحكومة فدخلت بحمارها . .

وعاد «الشيخ حسونة» إلى صمته .

وأخذ يقلب كفيه طويلا قبل أن يقول إن معظم الذين يملكون أرضهم فى حوض الترعة يصبحون بلا أرض إذا نفذت الحكومة مشروع الزراعية كما يريد الباشا وأخيرا . . وقف ونصح « لمحمد أفندى » أن يسافر من عنده ليقول هذا الخبر الاسود لأهل البلد : أما هو فلاحق به بعد بضعة أيام .

وتحرك « الشيخ حسونة » إلى الباب يودع « محمد افندى » . طالباً منه أن ينام حيث نام فى الأيام السابقة لأن بناته أصبحن كبيرات وهو لا يسمح لأحد غير المحارم بأن يبيت فى بيته .

وعلى الباب الخارجى سأله «الشيخ حسونة» إن كان يملك أجر فندق . ثم دس يده فى جيبه ليخرج حافظة النقود غير أن «محمد أفندى » شكره بخجل . وأكد له أنه يملك مالا .

* * *

وهكذا عاد «محمد أفندى» إلى القرية مثقل الصدر من حكاية العريضة ومحمود بك وخاله حضرة الناظر « الشيخ حسونة » .

ولقد روى كل هذا لأمه باختصار وهو يتحرك ليروح إلى « محمد أبو سويلم » و «عبد الهادى » فى دار « محمد أبو سويلم » .

وعند ما حكى لها كل ماذار بينه وبين خاله قالت بفرح :

ـــ هم البنات كبروا؟أى والله دابق لهم متغربين فوق عن سنتين . . هلبت ما بقوا عرايس .

ثم أخذت تحسب على أصابعها قليلا متهامسة . . وفاجات «محمد افندى» بقولها

ـــ زينب اتولدت سنة ما بنينا الساقية . . وفاطمة فوق راسها على طول . . هيه البكرية . ونجاح بينها وبين زينب سقط . . تبق فاطمة عندها كام سنة بق ؟

وسكت «محمد أفندى» قليلا ثم قال .

— أربعتاشر سنة ياأمه

وأستطرد مشيراً الى أغنية سمعها من فونوغراف فى مقهى بالقاهرة

— البنت سن أربعتاشر والوجه بدر أربعتاشر

وهمس لنفسه :

— ياسلام يامصر .. عمار يامصر . .

فقالت له متحمسة .

— آى والنبى طول عمرها من صغرها قمر أربعتاشر ..هلبت دلوقت ما خرطها خراط البنات واحلوت حلاوة مصر ، وبقت مصرية خالص . . لو كنت تتجوزها دا تلاقى زينب رخرة بقت عروسة

فقال بحسرة :

— وهو خالى يرضى . . دا دايما يقول عليه واد خسران

فقالت له أمه بغضب وفخار .

— خسران ؟ دا انت تقعد على البساط وتختار ست البنات ؟ طب انوى انت بس وأنا عليه الباقى ... طاب والنبى ان رجع البلد زى ما قالك لاخطبهالك منه حلاوة رجوعه البلد بعد ماطلع منها زعلان ومهزوم

وضحك «محمد افندى» ، وخرج إلى «محمد أبو سويلم» .

وفى الطريق كان يفكر فى حالة خاله ، وفى الجنيهات التى دفعها من ماله «لمحمود بك» ليعدل مواعيد الرى .. أنه لا يستطيع الآن أن يتحدث بفخر كما كان يتهيأله لو أن ما دفعه أعاد ماء الرى الى حقول البلد ؟

ولم يكد «محمدافندى» الى دار «محمدأبو سويلم» ويقف على الباب قائلا «ياساتر» حتى ارتفع من الداخل صوت «عبد الهادى» مختلطا بصوت «محمد أبو سويلم» :

— اتفضل.. داحنا مستنظرينك م الصبح .. الله ينكد عليك يادياب

ودخل «محمد افندى» فوقعت عيناه على «وصيفة» ..

كانت قد غسلت وجهها عشرين مرة ، مزدهرة ريانة .. يتهلل محياها وترقص فيه الغمازات .

وقال لها «محمد افندى» وهو يمد يده اليها

— إزيك كده يا وصيفة ا .
فوضعت يدها الدسمة فى يده المعروقة قائلة بصوت دافىء
— الحمد لله على السلامه يا محمد افندى .
وانفجر عبد الهادى من داخل المندرة يصيح بجفاف
— دهدى ؟ ادخل على طول ! تعالى هنا يا محمد افندى تعاله
وفوجىء «محمد افندى» ، فأسرع الى المندرة .
وأسرع «عبد الهادى» مرحبا ببرود .
ولم يكد يجلس حتى بادره «عبد الهادى» بالاعتذار عما كان بينه وبين «دياب».
واسرع «محمد أبو سويلم» يتفادى المناقشة المنتظرة فقال ببساطة وسرعة :
— العبارة بسيطة يا جدعان خللينا فى المعلوب الجديد ,
فعلق محمد افندى بتؤدة وتأثر :
— على كل حال حصل خير.. بس ماكانش العشم ياعبدالهادى ا انت برضه اسمك كبير وعاقل عن «دياب ، ماكانش ظنى تستفرد بالواد وتبهدله كده وتهينه الإهانه دى كلها ا ..
وشعر «عبدالهادى» بحزن .. وغامت عيناه .. واختلط فى اعماقه الضيق بالندم وصر على أسنانه . وتتابعت أنفاسه ،
وأوشك أن يخلص نفسة بالانفجار فى الزعيق
غير أن «محمدأبو سويلم»، غمر المكان بضحكاته وهويقول فى محاولة لتغيير الجو:
— ألا الجدع بتاع البندر ده اللى جايبك على الحمار من ورا الغيطان. وحاكم عليك تمشى على شط الترعة فى وسط الشراقى .
واسترسل «محمد أبو سويلم» يروى «لعبد الهادى» حكاية صاحب الحمار الذى استأجره «محمد افندى» من محطة عاصمة الأقاليم
وضحك «عبد الهادى» من أفانين أولاد البندر ، وراق
وفى خلال الضحكات ، ارتفع صوت «محمد أبو سويلم» :
— تشربوا قهوة ؟ قهوة ياوصيفه .
ولاحظ «عبد الهادى» أن وصيفة أقبلت الى الباب وقالت :
— حاضر .
وليست هذه هى عادتها عندما يطلب منها أبوها قهوة للضيوف . فهى عادة لا تحضر ، ولا تجيب ، إنما تعد القهوة فى صمت .

وتوقفت ضحكات « عبد الهادى » الرائقة ، وتنهد قليلا .

وطلب « محمد افندى » من « وصيفة » بالحاح ألا تعمل قهوة .. ثم سكت قليلا ليقول بصوت مرتفع نشيط موجها حديثه إلى « محمد أبو سويلم » :

— حضرة الناظر بيسلم عليك .

وأشرق وجه « محمد أبو سويلم » بفرحة مفاجئة .

وسأل « محمد افندى » إن كان قد قابل حضرة الناظر حقاً فى مصر وما رأيه فى مسألة الزراعية ؟ .

وأكد أن « محمد افندى » أن خاله قادم إلى القرية بعد أيام . فصاح « محمد أبو سويلم » متحمساً :

— ياسلام ياجدعان . . أهو دا الراجل اللى ينفع دلوقت صحيح . . جاى فى وقت عوزه تمام .. داحنا ياما شفنا مع بعض أيام السلطة . .

وزاغت نظراته ثم تاهت فى ظلال الفراغ من الحجرة . كأنما يسترجع أياما جميلة لم تذهب تماما فى النسيان .

وقال « عبد الهادى » بنبرة ترعشها الذكريات المخيفة :

— السلطة ..

فاستطرد « محمد أبو سويلم » :

— أيوه السلطة.. كنتو انتو أيامها لسه عيال.. كانوا بيلموا الخلق من السوق ؟ وهو انتو شفتو إيه من اللى شفناه احنا يا « عبد الهادى » ؟ ؟ انتو يادوبك شفتوا العساكر بياخدوا الرجاله والجمال والحمير والبهايم .. لكن احنا شفنا الويل يا « عبد الهادى » ؟ كان معايا أيامها « الشيخ حسونه » وكان لسه مدرس . خدونا مع بعض وحطوا الحديد فى أيدينـــا والبسونا عساكر . وقالوا علينا متطوعين ؟ لكن هو وقف لهم ؟ قاموا حطوه فى الحبس .. وبعتونا احنا على الشام .. رحت أنا فى بلاد الشام . وفى بر الشام شفت الموت بعينى دى الف مرة .. زحفنا على التلج .. تعرف التلج ؟ وكانت الأرض كلها تلج فى تلج . واحنا بنزحف على بطننا وبنطق بارود .. وزحفنا فى الطين .. ولما كنا بنستريح ونتلفت لبعض نسأل بعض . احنا هنا بنعمل ايه يا ولاد ؟ احنا مالنا ومال دا كله ؟ .. ماحدش يعرف يرد .. بنحارب مين ؟ بنحارب ليه .. ليه الحرابه دى ؟؟ ما حدش عارف .. يقولولنا العدو .. عدو مين وعدو ليه ؟ ولا حد منا عارف . وكان الرصاص يفوت من جنبنا ومن فوق

دماغنا ، وألاقى اللى بيسألنى وقع مين بالرصاص من غير مايحط منطق؟.. ياسلام ياخواتى على دى أيام.. الله لاعاذ يعودها ، ولا يكسب اللى لمونا ورمونا هناك.. ماحدش رجع من النواحى دى غيرى ؟ ولسه هناك الجتت مرمية على الجبال. اللى مات فى الشام . واللى مات فى بلاد معرفشى اسمها ايه . واللى رجله اتقطعت ، واللى عينه عميت ؟.. أيام.. الله لا يرجعها يا شيخ ! ياما لموا رجاله وحطوهم فى سلاسل وقالوا عليهم متطوعين . الله لا عاد يعودها يا أولاد..

وسكت «عبد الهادى» و «محمد افندى» ، وسيطر على القلوب شعور رهيب .

كان صوت «محمد أبو سويلم» يرتعش بنبرات غريبة يحمل إلى خيال «محمد افندى» و «عبد الهادى» ذكريات مشتركة مرعبة من تلك الأيام: عندما اختطفت «السلطة» رجال القرية وسط الصراخ والعويل .

وانتبه «محمد أبو سويلم» كأنه يفيق من كابوس. ودعك جبينه ووجهه بيديه. ونظر الى «محمد افندى» قائلا :

— بقى كده ؟؟ بقى حضرة الناظر جاى ؟؟ سلامات «ياشيخ حسونه» .

ثم استمر يقول وهو ينظر فى ظلال الحجرة .

— سايبنا وقاعد فى مصر على طول ليه. تعالى شوف اللى بيجرى تعال شوف!. وشيئا فشيئا ذاب الحديث .

وانصرف «محمد افندى» ليستريح ، وهو يلتفت وراءه الى «وصيفه»..

وعندما غادر عتبة البيت، كان وجه «وصيفه» يسطع فى خيالاته ضاحكا بين تموجات كثيرة من وجوه حزينة باكية . وجوه من تلك الأيام السوداء.. أيام السلطة .

— ١٣ —

مر يومان والقرية تنتظر أن يعود حضرة الناظر الشيخ حسونة . وكل رجل فيها يبحث عما يجب أن يعمل .

لم يكن من السهل على رجال القرية أن يصدقوا أن الحكومة تستطيع أن تنزع من أيديهم الأرض لتشق فيها طريقاً زراعياً لمجرد أن الباشا يريد ذلك .

كانوا كلهم يعرفون أن الجسر هو الطريق الذى يجب أن تهتم به الحكومة . . وما عليها إلا أن تصلحه فيصبح واسعاً كطرقات المركز ، ولاحاجة بعد إلى انتزاع الأرض من أيدى الذين يعيشون عليها ؟ لقد عرفوا بالتجربة أن كل حكومة حاولت أن تشق الشكة الزراعية وسط حقولهم . لم تعمر لتكمل المشروع . .

ولكنهم يعرفون — بالتجربة أيضاً — أن الحكومات التى تفكر فى إصلاح الجسر ليصبح طريقاً زراعياً ، لم تكن تعيش . . فقد كانت البوارج الانجليزية تقبل من البحر فإذا بهذه الحكومات تقال من الحكم . .

على ان الأمر يبدو خطيراً هذه المرة . فالباشا لا يشرع فى إتمام قصره إلا إذا كان على يقين من أن الحكومة التى ستشق الطريق باقية . .

وقد أوشك قصره أن يتم ، والبناؤون يعملون فيه بنشاط عجيب . .

وما دام البناؤون ينشطون فى بناء قصر الباشا ، فحكومة حزب الشعب باقية .

وحكومة حزب الشعب تعيش منذ عامين ، على الرغم أن العمال والطلبة يتظاهرون ضدها فى القاهرة ويضربون بالرصاص ؟

والقرية تتلقى من حين إلى آخر واحداً أو إثنين من أبنائها الذين يشتغلون عمالا فى مصر ، وهم يروون كيف تطردهم المصانع ، وكيف يمتنعون عن العمل . ويهتفون بسقوط الحكومة فتسلط عليهم الحكومة أنابيب المياه الساخنة . وهم يتحدثون عن جزع حكومة حزب الشعب من التقاء الطلبة بالعمال والناس فى شوارع القاهرة فتصدر القوانين باسم حماية المصلحة العامة وتنشىء مكتب العمل ، لتغلق بعض المصانع بحجة أنها مقلقة للراحة وتنقلها بعيداً عن المدينة وعن القرى . . حيث

يفصل الطلبة عن أهل القرى مسافات واسعة من الأرض الخراب ، ويفصلهم عن أهل المدينة عديد من الكبارى التى تستطيع الحكومة أن تفتحها فى وجه العمال المتظاهرين متى شاءت ؟

وكان بعضهم يقول إنه لا فائدة : فحكومة حزب الشعب ستبقى على أنفاس مصر إلى آخر الزمن .

وكان آخرون يقولون إن العمال لو ظلوا ممتنعين عن العمل والطلبة فى الشوارع فالحكومة لن تعيش بعد هذا شهراً واحدا .

أما « الشيخ يوسف » بقال القرية فقد كان يقول دائما إن هذا كله كلام فارغ . وإن الحكومة لا تسقط إلا إذا قام الفلاحون ضدها كما قاموا ضد الإنجليز . وقد حكى له العجائز ، عما صنع الفلاحون الفقراء بالإنجليز أيام عرابى .

وهو نفسه يذكر عندما كان طالبا فى الأزهر سنة ١٩١٩ أن الفلاحين فى هذه القرية وفى غيرها من القرى ، استطاعوا دائماً أن يزعجوا الإنجليز .

ولكن « الشيخ يوسف » يقطع كلامه دائماً ليقول إنه عندما كان طالبا كان الطلبة .. طلبة بحق ، وكانوا يوجهون ضربات لاتهدأ ضد أعداء البلاد .. أما الآن فقد خسر الزمن !

وسأله مرة أحد الفتيان — وكان يعمل خادماً بالقاهرة وعاد منها — أن يتشطر اليوم ويعمل شيئاً ، بدلا من أن يلوم الطلبة الذين يموتون بالرصاص فى مصر ! فهاج « الشيخ يوسف » وصفع الفتى وطرده من أمام الدكان .

ومر على القرية يوم ثالث .. ولم يقبل «الشيخ حسونة» .

وبعد صلاة العشاء جلس « الشيخ يوسف » على دكة أمام دكانه وجلس إلى جواره « محمد أبو سويلم » .

وابتعد الفتيان الذين تعودوا أن يقفوا أمام الدكان ، وأقبل « علوانى » يطلب من « الشيخ يوسف » حصة الليل من الشاى والسكر .

ولكن « الشيخ يوسف » لايريد أن يتحرك .. حتى ولو كان مع «علوانى» ما يدفعه فورا .

ووقف « علوانى » أمامهما قليلا ثم جلس على الأرض .

ومال « الشيخ يوسف » على « محمد أبو سويلم » يسأله رأيه فى أن يكتب هو عريضة من إنشائه الخاص . . وهو وحده ، يعرف كيف يكتب للحكام بطريقة تقنعهم !

ولم يهتم « محمد أبو سويلم » بالرد ، فصاح «علوانى» وهو ينهض متحمساً :

ـــ آى كده .. ما يجيبها إلا رجالتها وإيمان النبى عريظه منك لتهز الحكومة هز يا با «الشيخ يوسف»

ومارس « الشيخ يوسف » إحساسا بالامتياز . ومسح صدره وبطنه بكفه وهو يزم شفتيه :

ـــ أمال إيه ياوله .. ولا كل من كتب !

غير أن « محمد أبو سويلم » قال باستخفاف :

ـــ كفاية عرايظ بقى!.. آدى احنا جربناها . عاوزين نشوف لنا سكة تانية.

ولكن « علوانى » استمر يقول بنفس الحماسة إن عريضة من « الشيخ يوسف » ليست ككل العرايض : فهو يستطيع أن يكتب كلاماً باردا يغيظ الحكومة !

واعترض «الشيخ يوسف» محتجا على « علوانى » ونهره .

فابتسم « محمد أبو سويلم » ، ومضى « علوانى » يشرح قصده معتذرا .

واعترضه « الشيخ يوسف » قائلا إن هناك الطريق الآخر الذى يبحث عنه « محمد أبو سويلم » : فأحدالعائدين من مصر ، كان يشتغل فى شبرا البلد ، وعرف من هناك أن « الشيخ حسونة » يسعى عند الحكام فى مصر ليعدلوا عن شق الزراعية .

فهمس « محمد أبو سويلم » لنفسه إن الحكام فى مصر لن يعدلوا من أنفسهم عن شق الزراعية ولن يصنعوا شيئاً مفيدا للبلد . وعلى « الشيخ حسونة » أن يعرف هذا .. وماذا يريد « الشيخ حسونة » أن يحصل ليتأكد من هذا بعد أن نقل هو مدرساً ، وخصمت الحكومة من مرتبه جنيهاً ، واعتبرته اشتراكا اختياريا لجريدة حزب الشعب ! وبعد أن فصل « محمد أبوسويلم » من مشيخة الخفراء .. ماذا يريد بعد أن قطعت الحكومة ماء الرى لتعطيه للباشا ؟!

وأقبل « دياب » فلم ينهض أحد لاستقباله ، وتلقاه «الشيخ يوسف » بإهمال ودس « دياب » يده فى يد « محمد أبوسويلم » مسلماً . وسلم على « الشيخ يوسف » ثم سلم على « علوانى »

ووقف إلى جوار « علوانى » صامتاً . ولم يطلب منه أحد أن يجلس .

وأراد أن يقول شيئاً وكأنه يحاول أن يشعرهم بأن له أهمية .

فقال لجأة :

ــ خالى جه

وتحرك «محمد أبو سويلم» فرحاً :

ــ حضرة الناظر ؟ هوا فين ؟ فى داركم ؟ وساكت ليه يا وله ؟ جاتك الغم فى عقلك الضلم .

فقال « دياب » مستدركا :

ــ لأ ! جاى يعنى .. زمانه جاى من مصر دلوقت .

وبادره « الشيخ يوسف » بقوله :

ــ بقى طول عمرك حمار كده ؟ طب ما احنا عارفين إنه جاى! يبقى اسمه جه ؟!

وضحك « علوانى » وقال « للشيخ يوسف » :

ــ أنت فاهم الناس كلها عندهم فهم زيك يابا « الشيخ يوسف » ؟ والا يعرفوا يتكلموا زيك ؟ ! أصل احنا يعنى زى ما أنت راسى .. لا قرينا ، ولا لقينا اللى يقرينا !

ثم التفت إلى « دياب » فوجده يبتسم .

وهز « محمد أبو سويلم » يديه متعجباً .

ثم لمح فتاة مترهلة فى السواد مقبلة من ناحية داره . ورآها تدخل مسرعة إلى دار « الشيخ يوسف » فصاح فيها :

ــ بت .. بت ياخضره .. إنت كنت عندنا .. إيه اللى جابك هنا ؟ أنا مش لسه قايل لك خليكى فى ناحيتكم واوعى تخطى الناحية دى ؟

ولم تجب الفتاة وغابت وراء باب دار «الشيخ يوسف» فقال «دياب» بحرارة إنها ليست « خضرة » ولاأحد يستطيع أن يحصل على أثر « خضرة » فى هذه الساعة بعد صلاة العشاء ، فهى دائماً مشغولة مع هذا الفتى أو ذاك من فتيان «مصر» الذين عادوا ــ مطرودين من أعمالهم ــ بالقروش التى تستهوى «خضرة» .. وهم يقيمون فى القرية بلا عمل إلا مغازلة النساء ، ولا يستطيعون بعد هذا أن يمسكوا فأسا ولا حتى أن يحملوا حمارة سباخ !

وابتسم « محمد أبو سويلم » وهو يعجب لغيظ « دياب» ويتساءل ضاحكا : إن كان هؤلاء الفتيان قد أخذوا منه شيئاً !

ثم مال على « الشيخ يوسف » ، ونصحه ألا يسمح « لخضرة » بدخول بيته ،

وأكمل قائلا إنه هو نفسه منعها من دخول داره ، وطردها وضربها عندما رآها البارحة فى وسط الدار تسأل عن ابنته «وصيفة » !

وهز « الشيخ يوسف » رأسه باقتناع ، ورأى « دياب » يقترب منهما بوجهه ليسترق الحديث فزعق فيه أن يغور بعيداً !

وطلب « محمد أبو سويلم » من « دياب » أن يقوم ليحضر « محمد افندى » ولو من تحت الأرض.. وأوصاه ألا يغيب .

وانصرف « دياب » يهمس لنفسه :

— لو ماكانش « الشيخ يوسف » داخلق ووشه معقود كده ! طب وانا عارف « محمد افندى» راح فين دلوقتى ؟ ! أجيبه منين يعنى ؟

ولم يكد يسير قليلا فى تباطؤ حتى قابل « عبد الهادى » .

وكان « عبد الهادى » حزينا مضطربا ، واستوقف « دياب » ليسأله عن « محمد افندى » فقال « دياب » وهو يواصل سيره إنه ذاهب الآن ليبحث عنه .

وأقبل « عبد الهادى » على الدكان ، فقعد ، بين «محمد أبو سويلم » « والشيخ يوسف » دون أن يلقى السلام .

وكان واضح الاضطراب والقلق والحزن .

ولم يسأله أحد عن سبب اضطرابه . . ربما كان يفكر كالآخرين فى ماء الرى الذى لن يسيل إلا إذا قطع الجسر. أو ربما كان يفكر فى السكة الزراعية التى ستأخذ الأرض من حوض الترعة .

وعاد « علوانى» يطلب من «الشيخ يوسف » أن يتفضل عليه بقليل من الشاى والسكر . وقبل أن يجيب « الشيخ يوسف » التفت اليه « عبد الهادى » طالبا منه أن يقوم ليحضر «لعلوانى» مايريد...لأنه يود أن يقول كلام سر «لمحمدأبوسويلم».

ونظر اليه « علوانى » بامتنان .

وقام « الشيخ يوسف » متثاقلا ، ومشى إلى الدكان يسبقه « علوانى » .

ومال « عبد الهادى » على « محمد أبو سويلم » يسأله عن « محمد افندى » . فقال « محمد أبو سويلم » ببساطة إنهم أرسلوا « دياب » ليبحث عنه . وتساءل إن كان هذا هو السر .

ووقف « عبد الهادى » واستأذن « محمد أبو سويلم » فى أن يقوم معه ليكلمه على مصطبته .

ونهض « محمد أبو سويلم » وحيا « الشيخ يوسف » وانصرفا ، وإلى جواره « عبد الهادى » يلهث ، ويلقى فى ظلمات الطريق الساكن بنظرات حادة .

وقال « محمد أبو سويلم » .

— خبر إيه ؟ سر إيه ! مالك ؟

فسكت « عبد الهادى » وتابع سيره . وعندما وصل إلى مصطبة « محمد أبو سويلم » جلس وجلس إلى جواره « محمد أبو سويلم » .

وقال «عبد الهادى» بلهجة تدل على خطر :

— وصيفة راحت فين ؟

فقال «محمد أبو سويلم» ببساطة :

— أهى متلقحة جوه .. لكن سؤالك دا لازمته إيه ؟ لزومه إيه يعنى .. هو دا السر ؟! .

فأجاب «عبد الهادى» بنفس النبرات التى تحمل الخطر :

— لا ! لكن اسمع لما اقول لك بقى يابا محمد . . .

والتفت إليه «محمد أبو سويلم» ليسمع ما يقول

وفى كلمة مشحونة — كلحظات الانقضاض — طلب «عبد الهادى» الزواج من «وصيفة» قائلا إنه يتكلم فى هذا الموضوع لآخر مرة .. !

فأجاب «محمد ابو سويلم» بهدوء وصبر :

— طب ودا وقته يا عبد الهادى ؟ ! يا أخى طول بالك شوية . . ! حد عارف إيه اللى حايجرى ؟ بقى جايبنى من هناك ، وتقول سر ، علشان تتكلم فى كده؟!

ثم توقف «محمد أبو سويلم» بهيئة من يستعد لمتابعة الحديث ، وأخذ قلب «عبد الهادى» يخفق وانتظر ما يمكن أن يقوله الرجل الذى يملك بين شفتيه كلمة السر التى تفتح الباب المغلق إلى المستقبل .. !

ولكن «محمد أبو سويلم» لم يقل شيئاً آخر

فالتفت إليه «عبد الهادى» بصبر نافد وهو يقول :

— قلت إيه بقى يا با محمد ؟

فقال «محمد ابو سويلم» بنفس هدوئه :

ـ طب يا سيدى بس احنا فى إيه وانت فى إيه ؟ ! بس يعنى ...

ولم يقل «عبد الهادى» كلمة ، وانتظر بقية كلام «محمد أبو سويلم»

ولكن «محمد أبو سويلم» عاد إلى توقفه عن الكلام .. ثم قال :

ـ تتعدل يا عبد الهادى !! بكره تتعدل

ولكن «عبد الهادى» لوح بيديه قائلا فى ضيق وخوف من الانهيار :

ـ دهدى ؟ أنا عايز عقاد نافع .. إيه اللى كل ما اكلمك تقول لى تتعدل ، وتقول كلمة وتاكل عشرة ؟ !

وابتسم «محمد أبو سويلم» وهو يقول لعبد الهادى بطيبة وهدوء :

ـ بس طول بالك

ولم يقل «عبد الهادى» شيئاً

وظل ينظر إلى «محمد ابو سويلم» فى انتظار كلمة ، وليس فى باله طول !

غير أن الشيخ «الشناوى» أقبل مروعا :

كان كرشه يهتز ، وحبات مسبحته ترتطم ببعضها بلا نظام ، وصوته يختلج بهمهمة يبين منها من حين إلى آخر كلمات :

ـ باسم الله الحفيظ . . أعوذ بالله ...

واستقبله «عبد الهادى» بإعراض ، وسأله عن سبب اضطرابه

فألقى السلام وقعد قائلا إن « خضرة » النجسة وجدت الآن مقتولة ، ووجهها مدفون فى طين القناة الصغيرة التى تروى الحقول بجوار الجسر !!

واستمر الشيخ يقول إن حياتها طين وآخرتها طين

فقال «عبد الهادى» إن الناس كلهم من طين .. «خضرة» كالشيخ تماما !

ولكن الشيخ كان مروعا إلى حد أنه لم يفطن لما قاله « عبد الهادى » واستمر يقول إن « علوانى » هو الذى قتلها

واعترض « عبد الهادى » مستنكرا :

ـ علوانى ؟ ! علوانى كان معانا دلوقت ؟ وعلوانى يقتلها ليه ؟

فقال الشيخ « الشناوى » :

ـ حاكم هو كافر وقليل الدين وقتال قتلا . دا عمره ما ركعها ! وعامل شيخ عرب .. دا شيخ غجر ! الناس لقوها جنب الغيط اللى بيحرسه علوانى ! حد عارف

« خضره . . . عاشت فى الطين . . . وماتت فى الطين »

إيه الحكاية ؟! والله ما حد غيره يعملها . . ما حدش غير الواد العرباوى يعمل العملة الغبرا دى . لا إله إلا الله باسم الله الحفيظ . كانت بطالة صحيح .. لكن يا ناس القتل حرام ، وأكبر الكبائر عند الله ! دى بلد إيه دى ؟ أعوذ بالله من الشيطان قتل ؟ قتل كده هه !

وتململ «محمد ابو سويلم» :

— يا ناس جرى إيه بس ؟ إحنى فى إيه والا فى إيه .. آهى غارت بقى مطرح ما راحت

— لكن الشيخ «الشناوى» ظل فى اضطرابه ، يرسل كلمات متناثرة عن اللعنة والانتقام وسوء المصير ، وعندما هدأ تساءل أين يمكن أن تدفن «خضرة» هذه ؟ فاقترح «محمد ابو سويلم» أن تدفن على الفور قبل إبلاغ المركز بأن فى الأمر جناية قتل ، وربما كانت «خضرة» قد ماتت وحدها فجأة ، وانكفأت على وجهها فى الطين وهى تحاول أن تشرب من الماء القليل الذى تبقى فى القناة ... وهى أحيانا تفعل أشياء كهذا .

ولم يعلق الشيخ «الشناوى» على هذا فقد كان مشغولا بما قاله «محمد أبو سويلم» عن إبلاغ المركز

وأكد الشيخ «الشناوى» أنه عندما كان عند العمدة ، علم أن العمدة لم يبلغ المركز بمسألة «خضرة» وأنه على أية حال لم يحاول أن يعرف من القاتل ، وقد أمر العمدة بأن تبلغ الصحة بحادثة وفاتها كأنما هى أمر طبيعى ، وأن تدفن بعد هذا فى صباح اليوم التالى ، بعد أن يأتى تصريح الصحة فى التليفون كالمعتاد !

وسكت الشيخ «الشناوى» قليلا ، وقد استعاد هدوءه من كثرة ما تكلم وفضفض ، وعاد يتساءل أين يمكن أن تدفن «خضرة» ؟!

واقترح «عبد الهادى» باستخفاف أن تدفن فى مقابر «الشيخ الشناوى» ، لأنه أقرب إنسان منها يملك مقبرة . . ولم يكن «الشيخ الشناوى» يملك فى كل أرض القرية غير المقبرة !

وثار «الشيخ الشناوى» على «عبد الهادى» ولعنه قائلا : إنه نجس «كخضرة» .
وأقسم «الشيخ» أنه لن يلوث عظام الموتى بجثة «خضرة» التى عاشت فى معصية الله ، ولن يسمح لها بأن تدفن فى مقابر المسلمين .
وسكت قليلا ، و «عبد الهادى» يغالب ضحكه .
ثم عاد يصرخ فى «عبد الهادى» ويشتمه ويقسم أنه ليس قريباً «لخضرة» !

وقال « عبد الهادى » بهدوء إن « خضرة» ليس لها أقارب إلا ابن عمها الذى يشتغل طباخا عند « محمود بك » ، وهذا الطباخ فى الوقت نفسه ابن عم من بعيد « للشيخ الشناوى » .

وقبل أن يسمح « عبد الهادى » « للشيخ الشناوى » بمقاطعته استرسل يقول : إن « شعبان » — قريبها الآخر — لم يعد أحد يعرف عنه شيئاً منذ هاجر من القرية . أما قريبتها « زنوبة » فهى تشتغل فى مصر وتملك خمارة وراء حديقة الأزبكية ، وقد أصبح اسمها « إحسان هانم » كما يعرف « الشيخ الشناوى » وهى لم ترجع إلى القرية منذ غادرتها إلا مرة منذ خمسة أعوام .. أقبلت بعد أن أصبحت سمينة تضع الأحمر على الشفة والذهب على الذراع ، وتضع لونا جديدا على وجهها .. جاءت إذ ذاك فى عربة حنطور من المركز فأقامت ليلة لله . واشترت عجلا ووزعته على الفقراء ، احتفالا بمولد النبى . وأعطت « الشيخ الشناوى » جنيهين فقرأ الفاتحة على أرواح موتاها ، ودعا الله أن يكسبها ويوسع فى رزقها ! .

ولم يكد «عبد الهادى» يفرغ من حديثه هذا حتى صاح فيه «الشيخ الشناوى» إن «إحسان هانم» ليست «كخضرة» ، وقد غفر الله لها لأنها تصدقت وأقامت ليلة لأهل الله واحتفلت بمولد النبى وتبرعت للجامع .

وهم « الشيخ الشناوى » بأن يروى حديثا عن امرأة مثلها دخلت الجنة ، غير أن « عبد الهادى » قاطعه وهو يضحك :

— فاهم ! ما دام عندها دهب ومصاغ وبتعمل مولد وبتدفع للفقها والجامع ، دى طبعا يبقى لها فى الجنة سرايه وجنينه كمان ، وتبقى قريبتك ! يعنى لو خضرة راحت مصر وعملت زى زنوبة مش كانت تبقى من التائبات الصالحات ؟ ويا عالم كانت تبقى إيه كمان ! لكن ما دام قاعده فى بلدنا ، بقت نجسة ! يا شيخ ! يا سيدنا ! بقى دا كلام ! مين اللى نجسه فى الأختين: اللى بتشقى علشان لقمة العيش ، والا اللى فاتحة خمارة علشان تلبس ذهب ؟ بقى بلدنا مكتوب عليها الشقى فى كله كده ؟ ! .

وحار « الشيخ الشناوى » أمام كلام « عبد الهادى » ، فلم يجد غير عصا حاول أن يرفعها ويهوى بها على « عبد الهادى » ولكن « عبد الهادى » لم يكن فى حالة تمكنه من المزاح ، فتلقى العصا بيده ونحاها بغلظة قائلا :

— اسكت يا سيدنا والنبى ! فلقتنا من وعظك الخايب . إيه رأيك فى الزراعية

اللى حاتبلع أرضنا علشان الباشا يتنزه وتبقى السكة قدامه سالكة على المركز وعلى مصر ؟ دى كان نعمة جياله من كتر صلاحه ! هيه ! مش كده ؟ .

وضرب « الشيخ الشناوى » كفا بكف ونظر إلى « محمد أبو سويلم » وهو يدارى عجزه وخجله فى الضحك قائلا :

– الواد عبـــد الهادى ده كفره ماوردشى ! روح ياشيخ . الله يلعنك فى كل كتاب .

ونظر « محمد أبو سويلم » إلى « عبد الهادى » وطلب منه أن يبحث عن حفار القبور ، ليرى جثة خضرة فى أية داهية عندما يأتى إذن الصحة بالدفن ، فى طلعة النهار .

وقبل أن يتحرك « عبد الهـادى » سأل بفارغ صبر عن سر غياب « محمد أفندى » ولم يجبه « محمد أبو سويلم » .

وقال « عبد الهادى » وهو ينصرف إنهم يريدون الليلة أن يبحثوا فى مسألة الزراعية قبل أن تشقها الحكومة ، وتهدّ الدنيا .

ومشى « عبد الهـادى » بضع خطوات ، ولـكنه لاحظ قدوم موكب من الخفراء إلى دار « محمد أبو سويلم » وتقدم « عبدالهادى » يستوضح الأمر ، ولـكن صوت « الشيخ الشناوى » ارتفع من ورائه مروعاً يسأل الخفراء .

– خبر ايه ؟ خبر ايه يا ولاد؟ .

وتقدم الخفراء وطلب أحدهم من « عبد الهادى » أن ينتظر قليلا . . . وتهيأ « لعبد الهادى » أن العمدة سيتهمه بقتل « خضرة » .

ونهض « محمد أبو سويلم » من على المصطبة صائحاً :

– خبر إيه ياواد يا عبد العـاطى ؟ ! جايين كلـكم تنيلوا إيه ؟ هو الراجل النجس بتاعكم عامل ملعوب جديد ؟ . . هه ؟ زق له واد صايع يقتل خضره وناوى يتهمها فى واحد منا ؟ إيه يا واد يا عبد العاطى ؟ قول لى جايين هنا ليه ؟ وشرف النبى لو حصلت لـكده لا قطع رقبته . . أنا وانت والزمن طويل ياعمدة !

غير أن « عبد العاطى » قال « لمحمد أبو سويلم » باحترام إن « خضرة » ماتت لوحدها ، ولم يقتلها أحد . فقد كانت عائدة من على الجسر ومالت على القناة تغسل وجهها من بقايا الماء فداخت ، كما كان يحصل لها دائماً وكما يحدث لبنات كثيرات فى البلد ، وحين داخت « خضرة » على حافة القناة ، إنـكفأ وجهها على الماء ، فانغرس فى طين القناة وكتم نفسها وماتت على الفور .

فغمغم « عبد الهادى » لنفسه :

ـــ يعنى ما حدش زقها ؟ طب الحمد لله ! مالكش ملاعيب فى دى ياعمدة .

وتقدم خفير من « عبد الهادى » فقال له إن العمدة يريده هو « ومحمد أبو سويلم » وصرخ « محمد أبو سويلم » فى الخفير يسأله عما يريد العمدة منه .

فبلع «عبد العاطى» ريقه ، وقال إن رجالا مروا الليلة على الجسر ، بعد المغرب فوجدوه مقطوعا من عدة جهات . فأرسلوا إشارة إلى العمدة يشتمونه ويهددونه بالجزاء ، وكلمه المأمور بالتليفون وطلب منه أن يعطيه أسماء من قطعوا الجسر ، فأملى أسماء الذين يملكون حقولا على الجسر واسم « محمد أبو سويلم » أيضاً مع أن أرضه كلها فى حوض الترعة !

وكان الخفير « عبد العاطى » يتعثر فى كلماته من فرط الخجل . ولم يكد ينتهى حتى زعق « محمد أبو سويلم » .

ـــ حط اسمى فى اللى قطعوا الجسر ؟ ! إلهى تنقطع رقبتك ياعمدة ! ! طب دا انا أرضى كلها فى حوض الترعة يا اولاد !! يعنى يزوّر عليه ؟ . . طب والله لاثبت عليه أنه بيزور واحطه فى الحديد . . . آه يا عمدة يا نجس ! أنا وانت والزمن طويل !

ولم يسترح « عبد الهادى » لكلام « محمد أبو سويلم » .

إن الحكومة لا يمكن أن تضع العمدة فى الحديد من أجل « محمد أبو سويلم » ، ولكنها تسجن « محمد أبو سويلم » ورجال القرية كلهم من أجل العمدة الذى خدمها فى الانتخابات وزور لها أصوات الأحياء والأموات فى القرية وجمع لها اشتراكات إجبارية فى جريدة حزب الشعب !

ولم يشأ « عبد الهادى » أن يناقش « محمد أبو سويلم » ، فعبد الهادى هو الآخر ـــ يحس أن العمدة والحكومة وكل رجال المركز يدبرون لهم أمراً .

وتشجع أحد الخفراء فقال إن المأمور قد أمر بالقبض على كل من أملى العمدة أسماءهم .

وتحرك الخفراء ومعهم « عبد الهادى » و « محمد سويلم » إلى الدوار وهم يقولون :

ـــ معلهش يا با محمد .. معلهش يا عبد الهادى .. حكم الزمن كده !

فقال « عبد الهادى » ضاحكا متعمداً التظاهر بالاستخفاف :

ـــ دا حكم العمده والحكومة !

ومضى « محمد أبو سويلم » و « عبد الهادى » إلى دار العمدة وهناك وجدوا « دياب » ورجالا كثيرين .

وأمام باب الدار أخذ المكان يزدحم بالناس ويمتلىء بالصخب والضجيج .

و « محمد أبو سويلم » و « عبد الهادى » يملآن الدنيا بالشتائم ويوجهان إلى العمدة كلمات قاسية شجعت الآخرين على المزيد .

وبعد قليل — وقد أوغل الليل — كانوا جميعاً ، ومن ورائهم الخفراء مدججين بالسلاح ، يسيرون فى طريقهم إلى المأمور فى عاصمة الإقليم تحت ظلمات الليل الداجى

وحين انصرف الرجال ، تعالت صرخات النساء .

وكان الشيخ « يوسف » قد رجع إلى داره منذ تركه « محمد أبو سويلم » مع « عبد الهادى » .

وفتح الشيخ « يوسف » باب داره وسأل النساء . وعرف القصة كاملة .

فوقف على باب داره يقول فى حسرة :

— واسه ياما حايجرى وياما حانشوف . . . يا بلد !

وفى تلك الليلة نامت القرية مروعة .

وحاول « محمد أفندى » أن يقابل العمدة . ولكنه رفض أن يقابل كل الناس حتى الشيخ « الشناوى » وردعن بابه كثيراً من الرجال .

وأخذ بعض النساء يذهبن إلى الدوار فيصرخن ، ثم يعدن إلى الدور ، والدموع على الخدود ، ليجدن الصغار يبكون مروعين ، وعيونهم مفتوحة بلا فهم ، فى رعب متشنج من المجهول !

— ١٣ —

فتح « الشيخ يوسف » دكانه فى الصباح الباكر ، وجلس فى داخله ، وبيده منشة طويلة من الخوص يطوح بها الذباب

كانت القرية قد استيقظت إذ ذاك وما زالت فى عينيها الدموع

لقد قبض بالأمس على كثير من الرجال ، ومع ذلك فقد ذهب الآخرون إلى الحقول لأن الأرض لا تستطيع أن تنتظر الذين راحوا . .

وأقبل على دكان « الشيخ يوسف » صبى يبكى وهو يقول :

— أمى بتقولك الحكومة خدت أبوى ! روح شوف خدوه ليه ، وحيرجعوه امتى ؟

وأحس « الشيخ يوسف » بوخزات تعذب قلبه ، على بكاء هذا الصغير من الناحية الشرقية !

إن « الشيخ يوسف » يعرف القصة كاملة .. يعرف أن الحكومة أخذت من هذا الصغير — غير أبيه — عمه وخاله ورجالا عديدين هم أيضا آباء ، وأعمام ، واخوال ، وأخوة وأبناء .

ولكن « الشيخ يوسف » لم يكن يعرف على التحقيق ما يصنع هو نفسه . . لو أنه ذهب إلى عاصمة الاقليم فلن يستقبله أحد هناك ، فلا أحد هناك يعرفه ! . .

ولئن عرفوه وعرفوا من أية قرية هو .. فربما قبضوا عليه !

فهكذا كانوا يصنعون أيام قاطعت القرية الانتخابات .. وهكذا يصنعون دائما كلما شعروا بأن القرية تريد أن تملك الرأى أو النبضات أو الكلمة أو الأرض .

وضغطت على ضلوع « الشيخ يوسف » مشاعر مبهمة . . وأخذ يحدق أمامه فى فى الطريق الذى يضطرب من حين إلى حين بامرأة باكية أو غلام منكس الرأس ..

لقد امتلأ أمامه هذا الطريق يوماً بالرجال

كان ذلك منذ أربعة عشر عاماً .. عندما أغلقوا الأزهر فى سنة ١٩١٩ وعاد هو إلى القرية فى مركب شراعى عن طريق النيل بعد أن قطعت السكة الحديدية بين القاهرة وعاصمة الأقليم .

كانت الحياة إذ ذاك أكثر بهجة ، والنفس أكثر فتوة ..

وكانت زوجته هى الأخرى أكثر صبا !

وفى طرقات القرية المزدحمة بالناس والفؤوس والغبار واللهثات كان صديقه « الشيخ حسونه » يلوح بيده ويصرخ :

وبالاستقلال أبشر رغم أنف الانجليز

* * *

وانتبه « الشيخ يوسف » لجأة على نحيب امرأة :

— والنبى ياعم « الشيخ يوسف » تعالى اقرالى عدية يس عا الحكومة وعااللى خطفوا منى الواد ابنى امبارح بالليل !

ونظر إليها « الشيخ يوسف » كالمذهول ولم يقل شيئا ..

وظل يحملق فى الطريق أمام دكانه دون أن يختلج وجهه بأى تعبير . .

وكأنه ينظر إلى عالم آخر !

إنهم فى تلك الأيام الرائعة من سنة ١٩١٩ لم يقرأوا أبدا «عدية يس» على الانجليز..

كانوا يعملون بلا توقف ، وفى لحظات العمل المضطرم لا يجد الانسان وقتا للتفكير فى عدية يس !

وكانوا إذ ذاك يملأون القرية بالهتاف والعمل ويهزون بسواعدهم صمت الحياة!.

وأوشك أن ينفجر فى المرأة ويشتمها . ولكن صوته لم ينطلق من بين شفتيه .

كان حزيناً .. يشعر بالوحدة والضعف ، والفراغ ، وقليل من الضياع !

وكان مهزوماً !

وقال لها بصوت كسير :

— ربنا يعدلها :. روحى .. ربك يعدلها ياوليه ! .. روحى

ولكن المرأة لم ترح ، وظلت تبكى أمامه وتمسح أنفها وعينيها فى كمها الواسع الأسود .

وقالت له إنها لم تجد «الشيخ الشناوى » ليقرأ لها « عدية يس» على الحكومة ؟

وإنها كنست تراب ضريح « سيدى رمضان » ودعت الله — ويداها على عينيها — أن ينتقم لها من الحكومة وممن كان السبب فى رمى ابنها للحكومة !

وأضافت وهى لا تزال تبكى ، إنها لا تملك مالا تشترى به الشمع لضريح «سيدى رمضان » فليترفق بها « الشيخ يوسف» ويقرأ لها عدية يس بلا مقابل ، أو فليعرها من دكانه بعض الشموع حتى تحمل اليه البيض الذى تضعه فراخها هذا المساء .

كان « الشيخ حسونة »
العائد الجديد للقرية ، وكان
يفهم من أسرار الحياة والناس
أضعاف ما يفهم «محمد أفندى»
وأمثاله وكان كلما جاء ذكره
يدعوله النساء بالستر والهيبة
وطول العمر .

ولم يستطع «الشيخ يوسف» أن يغالب ضيقه بعد ، فانفجر :

— روحى بقى .. « روحى ياشيخه » .. روحى .

ولكنه عاد فارتعد ، وهو يسمع صوتها يدوى فى أذنيه ، كما ترن الخطوات الثقيلة الغريبة فى بيت خرب مهجور !

وهز رأسه وهو يمص شفتيه ، وتمتم :

— ضريح سيدى رمضان ؟ ! عدية يس ؟ ! الشيخ الشناوى ؟

لقد كان «الشيخ الشناوى» نفسه فى تلك الأيام الماضية من سنة ١٩١٩ ، يقف إلى جانبه فى طرقات القرية ، ويهز يديه هو الآخر ويقول مع الآخرين « يحيا الوطن » ! كانت له نفس اللحية الشيباء والوجه الأبيض الملىء . . وكان يروى نفس الأحاديث والحكايات عن الأنبياء .

ولكنه كان فى تلك الأيام يروى حكايات أخرى عن التل الكبير وكفر الدوار ، ومعارك عرابى ضد الإنجليز وضد الخديوى من أجل الدستور الذى كان اسمه اللائحة !

وعلى أية حال فلم يفكر أحد أيام سنة ١٩١٩ فى أن يطلب من «الشيخ الشناوى» قراءة عدية يس ؟ .

ولم يكن هناك واحد إذ ذاك يفكر فى « سيدى رمضان » ولا فى الشموع .

لم يفكر أحد فى «سيدى رمضان » إلا «محمد أبو سويلم».

كان عائدا من الحرب مسرحاً من الجندية ، فاقترح أن تخفى القرية فى ضريح « سيدى رمضان » كل ما تملك من سلاح !

كان هذا هو كل ما اتجه به فكره إلى الضريح !

ولكن أين «محمد أبو سويلم» الآن ؟

أين . . ؟ !

وتزايل « الشيخ يوسف » فى أغوار نفسه على هذه الذكريات . . .

وطافت برأسه صورة بشعة عن أرضه التى ستموت من العطش فى حوض الجسر ، والأرض التى اضطر تحت ضغط الأزمة والحاجة إلى رهنها تحت يد « محمد أفندى » ، والأرض التى يمكن أن تنتزعها الحكومة لتقيم عليها السكة الزراعية !

وهو بعد لايعرف كيف يرد هذا كله !

ولا أحد فى القرية يعرف على الإطلاق . .

وهمهم « الشيخ يوسف » بصوت ضعيف مختنق يراوده البكاء : ربنا يلطف

وسرت فى صوته الجاف رنة حزينة ، وأحس فجأة أنه يحب كل رجل وامرأة

وغلام فى القرية . حتى الذين عادوا من « مصر » بلا عمل ، وتعودوا أن يضايقوه بكلامهم أثناء وقوفهم أمام الدكان .

وشعر بالحاجة إلى رؤية « علوانى » . .

ونادى صبياً كان يسير فى الطريق مطأطىء الرأس ، ولكنه تذكر أن «علوانى» ينام فى مثل هذه الساعة من الصباح بعد سهر الليل كله .

وصرف الصبى .

وابتعد الصبى . ولم يعد فى الطريق أحد !

وعاد « الشيخ يوسف » ينظر أمامه فى الطريق الخاوى ، والوحدة الهائلة تلح عليه .

ثم رمى المنشة فى ضيق ، وهب واقفاً كأنه ينفض عن نفسه حملا ، وفتح صدره . . ثم دس يده تحت صندوق ، وأخرج كتاباً كبيراً من الورق الأصفر الداكن . . وأخذ يقلب صفحاته وهو يهز راسه .

كان قصة «عنتر» . . عنتر البطل الأسود العبد الذى هزم كل السادة فى مصر والشام وبلاد العرب !

وظل « الشيخ يوسف » يقرأ لنفسه بصوت مرتفع كيف كان عنتر يدافع عن الديار .

وعادت الحياة تدب فى صوته ، وهو يتلو شعر عنتر الذى كان يتحدى به القضاء ، ولعنة المقادير ، والسلطان !

وأخذت الوحشة تفارق نفس « الشيخ يوسف » شيئاً فشيئاً وبدأ صوته يتهدج بالحماس .

ورن فى أذنيه صوت يقول :

ــ صباح الخير ياشيخ يوسف .

ولم يرفع « الشيخ يوسف » عينيه عن الكتاب ، واستمر يقرأ .

وأشار بيده لصاحب الصوت أن ينتظر .

وسرت الحمرة فى السمرة الشاحبة المعفرة من وجه «الشيخ يوسف» ، وبدأ كيانه كله ينبض بالدفء .

وعاد الصوت يقول :

ــ باقول لك صباح الخير ياشيخ يوسف !

ورفع « الشيخ يوسف » عينيه ، وابتسم ، ثم أغلق الكتاب ووجهه يشرق . .

ـ- صباح النور يا محمد أفندى . يسعد صباحك يا سيدى ! أهلا وسهلا .

كان « الشيخ يوسف » فى تلك اللحظة يشعر بالسكينة تغمر كل أرجاء نفسه ، وبأمل غامض يخفق منه فى الأعماق .

وفاض قلبه بحب مفاجىء « لمحمد أفندى » ، واهتز فيه إشفاق على « دياب » .

وتساءل « الشيخ يوسف » :

— لابس الطربوش والزكتة ورايح على فين

فأجابه « محمد أفندى » إنه فكر فى أن يذهب إلى عاصمة الأقليم ، ليرى ماحدث لدياب ورجال القرية ، ولكنه عاد فرأى أنهم فى المركز ؛ لن يسمحوا لأحد من القرية بأن يتكلم ، وربما قبضوا على من يذهب ليطمئن على الآخرين . . . ومن أجل هذا ، فهو يرى أن يزور « محمود بك » ويحدثه فى أمر « دياب » . و « محمد أبو سويلم » و « عبد الهادى » وبقية الرجال .

وقاطعه « الشيخ يوسف » فى نصح صادق :

— بق ياسى محمد أفندى مش كفاية اللى جرا من محمود بيه !

فقال له « محمد أفندى » بيأس :

— وحيلتنا إيه نعمله يعنى؟ طب ونعمل إيه ؟ إيه الحيلة ! وفيه سكة غيردى ؟! وعلى كل حال خلينا ورا الكداب لحد باب الدار .

فقال « الشيخ يوسف » مستنكراً وقد عاد إلى وجهه الجاف جموده المكتئب :

— دار إيه وهباب إيه ؟ ! كلام إيه اللى بتقوله ده ياجدع .. ما خربوا الدار . ماخدوهم من الدار للنار !

ولكن « محمد أفندى » مال على « الشيخ يوسف » ليقول له فى همس إنه أعطى « محمود بك » عشرة جنيهات عندما كان فى القاهرة ، ليسعى فى موضوع الرى ، ولم يعمل « محمود بك » للقرية شيئاً بهذه الجنيهات .

وهو الآن يحمل عشرة جنيهات أخرى يعطيها « لمحمود بك » ليطلق سراح أهل القرية وسيعطيه الآن خمس جنيهات والباقى يدفعه بعد الأفراج عن الرجال !

وابتسم « محمد أفندى » بذكاء وهو ينصرف ، ولم يجب « الشيخ يوسف » وإنما سحب الكتاب بسرعة ، ووضع رأسه بين الصفحات ، وعاد يقرأ قصة كفاح عنتر بصوت خفيض مرتعش ، كان يثبت ويرتفع ، وتسرى فيه الحرارة صفحة بعد صفحة !

* * *

وقام من مكانه مرحباً بصوت مطمئن فارقته الرنة الحزينة :

انطلق « محمد أفندى » بالطربوش والجاكتة فوق جلبابه الأبيض النظيف ، وهو يسحب جحشته الفارهة .

ومر ببيت « محمد أبو سويلم » فوجد الباب مغلقاً .

لقد كانت «وصيفة» ليلة البارحة تبكى أحر بكاء .

ذهبت اليه فى بيته تبحث عنه ، بعد أن أرسلوا أباها إلى المركز ، ثم القت رأسها على كتف أمه ، وغاض صوتها واختلج بدنها كله ، وهى تذرف الدموع .

وأمه أيضاً ظلت تبكى من أجل « دياب » .

وهو نفسه . . .

إنه لم يذق النوم طول الليل ، وعندما عادت «وصيفة» إلى دارها ظلت تتراقص أمام عينيه أطياف عديدة لجلساته على المصطبة مع «محمد أبو سويلم» و«عبد الهادى» وأحس بالخواء الرهيب بعد غيابهما . وأدرك أنه يحب « عبد الهادى » أكثر مما كان يظن . وكأنه لم يغضب منه أبدا . .

ثم انتفضت فى ذهنه قصة حياة «دياب» دفعة واحدة . كأن « دياب » قد مات وألقى « محمد أفندى » وجهه على الوسادة وكتم البكاء . . !

كان يعرف أنهم فى المركز لن يحكموا بالطبع على رجال القرية بالإعدام ، لمجرد أنهم قطعوا الجسر ورووا الأرض !

ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء .. وقد ظل يتشنج فى أنين حزين ، وهو يرى نفسه عاجزا عن استرداد أخيه من يد الرجال فى المركز .

ومن يدرى ؟

ربما كانوا يعذبون الولد الصغير ، والرجال الكبار .

ربما كانوا يضطرونه إلى أن يشرب من بول الخيل .

فهكذا تصنع حكومة حزب الشعب بالفلاحين . منذ رفض الفلاحون أن يسيروا وراءها ، والفلاحون يرفضون السير وراءها على الرغم من كل شىء . . .

* * *

وتابع « محمد افندى » سيره فى الطريق إلى الحقول ماراً بأبواب الدور المغلقة : باب « محمد أبوسويلم » وباب « مسعود » . . وباب « عبد الهادى » و « ستهم » .

كل الأبواب مغلقة فى الصباح لأول مرة ، فالقرية لا تغلق أبواب

دورها إلا فى الليل ! ولكن الحال تغير . . وأغلقت الأبواب من يوم أن ذهب الرجال !

ومن وراء الأبواب المغلقة ، يعيش الرعب والقلق . . وتضرم اللهفة والخوف من المصير ، كل قلوب النساء والأطفال !

وظل « محمد افندى » يمشى وهو يسحب جحشته ، حتى جاوز الدور ، ووجد أمامه الحقول تمتد بأعواد الذرة الصغيرة الخضراء ، وأعواد القطن .

ووثب على ظهر جحشته .. وانطلقت الجحشة تتعثر به فى طريق مختنق متعرج بين الحقول والترعة .

ومن حوله حبات الندى تهتز وتلمع فوق أطراف الزرع . . والأشعة الحانية ترسلها فى الفضاء العريض شمس اليوم الجديد .

وأخيرا بلغ عزبة « محمود بك » .

وفى غرفة على الترعة بعيدة عن سراى « محمود بك » لبث « محمد افندى » طويلا ينتظر ، وقدمت له القهوة فشربها بعد تردد ، وظل ينتظر ، وهو يرتب فى رأسه الكلام الذى يريد أن يقوله . . وشعر بنفسه يتهيب مقابلة « البيه » وسالت أنفه عدة مرات وهو يمسحها فى عناية بمنديل كبير ويتنحنح ، ويراجع فى عقله الكلمات التى يحسن أن يبدأ بها الحديث وتهيأ له أن أنفه تسيل من جديد فأعاد مسحها بإتقان فى منديله ، وتحسسها بأصابعه وشفته العليا !

وطال انتظاره .

وأخيرا أقبل « محمود بك » عارى الرأس منفوش الشعر ، فى جلباب واسع أبيض .

وكان يتثاءب ، ويدعك عينيه ، وقال فى غلظة :

— إيه ؟ ! جاى لى من الفجر كده ليه ؟

فأجاب « محمد افندى » وهو يخطف نظرة إلى ساعة يده :

— دى الساعة بقت عشرة ياسعادة البيه ، وانا هنا من ستة ونص .

وعاد « محمود بك » يسأله بغلظة عما يريد ، فروى له قصة القبض على أخيه ورجال من القرية .

وكان « محمود بك » يسمع له بإهمال ، وهو يتثاءب ، ويزفر دخان سيجارته الأمريكية .

واسترق «محمد افندى» نظرة إلى باب الغرفة ثم سحب بسرعة من جيبه خمس جنيهات وأعطاها «لمحمود بك» ، ولم يقل شيئاً . ونسى كثيراً من الكلام الذى كان قد أعده فى مخه .

ونشط « محمود بك » بعض الشىء ، ثم طلب من «محمد افندى» أن ينتظر أياما . ولكن « محمد افندى » أعطاه ورقة أخرى بخمسة جنيهات ، وذكره بالمبلغ الذى أخذه منه ليعيد ماء الرى ، ولم تستفد القرية شيئا . ثم قال إن الإعتماد على الله ، وعليه وحده لإخراج الرجال . . والقرية دائما مستعدة لطلباته !

وبينما كان «محمد افندى» يرتب فى ذهنه كلاماً آخر ليشحذ همة « محمود بك » إلى العمل ، وقف «محمود بك» ، وباغته بالنداء على أحد الفلاحين ليعد الفرس . .

ثم التفت إلى « محمد افندى » وقال بثقة :

— روح استناهم فى البلد . . . . مبروك !

وقام «محمد افندى» من فوره وهو يكاد يطير من الفرح . . وركض بالجحشة فى الطريق المختنق بين الحقول والترعة . ولم يبال بتعثرها فى حفر الطريق .

كان الضحى يملأ الدنيا . . والحرارة بدأت تلفح الحقول .

ولم يكد يقترب من دار « محمد أبو سويلم » حتى وجد الباب مفتوحاً .

وخفق قلبه فجأة . ونزل عن ظهر جحشته بسرعة . . وسعل ، وتنحنح .

وبرزت « وصيفة » فى وسط الدار .

كانت بشرتها البيضاء محتقنة ، وعيناها الواسعتان الصافيتان تلهبهما الحمرة وفى جفنيها الذبول الذى يخلفه البكاء .

وحين رأت « محمد افندى » قالت بصوت متهلل :

— اتفضل .

ثم تقدمت منه فى أمل . .

كانت لا تزال نضرة ريانة على الرغم من كل شىء .

وتقدم « محمد افندى » إلى داخل الدار . إنه الآن وحده وجها لوجه مع « وصيفة » . . وهى على الرغم من كل ماحدث ، تبتسم له !

وكأنما كل ما حدث لأبيها وأخيه .. وحتى «لعبد الهادى» ، قد جعل قلبها يتفتح لاستقبال قلبه ، وجعل بدنها الشهى فى حاجة إلى بدن آخر شقيق يمنحه الدفء والسعادة . ويبسط عليه الحماية والأمن .

والتمعت عينا « محمد افندى » وتتابعت أنفاسه ، وشعر بخدر لذيذ يتدفق فى كل جسده .

وتقدم من « وصيفة » حتى بدأ يشعر بأنفاسها .

وسألها إن كانت وحدها فى الدار . وأين ذهبت أمها ..

وكان يهمس ، وفى صوته بحة ، ومن عينيه ينبثق ومض غريب .

وتراجعت «وصيفة» إلى الوراء خطوة .. دون أن تدعه يفهم أنها أدركت ما يريد

وأجابته على سؤاله الهامس اللاهث بصوت مرتفع مطمئن ، قائلة إن أمها راقدة

وسألته عما صنع لأبيها ولأخيه ولعبد الهادى وكل الذين رمتهم الحكومة فى سجن المركز .

وغامت نفس « محمد افندى » قليلا .

وشعر بالخجل وبوخزات تلدغ رأسه وأنفه وأذنيه وقفاه ..

وحك شعره وقفاه وذقنه ، وقال ببرود إنهم سيخرجون اليوم .

وشهقت « وصيفة » من الفرحة .. وقفزت . ورفعت يديها وصفقت .

ورأى « محمد افندى » وجهها يتألق ، والغمازات تتراقص فيه ، وتأمل نهديها يختلجان وهى تثب وتتقدم منه .. ووجهها كله يشع بالنور .

وسألته :

— صحيح ؟ صحيح ؟ ! والنبى ؟ !

وأطلق « محمد أفندى » ضحكات متكسرة ، وتقدم إلى « وصيفة » بلا كلمة ، وقد احمر وجهه ونظراته الجائعة تستلق على صدرها الملىء .

وجرت « وصيفة » فجأة ناحية الباب وقد أدركت تماما ما يريده « محمد افندى » ، وصاحت عليه ببساطة وهى تقف على الباب الخارجى للدار :

— الحق الجحشة يا محمد افندى .. الحق جحشتك جريت !

ونظر « محمد افندى » وراءه فى ضيق ، فوجد الجحشة التى تركها واقفة

فى الطريق أمام الدار تتحرك بلا حرج ، وتمشى عائدة فى طريقها إلى الحقل .
وخرج « محمد افندى » مسرعا مرتبكا . . .
وإذ جاوز عتبة باب «محمد ابوسويلم» قالت له «وصيفة» وهى تسير وراءه خطوة :
ــ خالك جه ياسى محمد ! جه فى عربية حنطور . . وحود علينا هنه ! راجل عليه القيمه صحيح .

ثم ارتفع صوتها ، وضغطت على الكلمات وهى تقول :
ــ راجل عليه القيمة ويعرف الأصول ويستر الحريم فى غياب الرجاله . أنا عمرى ما شفته من صغرى ، لكن لقيته راجل صحيح ! ماعونه طاهر .
وأدرك « محمد افندى » أن « وصيفة » تعرض به . . وشعر بكلماتها العالية كما لو كانت الضرب بالكرباج !
فلم يلتفت اليها ولم يقل شيئا . . وإنما مضى وراء الجحشة يتعثر فى خجله .
وتابعته « وصيفة » قائلة :
ــ دا زعل قوى لما عرف انك رحت للبيه « محمود » ؟ . خالك برضه قال لنا إن أبوى طالع النهارده . . . طالع طالع غصب عن البيه محمود وغصب عن الحكومة كمان !
وعادت « وصيفة » إلى دارها وسحبت الباب قليلا . وتركته نصف مغلق .
أما «محمد افندى» فقد أدرك الجحشة الهاربة وسحبها ، وعاد بها إلى الدار .
ولم يحاول أن يلتفت إلى باب « محمد ابوسويلم » . . .
فقد سيطر عليه ندم مفاجىء اختلط بخجله وارتباكه . . وتقدم إلى باب داره وهو يحسب ألف حساب لزيارة خاله « الشيخ حسونة » . .

* * *

و « الشيخ حسونة » فى القرية منذ الصباح .
وصل إليها عند ما كان « محمد أفندى » يجلس وحده فى عزبة « محمود بك » يرتب الكلام ، ويمسح أنفه فى انتظار البيه !
ولم يقبل « الشيخ حسونة » من القاهرة مباشرة . فقد تخلف ليلة فى عاصمة الإقليم . وصل فى قطار العصر ، فاتجه إلى الصيدلية الكبرى التى يتخذها الموظفون والأعيان ملتقى لهم .

وعلى رصيف الصيدلية جلس «الشيخ حسونة» مع بعض أصدقائه فوق كراسى الخيزران البالية .

كانوا كلهم فى الغالب من قرى مجاورة . . وكانوا مشغولين بأمر الزراعية الجديدة التى تجنبت جسر النهر — وهو الطريق الطبيعى — لتخوض فى الحقول ، وتحطم الملكيات الصغيرة . وكان لكل واحد منهم أب أو أخ أو عم أو خال سيجد نفسه بلا أرض بعد أن ينفذ مشروع الزراعية .

وقال القاضى الشرعى — وكان زميلا « للشيخ حسونة » فى الأزهر — إن الباشا عضو حزب الشعب ، نجح فى جعل الزراعية الجديدة تدور كالثعبان ، ليتفادى نزع ملكية سهم واحد من أرضه أو من أرض قريبه «محمود بك» أو من أرض أى مالك كبير على طول الطريق من القاهرة إلى عاصمة الأقليم ، وهكذا تمر الزراعية — بالضبط — أمام حدود الأراضى التى يملكها هؤلاء جميعا !

وتدخل فى الحديث موظف شاب فى المساحة من بلدة « الباشا » ، فهز رأسه توكيدا لهذا الكلام ، ثم همس بأن الزراعية ستكلف الدولة عشرة أضعاف تكاليف جسر النهر .

ثم دارت عينا الموظف على الرصيف وإلى داخل الصيدلية ، كأنما هو يخشى انقضاضا مفاجئا .

وكان « الشيخ حسونة » قد أسلم حذاءه لماسح الأحذية . وماسح الأحذية يسمع الحديث صامتا .

وزعق ماسح الأحذية فجأة ، فدعا على حزب الشعب بالخراب .. بالخراب المستعجل قبل أن يخرب الدنيا .

وابتسم « الشيخ حسونة » فى رضا ، وضحك الآخرون .

واتجه القاضى الشرعى بوجهه إلى ماسح الأحذية يسأله عما يضايقه هو الآخر من حزب الشعب .

ومرت بائعة التين ، سمينة بيضاء ، «تحمل مشنة» .. فغمزت بعينها لموظف المساحة الشاب وهى تتراقص ، وتغنى على التين بكلمات خارجة ، فنهرها ماسح الأحذيه . وتعمد موظف المساحة أن يضع رأسه فى صحيفة ثم صاح فجأة وهو يعرض الصحيفة على الآخرين :

— دول خلاص باعوا البلد للانجليز !

فقال القاضى الشرعى بإهمال :

ــ دول شبعوا بيع !

ولـكن أحد الجالسين قال بإصرار :

ــ لا .. لا ! دا بعدهم . باعوا إيه ؟ إذا كان يومى على الله فيه مظاهرات .

وتدخل موظف ثالث قائلا :

ــ هم يقدروا ؟ كان غيرهم أشطر . . قول بس نوابهم يشطروا على جدع خايب ياخدو منه قرشين . وليه غلبانه ياخدوا منها سبت بيض . لـكن يبيعوا البلد . . ؟ هيه شروه ... خلاص بقى !

وظل « الشيخ حسونة » يتحدث مع الجالسين أمام الصيدلية . حتى أقبل المساء وفى الليل سهر فى نادى الموظفين ، حيث التقى بالقاضى الشرعى وموظفين آخرين يعملون فى عاصمة الإقليم ، بعضهم من القرى المجاورة

وكان القاضى الشرعى ينظر بامتعاض إلى خدم النادى وهم يدخلون ويخرجون ، واقترح القاضى الشرعى على « الشيخ حسونة » والآخرين أن يجلسوا بعيدا عن هذه الحجرة وبعيداً عن الصالة التى تعج بقرعات حجارة الطاولة .

وجلسوا فى حجرة بعيدة متواضعة الأثاث ليست كباقى الحجرات .

واقترح موظف بالمديرية أن يكتبوا برقية إلى الصحف التى تعارض الحكومة وأن يشرحوا فى البرقية موضوع الزراعية بالتفصيل .

وأضاف « الشيخ حسونة » أن ترسل برقيات أخرى إلى النادى السعدى ، فوافق الجميع .

وتحدث القاضى الشرعى عن أهمية إرسال برقيات أخرى إلى كتاب المقالات فى الصحف . فلم يعترض أحد .

وكتب القاضى الشرعى البرقيات ... وجمع «الشيخ حسونة» مالا من الموظفين الجالسين معه فى الحجرة ، ثم وقعوا البرقيات بأسماء أقاربهم الفلاحين فى القرى التى تتأثر من شق الزراعية .

وحاول أحد الموظفين فى استبسال أن يوقع باسمه ، وهو يذكر الآخرين بموقف الموظفين سنة ١٩١٩ .

ولـكن القاضى الشرعى قال له إن الحرص من حسن الفطن ، وحكومة حزب الشعب كالغول الهائج مع الموظفين ، وهى تتمسك بتنفيذ القانون الذى يمنع الموظفين

من الاشتغال بالسياسة،ولا داعى لتعريض النفس لخطر الفصل أو التشريد فى بلاد بعيدة . وأضاف القاضى الشرعى إن هذا حرص توجبه مصلحة العيال !

وسكت الموظف راضيا عن نفسه ، وهو يتسول بعينيه نظرات الإكبار !

ثم قام إلى المحطة لإرسال البرقيات

وبقى الآخرون يتحدثون عن اضطهاد المصريين لحساب الإنجليز . واضطهاد الفلاحين فى القرى المجاورة لحساب الباشا

وعرف « الشيخ حسونة » قصة القرية مع لائحة الرى الجديدة ... وسمع بزهو تفاصيل كثيرة عن مقاومة قريته لهذه اللائحة . وهزته أنباء اعتداء الفلاحين على جسر النهر والترعة . وقال وهو يصغى بزهو :

— بلد شهامة طول عمرها !! الله ؟! دى ميتهم يا اخوانا ! دا حقهم يا خدوه بقى بأى طريقة ما دام الحكومة بتسرقه منهم وتديه للباشا .

ولم يفسد زهو « الشيخ حسونه » ماسمعه من أنباء القبض .

وهمس لنفسه أن هذا لايعنى شيئا فالزعماء أنفسهم قبض عليهم ، ونفوا فى مالطةوسيشل ، والكثيرون يموتون الآن بالرصاص فى شوارع القاهرةوالاسكندرية والمنصورة وطنطا وأسيوط وبنى سويف !

ثم رفع صوته قائلا إنه سيرسل برقية للنائب العام يشكو فيها رجال المركز لأنهم قبضوا على الرجال من قريته

فأجابه موظف فى النيابة قائلا إنه لافائدة من هذا ، فالنيابة الآن فى يد الحكومة والحكومة تقبض على الناس بلا حساب ، وبعد القبض ، تبحث النيابة فى القانون عن مادة تطبقها وتدافع بها عن إجراءات القبض

ولكن « الشيخ حسونة » لم يقتنع بهذا الكلام

وعندما انصرف من النادى ، قابل أحد أصدقاء ملاحظ البوليس فرجاه أن يجد طريقا للافراج عن رجال القرية .. ورجاه بصفة خاصة أن يتوسط كيلا يأمر أحداً بتعذيبهم — كما هو الشائع — حتى يتم الافراج عنهم !

وغادر « الشيخ حسونة » فندقه المتواضع فى الصباح الباكر ، واتجه إلى المحطة بجوار الفندق ، وأرسل باسم أهالى القرية برقية إلى النائب العام ووزير الحقانية ، مطالبا بالتحقيق فى أمر القبض على رجال من القرية

وأرسل صورة البرقية إلى الصحف المعارضة

ثم ركب عربة حنطور من المحطة ومضى بها على الجسر إلى قريته

ولقد ظل على طول طريق الجسر ، ينظر إلى النهر وإلى الحقول ويعجب لهؤلاء الذين يتركون الجسر الجميل المستقيم ، ويقيمون بدلا منه سكة زراعية جديدة ملتوية لتمر أمام قصر الباشا ، وتضحى الدولة فى هذا السبيل بكثير من المال ، وبكثير جدا من الأرزاق ، وكأن المقصود هو خراب الفلاحين ! !

وهمس لنفسه ماذا لو اختار الباشا مكانا على الجسر ليبنى عليه قصراً !

ولكن الحظ السيء جعل أرضه كلها بعيدة عن الجسر !

مع ذلك .. فهذه الدولة لا تبالى بشيء .. فهى دولة حزب الشعب

لقد فكر سائق العربة الحنطور فى الأمر والتفت إلى « الشيخ حسونه » وهو يقول : لماذا تشق الحكومة زراعية جديدة ، والجسر موجود .. على طوله الشجر والظل ، وبجواره النهر والنسمة الحلوة !

وحين أجابه « الشيخ حسونه » بأن الباشا بنى قصره بعيداً عن النهر مصمص السائق شفتيه وطوح بالسوط فى الهواء وهو يقول

ــ عارف يا سيدى عارف ! ما انا عارف ! يا سلام على الافترا يا ناس .. إفترا ! ! وإيه آخرتها يامفترى ؟

وبلغ « الشيخ حسونه » القرية بالحنطور ، وظل راكبا حتى بلغ دار « محمد افندى » ليقيم بها فدار « الشيخ حسونة » مهجوره منذ نقل

وتحركت النساء من وراء الأبواب يتأملن فى عجب وقلق مقدم حنطور إلى القرية !

وسيطر الرعب من جديد على القلوب

فربما كان طارق جديد من طوارق الحكومة يدهم القرية

ولكن كل عين كانت ترتد من داخل الحنطور ، آمنة لأنها لم تر الملابس الصفراء ، والطربوش الأحمر ، أو البندقية . وكل ما يمثل المباغتة والكارثة والقضاء !

وعندما بلغ « الشيخ حسونة » دار « محمد أفندى » ، كانت مؤخرة الحنطور قد ازدحمت بالأولاد ، الذين لم يفلح السائق فى هشهم عنها ، بكرباجه ، وشتائمه القبيحة

وعاد السائق بعربته وهو يشكر للشيخ « حسونه » الأجر السخى

ودخل « الشيخ حسونة » دار « محمد أفندى » فاستقبلته ابنة عمه أم « محمد أفندى » وقد حيرتها المفاجأة

وغطى هو يده فى كمه ومدها إلى ابنة عمه ، فانقضت على يده تقبلها . . وتقبل كتفه

وأخذت تمسح يدها فى جلبابها ثم تربت كتف « الشيخ حسونة » ونفسها تجيش وعيناها تزخران بالدموع

وسألها « الشيخ حسونة » عن ابنها « محمد أفندى » أين ذهب فى هذه الساعة من الصباح ؟

فقالت له إنه أخذ جحشته وركب إلى « محمود بك » يرجوه أن يذهب إلى المركز للإفراج عن « دياب » والرجال

وإذ ذاك ثار « الشيخ حسونة » ، وضرب كفاً بكف وأخذ يلعن غباء « محمد أفندى » . فما شأنه هو « بمحمود بك » . وما شأن « محمود بك » هذا . بالافراج عن الرجال ؟ !

واسترسل يقول إن « محمود بك » هذا ، لايمكن أن يصنع للقرية شيئاً . . وهو يستفيد من ارتباطه بالحكومة لابالقرية ، وكل همه هو أن يسلب القرية وينهبها . ولن يتأخر عن بيعها بنسائها ورجالها وأولادها وبناتها ببضعة جنيهات ! !

ولم تفهم « أم محمد أفندى » شيئاً وأسرعت تحضر حصيرة نظيفة فرشتها على على المصطبة فى مدخل الدار

وأخذت تروح وتجيء فى الدار وتنادى على جارتها . ثم أمسكت بالاوزة التى ظلت تلقنها حبات الذرة ، وذبحتها ، احتفالا بمقدم ابن عمها الغائب « حضرة الناظر »

وعند ما أوقدت النار لتسخن الماء جلست أمام الكانون ، وظلت تنظر فى الدخان المتموج وتحلم بأن يعود ابنها « دياب » ليأكل هذه الاوزة مع خاله « الشيخ حسونه » !

وتذكرت أن خبز القمح قد نفد منذ يومين ؟ وليس لديها دقيق ، وهى لاتملك فى القاعه إلا خبز الذرة . وولدها « دياب » لم يترك لها ، ليحمل القمح إلى الطاحونه

واستدعت فتاة من جيرانها وهمست فى أذنها بكلمات . وذهبت الفتاة إلى « وصيفه » ، وسألت « أم وصيفة » إن كانت تملك ثلاثة أرغفة من خبز القمح أو أربعة .

وعادت الفتاة من عند أم « وصيفة » فارغة فارسلتها « أم محمد أفندى » مرة أخرى إلى امرأة شيخ البلد .

وعادت من هناك تحمل قطعة من قماش نظيف قد لفت على القرص المطلوب :
على ثلاثة أرغفة بيضاء طرية من القمح !

على أن « الشيخ حسونة » لم يقعد طويلا عند ابنة عمه
تركها ليزور الدور التى قبض على رجالها .

وذهب أول الأمر إلى دار «محمد ابو سويلم» . وقبلت «وصيفة» يده ، وسالت دموعها على ظهر كفه . واهتز «الشيخ حسونة» وقبل رأس «وصيفة» ، ودعاها ابنته وأكد لها أنه هنا كأبيها تماماً ، ثم نادى أمها وشجعها وطلب منها أن تهتم «بوصيفة» ، وعرض عليها مالا فشكرته «أم وصيفة» وفاضت دموعها ، ولم تأخذ منه شيئاً وقامت تعد له القهوة ولكنه اعتذر ، وظل واقفاً حتى انصرف من دار «محمد أبو سويلم» وهو يؤكد لابنته وزوجته أن رجل البيت عائد إلى القرية على الفور .

وحدثته «وصيفة» وهو على الباب عن مسعى «محمد افندى» عند «محمود بك» فأعلن استنكاره لهذا المسعى وسخطه على «محمد افندى» وعاد يؤكد أن الرجال عائدون إلى القرية لأنهم لم يرتكبوا جريمة لا لأن «محمود بك» يسعى لهم !

ومال على بيت «عبد الهادى» فشجع أهله

وزار «الشيخ حسونة» بعد هذا بعض الدور فى الناحية الشرقية فواسى أهلها ، وحمل إليهم الطمأنينة ، وطلب منهم أن يتشجعوا ويحتملوا ، وانصرف من فوره ، بعد أن قبل الأولاد والنساء يده ومن ورائه دعاء حار بالستر . والهيبة ، وطول العمر

ثم اتجه إلى دكان «الشيخ يوسف»

* * *

كان « الشيخ يوسف » فى هذه الساعة من أول الضحى يستمع إلى حديث «الشيخ الشناوى» الذى عاد من دوار العمدة

وقطع حديثهما مقدم « علوانى » فقال له «الشيخ يوسف» بحنان إنه اشتاق إليه فى الصباح الباكر وأوشك أن يرسل إليه ولدا . غير أنه فكر فى أن يتركه لينام فيستريح من السهر فى حراسة البطيخ

وانتشى «علوانى» بهذا اللقاء الذى لم يعرفه من قبل ، وقال «للشيخ يوسف» فى صخب ضاحك أنه هو أيضاً كان يفكر فيه

وكان «علوانى» يحمل كيسا كبيراً مليئاً بكيزان الذرة

وكان يشد وسطه بحزام ، والجلباب من فوق وسطه منتفخ بالكيزان

وأخذ «علوانى» يخرج الكيزان من عبه ، ويضعها أمام «الشيخ يوسف» ، ثم مال

على الكيس الملقى على الأرض . وبعد أن أفرغ الكيس كله . ونقل بصره من الكيزان العديدة إلى « الشيخ يوسف » وهو يطالبه أن يخصم ثمن هذا الذرة من الحساب المتراكم عليه . تم طلب منه علبة سجائر جاهزة .

وبهت « الشيخ يوسف » وصاح فى « علواتى » :

— رايح تشرب سجاير ماكينة . والله عال . الرجالة يغيبوا عن البلد من هنا وانت تنسقط على الدرة من هنا .. قول لى الدره دا جايبه منين ؟ .

وضحك « علوانى » فى ثبات .. قائلا :

— أنا جرىء ...

وفتح « الشيخ يوسف» عينه فى دهشة وتساءل . فأكمل « علوانى » :

— أنا شهم .. أيوه .. لكن وحياة النبى ما فيهم درا واحد من أصحابى ولا من اللى كلت معاهم عيش وملح ، ولا فيهم كوز من دار واحد محتاج ¡ .

وتردد « الشيخ يوسف » فى قبول كيزان الذرة من « علوانى» ولكن «علوانى» ظل يغمره بكميات جديدة يخرجها من جيوبه ومن صدره المنتفخ بالكيزان ..

وصرخ « الشيخ الشناوى » فى « علوانى » :

— إيه ياواد يا عرباوى‌ده . . يا نهار أغبر .. حرام عليك .. دا يوديك جهنم .. حرام عليك تقبل دا « يا شيخ يوسف » . حرام قطعا .

فقال « علوانى » باستخفاف :

— جهنم ؟ وأنا أخاف من جهنم ؟ هيه جهنم دى يعنى حا تبقى أكتر من اللى أنا عايش فيه ؟! وهو أنا يعنى يا سيدنا كنت لقيت الحلال وسبته علشان الحرام . الله يسترك ياسيدنا . فضنا من الحلال والحرام فضنا ! وعيشتى ما يعلم بها حد ، دى تبقى حلال والاحرام .. هه .. ما تفتى ! .

ولم يجب « الشيخ الشناوى » . وظل يستعيذ بالله ..

أما « الشيخ يوسف » فقد أخذ يعد الكيزان التى غمرت البنك أمامه ، وتناثرت على الأرض . ثم أخرج الدفتر الكبير وقلب صفحاته ، وأمسك بقلم من الكوبيا وقال « لعلوانى » .

— يبقى مخصوم منك ريال .

فقال « علوانى » محتجا :

— ريال ؟ .. دا حرام ده يا عم « الشيخ يوسف » أهه ده اللى حرام صحيح .. ما تتكلم يا سيدنا .. بقى دا بيع وشرا .. دول يطلعوا أقله بتسع برايز وأنا مساع كمان .. دا شقا الليل كله ! ويا عالم ! .

فحجز « الشيخ يوسف » عدة كيزان ثم أعطاه علبة صغيرة من السجاير عليها رسم غزال أسود وصاح مصطنعا الغضب :

— طب غور . خد بتاعك وانجر من قدامى .

فاستدرك « علوانى » قائلا برجاء :

— لا لا .. طب وأنا أعمل به إيه .. طب أحسبهم بست برايز .. طب بنص جنيه .

وظل « الشيخ يوسف » يهز رأسه فى رفض .. فصاح «علوانى » :

— طب بأربع برايز .. هه .. والله ما انت حاسبهم بأقل من كده يا شيخ ..

فقال « الشيخ يوسف » بصرامة :

— ثلاث برايز مفيش غيرهم عاجبك والا لأ ؟

واستكان « علوانى » قائلا :

— طيب « الغرض » .. حلال عليك يا عم .. اخصمهم بقى من الاستجرار .. نزل الخصم فى الدفتر ده .

وتأفف « الشيخ يوسف » وأخذ يكتب فى دفتره الطويل العريض بينما كان « الشيخ الشناوى » يزعق :

— ياراجل حرام عليك ياراجل . يا راجل شرفك أحسن من الحاجات دى ..

فقال «الشيخ يوسف» بأهمال دون أن يرفع رأسه :

— دهدى .. ما بلا وجع قلب بقى يا سيدنا .. ما تتشطر كده على العمدة .. فلقتونا يا أخى .. وحياة النبى دا انت تاكلها والعة ..

وروع « الشيخ الشناوى » وقال منزعجاً :

— به دا انت خرمت .. اللهم طولك يا روح . إنت حا تخوض ؟

وحاول « علوانى » أن يدخل فى الحديث فنهره « الشيخ يوسف » وأمره بأن يرجع بعيداً عنه ، ووجد « الشيخ الشناوى » فى « علوانى » فرصة للانفجار، فتتبعه بالشتائم واللعنات والوعيد بالنار .

وحين انتهى « الشيخ الشناوى » من شتائمه وغاب « علوانى » عن عينه التفت إليه فى هدوء ، وقد سيطرت على وجهه الكآبة والصرامة ، ولفحت الصفرة الشاحبة سمرته .

وأخيراً قال « الشيخ يوسف » :

– كمل لنا يا سيدنا بقى حكاية الراجل المؤذى ده .. الله يقطعك يا «علوانى» وينكد عليك توهت منا الكلام . كمل لنا يا سيدنا كمل .. بقى يا ناس دا عمدة ده والا شيخ منصر ؟ ! .

وعاد « الشيخ الشناوى» يكمل الحديث الذى بدأه قبل أن يجىء «علوانى» ..

لقد كان « الشيخ الشناوى » عند العمدة فى الدوار يقرأ له راتب الصباح من القرآن .. واعترف العمدة أنه ضاق بإهانات « محمد أبو سويلم » له أمام أهل البلد . « فمحمد أبو سويلم» لا يذكره إلا بكلمة النجس .. ولهذا أبلغ اسمه مع الذين قطعوا الجسر ليؤدبه أحسن أدب .

ولئن أفرجت الحكومة عنه وعن الرجال الآخرين ، وعاد « محمد أبو سويلم » يتحداه مرة أخرى وعاد « عبد الهادى » إلى غروره أو فكر «محمد أفندى» فى أن يرفع رأسه متأثراً «بعبد الهادى» و«محمد أبو سويلم» .. فهناك موضوع «خضرة» ولا أحد يعرف سرها وسيبلغ العمدة عن اكتشاف موتها قتيلة .

والمعروف أن «محمد أبو سويلم» طردها من بيته وضربها قبل موتها بساعات . والمعروف أن « عبد الهادى» ضربها مرة وخاف من تأثيرها على «وصيفة» التى يريد أن يتزوجها . والمعروف أن « خضرة » كانت على علاقة مع « دياب » ، وربما كانت قد حملت ، وخشى « دياب » من الفضيحة

وعلى أية حال فموضوع «خضرة» مازال موجودا . وسيظل موجودا لمدة خمسة عشر عاما ، يعرف العمدة طوالها كيف يؤدب الذين يحاولون إهانته أو تحديه .

ولم يكد «الشيخ الشناوى» ينتهى من رواية هذا الكلام حتى ثار «الشيخ يوسف» وسأل « الشيخ الشناوى » عما قاله للعمدة ردا على كل هـــذه الترتيبات ، ومحاولات الإيذاء .

فأجاب « الشيخ الشناوى » فى طيبة بأنه لم يقل له شيئاً .

وإذ ذاك قال «الشيخ يوسف» :

ـــ ربنا ما فتحشى عليك بحديث ولا آية ؟ ولا مثل حتى ؟ ! . بس ماسك لى فى الحرام والحلال على الهايفة ؟ .. بقى تسمع من العمدة الكلام ده كله وتسكت. بقى عمايل العمده وملاعيبه دى ترضى ربنا ؟ أنت بس تتعرض فى الهايفة ؟ .. والا العمدة ده من أولى الأمر منكم ؟ .

واحتقن وجه « الشيخ الشناوى » وزعق :

ـــ داكلام ايه ده اللى أنت بتقوله .. إنت بتكلمنى كده ليه م الصبح ؟ . . يا أخى دا الأمامو على كرم الله وجهه بيقول من علمنى حرفا صرت له عبدا .. أنا قريتك فى الكتاب قبل ماتقرا فى الأزهر ، تقوم تيجى تعمل معاى كده؟ إخص!..

وقبل أن تحتدم المناقشة ، كان « الشيخ حسونه» يقف أمام الدكان يلقى السلام بابتسامة هادئة .. وانبثقت الابتسامات على مقدم «الشيخ حسونه» .. وسلم عليه «الشيخ الشناوى» بترحاب . وقفز «الشيخ يوسف» إلى خارج الدكان فى ابتهاج ظاهر غمر كل ضيقه ، وعانقه طويلا ، ثم أخذ يهز يد «الشيخ حسونه» ، ويسحب يده هو لضرب صدره برفق ، ثم يعود فيمسك بها يد «الشيخ حسونه» ويهزها بحرارة . هكذا عدة مرات .. على وقع كلمات واحدة لا تتغير :

ـــ سلامات .. طيبون ؟ .. إزيك كده ؟

وأخيرا تقدم « الشيخ يوسف » إلى بيته بجوار الدكان ، والتفت إلى « الشيخ الشناوى» . طالبا منه أن يجعل باله إلى الدكان

ودخل « الشيخ يوسف » إلى بيته ، وهـــو يدفع أمامه « الشيخ حسونه » فى اغتباط ..

وجلسا فى مندرة « الشيخ يوسف » ذات الأرض المفروشة بالحصير والكنب المتمزق الغطاء .

وتأمل « الشيخ حسونه » لوحة كتب عليها « اتق شر من أحسنت إليه » .

وقال « الشيخ يوسف » إن « محمد أفندى » مر عليه هذا الصباح وذهب إلى «محمود بك» يرجوه أن يسعى فى الإفراج عن الرجال .

ومرة أخرى لم يكتم « الشيخ حسونة » سخطه على « محمد أفندى » .. وعجب كيف يمكن أن يظل بعض الناس غافلين عن هذا الصنف من الرجال وعن حقيقة « محمود بك » ، ونواياه .

وبدأ يتحدث عن أيامهم القديمة فى ثورة ١٩ عندما كانوا فتيانا مثل « محمد أفندى » أو أكبر منه بقليل .

وتألق وجه « الشيخ يوسف » وصاح :

— والله ياشيخ دانا عمال أفكر فى الحكاية دى من كام يوم . أنا عارف البلد جرى فيها إيه . لا كنا بنفكر فى واسطة ولا فى شفاعة .. ياراجل دا احنا كنا أيامها بنهجم عالإنجليز بمدافعهم .. لا رجا ولا خوف من حد .. لكن ياعم هية دى بقت بلد .. هية دى بلد ياحضرة الناظر ! .

وقبل أن يعقب « الشيخ حسونة » ، دخل « محمد أفندى » وعلى وجهه بشاشة يخالطها القلق والاضطراب والشحوب .

كان ما يزال يلبس الطربوش والجاكتة والحذاء .

وقبل يد « الشيخ حسونة » ثم قعد يتنحنح .

ونظر إليه خاله فى صمت ، وكان استقباله له واضح البرود .

وبعد قليل قال « الشيخ حسونة » موجها الحديث إلى «محمد أفندى» إن البلد لن تستفيد شيئاً من « محمود بك » .. فعلى الذين فى رؤوسهم عقول أن يتعظوا مما حدث فى لائحة ماء الرى وفى مشروع الزراعية ..

ولم يقل « محمد أفندى » شيئاً .. وهز رأسه فى موافقة .

ولاحظ «الشيخ يوسف » ضعف « محمد أفندى » ، فانتهز الفرصة ليتكلم وهو آمن من الرد اللاذع .. وقال بسخرية :

— ناقص تروح ترجى « العمدة » كمان ! ..

وقال « محمد أفندى » بصوت خفيض فى لهجة مستكينة وهو يلقى نظرة امتهان على « الشيخ يوسف» :

لا . عمدة إيه بقى . هو أنا كنت مشيت وراه فى الانتخابات . والا دفعت له اشتراك لجريدة الحكومة .

وأدرك « الشيخ يوسف » أن « محمد أفندى » يعرض بمواقفه فى أوائل عهد حكومة حزب الشعب .. وكظم غيظه والتفت فى خجل إلى « الشيخ حسونة » . ولم يلتفت إليه « الشيخ حسونة » ، وإنما قال « لمحمد أفندى » :

ــ عجايب ؟ يعنى تخاف من الحبل ولا تخافش من التعبان ؟ « والعمدة » إيه ، و « محمود بيه » إيه ؟ والباشا إيه ؟

ثم ارتفع صوته كأنه يقفز على الكلمات واسترسل يقول :

ــ والحكومة إيه ؟ والإنجليز إيه ؟ مش كلهم واحد ؟ سلسال واحد ؟ كله سلسال زفر !

وارتبك « محمد أفندى » وبان على وجهه أنه كان يجب أن يفهم كل هذا .

ولكنه حسب لبعض الوقت أن فى مقدرة « محمود بك » أن يؤدى خدمة للقرية ، ما دامت هذه الخدمة ستعود عليه ببعض المال .

ولم يعرف « محمد أفندى » ماذا يقول .

كان يؤمن أن خاله « الشيخ حسونة » يفهم من أسرار الحياة والناس أضعاف ما يفهم هو . لقد آمن بهذه الحقيقة دائما منذ كان طفلا ، وكلما عركت الظروف خاله ازداد إيماناً به .. إن « محمد أفندى » يدرك أن خاله قادر على مقاومة الحكام والكيد لهم والوقوف أمام ما يريدون ، وهو يعرف أن رجالا كخاله و « محمد أبو سويلم » يملكون من الخبرة فى المقاومة أضعاف ما يملك هو . فقد صنعوا الثورة ذات يوم .

ومهما يكن من ضيقه أحياناً برجل « كالشيخ يوسف » . فهو يحتفظ فى نفسه بخيالات بعيدة من ذكريات من الطفولة . حين كان خاله « الشيخ حسونة » ، و « الشيخ يوسف » ، و « محمد أبو سويلم » يصرخون مع الرجال فى الطرقات تحت خفق الفؤوس : « يحيا العدل » .

وأراد « محمد أفندى » أن يقول شيئاً يستنقذ به نفسه من الصمت والحرج ، فطرد السعال بنحنحة قوية وهو يقول :

ــ ما هو البركة فى حضرتك . يا حضرة الناظر .

فقال « الشيخ حسونة » بثقة وأمل :

ــ والبركة فيكوا انتو كمان يا ابنى . الله . هيه أرضنا لوحدنا ؟ هيه مش

أرضكم كان ؟ طب قول لى بس . مين قلق بال الحكومة والإنجليز فى مصر ؟ مش اللى قدك وأصغر منك . مش همه الطلبة وعمال العنابر ؟ انت ما بتقراش جرايد ؟ مش باين عليك بتقرا .

وقبل أن يرد « محمد أفندى » قال « الشيخ يوسف » باستهزاء :

— جرايد ؟ . جرايد ايه يا عم الله يسترك .. هى بلد بتاعة جرايد . دى بلد دى ؟ . قال جرايد ؟ دا كل حين ومين على ما تقع فى إيدنا جريدة ! هم دول ناس بقى ده جيل ؟ هو حد من الجيل ده بيقرا جرايد والا فاهم حاجة ! والله ياشيخ مارجاله إلا رجالة زمان ؟ .

فاعترض « الشيخ حسونة » .

— لا . . لا . . يا « شيخ يوسف » . هيه البلد بتاعتنا لوحدنا ؟ ماهى بتاعة أصغر واحد فيها كان ! وهوه احنا واخدين الأرض معانا . ما احنا سايبينها للجيل الجديد لأولادنا ! وبعدين أهو ربنا سبحانه وتعالى بيرث الأرض ومن عليها . . لازم يفهموا كده ياأخى . واحنا فهمنا كده واحنا شباب . أنا كان فكرى برضه ان ما فيش فايدة خلاص لكن والله لو تشوف اللى بيجرى فى مصر لتنشرح ! . واللى بيتعرضوا للرصاص فى مصر كلهم صغار فى السن وفاهمين تماماً يا « شيخ يوسف » أكتر منا فى سنة ١٩ .

— على الله ! .

ونظر « محمد افندى » بأكبار الى خاله « الشيخ حسونه » . . ولم يحول عنه نظراته .

ومن خارج الغرفة ، رنت دقة فنجان على صينية قهوة ثم تلاها تصفيق يد صغيرة . .

ولاحت ابنة « الشيخ يوسف » العجفاء من فتحة باب الغرفة . وانتظرت أن يقبل أبوها ليحمل الصينية .

ولمع فى ذهن « الشيخ يوسف » خاطر سريع . . وأومض وجهه وهو ينقل نظراته بين فتحة الباب و« محمد افندى » وقال بسرعة وهدوء :

— ادخلى يابنتى ما حدش غريب .. تعالى سلمى على عمك الشيخ حسونة .

ودخلت الفتاة العجفاء ، بوجهها الأسمر الجاف العابس كوجه أبيها ، وخديها المفرغين ، وقوامها النحيل القصير ، ونهديها الصغيرين ، وجلبابها الأحمر يكشف عن ساقين مهزولين . .

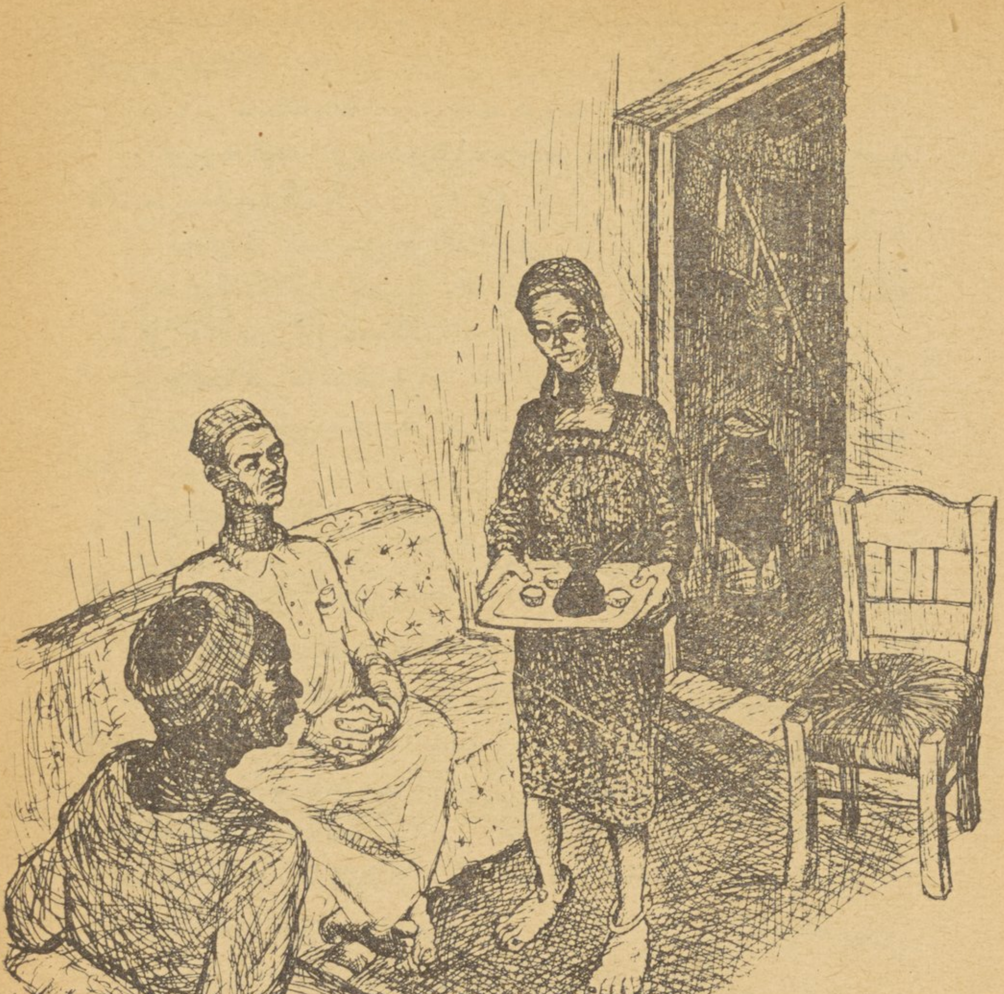

« ولاحت ابنة الشيخ يوسف العجفاء
من فتحة باب الغرفة »

وصعت الصينية أمام أبيها ، وتقدمت الى «الشيخ حسونه» .. فوضع يده فى كمه وسلم عليها قائلا :

— باسم الله ماشاء الله .. دى بقت عروسه أهى ياشيخ يوسف .

واحمر وجه الفتاة ، وبلعت ريقها ، واختلج خداها الغائران فابتسم أبوها «الشيخ يوسف» وقال لها :

— دهدى !.. طب سلمى على محمد افندى ..

وتعثرت الفتاة ، وهى تخطو إلى «محمد افندى» .. ووقف «محمدافندى» فى مكانه وسلم على الفتاة دون أن يتقدم اليها .

ثم خرجت مسرعة مضطربة ..

ثم ابتسم «الشيخ يوسف» وهو يصب القهوة ، وينظر خلسة إلى وجه «محمدافندى» قائلا : — هه ...

وقدم فنجان القهوة إلى «الشيخ حسونه» وهو يقول :

— قهوة تمام من ايد بنتى .. حاكم هيه شاطره فى كله .. قهوة وطبيخ وخبيز غير بقى الصلاة والصوم والعبادة .

فابتسم «الشيخ حسونه» قائلا :

— ماشاء الله .. ماشاء الله ربنا يبارك لك فيها .. طبعا ياسيدى ما هى من ماعون طاهر .. ما أنت لازم أحسنت تأديبها .. أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

وقدم «الشيخ يوسف» فنجانا آخر إلى «محمد افندى» وهو يبتسم .. ولم يختلج وجه «محمد افندى» بأى انفعال .

وذاب الحديث شيئا فشيئا .

وهم يرتشفون القهوة بصوت مرتفع .

— ١٤ —

لم يخرج الرجال بعد من سجن المركز . .

وما زال «الشيخ حسونة» مقيما فى القرية ، وقد زار العمدة ، وتحدث إليه فى أمر الرجال الذين يبيتون فى سجن المركز . وهدده لئن لم يتصرف من فوره للافراج عنهم فسيعرف شغله .

ومر يوم . . ويوم آخر ، والرجال لا يعودون . .

وزار العمدة منزل «محمد افندى» ، ليرد على «الشيخ حسونة» زيارته . فأكد «للشيخ حسونة» أن مهندس الرى وحده هو المسئول عن القبض على الرجال : فقد قلب الدنيا فى المركز على رأس المأمور عندما وجد الجسر مقطوعا . وطالب بفصل عمدة الناحية إن لم يرسل إلى المركز كل الرجال الذين قطعوا الجسر .

فقال «الشيخ حسونة» بصوت هادىء ساخر :

— وهوه محمد أبو سويلم كان قطع الجسر يا عمده ؟ هه يا حضرة العمده . .

وقبل أن يجيب العمدة ، وهو يبحث عن كلام يقوله ، اندفع «محمد افندى» يزعق بحسرة :

— والواد دياب كان عمل جريمة يا حضرة العمدة ؟ الواد عمل إيه بس ؟ حد عارف بيعملو له إيه دلوقت فى السجن ؟

ونظر «الشيخ حسونة» مغيظاً إلى «محمدافندى» ، فأدرك «محمدافندى» أن خاله يؤنبه على انهياره هكذا أمام العمدة .

ونكس «محمد افندى» رأسه . فقال له خاله «الشيخ حسونة» :

— قوم استعجل القهوة يا محمد . . قوم يا محمد افندى . .

وإذخرج «محمدافندى» ليستعجل القهوة قال «الشيخ حسونه» بصوت هادى مفعم :

— السجن لا هو عيب ولا هو فضيحة ؟ سعد انحبس . سعد نفسه انسجن . سعد كان محبوس وعدلى قاعد فى سرايته بيسهر مع الانجليز . .

وارتجف العمدة وهو يتمتم :
— أى نعم .. أى نعم يا حضرة الناظر .
ثم سكت العمدة . وسكت «الشيخ حسونة» .
وأخذ العمدة يتأمل اللافتات المعلقة فى منزل «محمد افندى» على حوائط المندرة الصفراء . كان يجلس على الكنبه وأمامه لوحة من الجبس مكتوب عليها «الكريم لا يضام» وإلى جانبها لوحة أخرى كتب عليها بخط أحمر متشابك «وأما بنعمة ربك فحدث» ونقل بصره إلى لوحة ثالثة وأخذ يحاول أن يقرأ خطها . وقرأ لنفسه «عز من قنع وذل من . . . » ثم تمتم قراءة بقية اللافتة » طمع .. وذل من طمع
وفاجأه «الشيخ حسونه» بزفرة طويلة . وشرع يدق عصاه على البساط الأحمر ثم أخرج ساعة جيبه ، وبعد أن نظر فيها ، أخذ يتأمل من الشباك أشعة الأصيل وقد بدأت تلف القرية بلونها البرتقالى الشاحب الذى يحمل الى النفس فجأة كل معانى الذبول .
وقال «الشيخ حسونة» بصوته الهادىء :
— لما نصلى العصر قبل ما يبقى مكروه ؟
وقام الى ركن الغرفه فأمسك بحصيرة صغيرة ملفوفة ، ودخل «محمد افندى» فحمل عنه الحصيرة وبسطها أمامه ، وبدأ «الشيخ حسونه» يصلى ، وبعد أن فرغ من الصلاة قال له العمدة :
— استأذن أنا بقى .. سامحنى فى القهوة .
فنظر «الشيخ حسونه» مغضبا إلى «محمد افندى» وهو يقول :
— فين القهوه ؟ .
وخرج «محمد افندى» متلكئا ، وهو يتمتم :
— بقى يحبس لنا «دياب» ونسقيه قهوه كمان؟ ما عنه ماطفح؟ إياك يشرب السم الهارى ؟
وبعد مناقشة بين «محمد افندى» وأمه قال لها :
— خالى محكم رأيه على القهوة
— ياحسرتى ؟ بقى جاى يشرب قهوة عندنا بعين وجسارة؟. يحبس لى ابنى واعمل له قهوة كمان ؟ .

واخيراً حمل «محمد افندى» القهوة، وصبها ، وقدمها للعمدة وللخاله وهماصامتان وأخذا يشربان القهوة ..والعمدة من حين الى حين يقول « للشيخ حسونه » :

ـ كل عام وانتم بخير يا حضرة الناظر؟ بعوده الأيام .. إن شاء الله كده تشرف بلدنا على طول

وأخيرا نهض العمدة لينصرف .

وشيعه « الشيخ حسونة » إلى باب الدار ، والعمدة يقسم عليه فى كل خطوة أن يبقى مستريحاً .

وعندما كان العمدة يسلم على « الشيخ حسونة » ، على بعد خطوتين من باب الدار ، قال له العمدة :

ــ إنشاء الله الرجاله يطلعوا بكره ، ويباتوا فى دورهم . . حاكم زى ما انت عارف المأمور حاجزهم علشان يقابلوا أبصرها مين من الوزاره جاى يزور الباشا بكره . والوزره ماشيين بعد الغدا على طول . والمأمور قال لى ــ كده كلام بينى وبينك ــ إن الوزره رايحين يمشوا من هنا ومساجين البلد يرجعوا البلد من هنا.

وهز « الشيخ حسونة » رأسه وقال :

ــ على خيرة الله .. أيوه الوزراء جايين يزوروا الباشا بكره صحيح .

وعاد إلى الدار فزعق فى « محمد أفندى » وأمه لأنهما أخرا القهوة وقال إن هذا لعب أولاد صغار . والأصول .. أصول . فالعداوة شىء ، وتقديم القهوة شىء آخر.

ولم يجب « محمد أفندى » بينما قالت أمه :

ــ مش هم دول اللى فى الأول حطوا السم لأبويا وفى الآخر رموا ابنى دياب فى السجن !! قطيعة تقطع دى عيلة .

فأجابها « الشيخ حسونة » بصوت مكظوم :

ــ بلاش كتر لبانه يا أم محمد .. يعنى نتشطر على فنجال القهوة .. دا إيه الخيبة دى وقلة القيمة دى !.

وساد الصمت لبعض الوقت

وقعد «الشيخ حسونه» على المصطبة فى مدخل الدار، وقعد بجواره «محمد افندى» بينما انصرفت أمه إلى الداخل .

ثم تساءل «محمد افندى» عن هؤلاء الوزراء الذين سيزورون الباشا فى ضيعته بالقرب من عاصمة الأقليم كما قال العمدة .

فقال « الشيخ حسونة» بصوته الهادىء إن الباشا يدعو بعض أصدقائه من وزراء حزب الشعب ليزوروه فى قصره الجديد ، وسيشعرون طبعا بمتاعب الطريق ، فيعجلون بشق السكة الزراعية التى تصل بين القاهرة وعاصمة الاقليم مارة بالسراى على حدود أملاكه الشاسعة .

ولكن «محمد افندى» لم يكن يريد من خاله هذه الأجابة . فتساءل ماعلاقة هذا كله بالإفراج عن «دياب» والرجال .

وابتسم «الشيخ حسونة» وهو يقول إن عليهم أن يحمدوا ربهم لأن المأمور لم يقبض عليهم جميعا ليكونوا فى استقبال وزراء حزب الشعب . .

وعلى أية حال فالمأمور قد تلقى الأوامر من المدير ، والمدير تلقاها من وزارة الداخلية بأن يعد لوزراء حزب الشعب أكبر استقبال شعبى . استقبال يوشك الزحام فيه أن يخنق الوزراء .

ولا ريب أن المدير قد أمر بإعداد كل المساجين فى سجون المراكز وهم آلاف وأعد ملابس عادية للذين يرتدون ملابس السجن منهم ، ليحشدهم كلهم مع رجال البوليس السرى . والعمد ومشايخ البلاد والخفراء . . وكل الذين يستطيع مأمورو المراكز أن يجمعوهم من الطرقات . . كل هؤلاء سيؤلفون الاستقبالات الشعبية الرائعة .

ولم يكد « الشيخ حسونة » يصل فى حديثه إلى هذا الحد حتى أحس إلى أن «محمد افندى» لا يكاد يدرك شيئا مما يقول . فصرخ فيه :

— انت مش عارف ايه اللى حصل فى الانتخابات ؟ انت يا أخينا مش تفهم الحاجات دى كويس علشان تنور الفلاحين ؟ والا بس شاطر تجرى لى مرة وراء العمدة ومره وراء محمود بن انجه هانم ومرة وراء البنات الصايعين .

وفوجىء «محمدافندى» بهجوم خاله . .

كان يعرف رأى خاله فى سلوكه . . فأدرك أنه بعدما مال بالكلام على سيرته فلن يخلص منه أبدا . .

فقال من فوره ليبعد بخاله عن هذه المنطقة الشائكة :

ـ ماهم الفلاحين عارفين كويس ياخال .. بس أنا يعنى كان قصدى أسأل يعنى هو العمدة حايطلع « دياب » صحيح ؟.

فصفق « الشيخ حسونة » متعجبا ..

ثم نظر اليه ، وشرع يؤكد له أن العمدة لن يتوسط فى الأفراج عن « دياب» والآخرين ، إلا إذاكانت له مصلحة ، أو إذا شعر على الأقل بأن سلطانه على الفلاحين مهدد ..

وأقسم « الشيخ حسونة » أن العمدة لن يقوم بمسعى للأفراج عن أحد ، مادامت القرية ترجوه وتستعطفه .

* * *

على أن القرية مع ذلك ظلت ترجو العمدة و تستعطفه . فلم يكد يعود إلى الدوار من زيارته «للشيخ حسونة» حتى وجد نساء يقفن على سور الدوار . وآخريات يجلسن على الأرض . ولم تكد طلعته تهل عليهن حتى أحطن به : يسألن فى ضراعة وبكاء متى يعود الأب أو الزوج أو الولد ؟ .

ولم يجب العمدة وتابع سيره و«عبد العاطى» الخفير يتبعه .. وهو دائما يحاول أن يبعد النسوان .

كان العمدة فى الأيام الأخيرة قد تعود أن يسمع نساء يصرخن باكيات ضارعات أمام الدوار ، وتعود أن يأمر الخفراء بإغلاق باب الدوار الخارجى . . ليمنعوا النساء من التسرب إلى فنائه . ومنذ عاد «الشيخ حسونة» إلى القرية تحاشى العمدة أن يجلس على البسطة ذات البلاط الكبير فى فناء الدوار ، ولم يخرج أبدا فى طرقات القرية إلا ليزور « الشيخ حسونة » ردا على زيارته .

وقابلته امرأة فى الطريق وهو ذاهب إلى «الشيخ حسونة» ، وسألته عن ابنها ، فنهرها الخفير . واعترضت طريق عودته فتاة أخرى تسأل عن أخيها فأسرع فى سيره وترك الخفير يدفعها وتعلقت عجوز فنحاها بعصاه . وانقضت امرأة صغيرة حسناء وأمسكت بكم جبته وهزته وهى تبكى سائلة عن زوجها ، ودفعها بقوة وانفجر يقول لها كلاما نابيا معرضا بولهها على الزوج الغائب . وحين تنحت عن طريقه مضطربة الخطوات يتعثر حياؤها فى دموعها . تابعها الخفير بكلمات

مفضوحة وصورة زوجتة تطلع فجأة أمام عينه ، وظل الخفير «عبد العاطى» يزعق فى وجه الزوجة الشابة الجميلة :

— جاتكو الغم ؟ . . الغرابة ان أبوكى ممسوك راخر . . . اشمعنى مسك جوزك يعنى هو اللى حارقك قوى وواجعك قوى ؟ حاكم صنف النسا دا صنف دون!! الواحده همها بس . .

وضاق العمدة فالتفت اليه ونهره حتى لايسير فيقول مالايصح أن يقول الخفراء أمام عمدهم .

على أن العمدة حين بلغ باب الدوار عائداً من زيارة « الشيخ حسونة » ، لم يستطع أن يدخل الباب . .

كان أمامه حائط متموج قاتم من النساء يلبسن الجلاليب السوداء ويقفن أمام باب الدوار ويلوحن بأيديهن باكيات .

ولمح العمدة من بينهن فتاة بيضاء فارعة لاتلبس الجلباب الأسود كالأخريات وكانت تصرخ بحدة . وتقتحم الزحام حتى وقفت أمام العمدة تماما . .

وحاول الخفير أن يبعدها ، ويداه ترتفعان فوق رأسها وترتجفان من التردد فصرخت فيه الفتاة . .

— إوعى تمد إيدك عليه ياواد ياعبد العاطى . . كن إيدك جاك قطع إيدك ابعد دراعك كده ان شا الله تنصاب . .

وسألها العمدة من تكون هى ، وقبل أن تجيب قال عبد العاطى :

— دى بنت شيخ الغفر . .

فصاح العمدة محنقا :

— شيخ أه ؟ هو لسه شيخ غفر؟ الله الله ! بقى انت غفيرانت ؟ . . وغفيرى الخصوصى كمان ؟ طب يا ابن شلبية . حاكم انت ربايته . . رباية محمد ابو سويلم . .

فقال «عبد العاطى» مضطربا :

— شيخ الغفر اللى هو سابقا يعنى ياحضرة العمدة .

وتقدمت «وصيفة» وفتحت صدرها متحدية ولوحت بيدها :

ـــ أنا وصيفة بنت « محمد أبو سويلم » .. إيه مش عاجبك يعنى! .. إيه بقى ؟ مش قد المقام ؟ فين أبوى ! .. قول لى فين أبوى ..

وهز العمدة رأسه والأشعة الحمراء تنسكب من آخر لحظات النهار فوق دور القرية الداكنة وعلى وجه « وصيفة » الرائق .

وقال العمدة بهدوء مصطنع :

ـــ طيب مش عيب تشوحى فى وشى وتزعقى لى كده..وأنا أكبر من أبوكى ؟

فصرخت « وصيفة » بانفعال واضح ، ويدها توشك أن تقتحم عينيه :

ـــ عيب ؟ .. أنت بتقول عيب ؟ هو انت خليت عيب ومش عيب عليك تحط أبوى فى السجن ؟

وقال العمدة فى هدوء وخبث وهو ينظر فى بدن « وصيفة » ، وينقل نظراته بين وجوه النساء :

ـــ طالعه لأمك تمـــام ! .. حلوة قوى زى أمك .. ولمضة ونغشة برضه زى أمك .

وأدرك النساء ما يريد العمدة أن يقول . وعرفن أنه يريد أن يشوه أم «وصيفة» ليذل البنت أمامه ، ويكسر عينها ، وعين أبيها ..

وقالت امرأة باستنكار :

ـــ ومالك انت ومال أمها بقى ؟ اش عرفك ان كانت نغشة ؟ إيه ده بأه ! وانت كنت شفتها فين ولا عرفتها فين ؟

وانطلقت امرأة تقول :

ـــ والنبى لو شيخ الغفر هنا وسمعك بتقول كده ، ليطق فى بطنك عيارين على طول .. بقى كمان تتكلم على مراة « محمد أبو سويلم » .. بقى كمان .. هيه حصلت؟! يا عينى عليه !

وقالت امرأة ثالثة :

ـــ يا اختى الراجل شاب ولسه عايب .. جاته ستين نيله شايب وعايب !

وعندما كان النساء يتحدثن باستنكار فى وقت واحد ، أمسكت « وصيفة » بجبة العمدة وهزته بعنف وهى تقول متشنجة فى صراخ مفزع :

— بتقول إيه على امى ؟! مالك ومال امى ؟! هات لى ابوى .. فين ابوى ؟!..

وترنح العمدة ببدنه الهزيل داخل الجبة على هزات « وصيفة » العصبية .

وأوشك الخفير أن يفقد رأسه ، حين رأى النساء يفاجئن العمدة بالشتائم ، وهو يرتجف داخل جبته بين يدى « وصيفة » .

وارتفع أنين العمدة كالحشرجة بعد أن غاض صوته من المفاجأة :

— اضرب ياوله .. ساكت ليه يا غفير .. ياواد اضرب ..

اضربوا يا غفر ! سايبين نسوان البلد على عمدتكم . سايبين النسوان يبهدلوا عمدتكم .. حايموتونى النسوان .. يا نهار اسود بقى أروح قتيل النسوان ؟

وتثاقل الخفراء فى نجدته ..

كانوا هم أيضاً يفكرون .. فكرهم مع الرجال الذين يبيتون منذ عدة أيام فى سجن المركز ..

كانوا يفكرون هم أيضاً فى الحقول التى حجزت عنها الحكومة ماء الرى ، وفى الأرض التى يمكن أن تأخذها الحكومة لتشق السكة الزراعية.. وكانوا يفكرون بصفة خاصة فيما افتراه العمدة على زوجة « محمد أبو سويلم » .. من الممكن أن يفترى على زوجاتهم أيضاً .. ربما كان يقول على زوجاتهم كلاما أفظع .

وكانوا كلهم يعرفون أن « العمـــدة » هو الذى أملى أسماء الرجال للمأمور ، وذهب هو بنفسه إلى المركز ليقنع المأمور بالقبض عليهم على خلاف ما قاله لأهل القرية .

وكانوا يعرفون أن « العمدة » هو الذى أخذ العريضة من « محمود بك » ، وأوهم الناس أنها للرى ، ثم وضع بها الأختام مزورا على القرية أنها تلتمس شق طريق زراعى .

صنع كل هذا وباع البلد .. إرضاء « لمحمود بك » .. وللباشا !

وكان لهم فى النهاية إخوة وأقارب وأبناء وأصهار بين الرجال الذين يبيتون فى المركز

وكانت لهم عواطف ومودات تعانى مأساة هؤلاء الذين يتلقون السياط على الظهور . ولهم فى حوض الترعة أرض ستنتزعها منهم الحكومة لشق الطريق الزراعى .

وكانوا كلهم يتحدثون إلى بعضهم عن هذا « العمدة » الذى يصنع الكوارث للقرية . والذى يبيع أهلها وأرضها للحكومة . والذى يحاول أن يخضع رقاب الناس فيها عن طريقهم . هم الخفراء .

لكم تمنى كل واحد منهم أن يرفع عصاه ذات يوم فى وجه العمدة ، ويحطم بها رأسه الخبيث الأشيب ، كما يحطم رأس الثعبان الأزرق ! .

ومع ذلك فقد ساروا إليه آخر الأمر لينقذوه من زحام النساء ومن يد « وصيفة » .

وهمس أحدهم متكاسلا وهو يقلد صوت « العمدة » :

ـــ روحوا كلكم مرفودين .. رو .. حوا .. ك .. ولكو ... مرفو .. دين ! .

وكتم الآخرون ضحكاتهم ..

وعلى حرارة ضحكاتهم المتكسرة الساخرة كانت تنفجر كل كراهيتهم « للعمدة » وللذين يحكم العمدة باسمهم ، وينفذ إرادتهم على مصائر الفلاحين .

وصرخ « العمدة » فيهم .. بصوت كالفحيح اللاهث :

ـــ انتوا ماشيين على قشر بيض ! قرب انت وهوه .. اضرب يا واد اضرب طيب .. روحوا .. كلكم مرفودين .

وانفجرت ضحكات بعض الخفراء .. بينما رفع « عبد العاطى » العصا وهوى بها على النساء .

وصرخت النساء واضطربن ، وأمسكت « وصيفة » رقبة « العمدة » بيدها ، فخبطها « عبد العاطى » بالعصا على ذراعها وظل يضربها حتى تركت رقبة « العمده » واستدارت « لعبد العاطى » وأمسكت بجلبابه من عند طوقه . . ولكن « عبد العاطى » ركلها وضربها بالعصا على رأسها وكتفها .. وصرخت « وصيفة » .. وتركته وهى تبكى من الألم .

وتذكرت أباها وهوانها بعده .

فاختلج كل بدنها بالعويل ، وشرعت تلوح قائلة فى نحيب متهدج إن أحداً لم يضربها من يوم ما كبرت .. ولا أبوها نفسه .

ولكنها اليوم تتلقى الركلات ولذع العصا من ذراع الولد الذى عينه أبوها بين الخفراء .

ومالت على الأرض ، والليل ينشر على أشعة الأصيل الحمراء ظلاله الداكنة الزرقة . فالتقطت حجرا شجت به رأس « عبد العاطى » .

وإذ رأى الخفراء دم « عبد العاطى » ، رفعوا عصيهم ومشوا بها على النساء ، وهم يتصايحون . . فابتعدت النساء .

وما زال « العمدة » يرتعش ويأمر الخفراء بأن يضربوا بآخر ما عنده من صوت .

وبدأ النساء يجمعن قطع الطوب من على الأرض ويقذفن بها الخفراء .

ورأى « العمدة » قطع الطوب تتناثر فأخفى رأسه فى ظهر « عبد العاطى » .

وكانت البهائم تعود من الحقول على ضباب المساء . . ومن وراء البهائم فتيات ونساء فى ثيابهن المتربة السوداء . . يلتقطن ما تلقى به البهائم ليصنعن منه أقراصا تصبح بعد جفافها وقودا يباع بكيزان الذرة .

كن إذ ذاك محملات الأيدى بالروث وفوق رؤوسهن مقاطف مليئة ، وهن يجرين من أمام الخفراء الذين أخذوا يضربون النساء بلا حساب .

وبدأت الفتيات يلقين بما فى أيديهن فى وجوه الخفراء

والتقطت «وصيفة» مقطفا مفعما بالروث ، وألقته بكل حنقها على رأس العمدة .

وذهل العمدة . . وتلطخ قفاه ووجهه كله وعمامته البيضاء وجبته وأخذته الرجفة وهو يمسح الروث عن عينيه . وظل يزعق :

ــ يا نهاركو أغبر ومنيل بنيلة ! آه يا غجر ! بقى يجرالى كده وانتو واقفين. ليلتكو زى وشكو . . روحوا . . روحوا كلكم مرفودين . . دنا حاخلى ليلتكو زى وشكوا . .

وجرى الخفــراء كلهم إلى العمدة . . وإذ رأوا الروث يغمر وجهه قال أحدهم ضاحكا :

ــ دا ليلتنا . . أمال بق حتبق زى وشك ياحضرة العمدة . . كلها مسك .

وانفجر الخفراء كلهم ضاحكين . .

ووقفوا حول العمدة يمسحون ما تكوم على وجهه وعمامته وما تناثر على الجبة والقفطان .

بينما بدأ النساء ينصرفن مسرعات وقد شاعت فيهن الراحة .. وعلى الوجوه ضحكات من القلب .

وتركن العمدة يهذى من الغيظ ..

ولم يعد أمام الدوار امرأة واحدة ..

ومضت « وصيفة » متثاقلة ، وهى تتحسس رأسها وكتفيها ، وتخفى ألمها فى نشوة الانتصار .

ورأت أن تتجه إلى دكانة « الشيخ يوسف »

وكان « الشيخ يوسف » إذ ذاك يقف داخل الدكان يضحك ملء فمه ، وإلى جواره « محمد أفندى » بينما وقف « علوانى » أمامه خارج الدكان .

كانوا كلهم يضحكون فى نشوة ساذجة « والشيخ يوسف » يخبط كفا على كف قائلا :

ـ تسلم إيدك يا وصيفة . صحيح بنت « محمد أبو سويلم » ، دى الحكاية ملت البلد كلها يا اخواتى .. لبس المقطف باللى فيه ؟. والله براوه .. يا سلام ياجدعان . دى عمرها ماجرت فى البلد . . حاجه حلوة صحيح ؟ . لكن يعنى ما يعملوهاش إلا النسوان .. ماكانتشى تيجى من راجل ؟ .

وقطب جبينه لحظة ، والابتسامة تفيض من فوق وجهه ثم أكمل :

ـ من النسوان ؟؟ يعنى البلد دى نسوانها طلعوا أجدع من رجالتها ؟ .

واعترض « علوانى » قائلا :

ـ واحنا يعنى فى أيدينا إيه وما عملناهش ! . .

فأنبه « الشيخ يوسف » بقوله :

ـ بس يا واد يا عرباوى . فى إيديكو ايه ؟ . طب اسمع ..

ومال « الشيخ يوسف » على أذن « علوانى » ، وأخذ يهمس فى أذنه أن يسطوا على مخازن العمدة ، ليسرق منها الذرة أو القمح بدلا من أن يتشطر ويسرق من مخازن الرجال الغائبين ..

واضطرب « علوانى » قليلا ، « والشيخ يوسف » يغريه .

وأقسم له أنه سيحسب له كوز الذرة من مخازن العمدة بكوزين وكيلة القمح بكيلتين .

والتفت « الشيخ يوسف » وراءه ليتأكد من أن «محمد أفندى» لم يسمعه .

ثم مد رقبته وأدارها خارج الدكان ليطمئن إلى أن أحدا على الإطلاق لم يسمع شيئا ..

وعاد « الشيخ يوسف » يهمس « لعلوانى » أنه سيكفيه أذى الخفراء .. خفراء السهر عند الدوار كلهم من رجال « محمد أبو سويلم » ولهم أقارب أعزاء يبيتون فى سجن المركز . . وهم يتمنون أن يقفز على دوار العمـدة من يخطف روحه لا غلاله فقط .

واقتنع « علوانى » وهز رأسه ..

ودار « الشيخ يوسف » إلى داخل الدكان ، وسحب علبة كبيرة من السجاير ذات الغزال الأسود وقدمها إلى «علوانى» قائلا :

ـــ خد علبة سجاير كبيرة أهه . . اشرب يا سيدى سجاير ماكينه واتمتع ونزه نفسك . إن شا الله ما حد حوش .

وأشرق وجه «علوانى» وضحك ..

وناوله «الشيخ يوسف» كمية من الشاى وقطعة كبيرة من السكر . فقال «علوانى» :

ـــ ناولنى كمان حتة سكر ناول .

فرمى عليه « الشيخ يوسف » قطعة أخرى صغيرة وهو يتأفف :

ـــ طب انجر بقى.. حاكم انت عرباوى خطاف . باقول لك انت شيخ غجر مش شيخ عرب .. وما يملا عينك غير التراب ؟

وضحك « علوانى » وقال بجرأة :

ـــ دهدى ياعم « الشيخ يوسف» ؟ . ماهو كله بالحساب ! والا إيه ؟ .

ثم تحرك لينصرف، غير أن «وصيفة» كانت قد وصلت الى الدكان، مع آخر امرأة تعود من معركة الدوار ..

وعندما رآها «الشيخ يوسف » استقبلها مرحبا :

ـــ عفارم عليكى يا وصيفة .. براوه عليكى يا بنتى !.

ولكنه فوجىء بنشيجها . . فلم تكد تراه حتى تقلص وجهها ، وانفجرت فى بكاء شديد كالعويل !.

وشعر « محمد افندى » بضيق يخنقه ، ويطرد السكينة التى غمرت قلبـه لبعض

كانت « وصيفة » ماتزال تعانى من أن
رجلا ضربها لأول مرة فى حياتها .

الوقت .. وفتح «علوانى» فمه وعينيه ووضع أشياءه على بنك الدكان .

وتقدمت «وصيفة» ، وأسندت يديها على البنك . وألقت رأسها بين يديها وظلت تبكى وبدنها كله يهتز ..

كانت ماتزال تعانى من أن رجلا ضربها لأول مرة فى حياتها ، وهذا الرجل هو هو أحد الخفراء الذين كانوا يحسبون لأبيها كل حساب ، حين كان شيخاً للخفراء وحتى بعد أن فصل ؟.

وعلى الرغم من أنها قذفت العمدة بمقطف ملىء بروث البهائم ، فهى تشعر أن أحداً لم يكن يجرؤ أبدا على ضربها ، لو أن أباها هنا فى القرية ؟

وهى بعد لاتفهم لماذا يقيم أبوها فى سجن المركز ..

إن كل ما تعرفه هو أن العمدة وحده أراد هذا ..

وهكذا استمرت تتشنج وتقطع دموعها لتتساقط الكلمات . ثم تحبس كلماتها لتسقط الدموع .. ولم يفهم منها أحد كلاما الا كلماتها :

ـ صعبان عليه قوى يا أبا « الشيخ يوسف » ..

وأمسك «الشيخ يوسف» برأس «وصيفة» بحنان وأبوة .. ورفع ـ بين يديه ـ جبهتها بعينيها الزاخرتين بالدموع وما زالت على خدها تسيل القطرات ..

وإذ نظرت إلى عينى «الشيخ يوسف» ورأت ما يملؤهما من حنان وإشفاق وحزن عادت تضع رأسها بين يديها وتبكى وتشهق وتملأ المكان بنحيبها الفاجع الأنين .

واغرورقت عينا « الشيخ يوسف » هو نفسه بالدموع .. واخضلت لحيته ..

ووقف «محمد افندى» حائراً .. وقد غاض لونه . وتذكر أخاه «دياب» واحتدمت فى نفسه المشاعر المضطربة .. وحاول أن يتقدم إلى «وصيفة» ليقول لها شيئا ولكنه وقف فى مكانه حائل اللون بلا حركة .. ومرة أخرى رفع «الشيخ يوسف» رأس «وصيفة» بين يديه ، وقال :

ـ بكره أبوكى يطلع يابنتى .. وأنا هنا أبوكى تمام .. أنا مش عاوز يصعب عليكى من حاجة أبداً .

فصاحت «وصيفة» وقد اندفعت فى عينيها الدموع :

ـ يضربونى يا ابا « الشيخ يوسف » ؟؟ يضربنى الواد ابن شلبية .. يضربنى

الواد عبد العاطى .. يعنى عشان ما أبوى مش هنا .

وصاح « الشيخ يوسف» مستبشعا :

ــ الواد عبد العاطى دا أبوكى خيره عليه وعلى أمه وعلى كل سلالته.. دا أبوكى اللى نزله خفير .. يانهارك اغبر ياعبدالعاطى.. يعنى عشان ما أنت داير ورا العمده .. ياسنتك سوده « ياعبد العاطى » ؟ .

ومشى إلى داخل الدكان ، فأخذ عصاه من على كتاب مفتوح عن سيرة «أبو زيد الهلالى سلامه» .

ثم انفلت الى خارج الدكان .

وقال «علوانى» :

ــ على فين يا ابا « الشيخ يوسف ؟» استنى انت وأنا أجيبلك خبره . .

ووقف « محمد افندى » يقول بمرارة :

ــ بقى ما تجيش إلا من « عبد العاطى » . .

وطلب « الشيخ يوسف » من «علوانى » أن ينصرف هو لحاله ، وأقسم ألا يضرب « عبد العاطى » أحد إلا هو بنفسه .. بيده ..

وتلكأ «علوانى» وهو ينصرف ، ولم يكد يمشى خطوة حتى التفت إلى «الشيخ يوسف » قائلا إن « عبد العاطى » مقبل ويده على رأسه .

وتقدم « عبد العاطى » يسأل « الشيخ يوسف » أن يمنحه قليلا من البن ليسد بها جراح رأسه ، وأن يبيعه روح النعناع لأن العمدة مغمى عليه فى الدوار .

ووضع «الشيخ يوسف» عصاه على بنك الدكان . ونظر طويلا إلى «عبد العاطى» وطلب منه أن يتقدم إليه .

وقالت «وصيفة» :

ــ أهو جه اللى ينشك فى قلبه عبد العاطى ..

وطلب «الشيخ يوسف» من «عبد العاطى» أن يتقدم أكثر فأكثر وعند ماوقف تماماً أمام «الشيخ يوسف» ، هوى «الشيخ يوسف» بكفه على صدغ «عبدالعاطى» . ورنت الضربة فى الفضاء .. ووضع «عبدالعاطى» يده على صدغه فوق مكان الضربة . فهوى كف «الشيخ يوسف» على الصدغ الثانى . وهو يصيح فيه :

ــ بقى تضرب بنت أبوك محمد أبوسويلم ؟ تعرف تضرب وصيفة ياقليل الخير . .

وذعر «عبدالعاطى» . وارتبك . . وحاول أن يقول شيئا ولكن «الشيخ يوسف» زجر فيه :

ــ اخرس يا ولد . . اخرس . . انت حاترد عليه ؟ ؟ . . عايز تبوق فيه والا إيه ؟ ناوى تجحش فى وشى ؟ اخرس . .

وخرس «عبد العاطى» .

ووقفت «وصيفة» تتأمله بارتياح ، وبدأ الرضا يشيع فى نفسها . .

وبعد قليل سعل «محمد افندى» . ورجا «الشيخ يوسف» أن يبيع «عبدالعاطى» روح النعناع لينقذ حياة العمدة ، فهذه مسألة إنسانية . .

فالتفت إليه «الشيخ يوسف» محنقا :

ــ اسكت انت يا محمد افندى بلاش فلسفة كدابه . . بلا كتر إنسانية . هوه العمدة كان عنده إنسانية . هوه فيه فى قلبه رحمة . . إلهى تنخطف روحه . .

وكأنما وقع «عبدالعاطى» ــ من كلام «الشيخ يوسف» ــ على حقيقة جديدة تمنحه الراحة . وكأنه وجد آخر الأمر طريقا يمضى فيه مستريح النفس بعد طول ضلال . . فلم يكد يسمع كلام «الشيخ يوسف» عن العمدة حتى قال بارتياح :

ــ آى كده . . إلهى يا شيخ . . إلهى تنخطف روحه . . ده راجل سو طول عمره . . دا والله يا أبا الشيخ يوسف بعد ما حشت عنه وانجرحت علشانه وهتيت على بنت ابوى محمد أبو سويلم . . بعد كل ده يقوم يدور فينا الضرب . ويطيح فينا بالمركوب أنا وبقية الغفرا . وآدى ياسيدى آخر شقانا مع الأندال وتعبنا . .

وفجأة رنت ضحكات «وصيفة» فى صفاء مشرق . . كأنها لم تبك أبدا . .

وتألق وجهها كله ، وفتحت صدرها . . وانثنت إلى الوراء . وسطعت فى نحرها الوضاءة .

واستغرقت فى الضحك وهى تقول :

ــ إلا يا عم «الشيخ يوسف» : لو كنت شفته ساعة ما لبسته ــ اسم الله على مقامك ــ مقطف المسكة . . .

واختلطت الضحكات ، وأسرف «محمد افندى» و«علوانى» فى الضحك . وحاول كل واحد منهما أن يقول تعليقاً تضحك منه «وصيفة» .

إلا أن «الشيخ يوسف» التفت إلى «علوانى» وأمره أن يمضى من فوره إلى الحقل الذى يحرسه على الجسر .

ثم ناول «عبدالعاطى» قليلا من البن ، ونصحه أن يغسل الجرح ويضع عليه البن ويربط رأسه بقطعة من القماش .

وانصرف «عبد العاطى» ..

فتحرك «الشيخ يوسف» طالباً من «محمدافندى» أن يحرس الدكان. وسيمضى هو بنفسه مع «وصيفة» إلى دارها.. وحين كان ينصرف أوصى «علوانى» بأن يهتم بالسر الذى بينهما . ..

وعرض «علوانى» على «الشيخ يوسف» أن يستريح ويقعد فى دكانه كما هو. وسيرافق علوانى «وصيفة» إلى دارها ولكن «الشيخ يوسف» زجره. وانصرف «بوصيفة». فابتلع « محمد افندى » كلمات كان يحاول أن يقولها .

وعلى باب دار «محمدأبوسويلم» طلب «الشيخ يوسف» من «وصيفة» أن تطمئن وأن تهدىء بال أمها فسيعود أبوها فى الغد.

وعاد إلى دكانه على الفور . فوجد بعض الفتيان يقفون على مقربة من دكانه فى الطريق يحكون كيف شرب العمده « طاسة الطربة » بعد أن أفزعه هجوم النساء .

كانوا بعض الذين تعطلوا فى القاهرة أو المدن القريبة . وعادوا منها ليعيشوا فى القرية بلا عمل ولا أمل . ولا شىء غير الذكريات .

وكان « الشيخ يوسف » قد لاحظ وهو يمر مع « وصيفة » أنهم يسعلون معرضين به وبمشيته فى الليل مع « وصيفة » . على عادة أولاد البندر حين يجدون رجلا مع فتاة . ثم سمعهم يتغامزون عليه وهو عائد .. وكان يعرف جيدا منذ كان فى القاهرة يدرس فى الأزهر ، ماذا يعنى هذا النوع من التغامز والسعال المصطنع وما يمكن أن يعنيه من كلمات .

وانقض عليهم ، فسأل واحدا منهم ابن من يكون ؟. وماذا يصنع فى القرية ؟ ثم سأل الثانى والثالث والرابع .. وأجابه الفتيان باستخفاف ..

وهوى فجأة بكفه على وجه واحد منهم وهو يزعق فيه :

— بقى يا واد يا ابن مسعود مش عارف ان خالك محبوس فى سجن المركز ! « والعمدة هو اللى حبسه ؟ .. بدل ما انتم واقفين كده عواطلية ومسبسبين شعوركو

زى النسوان ، تتمهزأوا بالرايحة والجاية ؟ . مش عارفين تشوفولكم شغلة ؟ .. جاتكوا الغم .. طب روحوا اعملوا حتى زى النسوان ما عملوا فى العمدة .

ثم انصرف على الفور وهو يغلى ، دون أن يسمع إجابة من أحد .

* * *

وفى اليوم التالى كان « الشيخ يوسف » أسعد إنسان فى القرية ..

فقد حمل إليه «علوانى» كيسين كاملين من ذرة العمدة وكيساً من القمح .. ولما رأى الكمية أمامه كبيرة حاسب «علوانى» عليها كاملة كما هى وتحلل من وعده بأن يحسب الكوز كوزين .. وكيلة القمح كيلتين .. وا كتفى بأن يعطيه حقه كاملا هذه المرة ..

أما « العمدة » فقد أحس أثناء الليل بدبيب أقدام — عند مخازنه — فوق حجرة نومه .. وحاول أن يستنجد بالخفراء فلم يصغ إليه أحد ..

وأصبح مع الفجر .. فجمع الخفراء ليقول لهم :

— إنتم كلكم موالسين مع العيال العواطلية اللى راجعين من مصر والبندر . طب والله لأرفدكم النهارده كلكم .. انتو فاكرينها بلد من غير عمده ! .

ثم ركب بغلته ، والشمس لم ترتفع بعد عن الأفق الشرقى ، وسار وراءه « عبد العاطى » .. ولم يكن من خفراء الحراسة فى الليل .. واتجه إلى الجسر من وراء الحقول خلال طريق آخر غير الطريق المعروف ..

كان « العمدة » ذاهبا إلى عاصمة الأقليم فى هذه الساعة المبكرة ، ليكون من أوائل شهود استقبال وزراء حزب الشعب ..

ولم يحاول أن يصطحب معه أحدا من القرية كما طلب المأمور .. فقد كان يعرف أن الذين بقوا من الرجال فى القرية سيرفضون .. حتى « الشيخ الشناوى » الذى لم يرفض للعمدة طلبا من قبل . ربما رفض هو الآخر .

ومن أجل ذلك فلم يشأ « العمدة » أن يرسل إليه أو يرسل إلى أحد غيره ، ليتجنب حرج إعلان العصيان .

وظل « العمدة » طول الطريق مهموماً يفكر فى القرية المتعبة .

من يدرى ماذا يمكن أن يحدث فى القرية بعد ؟ .

لقد أصبح من الممكن أن يحدث أى شىء فظيع .. ولقد بدأت الأشياء الرهيبة بالفعل .. أشياء لم تحدث من قبل أبداً .

النساء يضربنه بروث البهائم ، وفتاة تهزه من جبته وقفطانه ، وفتاة تخنقه . وفتيان يسرقون الغلة والذرة من مخازنه .

كل هذا يحدث .. يحدث دفعة واحدة بعد أن سجن الرجال .

لو أنه على الأقل يعرف من هو الذى سرق القمح والذرة من مخازنه ؟!..

وحاول أن يسأل «عبد العاطى» ، غير أنه تماسك ، فيجب أن يبدو أمام الجميع حتى «عبد العاطى» وكأنه يعرف كل شىء .

ولم يكد يصل الى المركز حتى دخل إلى المأمور . فأحسن المأمور استقباله . فقد كان واسع النفوذ بين عمد المركز ، كان أكثرهم قدرة على إرسال الهدايا ، والخدم والخادمات ، وفى ساعات الضيق كان أكثر العمد قدرة على نجدة من يستنجده من رجال المركز . .

وهمس العمدة فى أذن المأمور أنه يجب الافراج بعد الاحتفال عن رجال قريته وإلا فإن مكانه كعمدة سيضيع . .

ووعده المامور خيراً ، وهو يقوم ويقعد ويرد على التليفونات وينهر الجنود ويسأل عن عدد الذين احتشدوا فى كل شارع لاستقبال الوزراء . .

وهمس العمدة فى أذن المأمور :

— دى البلد هزلت مقامى عشان الرجالة المحبوسين . أقول لك إيه . . يعنى أحكى عالى بيجرى فى البلد . وبعدين مقامى راح ينهزل خالص . .

وأكد له المأمور أن الإفراج سيتم اليوم . . بعد انصراف الوزراء . .

ولم تكد شمس العصر تميل إلى الشاطىء الغربى عند النهر الصغير حيث كان «الشيخ حسونة» ، و«محمد افندى» ، و«الشيخ الشناوى» يصلون العصر فى المصلى القائمة عند جميزة «عبد الهادى» .

وأقبل «الشيخ يوسف» مسرعا فقال لهم إن أحد الفتيان العائدين من المركز أخبره أن الرجال قد أفرج عنهم ، وأنهم عائدون على أقدامهم ، وقد سبقهم هو بحمارته منذ ساعة .

وتهللت الوجوه . . ولكن «الشيخ الشناوى» قال بيأس :

— يطلعوا يا خى . . بعدك !. .

وسأله «الشيخ يوسف» لماذا غير عادته و ترك المسجد ليصلى العصر هنا على الجميزه

فأجاب «الشيخ حسونة» نيابة عن «الشيخ الشناوى» إن كل مكان يصلح لأن يكون مصلى هو مسجد . . وكل مصلى هى مسجد . . وقد جاءوا إلى هنا تحية « لعبد الهادى » . . الغائب . .

وسأله «الشيخ الشناوى» بدوره لماذا ترك دكانه ؟

وقبل أن يجيب «الشيخ يوسف» حمل الأفق الصامت رجع زغاريد من بعيد .

وقال « الشيخ الشناوى » مضطربا :

— دهده يا اخواتى ؟ هى البلد جرا لها إيه ؟ نسوانها مالهم كده ؟ بيزغرتوا ليه ؟ . . البر خد الاستقلال . . والا يعنى الرجاله رجعوا من سجن المركز ؟

وأسرع «الشيخ يوسف» نحو القرية وسبقه «محمد افندى» ومن ورائهما « الشيخ الشناوى» و«الشيخ حسونة» فى خطوات سريعة .

كانت القلوب تخفق ، ودقاتهـــا تقرع الصدور ، أسرع من وقع خطواتهم السريعة المتلاحقة ، والبشر يضىء الوجوه . .

وعلى أبواب القرية ، كانت الزغاريد تتعالى ، وصيحات الفرح تملأ الآفاق ، والأطفال يرقصون فى الطرقات .

كان كل شىء فى القرية يرقص ، والدفء يغمر الأفق ، والأصيل ينسكب على القريه بألوان الورد . .

وكان النساء يزغردن ويغنين بلا انقطاع . .

صحيح . . صحيح « لقد عاد الرجال » .

١٥

ظلت القرية تتهامس — محزونة — بقصص عجيبة عن المدينة منذ عاد منها الرجال ..

ويوما بعد يوم استطاع « دياب » أن ينصب طوله ، رغم أن آثار الضرب ظلت على ظهره المتورم الممزق ..

خرج « دياب » إلى حقله لأول مرة .. وفى الطريق امتدت عيناه إلى الحقول الواسعة الرحيبة من حوله ، فامتلأت نفسه بالطمأنينة .. ورأى أعواد الذرة قد شبت عن الأرض ، فابتسم ..

وما زالت الحقول الريانة الخضراء تحمل إليه أملا ..

حتى بلغ حقله ، فوجد اللوزات تتفتح عن القطن الجديد ..

وكان القطن الغض يظهر من بين اللوزة كأنما هو حياة بأسرها تشرق دفعة واحدة ..

وفاضت نفس «دياب» بالفرح ، وأوشك أن يقفز ..

وجاوز رأس الحقل ، ومر بحظيرة الماشية التى تعود أن يلقى عندها «خضرة» وأحس ببعض الوحشة ..

ولكنه اندفع إلى الحقل ، كأنه ينتزع جسده من زحف الوحشة على صدره ودخل حقل القطن ، وتحسس الأعواد الزاهية ، والقطن ينشر أمام عينيه بياضا رائقا ..

ثم انحنى على الأرض ونفسه تزخر بالحنين ، والإحساس بالمقدرة ، فأمسك قطعة من الطين الجاف . وفركها بين يديه ، وترك ترابها يتناثر من بين أصابعه ، والمشاعر المبهمة تغمر منه الجوانح إلى الحلق ! وتهتز منه الأعصاب ..

إنه ليشعر اللحظة بعديد من الأشياء .. أشياء لا يفهمها أبدا كل الذين ضربوه فى السجن .. حتى المأمور ..

كلهم لا يستطيعون فهمها ، وهو نفسه لا يعرف ماذا يعانى .

ولكنه يدرك على الأقل أنه لا يوجد من يستطيع أن ينتزعه من حقل القطن

الذى وضع فيه البذور عل مهل ، ورواه متحديا أوامر رجال الرى ، وهوى فوقه بالفأس فى الساعات الملتهبة من الحر . .

لا أحد . . لا أحد يستطيع أن يقتلعه من هذه الأرض التى يغرس فيها قدمه . .

وتذكر « دياب » فجــأة كل ما صنعوه به فى المركز : كيف أذلوه وحرموه الأيام الطوال من هذا الحقل .

وهز رأسه : وارتفعت أنفاسه . . ثم مسح بكفه المتربة دموعا تساقطت من عينيه ، واختلطت بتراب الأرض . .

* * *

أما « عبد الهادى » فلم يرقد فى بيته حتى ينصب طوله كما رقد « دياب » . . وإنما خرج من أول يوم إلى طرقات القرية ، يروى للناس ما صنعه أولاد البلد بالمأمور أثناء استقبال وزراء حزب الشعب . .

وكان « عبد الهادى » يرفع رأسه ، ويفتح صدره أكثر بما تعود ، وكانت نبرات صوته تعلو فى زهو وتتخللها الضحكات دائما .

ومع ذلك فقد كان فى كل جزء من بدنه أثر لضربة أو صفعة أو ركلة حتى لسانه وفمه . .

ولم يجرؤ أحد على سؤاله عما حدث له . .

كانت القرية كلها تعرف ما حدث للرجال : وكيف أكرهوا على شرب بول الخيل ، وكيف حلقت شواربهم ، وكيف هوت السياط على الوجوه والأبدان ؛ وكيف كانوا يؤمرون بالجلوس على خوازيق . . وكيف كان الواحد منهم يضرب ويضرب إلى أن يفقد الوعى ، ولا يبرح بعد هذا يضرب إلى أن يصيح أنه امرأة .

على أن الرجال العائدين من سجن المركز ؛ يذكرون « لعبد الهادى » بفخار أنه لم يقل إنه امرأة . . ولم يشرب أبدا من بول الخيل ، أو يجلس على خازوق . . إلا وهو فى غيبوبة . .

لقد ظل يضرب بالعصى ، ويركل ، ويلهب بالسياط حتى أغمى عليه عدة مرات ؛ وذات مرة عندما أغمى عليه أجلسوه على الخازوق وسندوه ، ورفعوه بعد قليل ورموه على الأرض ، ثم فتحوا له فمه وصبوا فيه بول الخيل . . وعندما أفاق ظل يشتم ويتهدد فتكاثروا عليه وأوثقوه بالحبال ؛ ثم حلقوا له شاربه . .

وهكذا صنعوا « بمحمد أبو سويلم » . . وأزالوا له شاربه الغليظ القديم الذى

تستخفى شعراته السود فى الشعرات البيض . .

ومع ذلك . فقد شمخ « عبد الهادى » برأســه فى القرية ؛ وكتم آلامه فى الضلوع ؛ ومضى يحكى عن استقبال وزراء « حزب الشعب » ويذكر ماحدث للأمور ؛ ويطلق الضحكات . .

وفى ليلة زيارة الوزراء ، فوجىء كل من فى سجن المركز ، بشباب كثيرين ، من المدينة يحشرون فى الحجرات المجاورة . . كان بعضهم يلبس الجلاليب ، والبعض يلبس البدل ، وكانوا يهتفون ضد حزب الشعب ؛ وتنطلق حناجرهم حارة باسم مصر والحرية ، والدستور ، والأمة مصدر السلطات ؛ والاستقلال .

وكانوا يستريحون من الهتاف أحيانا ، فيتحدثون عن الانجليز ، والملك ذى الشارب المبروم وما تصنع المصالح بالرجال . .

وفى كل ساعة من الليل كانت حجرات سجن المركز تستقبل آخرين . .

كانوا خليطا من طلاب المدرسة الثانوية ، ومدرسه المعلمين الأولية ، ومدرسة الزراعة المتوسطة فى عاصمة الأقليم ؛ وكان من بينهم بعض الطلبة الذين يدرسون فى الجامعة بالقاهره .. والذين صنعوا هناك المظاهرات طوال الشتاء ، وقد أقبلوا فى الصيف لينفقوا الأجازة مع أهلهم . .

وكان من بينهم بعض التجار ، وماسحوا الأحذية ، والباعـــة المتجولون ، والمحامون ، وعمـال مصنع حليج القطن .. والذين يمشون فى الطرقات بـلا عمل ولا ذكريات ولا أحلام . .

وعرف الرجال من خلال الأحاديث أسماء بعض التجار الذين يشترى منهم « الشيخ يوسف » حاجة القرية من البقالة .

وكانوا كلما أقبلت عليهم جماعة جديدة استقبلوها بالهتاف والضحكات . .

ومن خلال أحاديثهم فهم « عبد الهادى » كثيرا من الأسرار ، فهم أن الإنجليز هم الذين يحكمون فى مصر الآن . وأن هؤلاء الإنجليز والذين يستخدمونهم سيزولون تحت الضربات .

عرف أن كل شىء مصيره يتعدل ، مادامت مصر ترفض أن تستعبد ..

وذهل « عبد الهادى » مما سمع .. وأحس بدفء خالص جديد يدب فى أطرافه ويمنحه العنفوان ..

وعجب للهجة الصافية التى يتحدث بها هؤلاء المحبوسون ، وعجب — أكثر من

أى شىء — لإيمانهم الخارق بأنهم سيطردون حزب الشعب ، والذين وراء حزب الشعب ..

وظل ينظر إلى « محمد أبو سويلم » فوجد عينيه تلتمعان .. ورأى شحوب « دياب » قد أخذ يزول والدم الأحمر يجرى من جديد فى سمرة وجهه ..

وعاد « عبد الهادى » و« محمد أبو سويلم » و« دياب » يتصنتون . ونظراتهم إلى بعضهم تحمل دعوة المشاركة والاهتمام ..

وسمعوا المسجونين الجدد يتحدثون باستهزاء عن الرصاص والموت والحكومة فى مصر .. وأحس « عبد الهادى » أن هؤلاء الناس هم أقوى من الحكومة فى مصر .. الحكومة التى ترعش المدير والمأمور .

وقال أحد المسجونين الجدد : إن الحكومة لفرط ضعفها قد أمرت بأن يسجن كل الذين يشتبه فى عداوتهم لحزب الشعب . فأضاف زميل له أن مصر كلها عدو لحزب الشعب ، والحكومة فى مصر تأمر المديرية بأن تحبس أعداء حزب الشعب . لأنها تعرف أنهم سيسألون الوزراء أثناء زيارتهم عن الدستور الذى ضاع ، وعن الانتخابات الزائفة ، وعن حريات هذا القريب أو ذاك الصديق ، وحريات كل الوطنيين الشرفاء .. ماذا صنعت بها الحكومة ؟.

وسيسأل الناس وزراء حزب الشعب عن الأزمة وماذا صنعت لها الحكومة .. وعن الحقول التى تخرب ، والماء الذى يسلب وعن الطعام والقماش ، والمال الذى لم يعد يدخل الجيوب ، وعن المصانع التى تفصل العمال بلا حساب .. وعن الأرض التى تستولى عليها البنوك .

كانت الحكومة تعرف أن الناس سيسألون وزراءها أثناء الزيارة عن الكساد والجوع ، والأولاد الذين يطردون من المدارس والمرضى الذين لا يجدون أماكن فى المستشفيات .. وعن حق كل إنسان فى أن يعمل ، وعن حق الكلمة فى أن ترتفع وعن كل ما يوفره الدستور ، ويمنعه الأنجليز ، وحزب الشعب ..

وظل « عبد الهادى » « ومحمد أبو سويلم » و « دياب » يسمعون الأحاديث العجيبة من الحجرات المجاورة ..

وهمس « دياب » فى صوت كالأنين :

— آدى الفهم صحيح . . شوف يا خويا ، ولا هاممهم سجن . . يا نهار أزرق

يابا ، محمد يا أبو سويلم » .. أتارينا مش فاهمين أيها حاجة ..

وأبتسم «محمد أبو سويلم» و«عبد الهادى» وألقيا على «دياب» نظرة مفعمة . وسكت«دياب» ، وأخذ يصغى باهتمام وتفتح إلى الأحاديث فى الحجرات المجاورة ..

وعند الجسر دخل المأمور الحجرة التى استلقى على أرضها العارية الصلدة بدن « دياب » ملتصقاً ، بمحمد أبو سويلم و «عبدالهادى» ورجال من قريته ، ومن قرى أخرى مجاورة ، جاءوا كلهم من أجل مخالفات الرى .

وتقدم المأمور فى الحجرة يدوس بحذائه الغليظ أقدام الرجال بلا مبالاة . . ومن ورائه بعض الجنود بالبنادق التى يلمع فى أطرافها السنكى .

ووقف المأمور قليلا ، وتأفف من الرائحة . . وقام الرجال ووقفوا متلاصقين يحملقون فى وجهه ، وفى وجه الجنود من ورائه . : وإلى البنادق !

وقال المأمور أن أصحاب المعالى وزراء حزب الشعب يشرفون المدينة بالزيارة فى الساعة العاشرة تماما . . وحزب الشعب هذا هو الذى دفع الديون عن الفلاحين وجريدته هى الناطقة بلسان الشعب !

وقبل أن يستطرد المأمور ، قاطعه فلاح من قرية مجاورة للمركز قائلا ببساطة إن حزب الشعب دفع ديون «محمود بك» لاغير وحاله الآن معدن بعدما كان لايلقى اللضى . . أما الفلاحون فى قريته فحزب الشعب لايدفع لهم الديون ، وإنما يستولى على أرضهم ليشق فيها سكة زراعية يريدها «الباشا» !

وأقتحم الحديث فلاح ثان من قرية مجاورة أخرى ، فأقسم أن الحكومة حجزت أرض عمه لأنه لم يدفع المال ، بينما تركت أرض الخواجه صاحب الخمارة المشهورة فى المركز . : وتدخل رجل ثالث فضحك من كلام المأمور وقال له إن الحكومة لا تدفع ديونهم وهم لا يريدون منها دفع الديون ، وإنما يرجون المأمور أن يتوسط عند الحكومة حتى لا تسرق منهم ماء الرى .

وكان المأمور ينقل بصره بين الذين يتكلمون وأيديهم تتحسس أجسادهم الممزقة من لذع السياط .. وكظم غيظه ، وقال بهدوء إن الفلاحين الثلاثة الذين تكلموا حمير لاتفهم وسيربطهم طول النهار فى اسطبل الخيل .

قال المأمور كلامه هذا بهدوء تام وأدار نظراته قليلا على وجوه الفلاحين الذين وقفوا مترنحين من كثرة ما لاقوا ثم استمر يشرح بنفس الهدوء نظام استقبال

الوزراء ويعين مكان الفلاحين فى هذا الاستقبال فهم بعد ساعة سيخرجون تحت الحراسة ويوزعون على أرصفة الشارع فى طريق موكب الوزراء إلى قصر «الباشا» من محطة السكة الحديد إلى نهاية المدينة . . وحضرة ملاحظ البوليس عنده أوامر بأن يعطيهم إشارة بيده عندما تقترب العربات التى تحمل الوزراء من المحطة إلى قصر «الباشا» فإذا رأوا هذه الإشارة فعليهم أن يبدأوا الهتاف .

وإذ ذاك قاطعه رجل يسأل ببساطة :

ــ نقول ايه .. تحيا مصر ؟ والا يحيا العدل ؟ والا يحيا الوطن ؟ .

وفى نفس الهدوء أشار المأمور إليه وأكد له أنه هو أيضاً سيربط مع الثلاثة الآخرين فى اسطبل الخيل طول النهار ..

وعاد يكمل بهدوء فقال للفلاحين إن عليهم أن يهتفوا معاً .. وأن يقولوا « يعيش جلالة الملك المعظم .. يحيا حزب الشعب . يحيا صدقى» ..

واستمر المأمور يقول إنهم بعد هذه الهتافات الثلاثة يجب أن يكرروا هتافهم «يحيا صدقى» بنغم ..

وبدأ المأمور يلقى هتاف يحيا « صدقى » بنغم متتابع ، راقص وهو يصفق بيديه على النغم .

وهمس أحد الفلاحين فى أذن جاره إن المأمور يصنع كالطبالين تماما ..

وابتسم الرجلان وحاولا إخفاء الضحك فرآهما المأمور .. وارتفع صوته وهو ينهمر عليهما بالشتائم والصفعات ، وأمر الجنود الذين كانوا يقفون وراءه أن يضربوا الرجلين قبل ربطهما طول اليوم فى اسطبل الخيل .

وقبل أن يترك المأمور الحجرة الضيقة ذات الرائحة النتنة صاح :

ــ أنا حاتخنق من العنبر ده !! ياللابأه .. عاوز أشوف كده فهمتوا والا إيه قولوا ورايه : يعيش جلالة الملك المعظم .. يحيا حزب الشعب .. يحيا «صدقى» ياللا معايا عالواحدة : يحيا «صدقى» . . يحيا «صدقى» ..

وترددت أصوات الفلاحين متكاسلة بلا نغم :

ــ فليحيا الملك .. يعيش حزب الشعب .. يعيش «صدقى» .

فضرب المأمور الأرض بقدميه فى عصبية ، وأخذ يصلح الهتاف ، وصرخ فيهم أن يلوحوا بأيديهم وهم يهتفون ، وأن يقفزوا ويرقصوا إن استطاعوا ، لأنهم فرحون بزيارة وزراء حزب الشعب !! .

وأقسم أنه لو ضبط واحدا منهم يهتف بلا سرور ، أو متلبسا بالكسل ، فمصيبته سوداء . وليلة بلده كلها طين ! .

واستدار ليخرج ، ولكنه توقف على فكرة التمعت فى خاطره :

— لازم تهتفوا بنغم .. فاهمين يعنى إيه بنغم ؟؟ فيه طبل بلدى .. الطبل يزمر وانتو تهتفوا وراه .. وانتوا تزعقوا وراه على النغمة يا غنم . انتم زمان كنتم بتقولوا : يحيا سعد .. تمام نغمة يحيا سعد ! وفى الانتخابات بتتنيلوا تقولوا إيه : يحيا الوفد . مش كده ؟ أهى يحيا صدقى تمام على نغمة يحيا الوفد .. قولوها على نغمة يحيا الوفد تمام .. مفهوم ؟ .

وخرج مسرعا ..

وشرعت جموع الفلاحين تتدفق فى دار المركز ، وقادتهم فصائل الجنود إلى أماكنهم على جانبى الطريق ، والشمس تشرق على المدينة .

ولم تفتح الدكاكين أبوابها كالمعتاد .. وانتشر العساكر يمسكون أصحاب الدكاكين الصغيرة من أقفيتهم ، ويجرونهم فى الشوارع ، ويأمرونهم بأن يفتحوا الدكاكين . وكان العساكر يحطمون الأبواب أحيانا ، ويفتحون الدكاكين بأنفسهم ويضعون عليها أعلاما صغيرة للزينة .

وعلى كثير من الدكاكين كانت الأعلام ترفرف ، والأبواب مفتوحة ، ولا أحد على الإطلاق فى الدكان ..

ومع ذلك فقد ظلت الشوارع نفسها خالية كأنما هجر المدينة أهلها .. وساعة بعد ساعة ازدحمت أرصفة الشوارع بالناس ، ومازالت الشوارع خاوية ، والشمس تحمر لحظة بعد لحظة ..

وتعرف « عبد الهادى » و « محمد ابو سويلم » و « دياب » على بعض الوجوه من بين الذين يزاحمونهم ، وجوه جنود ضربوهم بالأمس أو أول أمس . ولكنهم الآن يقفون فى الطريق « بالجلاليب » .

ولمح « عبد الهادى » وجه « شعبان » الذى غاب عن القرية منذ زمن . ولمح أحد رجال الناحية الشرقية عن بعد وجه صديق قديم من قرية مجاورة ، كان قد حكم عليه بالسجن منذ ثلاثة أعوام فى قضية تسمم ماشية العمدة .. ولكنه لم يكن يلبس ثياب السجن .

وفى الحق أن جوانب الطريق من محطة السكة الحديد إلى خارج المدينة كانت تزدحم بالمساجين والجنود .. وكلهم بالجلاليب ..

وفى الطرقات البعيدة كانت موسيقى البوليس ، وموسيقى الأحداث ، والطبول البلدية ، تمضى بلا انقطاع تجمع وراءها بعض الصبية ، فيلتقطهم ملاحظ البوليس ويأمرهم بالدخول فى الصفوف على جانبى الطريق الممتد من محطة السكة الحديد إلى خارج المدينة .

وامتدت اللافتات الكثيرة بعرض الشارع تحمل أبياتا من الشعر تحية لأبطال حزب الشعب . .

ورشقت أسطح البيوت بنساء كثيرات ، ولوح المأمور من على حصانه الأبيض :

— زغرتى يا مره منك لها ! ..

وانطلقت من هنا وهناك الزغاريد .

وحين كان المأمور يمر بين الصفوف على حصانه الأبيض ، صادف باعة الجرائد ينطلقون من المحطة وينادون على الصحف المعارضة .. فاستوقفهم وأمر رجاله بالاستيلاء على الصحف ، ووضع البائعين وسط الصفوف بالقوة .. ليكونوا هم أيضاً فى استقبال وزراء حزب الشعب !..

وأخذ المدير يروح ويجئ فى عربته ومعه وكيل المديرية ، وفى عربة أخرى كان الحكمدار يراقب الاستعدادات والابتهاج بالزيارة ، ويشرف على وضع المخبرين أمام الصفوف هنا وهناك ليبدأوا بالهتاف :

وأصدر المأمور تعليماته إلى فرق الموسيقى والطبل البلدى بالوقوف فى أماكن متباعدة على طول الطريق ، وانطلقت الموسيقى تعزف والطبول تدق فيهتف رجل من الذين وضعهم الضباط أمام الصف ، ويردد الآخرون الهتاف .

وصاح المأمور وهو يراقب ترديد الهتاف :

— علوا أصواتكم شوية .. بحماس شوية كده . . هزوا ايديكو . . اترقصوا علامة الابتهاج يا غنم .. اترقصوا واهتفوا عالواحدة !.

والشمس ترتفع ، وترسل أشعتها حامية . . والمأمور يروح ويجىء ويأمر فى لهوجة ! .

وطلب المأمور من بعض الضباط أن يذهبوا إلى كل المقاهى المفتوحة فيسوقوا من عليها الناس إلى الاحتفال .

ثم انطلق المأمور إلى المحطة بحصانه الأبيض . فألقى نظرة على الأعيان والعمد وركض بحصانه على طول الطريق ، وهو ينظر على الجانبين . وهمس لنفسه :

ـــ مفيش أحسن من كده .. استقبال شعبي مفتخر ! مافيش مأمور عمل كده الواحد على الأقل يطلع من الاحتفال ده مساعد حكمدار .

ووصل المأمور إلى نهاية الطريق عند آخر المدينة ، ثم لوى عنان جواده ، وانطلق يجرى به إلى المحطة قائلا :

ـــ خلاص القطر قرب يوصل .. استعدوا تمام . . تعلوا أصواتكم وتهزوا ايديكم وتهتفوا عالنغم وترقصوا من كتر الفرح .

ثم نظر إلى أعلى ، على أسطح بعض البيوت وهو ما يزال يقول فى لهجة آمرة :

ـــ والزغاريت .. عاوزها ملعلعة .

* * *

وبعد قليل هبط وزراء حزب الشعب إلى المحطة ، حيث كانت تستقبلهم العربات ومن حولها الأعيان والعمد ، وعدد من الجنود .

وتحركت العربات بالوزراء تشق الطريق الرئيسى من المحطة إلى قصر الباشا ، فى ضيعته القريبة من المدينة .

ومضت العربات بضعة امتار وسط هتافات . . يعيش جلالة الملك المعظم . . يحيا حزب الشعب . . يحيا صدقى . . يحيا صدقى .

كانت العربات تمضى على مهل ، وفى اعتزاز ، وعلى جانبى الطريق ترفرف الأعلام فوق لافتات كبيرة كتب عليها بيت من الشعر الركيك . . فيه ترحيب ومدح .

وتعالت الزغاريد من فوق أسطح البيوت ، والمأمور بكل كبريائه ورضاه عن نفسه ـــ فوق حصانه الأبيض إلى جوار العربات وهو يلوح بيده للنساء ، وللذين يهتفون .

وقطع الموكب نصف الطريق . بين أرصفة زاخرة . وهنا وهناك رجل يهتف يحيا صدقى .. والآخرون يرددون الهتاف .. على وقع الطبل البلدى وموسيقى الأحداث ..

وفجأة على نفس النغم . . استرد الواقفون كلمات النغم . . أصل كلمات النغم . كلماتهم التى تضطرم فى الصدور ..

وانفجرت من كل مكان هتافات مجتمعة ..

تحيا مصر .. تحيا مصر ..

واصطخبت المدينة كلها بالهتاف الممنوع . وارتفعت الأيدى ، وسرت فى الجموع حدة خارقة وغليان .

وتدفقت من الحوارى والشوارع الخلفية مواكب عديدة متموجة تزحم الطريق الكبير الذى تمر به العربات . وأخذ الناس يتواثبون . وهم يرقصون على الهتاف

تحيا مصر .. يحيا الوفد ..

وازداد الناس التصاقا ببعضهم . فزادهم الالتصاق إحساسا بالقوة . وغمرهم شعور بالكبرياء والامتياز والظفر .

وأسرعت العربات بالوزراء فى نفس الطريق الذى كانت تقطعه على مهل وباعتزاز . . وما زالت الأعلام تخفق فوق اللافتات المزدحمة بعبارات الترحيب .

واضطرب المأمور . وروع على ظهر حصانه أكثر مما روع وزراء حزب الشعب داخل العربات .

ولكز المأمور حصانه فوثب . واقتحم الجموع . وتعالت الصرخات . ومازال الهتاف الممنوع يرج المدينة .. وأمر المأمور الجنود أن يضربوا الناس فارتفعت صرخات النساء من فوق أسطح الدور . وهن يلوحن بأيديهن فى وجه الزائرين .. احيه عليه .. احيه عليـــه .. وكأنهن يستقبلن جنازة شاب مات غريباً ! ..

وذعر الحكمدار . فنزل من عربته مضطرباً يصيح فى الضباط الصغار أن يقبضوا على الناس .. ونزل المدير من عربته مرتبكا وأمر بإطلاق الرصاص على المتظاهرين .. وبالقبض على كل أهل المدينة ..

بينما وقف المأمور يلطم خديه وهو يميل بجزع قائلا بنغم جنائزى . على وقع صرخات النساء . كالنادبات تماماً ..

— مارحنا فى داهية كلنا . . أحيه علينا كلنا . . أحيه علينا . . أحيه علينا !

* * *

مازال «عبد الهادى» يروى هذه القصة كل يوم لأهل القرية ، وهو يتحسس مكان شاربه الحليق ، ثم يرفع رأسه ويقول :

— آدى احنا طيرنا لهم المأمور والحكمدار كان . .

وقد ظل «عبد الهادى» يذكر « محمد أبو سويلم » بقصة الاستقبال والابتهاج ، وبحالة المأمور عندما أطبقت عليه هتافات الرجال من على الأرض وصرخات النساء من الجو ، فوقف يلطم كالنسوان .

وكان «عبدالهادى» يطلق ضحكات صافية راضية .. وهو يتحدث فى هذا كله ، ثم تلتمع عيناه ، وهو يحكى ما سمعه من حجرة الطلبة والتجار الذين ألقوا فى المركز ليلة الاستعداد بالاحتفال . .

مازال «عبدالهادى» يبدى إعجابه بسخريتهم من الذين وضعوهم فى السجن ، ويؤكد لأصدقائه فى القرية ، أن هذا الصنف من الناس لابد أن يكون قد تعلم أسرار الحياة من مظاهرات الشوارع فى المدينة . .

غير أن «محمد أبو سويلم» كان يسمع كل هذا ويتأمل الضحكات والزهو ، وفى الاعماق من نفسه شعور مخيف بالهزيمة والضياع .

وعندما حاولت امرأته أن تهون عليه ، واقتربت منه ذات ليلة لتدلك أورام بدنه المحتقن من كثرة الضرب ، نحاها بضيق ، وهو يهمس باذعان بكلمات من موال حزين :

روح يازمان روح وخللينا بغلابتنا
احنا السبوعة وجت الأيام غلبتنا .

ثم أخذ يردد فى حسرة أبياتا قالها «أبو زيد الهلالى» عندما هزمه «دياب بن غانم» ، فاحنت امرأته رأسها ، وتصعبت ، وزفرت .

* * *

وطالما نادى «محمد أبو سويلم» ابنته «وصيفة» فى الليل قبل أن ينام ، وتأملها وهو يغالب الدموع ليعاود سؤالها فى تأثر :

— بقى الواد عبد العاطى من دون الغفر هو اللى ضربك ؟ ياسلام ؟! عبد العاطى

وكثيراً ماتحسس «محمد أبو سويلم» شاربه الحليق فى خجل تخالطه الزراية ، كأنما هو عريان لايقوى على استرداد ملابسه من يد قوية !

وكثيرا ما لعبت أمام عينيه — كالعفاريت — صور العساكر الذين أوثقوه بالحبال ، ليحلقوا له شاربه ، والمأمور يدخل عليه ليذله أمام رجال القرية والقرى المجاورة ، ويطلب منه أن يقول إنه امرأة !

لقد ظل ينظر الى المأمور إذ ذاك والشرر يتطاير من عينيه ، ودون أن يقول كلمة ، جمع كل لعابه وحنقه وكبريائه المهدرة ، وقذف بها بصقة كبيرة على وجه المأمور . .

إنه لايذكر ماحدث له بعد ذلك ، فقد تشابكت أمام عينيه السياط والعصى والأحذية كلها تهوى فوق بدنه . . وأحس وهو ملقى على ظهره بحذاء المأمور يخبط رأسه ووجهه . . ثم غاب عن الدنيا .

وعندما كان هو غائبا عن الدنيا تماما فى سجن المركز كان الولد «عبد العاطى» يضرب ابنته «وصيفة» أمام دوار العمدة..

وعلى الرغم من أن «عبدالعاطى» ذهب إلى «محمدأبوسويلم» فقبل يده ، ورأسه ، وبكى فى ندم ، وطلب منه أن يضربه بالمركوب أو البلغة تأديبا له على ماصنعه مع « وصيفة » وعلى أن « وصيفة » نفسها نسيت ما كان من «عبد العاطى» وقدرت عذره .. وعلى الرغم من أهل القرية حدثوه بإكبار عما لقى العمده من «وصيفة» . . فإن «محمد ابو سويلم» ظل مطأطىء الرأس ، كسير الصوت مهزوما أمام نفسه يذكر بالحسرة أن ابنته «وصيفة» كانت تضرب عند دوار العمدة وهو غائب فى السجن تحت أحذية الجنود .

لم يستطع أحد على الإطلاق أن يخفف عن « محمد أبو سويلم » وأصبحت كلمات التشجيع تزيده شعوراً بالمرارة ، والهزيمة .

لقد ضربوه فى السجن كما لم يتخيل أبداً .. ولو أنه كان حصانا عند الحكومة لكانوا أكثر إشفاقا عليه .

إن المأمور الذى أمر بضربهم وبتعذيبهم لا يستطيع أن يقف فى شارع المدينة ويصنع مثل هذا بحيوان .. بكلب أو بقط .. سيخجل من الأطفال والنساء ، ويخاف من رؤسائه ، ومن امتعاض الأصدقاء .

وربما طالبت بحبسه الجمعيات العديدة التى تدعو إلى الرفق بالحيوان . ولم يستطع على أية حال أن ينظر فى وجه أولاده الصغار أو زوجته بعد أن يعذب حيوانا ما على هذا النحو .

ومع ذلك فهذا الرجل نفسه ـ من يدرى ؟ ـ . . ربما كان يروى بفخار لامرأته أمام الصغار كل ما صنعه بالرجال .

وربما مارست زوجته ـ وهى تسمع ـ إحساساً متفوقا بالامتياز والكبرياء !.

وهكذا ظل «محمد أبو سويلم» ـ خلال الوجيعة ـ يعجب لهذا الصنف من الرجال ، ويتساءل لماذا قدر عليهم وحدهم فى القرية أن يعانوا مثل هذا العذاب ! ومع ذلك فلو أنهم تمكنوا من المأمور لما صنعوا به كما صنع بهم .. لو أنهم قبضوا عليه لعاملوه كما يعامل هو كلبه على الأقل بحنان ..

ولم يرق هذا الحال « للشيخ حسونة » ولم يخف ضيقه «بمحمد أبو سويلم » .

إن «محمد أبو سويلم» لم يلق أكثر مما لقى «عبد الهادى» أو «دياب». أو الآخرون . ومع ذلك « فعبد الهادى » يملأ القرية من أول يوم بحكاية استقبال وزراء حزب الشعب ، ويقلد المأمور حين فاجأته الهتافات العدائية .. ويقلد «دياب» حين كان يقفز من الفرح ويشترك فى الهتاف بظهره المنحنى من كثرة ما ضرب .

« ودياب » نفسه يسمع هذا ويضحك ، وهو يخرج إلى الحقل ويعود كما كان. والرجال الآخرون عادوا كلهم يعملون كما مضت بهم الحياة دائما .

فلماذا لا يتصرف « محمد أبو سويلم » كما تصرفوا ؟ . .

لماذا يحمل هم الدنيا فوق دماغه ؟ ..

إنه لم يعد يخرج إلى المسجد . . ولم يعد ينبسط لكلام « الشيخ الشناوى » ولم يعد يستطيع أن يرفع رأسه ليكلم أحدا .. حتى صديقه «الشيخ حسونة » .

وهو يخرج إلى حقله فى الفجر . ويقعد بطول النهار . ويترك « وصيفة » تحمل إليه غداءه هناك ، ويعود مع أول الليل . ليعتكف فى داره حتى الفجر . وهكذا يتجنب ـ على قدر ما يستطيع ـ أن يراه أحد أو أن يرى أحدا . .

كان « الشيخ حسونة » يفكر فى هذا بعد صلاة العصر فى المسجد . وحين خرج قال له «محمد افندى » ..

ـــ تعال نشق عالقطن يا خال .. تحب حضرتك تشق عالقطن فى حوض الترعة ؟

فقال « الشيخ حسونة » ..

ـــ ياللا . ياللا نشق على « محمد أبو سويلم » كمان .

وسار «الشيخ حسونة» من القرية إلى حوض الترعة فى طريق ضيق تترامى على جانبيه الحقول .

وعلى جانبي الطريق . بدت أعواد القطن خضراء مغبرة . تترنح فى هزال تحت البياض . وترتفع إلى جوارها فى حقول أخرى أعواد الذرة . أو يمتد حقل صغير من البطيخ يحوطه لبلاب ذو أشواك . تقوم ستانه وحدها بدور الحراسة .

٭ ٭ ٭

كان الصمت يخيم على الحقول ، وأشعة العصر الصفراء . تعطى لكل شيء لونا شاحباً ، وتجعل الظلال فى الفضاء طويلة كالأشباح ! .

وقال « محمد افندى » ليقطع صمت خاله :

ــ شايف يا خال ؟ . حضرتك شايف القطن عامل ازاى ؟ الدودة ماخلتش السنة دى . لكن قطننا باسم الله ما شاء الله صاح وعال . أهه قدامنا أهه يشرح القلب .. إن شاء الله يرمى كويس أحسن من قطن البلد كلها . إن شاء الله يرمى زى قطن العزب والوسايا .

فالتفت إليه « الشيخ حسونة » ليقول بفتور :

ــ يرمى ؟ ! يرمى والا ما يرمى ؟ . وإيه الفايدة ما دام بالتراب ؟ . ما فيش فايدة .. سعد باشا قال مافيش فايدة .. شوف .. سيبك من الكلام ده كله .. هوه القطن راح ينصلح حاله .

وسكت قليلا قبل أن يكمل :

ــ شوف . . اطرد الانجليز ، واطرد حزب الشعب كمان ورجع الدستور والقطن يبقى عال . . والا انت لسه مش فاهم يا « محمد » ، الناس بيقولوا لك يا « محمد افندى » . خليك متنور وافندى صحيح : اقرا الجرائد يا أخى . . سعد باشا قال ما فيش فايدة طول ما الانجليز هنا .

وكانا قد بلغا حقل القطن . وانقبض « محمد افندى » وهو يسمع تقريع خاله وخشى أن يستمر فى تأنيبه . حتى يصلا إلى حقل « محمد أبو سويلم » ، وكان « محمد افندى » طوال الطريق يسير متخلفاً عن خاله خطوة . تأدباً منه وخشية : واستبق « محمد افندى » خاله . وتقدم إلى حقل القطن . محاولا أن يغير الحديث .

ـــ طب اتفضل حضرتك .. اتفضل هنا فوق الزريبة .. هوا حلو خالص .. داحنا صلحنا صطحها وخليناه مصيف صحيح .

وأبدى « الشيخ حسونة » رضاه عن اهتمام « محمد أفندى » وأخيه « دياب » باصلاح سطح حظيرة البهائم ليكون مكانا صالحا للجلوس فى الصيف .

ولكنه لم يتقدم . .

وسمع « دياب » صوتهما ، فرحب بهما من داخل حظيرة البهائم ، وخرج يستقبلهما مسرعا ، وسلم على « الشيخ حسونه » وقبل يده وهو يقول :

ـــ الغيط نور . . الغيطان كلها نورت ياخال ؟ .

وابتسم « الشيخ حسونة » ، وتابع سيره على الطريق الضيق إلى حقل « محمد أبو سويلم » ، ومن ورائه « محمد أفندى » و « دياب » .

وقال « دياب » وهو يقترب من خاله :

ـــ شايف القطن ياخال . . احنا زارعين الحته كلها قطن غيطنا والغيط اللى احنا راكبينه من « الشيخ يوسف » . والله لو كان الغيط ده لسه مع صاحبه « الشيخ يوسف » كان طلع قطنه خايب ، ودهبان .

وأسرع « محمد أفندى » وهو ينظر إلى أخيه محنقا ، يحاول أن يغير الحديث قبل أن يرد خاله ، فقال :

ـــ إلا ياخال ؟ ؟

وسكت « دياب » ، والتفت خاله إليه وهو مازال يسير ، وتنحنح « محمد أفندى » قليلا ثم استمر يقول فى تحرج :

ـــ إلا « محمد أبو سويلم » دا بقى حايفوق امتى ويرجع زى ما كان ؟؟ دا مذلول قوى ومهزوم قوى وحالته بقت حال . . ياولداه .. حتى « وصيفة » بنته دهبت هيه كمان وخست خالص ..

فقال « الشيخ حسونة » باستنكار :

ـــ عجيبة . . وأنت شأنك ايه ياأخينا ؟؟ مالك أنت ومال بنته إن كانت دهبانة ولا خاسة ؟ هو أنت بتوزنها ؟ ؟ أما برود ! ! .

وبهت « محمد أفندى » ولم يجب .. بينما حملق « دياب » وفتح فمه فى دهشة كبيرة .

وسار « محمد أفندى » وراء خاله يهز المنشة وقد أحنى رأسه ، ومن ورائه سار « دياب » . .

وعلى كوم سباخ مرتفع كان «محمد أبو سويلم» يستلقى تحت ظل شجرة التوت ورأى «الشيخ حسونة» مقبلا ، فقام متثاقلا يرحب به ، وأسرع «الشيخ حسونة» فصعد كوم التراب ..

وحط نفسه إلى جوار «محمد أبو سويلم» . وحاول «محمد أبو سويلم» أن يقوم ليجيء بغبيط يفرشه على التراب ولكن «الشيخ حسونة» قال متبسطاً :

— ياسيدى . التراب ماله . . نحن منه وإليه . . وخلقناكم من تراب ! .

وضحك «محمدأفندى» وهو يجلس إلى جوار خاله .. وعلى مقربة منهما ، عند منحدر كوم السباخ ، جلس «دياب» بعيداً عن الظل فى أشعة العصر الفاترة . .

ونهض «محمد أبو سويلم» أخيراً ، رغم الإلحاح عليه ألا يقوم ؛ فقطع بطيخة كبيرة من حقل البطيخ الذى يستلقى تحت الكوم أمام أعواد القطن ؛ وضرب «محمد أبو سويلم» البطيخة بيده ، وفحص عنقها ؛ ثم رماها بثقة أمام «الشيخ حسونة» . .

وأخرج «محمد أفندى» المدية من جيبه وفتحها بعناية ، وشق البطيخة ؛ ثم تركها مفتوحة — فى الشمس — ليبرد قلبها الأحمر .. وبعدلحظات بدأ يقطعها وأعطى لخاله وللآخرين .

وفجأة قال «الشيخ حسونة» لصديقه القديم «محمد أبوسويلم» :

— قل لى يا محمد يااخويه . . أنت مغموم قوى كده ليه ؛ وشايل الدنيا على راسك ؟ ! دا أنت حقك تفرح قوى وتنبسط قوى ..مش المأمور انتقل الواحات والحكمدار راح أسوان ؟! ياراجل دا أنت وبقية الرجاله عملتوا عملة عمرها ماجرت دا أنتم هديتوا المركز . . قلبتم المديرية .. وان شاء الله برضه تقلبوا الحكومة . . بقى رجالة البلاد التانية اللى كانوا معاك عاملين زيك كده ؟ ؟ ولا رجالة بلدنا ما كلهم ياأخى مبسوطين . . حد يعمل زيك كده ؟ وإيه يعنى لما اتحبست؟ ! حبس إيه يعنى ؟ ! يعنى إيه الحبس يعنى ؟ ! وإيه يعنى لما العساكر مدوا إيديهم عليكم .. لا هى رجولة من العساكر ، ولا ضعف منكم .. يا راجل .. دا سعد انحبس . واتنفى كمان . . وكل المجاهدين بينضربوا . . يا راجل فكر فى اللى عملتوه . . حد كان يتصور إن الوزراء يحصل لهم كده . .

وتألقت عينا «محمد أبو سويلم» ، وتذكر منظر الوزراء داخل العربات

والهتافات تطاردهم ، وتذكر حالة المأمور ولهوجته ،وترنحه وهو يلطم ، على وقع صراخ النساء ، ويزعق كامرأة تندب ، والحكمدار يشتمه فى جزع ، والمدير يهرول إلى الحكمدار ليشتمه هو والمأمور بينما الرجال على جانبى الطريق يموجون ويرقصون صائحين فى نغم قاصف : « يحيا مصر .. يحيا الوفد » .

لكأن « محمد أبوسويلم » يذكر هذه الأشياء لأول مرة ! لقد كان هو إذ ذاك يهتف مع الناس ، والحرارة تدب فى عروقه ..

وعلى هذه الذكريات . شاعت فى وجهه المصفر أول ابتسامة منذ عاد من المركزوقال برضا إنهم حقا عملوا مالم يعمل من قبل، وأنهم هزموا المأمور والحكمدار نفسه . وأنهم يستطيعون أيضا أن يهزموا العمدة ..

فتحمس « دياب » وكان ينهش قطعة من البطيخ أعطاها له « محمد افندى » ووقف فى مكانه ورمى بعيدا قشر البطيخة ذى اللحاء الأبيض بعد أن أتى على الجزء الأحمر منه . وقال :

ـــ عمدة ؟ .. عمدة ايه « يابا محمد » ؟! سلامات ياعمدة !! بقى بعد اللى عملناه فى الحكومة جاى تقول لى عمده ؟؟ وأيمان النبى لولا الملامه لرميناه فى البحر .. دااحنا نودر الحكومة اللى فى مصر .. مش تقولى العمدة ؟؟

وضحك « محمد أبو سويلم » قائلا :

ـــ يه يا واد يا واد ..

ووضع « الشيخ حسونه » أمامه قطعة البطيخ ، ومسح يديه وهو يقول فى أناة إن كل ماحدث كان تجربة يمكن أن تعلم الجميع أشياء .. و«محمدأبو سويلم » لايجب أن يهتم بشىء فهو رجل عاش فى الطين والثلج أياما طويلة عندما كان يحارب فى الشام لسبب لا يعرفه ، وترك هناك أصدقاء . ماتوا قبل الأوان دون أن يعرفوا لماذا يموتون .. وبعد هذا كله عاد من الحرب يحاول أن يبنى له مستقبلا فى القرية مع زوجته وبنته الباقية من أولاده الثلاثة . ولم يمت لأنه عاد فوجد ولدين من أولاده قد ارعشتهما الحمى أياما قليلة ونزفا مع البول دماء وصديدا ثم .. ماتا .. واحداً بعد الآخر ..

ولم يمت فى الأيام الطويلة التى عاشها يزحف على بطنه فى الثلج والوحل تحت الغازات السامة . وبين الرصاص ..

ولكنه منذ عاد الى القرية بنى بالفعل حياته الجديدة وخلف بنتا جديدة هى « وصيفة » . وجعل من الوحل والموت نفسه تجربة يفيد منها . .

ورجل كهذا لا يمكن أن يضيق بشىء مهما يكن . . فالحرب والمصائب فى الشام علمته كيف يكره ويقاوم الذين أرسلوه إلى هذه الحرب ، ولقد أحسن مقاومتهم فى ثورة سنة ١٩١٩

والتعذيب فى السجن علمه كيف يبصق فى وجه المأمور . .

وعلمه كل هذا كيف يهتف بحياة مصر فى وجه وزراء حزب الشعب . .

وسخنت دماء « محمد أبو سويلم » وهو يسمع هذا الكلام ؛ وامتلأ بالزهو والشعور بالمقـــدرة . . وأحس أن « الشيخ حسونة » يوقظ فى نفسه أشياء كانت توشك أن تموت، وشعر بأن ذكريات ماصنع فى الأيام الماضية تدفعه إلى السيطرة على أيامه المقبلة ، واستمر « الشيخ حسونة » يقول :

ــ يعنى هما راحين يحرمونا من الهوا ؟! ياعم ! حايحرمونا يعنى من اكسيجين الهوا ! خليها على الله !! .

وسكت « الشيخ حسونة » قليلا ونظراته تمتد إلى الحقول الشاسعة الخضراء . . وسرت الرياح الفاترة بوشوشتها بين أعواد الذرة ، وحمرة الأصيل تسكب ألوانها الشاحبة .

وأطرقت كل الرؤوس . . والنفوس تفيض بعديد من المشاعر المختلطة .

وفجأة قال « الشيخ حسونة » :

ــ شايفين الدره ده دهبان ازاى؟ أهم الانجليز بيرموا الدره للخنازير فى بلادهم والفلاحين مش لاقيين الدره هنا . . وفى الأمريكتين . .

وانتصب « دياب » مسروعا :

ــ للخنازير ! . . الحلاليف هناك بياكلوا الدره ! . . على كده بقى البنى آدمين بيكلوا قمح . . فى قمح ! . .

ونظر « الشيخ حسونة » إلى « محمد افندى » ليقول قبل أن يستطرد :

ــ يعنى لو انت بتقرا جرايد كان على الأقل « دياب » أخـــوك يعرف الحاجات دى .

ثم استطرد يكمل حديثه الأول :

وفى الأمريكتين ، بيحرقوا القطن وبيرموا البن فى البحر بالقناطير . . وبيتلفوا قمح يكفى للقطر المصرى كله . .

فقاطعه « دياب » :

ـــ دا على كده لو ماحرقوش القمح كنا ناكل عيش قمح فى قمح بدل العيش الدكر اللى هارى كبدنا ده ! ! يانهار أزرق ! وكان بيحرقوا القطن . .إلهى ينحرقوا والبن راخر بيرموه البحر ليه ؟ ! طب يبعتوا لنا قنطارين بن . . خللى الشيخ يوسف يصبح له حبتين . . خللينا نشرب القهوة من غير مناكفة . .

وضحك « محمد أبوسويلم » . . وأخذ ينظر إلى « الشيخ حسونة » بإعجاب ، ولم يجرؤ « محمد أفندى » على التفكير فيما يقول خاله ، ولم يستطع أن يسأله لماذا يحرقون القمح والقطن فى الدنيا الجديدة ، بينما لا يجد الناس فى مصر قروشا يشترون بها الملابس والفلاحون تتمزق أمعاؤهم من خبز الذرة الجاف . .

لم يستطع « محمد افندى » أن يوجه كلاما إلى خاله خوفا من هجوم خاله الذى لا يرحم ولكن « محمد أبوسويلم » تساءل لماذا يحرقون القطن . . لماذا لا يبيعون القمح للبلاد التى تأكل الذرة ؟ ! .

وهز « الشيخ حسونة » رأسه ، وفكر قليلا قبل أن يقول :

ـــ لو عملوا كده ما يكسبوش زى ماهم عاوزين . . فيه واحد كتب مقالة فى جريدة صغيرة وكان بيقول فى المقالة إن لو العالم ما طمعشى فى بعضه . . وكل واحد اشتغل والدول تبادلت مع بعضها . ده يدى قمح وياخد قطن . وده يبيع قماش ويشترى درة . ما كانش حد جاع ولا يبقى فيه أزمة ولا انجليز . . وكاتب المقالة ده بقى نزل نزلة جامدة على الانجليز وصدقى وبرادع الانجليز . قامت الحكومة قافلة الجريدة وحابساه بتهمة العيب فى الذات الملكية . ومحاولة اغتيال صدقى وقلب نظام الحكم كمان ! شفت بقى ؟ ! .

وتنهد « الشيخ حسونة » وهو يسترجع ما قرأه . . ولكنه فى الحق لم يكن قد فهم كل ما فى المقال الذى يشير إليه . .

وسكت . . وخيم على الجميع الصمت . وهم شاردون فى معنى نظام الحكم وفى أشياء كثيرة أثارها كلام « الشيخ حسونة » .

ومالت الشمس نحو المغيب . وبدأ « الشيخ حسونة » يتحرك . والإحساس بالراحة

يغمره منذ رأى صديقه «محمد أبو سويلم» يضحك . ويتحدث ببساطة. ويسال عما فى الدنيا . . والدنيا الجديدة . .

وأقبل غلام من القرية يجرى ، فسلم على « الشيخ حسونة» وقبل يده قائلا إن « الشيخ يوسف » يريد منه أن يعود إلى القريه فى الحال .

فقال « محمد أبو سويلم » بقلق وانفعال :

ـــ دهدى ؟ خبر ايه كمان ؟ . . .

وأجابه الغلام بذعر :

ـــ أنا ما أعرفش أيها حاجه . . لكن « يابا محمد » الحكومة جت فى دوار العمدة . . وجيباتوا الليله ويقوموا من فجر الله القوى علشان يدقوا الحديد بتاع الزراعية الجديدة ! .

كان واضحا أن « الشيخ يوسف » قد انزعج ، فأرسل غلاما يستدعى « محمد أبو سويلم » و « والشيخ حسونة » ، منذ عرف أن رجال المساحة قد أقبلوا إلى دوار العمدة ، لتحديد مساحة الأرض التى ستنزع ملكيتها من زمام القرية لشق السكة الزراعية .

وصاح «محمد أبوسويلم »:

ـــ يا نهار أغبر يا أولاد ؟. تانى ؟ . أيوه يا سيدى ، ماهم ماشيين فى الزراعية رى المحرات فى الأرض الطرية . . أيوه ياسيدى . . . الزراعية مشيت خلاص وحصلت بلدنا . . الدور على بلدنا . . كلها يومين ويبططوا الأرض . .

وغاض لون « الشيخ حسونة » وجف حلقه وقال إن القرية قدجربت كل شىء على أية حال . . ويجب أن تفيدها التجربة . .

ونهض الجميع ، وفى صدورهم تتزايل أشياء . .

كان نبضهم يخفق بشدة وهم يقولون بأصوات رهيبة مختلطة : إن الأمور دخلت فى الجد ؟ . .

(١٦)

حاول « محمد أفندى » أن يقول شيئاً ، ولكن « الشيخ حسونة » قال باقتضاب وصرامة :

ـــ امشوا بنا . .

وانفلت من على الكوم ، ومضى مسرعا فى الطريق إلى القرية ، ومن ورائه « محمد أفندى » و « دياب » .

ولحق بهم « محمد أبو سويلم » يسحب جاموسته ، وصدره يعلو ويهبط . .

كانت الأشعة الباهتة الهزيلة تختنق فى ظلال المساء ، والنهار يموت بين أيديهم . .

وتأخر « دياب » قليلا ينتظر « محمد أبو سويلم » ، ثم زعق فجأة :

ـــ يدقوا حديد الزراعية ؟ بقى جايين يدقوا حديد الزراعية ؟ ! هيه الحكاية خلاص ؟ . . ياخدوا منا الأرض علشان يعملوا زراعية للباشا ؟؟ سلامات يا باشا !! وإيمان النبى يا شيخ لارميهم لك فى الترعة ، وحياة النبى لازرعهم زرع بصل . . ياخدوا منا الأرض ازاى ؟ .

وكان صوت « دياب » كلما ارتفع امتلأ بالحرارة . .

ونظر إليه « محمد أفندى » متعجبا لجرأته أمام خاله . . ولكن خاله لم يقل شيئا .

وتقدم « محمد أبو سويلم » يسحب جاموسته ويضربها بكفه قائلا فى حنق :

ـــ حى . . حى ياللى تندهى انت رخره . .

وتحركت الجاموسة من خلفه ، فصاح :

ـــ ياخدوا منا الأرض ازاى بقى يا حضرة الناظر ؟! ياخدوها ازاى يا واد « يا دياب » هيه لعبه يا وله ؟! ياخدوها علشان سراية الباشا ؟! شى الله يا باشا ؟ ! .

فقال « الشيخ حسونة » بهدوء يخفى الغليان والألم والاضطرام والاثارة :

ـــ يا سيدى . . إيش على بالهم يا « محمد » ياخويا ؟! هما كانوا شافوا من البلد إيه يسكتهم يا « أبو سويلم » ؟ . لازم البلد توريهم العين الحمره . .

فانفجر « محمد أبو سويلم :

ـــ شافو من البلد ايه ؟ دا كله ولسه ما شافوش ؟

ثم استطرد متوعدا :

ـــ طب ياما حايشوفوا ..

وشرد لحظة ثم أكمل :

ـــ طب لما أقولك .. اركب من الفجر وروح عالمركز فهمهم انهم مش أشطر من الإنجليز .. مش أقوى من الإنجليز .. قل لهم كده .. لا هم أكتر من الإنجليز اللى احنا بهدلناهم ، ولا احنا أقل من أبهاتنا اللى بهدلوهم أيام عرابى ، واحنا هو احنا بتوع سنة ١٩ !! .. هه .. أنا هنا زى الجدار .. فهمهم كده .. يا خدوا منا الأرض ؟؟ ما يمكنش أبدا .. والله ما هم فاحتين إلا على رقابنا ، جاهم حش رقابهم ! إخى .. كانوا يفلحوا معانا فى الانتخابات .. ما جابوا لنا الهجانة .. عملوا إيه ؟ يا جدع قول لهم دا الانجليز جم هنا حرقناهم بالحيا .. يا نهار أغبر على دول حكام وعلى دى حكومة ! ..

ولم يجب « الشيخ حسونة » .

وسكت « محمد أبو سويلم » هو الآخر ، وأخذت صور الأيام الرائعة الماضية تطوف بكل خاطره ..

حدث هذا أيام الثورة .. كانت مواكب الرجال تنطلق ، والقرية كلها تهتف : « يحيا العدل » والفلاحون يرددون :

« يا انجليزى يا حرامى أصولى »

« خدت شعيرى وقمحى وفولى »

وكان « الشيخ حسونة » يرفع يديه ويلوح بأصبعه وهو يقول :

« وبالاستقلال أبشر »

فيردد رجال القرية :

« رغم أنف الإنجليز »

وكان الصغار والفتيات يتصايحون على أنغام راقصة :

« الله حى ، سعد جاى .. نخ يا عدلى ، اركب يا سعد »

وكان الأمهات يناغين الأطفال بأغنية تقول :

« فاطمة مراتى .. قاعدة تدادى .. يحيا الأوطان »

كان كل شىء فى الحقول ، وتحت البيوت الداكنة ، وعلى الطرقات المليئة بالتراب والوحل والذباب .. كان كل شىء يهتز وينبض ويعلن إرادة حياة جديدة فى وجه أعداء الحياة .

وذات أصيل شاحب من أول الصيف ، كان له مثل شحوب هذا الأصيل ، هبط على القرية عشرون جنديا من الإنجليز تحملهم البغال ، وتغمر رؤوسهم وجباههم الطاسات النحاسية ، وتبرز من جنوبهم فوهات البنادق والمسدسات والمدافع الرشاشة . وعسكروا عند أول جرن وجدوه قريبا من جسر النهر .. وأخذوا يقتلعون أعواد القمح اليابسة من الحقول ، ويقدمونها للبغال ..

وفهمت القرية أن الانجليز سيفسدون كل حقول القمح فى حوض الجسر ..

ولو أنهم تركوا حتى يدخلوا القرية فى الصباح فسينتزعون من بيوتها الخبز والفضائل والرجال ، والطعام ، والدجاج وحلى النساء ، والشرف .. كما صنعوا فى كل قرية ظللتها لعنتهم من قبل ..

وسهر « الشيخ الشناوى » فى المسجد مع « الشيخ حسونة » و « الشيخ يوسف » و « محمد أبو سويلم » .. وسهر معهم رجال آخرون . وأرسل إليهم العمدة يقول إنه معهم ولكنه لا يستطيع أن يظهر بالتأييد .. وفى الحق أنه كان فى تلك الأيام يقف مع القرية دائما . ويغضى عن أوامر الحكومة بمهارة ومكر حتى لا يؤاخذ ..

وفى الساعات الحالكة من الليل قبل الفجر ، قام « محمد أبو سويلم » ومعه بعض الرجال والفتيان وغابوا قليلا فى الدور ، ثم خرجوا كلهم إلى حوض الجسر ..

كان كل واحد منهم يحمل قطة أو كلبا صغيرا ، عقد فى ذيله شريط قماش مبلل بالبترول ..

وزحفوا على البطون .. والقطط والكلاب تخمش بلا رحمة ، وأيدى الرجال على أفواه الحيوانات الصغيرة ، كيلا ينطلق نباح أو مواء أو صوت ..

ظلوا يزحفون فى صبر حتى أصبحوا أمام الحقول المحيطة بالجرن الذى يعسكر فيه الإنجليز .

وأوقد كل واحد منهم عود كبريت فى الشريط المربوط بذيول الحيوانات . ثم قذفوا بها إلى حقول الحنطة ، فانطلقت تجرى بجنون ، وتشعل اللهب فى الأعواد اليابسة حول الجرن الذى يقيم فيه عسكر الانجليز ..

وفى لحظة أصبح المعسكر كأنما هو عقرب كبير حاصرته دائرة كبيرة من لهب ودخان ..

ولم يكد يقبل الصباح حتى كان الجرن هشيما يختلط ببقايا عظام محترقة ..

وما زال « محمد أبو سويلم » يذكر تلك الأيام ، وما زالت فى الأصابع آثار عضة كلب أو قطة .. و « محمد أبو سويلم » يذكر أن « الشيخ حسونه » هو الذى ابتكر هذه الفكرة لمقاومة الانجليز .. وفى تلك الليلة لم يحاول «الشيخ الشناوى» أن يتحدث عن نجاسة الكلاب ..

ومنذ ذلك اليوم لم يحاول الانجليز أن يرسلوا الى القرية رجالا آخرين !!.

وأن أهل القرية ليذكرون أن سعدا وأصحابه عادوا من المنفى بعد هذه الحادثة بأيام ، وأن الذين حكم عليهم بالإعدام والسجن فى مصر . أفرج عنهم بعد عودة سعد ، وانطلقوا مع الحياة .. فى الحياة من جديد ! ..

«والشيخ حسونه » يسترجع هذه الذكريات كلها ، وهو يمضى فى الطريق الغائم الى القرية فتشرق فى نفسه ثقة بالمستقبل .

كان الانجليز فى تلك الأيام أكثر قوة وأعظم بطشا . . أما الآن فما عساهم يصنعون بالقرية هم وحكومة حزب الشعب ؟

وتمهل «الشيخ حسونه » فى مشيه ليقول «لمحمد أبو سويلم» :

— أيوه يا محمد ياخويا كان غيرهم أشطر.. غيرشى الزهق بيخللى الواحد ينسى اللى فات ..

فقال «محمد أبو سويلم » بصوته التى عادت اليه طلاقته :

— باقولك مافيش فايده من الكلام اللى بيعملوه دا كله . . سعد باشا قبل مايموت قال لهم سيبكو من الكلام ده . . قال مافيش فايدة . . والله ياشيخ طول ما احنا واقفين لهم كده بربطة المعلم ، لا حكومه ولا عمدة ولاباشا ولا انجليز . ولا أيها واحد يقدر يطول منا مطال .

وتحمس «دياب» وتدخل فى الحديث :

ــ ايوه يا « ابا محمد » معلوم .. احنا زى الجدار ..

وهز «الشيخ حسونه» رأسه فى رضا ..

وتتابعت خطوات الرجال فى صمت قطعته همهمة « محمد أبو سويلم » .

ــ أيوه يا « دياب » بس الزمن كاسر .. انه ..

وتنهد «محمدأبوسويلم»، وكأنما عاد إليه إحساسه بالهزيمة وهو يشيع بنظراته آخر شعاع من النهار .

وتمتم بصوت حزين :

دا أنا جمل صلب ، لكن علتى الجمال
لوى خزامى وشيلنى تقيل الاحمال
آه ياولدى . . آه ولا تنى أقول آه . .

ونظر «الشيخ حسونه» إليه فى عتاب، والابتسامة تتسلل إلى غضون وجهه قائلا:

ــ ودا لزومه ايه يعنى « يامحمد » ؟ ! لزومه ايه بقى ؟ .

وتدخل «دياب» قائلا بثقة :

ــ سلامتك من الآه «ياابا محمد».. دا أنت سبع . احنا السبوعة ومن يعانينا هه ؟ !

ثم توقف قليلا قائلا ؟ إنه عائد إلى الزريبة ليبيت مع البهائم.

وعاد «دياب» إلى الحقل ، بينما تابع «الشيخ حسونه» سيره ، ومن ورائه «محمد أفندى» و«محمد أبو سويلم» يجر الجاموسة .

وكانو قد بلغوا مدخل القرية..فرأوا « الشيخ الشناوى » مقبلا ، وهو يدعك لحيته القصيرة البيضاء ، وحبات مسبحته ترتطم ببعضها مرسلة الرنين المعهود الذى ينبه بيوت القريه إلى مقدمه ..

وكان « الشيخ الشناوى » يهز رأسه ، ويقلب يده فى عجب . . وكان يسرع فى خطوه إلى الجامع ليؤذن المغرب .

وناداه « محمد أبو سويلم » فاستدار « الشيخ الشناوى » إلى طريق حوض الترعة .. ووقف مكانه ، وهو يكتم ضحكة ، ويصيح :

ــ عملها الواد بن اسمها ايه .. عملها الواد شعبان .. بالبلغة .. شوفوا ابن

الحرام ؟ ضربهم بالبلغة ..

وتاهت كلماته فى ضحكاته المتكسرة ، فسأله « الشيخ حسونة » عن الخبر والسيرة وعن رجال المساحة ..

فقال « الشيخ الشناوى » وهو مازال واقفاً فى مكانه يضحك :

— الواد شعبان موتنا من كتر الضحك . . أما حتة دور . . مابتوع المساحة خدوا ركايبهم وطلعوا على الجسر راجعين المركز ، والواد بيجرى وراهم بالبلغة ..

فزعق « محمد أبو سويلم » بضيق :

— طول بالك ياسيدنا أمال لما نفهم إيه الخبر وإيه السيرة ! هوانت ماقابلتش « الشيخ يوسف » ؟؟ دا بعت لنا إنهم بايتين هنا الليلة عشان يدقوا الحديد من فجر الله القوى .

وأجابه « الشيخ الشناوى » والضحكات مابرحت تنفلت مسترسله من بين شفتيه وتقطع كلماته .

— دهدى ! إنت مناكف ليه ؟ ! ما قلت لك الواد شعبان المجذوب طاح فيهم بالبلغة . . باقول لك رجعوا المركز تانى هربانين من ضرب اللاموأخذة .. تعالى اخطف لك ركعتين تعاله ! . . تعالى أحسن اتلوينا على المغرب . . ياللا نلحق المغرب .

فقال « محمد أبو سويلم » ببساطة وهو يشير الى جاموسته .

— والجاموسة ؟ تيجى رخره تخطف ركعتين ؟!

رأغرق « محمد افندى » فى الضحك . وابتسم « الشيخ حسونه » وطلب من « الشيخ الشناوى » أن يروى لهم ما حدث فالوقت لم يضع لصلاة المغرب . غير أن « الشيخ الشناوى » لم يكن يستطيع أن ينتظر ، وليس غيره من يقوم بالأذان . .

ومضى « الشيخ الشناوى » مهرولا إلى الجامع . .

ومضى الآخرون مع « محمد ابو سويلم » إلى داره ليترك الجاموسة قبل الذهاب إلى دكان « الشيخ يوسف »

وأمام دار « محمد أبو سويلم » ، وقف الثلاثة ، وخرجت « وصيفة » من الدار على صوت أبيها ، وألقت نظرة سريعة على « الشيخ حسونة » و « محمد أفندى » .

وتنحنح « محمد أفندى » قليلا وهو يرى « وصيفة » تسلم على خاله ، فتميل بقامتها

الفارعة الغضة ، وتضع شفتيها المليئتين على يد خاله . . وتمنى لو تلقى دسامة شفتيها ذات يوم على يده . . أو وجهه ! . .

وجذب « الشيخ حسونة » يده بسرعة ، وربت على كتف « وصيفة » ونظر إلى وجهها الرائق الجميل ، وتنهد قائلا :

— ربنا يحميكى يا بتى .. ربنا يحميكى من شر الزمان .. ربنا يسترها وياكى..

وقالت « وصيفة » لأبيها بخفة :

— مادريتش يابا عاللى جرى فى دوار العمدة . . ما عرفتش « الشيخ شعبان » عمل إيه . .

فتدخل « محمد افندى » متظرفا وهو يصطنع الجرأة :

— هو شعبان بقى شيخ كان ! « شعبان بقى شيخ دى طبلت ! » .

وضحكت « وصيفة » على استحياء . ورمت على « محمد افندى » نظرة سريعة من عينيها الواسعة الحلوة وهزت رأسها بشعرها الكثيف المنسدل تحت الطرحة الريفية السوداء . . وأخذت حبل الجاموسة من يد أبيها . ودخلت بها الدار . بينما كان « الشيخ حسونة » يفحص وجه « محمد افندى » ويقول بتأنيب :

— جرى إيه « ياسى محمد » .. احنا حانفتح محضرهنا والا إيه ؟! ما تمشى ! .

واقترح « محمد أبو سويلم » أن يقعدوا فى المندرة ليشربوا القهوة معاً . ومن السهل إحضار « الشيخ يوسف » .

وتحمس « محمد افندى » للفكرة ولكن « الشيخ حسونة » نظر اليه بانفعال قائلا :

— حاكم انت ما تصدق تلقى حته تقعد فيها وتلزق .. عاوز تلزق . .

وبهت « محمد افندى » لنظرة خاله ، وكلامه . .

فمشى خطوة إلى الأمام فى الطريق . وهز يده بالمنشة .

ومضى الثلاثة إلى دكان « الشيخ يوسف » . .

ولم يكد « الشيخ يوسف » يبصرهم قادمين حتى خرج من الدكان مرحبا ، ودخل باب البيت صائحا فى ترحاب :

— أهلا وسهلا .. نورتم .. ولعى اللمبة نمرة عشرة يابنت وهاتها فى المندرة .

فاستمهله « الشيخ حسونة » وجلس على دكة أمام الدكان ، وقال « محمد أبو سويلم » :

ــ خلينا هنا نشم النسمة .. « الشيخ حسونة » آهو شبعان من المنادر فى مصر..

وضحك الجميع ..

وجلس « محمد أفندى » و « محمد أبو سويلم » إلى جوار « الشيخ يوسف » وتنحى « علوانى » والفتيان الذين كانوا يقفون أمام الدكان ..وبدأ كل واحد منهم ينسحب فى تردد وخجل والرأس منخفض ، بعد أن سلم على «الشيخ حسونة» بانحناء ، ويده تعلو وتنزل بين الصدر والجبهة . من فرط الاحترام ! ..

ووقف « الشيخ يوسف » داخل الدكان يروى ما حدث فى دوار العمدة منذ لحظات :

فقد أقبل ثلاثة رجال من المساحة على العمدة ، وطلبوا منه أن يبادر على الفور ليعين لهم بعض الخفراء الأشداء لحراسة الحديد الذى يحمل إلى القرية ويدق فى الحقول لتحديد الطريق الزراعى الجديد .

وعجب العمدة لهذا الطلب : لماذا يحضر من أجله ثلاثة رجال من المساحة ؟! وفى إشارة تليفونية غنى عن الرحلة الطويلة من المركز على ظهور الحمير ..

وسأل العمدة إن كان هناك شىء آخر .. فنشر أحدهم أمامه خريطة كبيرة لحوض الترعة ، وفيها خطان ظاهران يحددان بينهما الطريق الزراعى الجديد .

وحاول العمدة أن يناقش الرجال ، فأغلظ أحدهم له القول . وكان العمدة يريد أن يسأل مرة أخرى إن كان هناك شىء آخر جاءوا من أجله ، فهو لم يتعود بعد أن يحضر « الأفندية » من المركز لينشروا أمامه خريطة ! .

ولم يرتح الرجال لهذه اللهجة ، فطلبوا من العمدة أن يسمع الكلام وينفذ التعليمات فى صمت ..

وحين بدأوا يستعدون للانصراف ، ألح عليهم العمدة أن ينتظروا القهوة ، ولكنهم صمموا على الانصراف بلهجة تحمل نوعا من الاحتقار للعمدة ..

وتضايق العمدة ، ولكنه ظل يتكلم بلا انفعال . . واستأذن لحظة وهمس فى أذن أحد الخفراء بكلام ، وأنهى كلامه بتأنيب الخفير بصوت مرتفع لأن القهوة تأخرت ، على أسياد البلد ــ رجال المساحة ! . .

وحين عاد العمدة ، قام رجال المساحة واستأذنوا فى ضيق . غير أن العمدة ظل يلح ويستمهلهم حتى يشربوا القهوة .. وأخيرا . . جلسوا على مضض ، بينما أخذ

العمدة ينظر فى الخريطة ، ويسأل ليعطلهم عن الانصراف .

وأقبل «شعبان» فألقى السلام ، ولم يرد عليه غير العمدة .. وارتاح العمدة لمقدم « شعبان » وغمز له بطرف عينه ..

ووجد « شعبان » الخريطة مفتوحة ، وسمعهم يتحدثون عن الطريق الزراعى فسأل عن الأرض التى ستنتزع ليمر بها الطريق . . وصاح العمدة فى « شعبان » بغضب مصطنع :

ــ اطلع من هنا « يا شيخ يا مجذوب ! . .

ثم غمز بعينه ..

فتقدم « شعبان » ومد نظره ، ويده إلى الخريطة ووجم لحظة ، ثم أطلق شهقة مفاجئة :

ــ يا حى يا قيوم ! .. حى ! .

ونظر إليه الرجال بتقزز .. وتعجلوا القهوة ، لينصرفوا .

ولكنه اقترب منهم حتى أوشك أن يلتصق بهم ، وسأل إن كانوا سيهدمون « مقام سيدى رمضان » القائم على رأس المقابر فى حوض الترعة ..

ولم يجبه أحد ..

فأخذ ينظر إلى الخريطة أمام العمدة .. وسأل أين يقع ضريح «سيدى رمضان» بين هذه الخطوط المرسومة على الورق ؟ .

ونهره العمدة ، وهو يغمز إليه بعينه خفية ..

وابتعد « شعبان » قليلا ، ووقف يهدر بقسم غليظ أنه سيضرب بالبلغة كل من يحاول هدم مقام « سيدى رمضان » ..

ثم انتفض كأنه فى حلقة ذكر ، وصاح أن عليه « العهد » لسيدى رمضان .. وأكمل :

ــ أعمل ايه فى الأهد ؟ شى الله يا سيدى رمضان . . الفاتحة لسيدى رمضان واسيدى البيومى ولسيدى المتبولى . لهم جميعاً الفاتحة ..

وبدأ يقرأ الفاتحة ، وقد بسط راحتيه أمام فمه . .

ولاحظ أن رجال المساحة لا يقرأون .. فلكزهم بعنف تنبيها إلى قراءة الفاتحة ، وعاد يبسط راحتيه أمام فمه وأستمر فى قراءة الفاتحة ..

وتضايق رجال المساحة ، وطلبوا من العمدة أن يطرد هذا المجذوب ، وأخذوا يلعنون « سيدى رمضان » والأسياد جميعا .

وقال لهم العمدة محذرا بحكمة مصطنعة إن « شعبان » رجل من أهل الطريق ، ولا أحد يعرف له بلدا .. ونصح العمدة الرجال بتجنبه لأنه مبارك الدعوات.. وهو — على ذلك — مجذوب ، وليس على المجذوب حرج .

وغمز العمدة بعينه خفية مرة أخرى « لشعبان » وصاح فيه :

— إطلع من هنا يا راجل يا مجذوب .. شوف لك بلد غير دى من بلاد الله امشى كده وانت عامل زى غراب البين .. انت حاتزعل الافندية من بلدنا ! .

ولكن « شعبان » احتك بأحد رجال المساحة ، وطلب منه أن يستغفر ، لأنه شتم « سيدى رمضان » ، وإلا نزلت عليه كرامة من « سيدى رمضان » ، فانشل فى مكانه ! .

ثم أمسك بيده كتف الرجل الآخر وأخذ ينهره بعنف ، ويستعطفه ألا يمس مقام « سيدى رمضان » .. وألا يسمح لأحد أن يهد « المقام المبارك » ! .

وصاح فيه الرجل ودفعه فى صدره :

— غور بقى يا أخى ! .. ياك ينهد المقام على دماغك ؟ .. قطيعة تقطعك انت وسيدك رمضان .. غور كده حاتقطع البدلة اللى جايبينها بالتيلة . يعنى شايفنا مبسوطين قوى من الشغلة دى ، جاى تقرفنا كمان ..

وفجأة انحنى « شعبان » على الأرض . وهو يصرخ فى تشنج :

— آه .. انت بتخوض فى سيدى رمضان ؟ . بركاتك يا سيدى رمضان .. كلهم بيشتموك « يا سيدى رمضان » ..

ثم نزع البلغة من قدمه ، وهوى بها على رأس الموظف .. وهو يقول متطوحا على نغمة الذكر كأنه فى حلقة :

— « يا من يرى ولا يرى .. أعطى البعوض جناحها » ..

وروع الموظف من المباغتة العجيبة المهينة ودارت رأسه من شدة الضربة ، و« شعبان » يهوى على رأسه بالبلغة الجامدة المؤلمة .

ووقف زميله يصيح :

ــ حوش يا عمدة حوش .. انت المسئول عن ده كله .. انت ماسك فينا نقعد عشان كده يا عمدة .. أنا فاهم خبث الفلاحين .. والله لارفدك .. لابد عن رفدك يا عمدة ؟ انت كنت بتوشوش الغفير علشان ينادى له ؟ .. أنا فاهم ؟ ..

واستدار «شعبان» إليه ، والبلغة فى يده ، وظل يجرى وراءه بالبلغة الجافة القوية الجلد حتى ركب حماره . .

وكان أول رجل ضربه «شعبان» يقفز إلى حماره ويده على رأسه وهو يصيح :

ــ دى آخر خدمة الحكومة ؟ . . بالبلغة . . والله لأخرب بيتك يا عمدة . . داء اعتداء على موظف أثناء تأدية وظيفته ؟ . يعنى أضرب بالرصاص دلوقت . .

وكان الزميل الثالث قد اختفى منذ بدأ «شعبان» برفع البلغة ، فقد أدرك بتجربته الفخ الذى تصبه العمدة ، فركب حماره ، وجرى به إلى المركز . .

وكان العمدة يخفى ضحكه وإحساسه بالظفر وهو يقول فى ثورة مفتعلة :

ــ عيب ياولد كده تهينهم فى بلدنا . عيب كده ولو أنهم هانوا العمدة كتير حوش يا غفير . . ما قلت لك ياسيدنا الافندى من الصبح دا راجل على الله ومجذوب . . اسكت بقى يا واد يامجذوب . . اسكت . . كفاية كده كسفتنا مع الافندى . . هم الافندية ينضربوا بالبلغة ياولد . . دول عاوزين شبشب هوانمى .

وقبل أن يبتعد الأفندية بحميرهم صاح العمدة بنفس اللهجة المفتعلة :

ــ امسكوه ياغفر . . امسكوه ودوه المركز . . أوعى يهرب منكم ياغفر . . . حاسبوا لايطير منكم أحسن دا من أهل الخطوة . . . ماتخافوش منه . . . امسكوه امسكوه . . .

غير أن أحداً من الخفراء لم يكن واقفاً إذ ذاك . . فقد اختفوا جميعاً بقدرة قادر . . .

وعندما كان الموظفون الثلاثة فى الطريق إلى الجسر . . . أطلق العمدة ضحكاته بحرية وهو يقول «لشعبان» :

ــ والله عفارم عليك « يا شعبان » . . أيوه كده . . متعنطظين كده ، وما حدش طايقهم .. هما فاكرين إنى أنا هفية .. خلليهم يتعلموا ازاى يكلموا العمد .. مش ديتها شكوى للمأمور الجديد . . يشتكوا للمأمور . . .

ثم همس العمدة « لشعبان » :

ـــ اطلع انت من البلد الليلة . .

وترك «شعبان» الدوار إلى بلدة أخرى، واستعد العمدة للاجابة على المأمور فيما لو سأله عما حدث . . سيقول للمأمور إن الرجل المجذوب ليس من القرية ، وليس له فيها أرض ولا أهل ولا أحد يعرفه ، وإنما هو سائل على الطريق ، من أهل الله وقد حاول العمدة أن يمنعه أو يقبض عليه ، ولكنه اختفى . . فهو من أصحاب الخطوة ! .

لم يكد « الشيخ يوسف » يروى « للشيخ حسونة » و « محمد أبو سويلم »و«محمد أفندى » ما حدث بين « شعبان » ورجال المساحة حتى استغرق الجميع فى الضحك .

وقال « محمد أبو سويلم » ، وهو ينظر إلى داخل الدكان :

ـــ أما العمدة ده عليه ملاعيب يا جدعان !! دا لو يشغل مخه ده على الانجليز كان يطلعهم من البر بالسياسة زى مادخلوا بالسياسة . .

وهز « الشيخ حسونة » رأسه ، ولم يضحك ، وقال بحذر :

ـــ كلكم مبسوطين من الملعوب ده .. لكن أنا مش مبسوط ! يعنى العاملة اللى عملها الواد « شعبان » عاجباكم كلكم ، ولكن ما قولكم بقى إنها مش عاجبانى؟! وبكره تشوفوا كلامى .. إن عشت راح أفكركم ، وإن مت ابقوا قولوا الله يرحمه ، كان بيحسب كل حاجة . .

وخيم على الجميع وجوم ، وحذر ، وقلق . .

وكانت كلمات « الشيخ حسونة » عن احتمال موته قد هزتهم إلى الأعماق ، ولم يجد واحد منهم كلاما يقوله .

ونظروا فى حيرة إلى « الشيخ حسونة » . . وكانوا يعلمون بالتجربة أن ظن « الشيخ حسونة » لا يخيب أبدا ، وإن كل ما يحسبه يلقاه ، ولو بعد سنين ! . .

وخالجت حيرتهم الكآبة ، والمخاوف المبهمة . .

وبعد قليل همس « الشيخ حسونة » .

ـــ حاجة بالعقل : بقى العمدة يضرب رجال المساحة ، ويخلى « شعبان» النجس هو اللى يضربهم ؟ طيب قولوا لى إيه اللى جاب « شعبان » فى البلد تانى ؟.. إيه اللى

يوجـــده فى البندر يوم زيارة الوزراء ؟ . . قولوا لى بس . . إيه اللى جابه فى الوقت دا بالذات ؟ الملعوب لسه حايتلعب « يا أبو سويلم » ، ولسه « شعبان » له شـغل كتير ، ويا عالم إيه الشغل ده ؟ ! . . نوعه إيه ؟ ماحدش لسه يعرف ؟ دا لسه له دور . .

وتهلل وجه « الشيخ يوسف » ، واندفعت منه كلمات كثيرة يؤكد بها أنه رجل ذكى ، يفهم الدور كله ، وأنه بينه وبين نفسه فكر فى الأمر ، ولكنه لم يقل لأحد ، لأن أحداً لن يهتم بما يقول .. ولكنه يعرف أن « شعبان » لا يخرج عن يد العمدة أبدا ، وهو رجل ضائع استعمله العمدة قديما ليسمم بهائم أعدائه أو ليحرق دورهم . . وحماه العمدة دائما ، ورسم له خطوات الهجرة من البلد كلما طاردته الشبهات ! .

وظل « الشيخ يوسف » يقول : إن « شعبان » هذا غادر القرية منذ أعوام عندما توالت العرائض إلى المركز تتهمه باحراق حقل قمح يملكه أحد أعيان الناحية البحرية من أعداء العمدة . ولكنه عاد بلا مناسبة عندما كان الرجال غائبين فى المركز ، وفى يوم الاحتفال باستقبال الوزراء ظهر فى المركز ، ثم عاد مرة أخرى إلى القرية .

وحين عاد إلى القرية كان يلبس عمامة ذات شال أخضر يسميه « شرف سيدى رمضان » وأخذ يتردد على الجامع بانتظام ، وهو لم يركعها من قبل ، وظل يقول عن نفسه إنه وجد الهداية !

وعندما انتهى « الشيخ يوسف » من كلامه سكت الجميع . .

وأخيراً قال « محمد أبو سويلم » . إن « شعبان » الذى لم يعرف أحد أبدا من هو أبوه ، عاد إلى القرية فى مهمة للعمدة ، ربما ليحرق دار « محمد أبو سويلم » نفسه ، أو ليسرق جاموسته ، أو ليضع أمامها السم ! .

ثم هز « محمد أبو سويلم » رأسه قائلا بشفقة :

ــ لكن دا بعده .. لا هوه ، ولا عمدته ! .

ونظر « الشيخ حسونة » إلى « محمد أبو سويلم » وقال بخطورة ، إن « شعبان »

«شعبان» رجل ضائع ، ليس له فى القرية أرض . . ولا أهل ، استعمله العمدة ليسمم بهائم أعدائه ، غادر القرية حينما طاردته الشبهات ، ثم عاد إليها بلا مناسبة عندما كان الرجال غائبين فى المركز ، يرتدى عمامة ذات شال أخضر ! ! . .

لم يعد من أجـــل شيء كهذا . . وعلى أية حال فسيظهر كل شيء بعد أيام . . ومن يعش ير . .

وساد الصمت برهة ، وأخذ « محمد أفندى » ينظر إلى خاله فى إجلال .. فهذا رجل يعرف كل شيء فى الأمريكتين ، وفى مصر ، وفى القرية . .

وأخيراً انصرف الجميع إلى دورهم .

* * *

وباتت القرية فى تلك الليـلة تتحدث بأكبار عن « شعبان » ، الذى ضرب رجال الحـكومة بالبلغة .

وقال بعض الرجال إن « شعبان » انصلح حاله وإنه أصبح الآن قوة تساعد القرية فى موضوع السكة الزراعية .

وعجب آخرون من هـذا التحول المفاجىء فى « شعبان » . . ولـكنهم وثقوا به إلى آخر حد . .

وقال بعض النساء إن «عبد الهادى» نفسه لايقدر على ماعمله «شعبان» .

وكان «شعبان» من قبل رجلا يعيش فى القريه . دون أن يعرف الحقول . . لم يحمل فى يده فأساً ، ولا أحد يذكر من أين جاءت أمه ، فقد تزوجها إسكافى عجوز ، كان يقيم بالبلدة ، وبعد ست شهور من الزواج مات الاسكافى ، وبعد عام من موته ولد «شعبان» ! . .

وغابت هى عن القرية يوما وعادت بفتاة أخرى قالت عنها إنها أختها . . وتركت لها ابنها «شعبان» . . وذهبت هى إلى البيوت التى تحجب فيها الناس لتغسل وتقدح الفرن للخبز .

وعندما كبر «شعبان» حاولت أمه أن تعلمه صناعة أبيه ، وأرسلته إلى إسكافى فى قرية مجاورة ، ولـكنه لم يفلح وتعود وهو سائر فى الطريق ، أن يخطف كوز ذرة أو أى شيء تطوله يده من هذا الحقل أو ذاك ! .

وحين خشن صوته ضرب أمه وخالته .

وتزوجت خالته وتركت الدار ، فظل يضرب أمه بلا سبب مفهوم . .

وقد ترك القرية ذات يوم وهو فتى فى السادسة عشرة ووجد مركبا محملة بالقلل والبلاليص راسية على شاطىء القرية فرحل معها وغاب عن القرية ثلاثة أعوام ثم عاد ومعه الشباك والخطاطيف ، وبدأ يصيد السمك . .

وتزوج فتاة من القرية ، وأنجب منها طفلة اسمها «ستهم» ولكنه هاجر وحده فجأة ، ثم عاد بعد حين يعيش فى القرية بلا عمل بعيدا عن زوجته وابنته «ستهم» .

وبعد قليل ألفت القرية خروجه فى الساعات الأخيرة من الليل ليصيد الذئاب

وذات يوم فسدت بندقية من أحد الخفراء ،فاقترح عليه «شعبان» أن يصلحها وأصلحها بالفعل . .

ومنذ ذلك اليوم ، والقرية تنظر إليه فى عجب . .

إنه يعيش بين الحقول ومع ذلك فهو لا يعرفها ، ولا يحبها ، ولا يستطيع أن يعمل بها . . وهو لايطيق أن يقيم فى القرية سنوات متوالية ! .

وهو بعد ، يتقن أشياء باهرة لاتتقنها القرية . .

وكانت الفتيات يتحدثن عنه برعب ، فهن يعرفن أنه إذا صادف فتاة وحيدة لم يتركها تفلت منه أبداً ، ويجذبها إلى مكان يختبىء فيه معها ، ويحذرها إن صرخت أو امتنعت عليه أن يقتلها كما يقتل ذئباً ، أوسمكة كبيرة !

وكان «شعبان»طوال عهده فى القرية يغيب عنها أحياناً لبضعة أيام، ثم يعود ومعه كميات من الحشيش يبيع منها علنا للراغبين من أهل القرية ، أو القرى المجاورة .

وكان يرسل الفتيات إلى مصر ليشتغلن خادمات،ولا يعدن منها أبداً و«زنوبة» أخت «خضرة» التى عادت إلى القرية فيما بعد بلون نحاسى ، ولحم مكتنز ، وذهب على الصدر ، وأحمر على الشفاه . . «زنوبة» هذه التى عادت بحذاء ذى كعب وباسم جديد هو «إحسان هانم»، كانت «زنوبة»هى إحدى الفتيات اللواتى أرسلهن «شعبان» إلى المدينة . . وكانت من أهله ! .

وفى الحق أن أحداً لم يكن يعرف له مهنة واضحة فهو فى النهار يصلح البنادق أو يبيع الحشيش . . وهو فى الفجر يصيد السمك،أو يصيد الذئاب ويسلخ جلدها ويبيعه فى المدينة .

فأذا أقيم فى القرية أو إحدى القرى المجاورة مولد أو ذكر ، وأقبل من بلاد بعيدة رجال صفر الوجوه ، طوال الشعر ، يتطوحون تحت البيارق .. إذا حدث

هذا ، انخرط «شعبان» فى الموكب، وتطوح فى حلقات الذكر ، وهز نفسه فى حركات متشنجة ، وظل يتواثب حتى يصرخ بكلام مختلط لا معنى له ، فيقول الناس عنه « يضرب بالسوريانى » . . وأنه وصل ! .

و«شعبان» رجل طويل نحيل البدن ، غريب الحركة ، عصبي الإشارة ، فى السمرة من وجهه أغوار كثيرة ، كأنما حفرتها الدموع . .وهو نشيط سريع ؛ يشيع السواد فى أسنانه المتهشمة ، يتلوى دائماً ، ويهز كل جسده إذا تكلم . . ولعينيه الضيقتين نظرات حادة وبريق أخاذ .

وهو بكل نحوله وطوله وبدنه الملولب ولونه الكالح ونظراته الخاطفة الملتهبة ، كان يذكر الفلاحين بالثعبان الأزرق .

وكان هو نفسه يصفر للثعابين فتسيل ويمسكها ببساطة وهو يضحك قائلا :

ــ مدد يارفاعى مدد . .

والقرية تذكر أن « شعبان »دخل بيوتاً فى القرية ليخرج منها الثعابين ، فأخرج الثعابين ، ولبد هو .

وفى هذه البيوت عاشت بنات جميلات .

ومن أجل هذا ، فقد ظلت بيوت كثيرة فى القرية لا تسمح له بالدخول ، وفضلت أن تعيش فيها الثعابين ولا يعيش فيها «شعبان» . .

هكذا كانت سيرة «شعبان» فى القرية .

ومنذ غادر القرية فى السادسة عشرة وعاد إليها بعد عامين ، ظل من بعد هذا أكثر من عشرين عاما يقيم فى القرية لبعض الوقت يصفر للثعابين والنساء ويصيد الذئاب والسمك ويصلح البنادق ، ثم يختفى فجأة ليعود وحده ، أو مع سيارة من المشايخ والمجاذيب فيقيمون حلقات الذكر ، ثم يختفى من جديد . .

على أنه عندما غادر القرية لآخر مرة غاب طويلا ثم عاد فجأة يلبس الشرف الأخضر ويطلق على نفسه « الشيخ شعبان » ، ويمسك مسبحة من خرز اسود ، ويعتكف الساعات الطوال فى المسجد .

وفى الأيام الأولى حاول أن يدخل بيت «محمد أبوسويلم» ، ولكن «وصيفة» ردته عند الباب ، وطلبت منه ألا يدخل مادام أبوها ليس موجودا . . فألقى رأسه إلى الوراء وأرخى حاجبيه ، ومد يده إلى صدر «وصيفة» بدعوى أنه يباركها وهو يقول بشهقة :

ــ الله . .

ونفرت «وصيفة» بعيدا عنه . حين وجدت يديه تمتدان إلى صدرها ، ودخلت إلى وسط الدار ، بعد أن أغلقت الباب فى وجهه . . وتركته يجلس على المصطبة فى شمس العصر .

وحين أقبل « محمد أبو سويلم » بعد المغرب ، ووجده جالسا أمام المصطبة ، عامله بجفاء وسأله عما يريد منه . . ثم قال له فى غلظة إن القرية ، فى عامها هذا ــ وسط المحنة ــ لن تقيم الموالد ، فهى لا تملك أن تقدم طعاما للرجال المجاذيب الذين يقبلون تحت البيارق . . وطلب منه « محمد أبو سويلم » بعد هذا ألا يقعد على مصطبته ، وأن يبعد عنه ! .

ولم يعد «شعبان» يفكر فى دخول دار « محمد أبو سويلم» ، أو الجلوس على مصطبته ، ثم بدأ يتردد على دكان « الشيخ يوسف » ، ويقف أمامه مع الفتيان ، يروى لهم عما شاهد فى رحلاته ، ويضحكهم . . ويشرد قليلا ليدخل فى حديث لا ينتهى عن الزراعية الجديدة ، ويعلن سخطه ــ بلا تحفظ ــ على العمدة الذى يكيد للقرية ، ويقول كلاما جارحا عن العمدة العجوز ، وزوجته الشابة ! .

وكان الفتيان يستمعون إليه حائرين أول الأمر . .

وكان « الشيخ يوسف » نفسه ينظر فى عجب إلى هجومه السافر العنيف على العمده . وإلى لهجته التى لم يجرؤ أحد على التحدث بها من قبل حتى «عبد الهادى» .

وفى الحق إن « الشيخ يوسف والفتيان الذين تعودوا أن يقفوا أمام باب دكانه كانوا يفكرون دائما فيما يعلنه « شعبان » من عدم اهتمام بالعمدة أو المأمور جميعا أو المدير ، أو الحكومة نفسها . . فهم جميعاً تحت مداسه ! وكان «شعبان» يقول هذا دائما بأعلى صوت :

على أن « شعبان » قد وضع حدا لحيرة الفتيان فيه . . وبدأ الناس فى القرية ينظرون إليه كبطل صنع شيئا خارقا ، لا يصنعه أحد غيره . .

* * *

وظلت القرية أياماً تمجد شعبان وهى تتحدث عن هجومه بالبلغة .

وخلال هذه الأيام كان « الشيخ حسونه » قد ذهب إلى المركز مرتين وعاد وهو مغموم . . فقد كلم بعض أصدقائه فى المركز ، وجلس على الأجزاخانة ، هناك مع صاحب الاجزاخانة ، وتحدث إلى صديقه القديم القاضى الشرعى ؛ وقابل

المحامى الشاب الذى كان نائباً عن دائرتهم قبل أن يحكم حزب الشعب . والتقى بعض أهل القرى المجاورة الذين يعملون فى المدينه كتبة فى المديرية أو المساحة أو النيابة أو المدرسة الأميرية . . وعرف منهم أن الزراعية ستشق بعد أيام، ولا فائدة من أى كلام مادام حزب الشعب هو صاحب الحكومة !.

وتأكد «الشيخ حسونة» من أن الزراعية تتلوى كالثعبان لتتفادى أرض الملاك الكبار ، أو المقربين من حزب الشعب .

وعرف أيضا أن أهل القرى المجاورة أرسلوا الوفود ومئات البرقيات والعرائض إلى الحكومة والصحف المعارضة .. ولكن الحكومة مصممة على شق السكة الزراعية مهما يكن من اعتراض

وخلال الأيام التى تحدثت فيها القرية بإعجاب عن «شعبان» كانت أيام الرى الجديدة قد بدأت ، وخرج «عبد الهادى» إلى الساقية يديرها أول أيام الرى . فلحق به «شعبان» يقول له إن «دياب» وأولاد الناحية الشرقية كانوا يريدون ضربه ، وأنهم على أية حال متربصون له ليقتلوه إن أدار الساقية الى ما بعد المغرب

وخلال هذه الأيام نفسها ذهب «علوانى» فرحاً إلى «الشيخ يوسف» وهمس فى أذنه إن «شعبان» اتفق معه على قتل العمدة قبل أن تشق السكة الزراعية . . . وأضاف «علوانى» هامساً إن المأمورية سهلة . ولا تحتاج إلى أكثر من خمسة عشر جنيهاً يأخذ منها شعبان عشرة ، وأن على «الشيخ يوسف» أن يشترك مع «عبد الهادى» و«محمد أبو سويلم» و «محمد أفندى» فى دفع الجنيهات الخمسة عشر .. أتعاب قتل العمدة .. وسيقوم «الشيخ شعبان» بترتيب كل شىء ..

وحين سمع «الشيخ يوسف» هذا ، جزع ، وملأه خوف لا يعرف من أين انبثق، وزعق فى «علوانى» إنه لا يريد أن يسمع منه كلاماً عن «الشيخ شعبان» هذا أو «الشيخ قرد»!.

ووقف «علوانى» أمامه مذهولا ، فانقض عليه «الشيخ يوسف» يهزه من كتفيه يسأله بالحاح وتأنيب عن كل ما يدور فى الخفاء بينه وبين «شعبان» ..

واعترف «علوانى» «للشيخ يوسف» أنه روى «لشعبان» كيف سرق مخازن العمدة وإذ ذاك صرخ «الشيخ يوسف» .

— طيب غور من هنا يا عرباوى يا أهبل .. غور .. أوعى أشوف خلقتك جاتكم شوطه ما أخيبكم ! .. غور ماتقفشى قدامى كده زى العمل الردى !

وانصرف «علوانى» فى ندم وهو يتمتم :

ـــ والله يا « شيخ يوسف » أنا برضه زى ما تقول كده قلبي مقبوض من الواد « الشيخ شعبان » ده ! .

فازداد « الشيخ يوسف » حنقاً وظل يصرخ :

ـــ شيخ ايه وهباب ايه . . شخشخت عظامك من بدرى ! غور باقولك . .

ولم يكد « علوانى » يبتعد عن دكان « الشيخ يوسف » ويغيب ساعة حتى أمسك به بعض الخفراء ، وذهبوا به إلى المركز . . للتحقيق معه فى مقتل «خضره » . . .

وعجب «الشيخ يوسف» عندما سمع هذا الكلام . . فلم يكن يتوقع أن تصح مخاوفه بهذه السرعة ، وسأل نفسه لماذا تثارقضية «خضرة» فى هذه الأيام . ولماذا يقبض على «علوانى» الآن ، لماذا يتهم «علوانى» بقتل «خضرة» . .

ولكن هل قتلت «خضرة »حقا ؟ . .

ووثبت إلى ذهن « الشيخ يوسف » صورة «شعبان» ، وتذكر ملاعيب العمدة فامتلأ بالحنق والغليان . .

وتخايلت أمامه صورة «لعلوانى» فى الحديد وتخيله وهو يضرب بالكرباج ويصب فى فمه بول الخيل ! ويلقى على الأرض ليدوسه العساكر بالأحذية الغليظة ! ثم يحمل آخر الأمر إلى المشنقة فيصرخ لحظة بأنه برىء . ولكن الحبل يلف حول عنقه ! فيهوى بلا حراك ، وقد انطفأت منه الابتسامة ، وغاض فيه كل شئ : الذكريات والأمل والحياة . .

وفاضت نفسه إشفاقا على الولد العربى المسكين الذى لاأهل له فى القرية ولاسكن ولا أحد على الإطلاق يبكى عليه إن راح أو جاء . .

ودعك « الشيخ يوسف » وجهه بيديه . . وتنهد .

وأحس بالفراغ من حوله فجأة . . وأسند وجهه بين راحتيه .

وعجب لنفسه : إنه لم يكن يعرف أن «علوانى» عزيز عليه إلى هذا الحد . .

وعند مارفع « الشيخ يوسف » رأسه من بين يديه كانت الدموع تملأ الغضون من وجهه النحيل .

جلست امرأة « مسعود أبو قاسم » تندب
حظها ، بعد أن وقعت الجاموسة فى بير الساقية

لم ينس العمـــدة للقرية أن نساءها رمته بروث البهائم ليفرج عن الرجال المحبوسين فى سجن المركز .

وعاد الرجال منذ حين ، يستقبلون الحياة المريرة والمعركة من جديد .

ومن الحق أن العمدة استطاع أن يجيد رسم خطة الانتقام ، فاصطنع لنفسه مشعوذا نبذته الأرض فغاب سنوات ، ثم عاد يحمل الشرف الأخضر ، وكراهية الأرض التى خاب عليها ، عاد يهذى بالأوراد والمدائح النبوية .

واتفق «شعبان» مع العمدة على أن يتخذ من المواقف مايجعله بطلا يكسب الثقة التى لم يكسبها من قبل أبدا .

وبالفعل ضرب بعض رجال الحكومة فى دوار العمدة ، وجرى وراءهم بالبلغة .

وباسم هذه البطولة ـ الخارقة ـ استطاع أن يتحـــدث إلى الناس فى القرية فيصدقوه ، ويؤمنوا به .

وبدأ يختلق كلاما لا أصل له . . ليوقع الخلاف بين الذين يعانون من نفس المأساة ويحاربون نفس العدو . . وليتعرف على اتجاهات الناس ضـــد العمدة ، وعلى كل الأسرار .

وعرف « شعبان » أن « علوانى » الفتى العربى هو الذى سرق القمح والذرة من مخازن العمدة .

وفجأة قبض على « علوانى » بتهمة قتل « خضرة » .

وفجأة بدأ الأصدقاء يختلفون ، ويتباعدون .

الأصدقاء الذين عاشوا معا أجمل سنوات العمر . . وتعـــذبوا معا ، ومازالوا يناضلون كتفا إلى كتف دفاعا عن الأرض .

وعندما قبض على « علوانى » ، أخذت القرية تتساءل فى عجب لماذا يقتل فتى «كعلوانى» فتاة «كخضرة» ؟ .

وقالت « وصيفة » إنها عرفت « خضرة » جيدا ، وقد حدثتها « خضرة » عن كل شىء . . ولايمكن أن يكون « علوانى » هو الذى قتلها . . لايمكن !

لايمكن أن يكون هو « علوانى » أو أى رجل غيره فى البلد . .

ونظرت أم وصيفة إلى الأوز يتدحرج وسط الدار ، ورفعت عصا من القش هشت بها على الأوز ، وظلت تسوقه بحذر حتى دخل كله حظيرة الماشية إلا أوزة واحدة . . فانقضت عليها وأمسكتها ، وطلبت من « وصيفة » أن تحضر سكينا

تذبح به الأوزة قبل أن يجيء العصر ، ويروح وقت الطبيخ . . فالشيخ حسونة هو ضيفهم على العشاء الليلة ! .

وتلكأت « وصيفة » وهى تبحث عن السكين إلى جوار الزريبة فى مدخل الدار ، وعادت تقول لأمها إن « علوانى » لا يمكن أن يقتل « خضرة » . . وإذ ذاك انفجرت أمها تأمرها ألا تتحدث مرة أخرى عن « علوانى » أو غيره من الرجال .

واضطربت « وصيفة » قليلا أمام صراخ أمها المفاجىء . . ولكنها استعادت نفسها بسرعة ، واستدارت اليها تسألها فى غلظة ، لماذا تصرخ هكذا فى وجوه الناس ! .

وهمهمت الأم بصوت كسير :

ـ اللى ينقطع « شعبان » ابن ستهم شايع فى البلد كلها إنك بقيتى زى « خضرة » . لا يفه على « علوانى » شوط ، وشوط على « محمد أفندى » ، ولا يفه على « عبد الهادى » و « دياب » كمان .

وشهقت « وصيفة » وضربت صدرها بعنف ، وغاض لونها ، وأجهشت بالبكاء وهى تقول :

ـ الشيخ شعبان ؟ . . الشيخ شعبان هو اللى قال كده . . جاه قطع لسانه ! إن شاء الله ينصاب بريح النقطة ! . . ياحوستى . . آه ياناري لو أشوفه قدامى دلوقت . .

وانفلتت إلى باب الدار فصرخت فيها أمها تأمرها أن تعود ، وتخرس .

وسكتت الأم قليلا ، ثم قالت فى إذعان والأوزة تزعق فى يدها :

ـ اكفى عالخبر ماجور بقى . . لنا رب .

ثم كشفت رأسها ورفعت وجهها إلى فوق وهى تقول فى ضراعة :

ـ يارب ! . .

وأجهشت الأم نفسها بالبكاء . . ومضت تسن السكين على حافه الجرة ، والأوزة فى يدها تزعق .

غير أن « وصيفة » لم تستطع أن تخرس . فقد ظلت تذهب وتجىء فى وسط الدار ، وعيناها على الباب المفتوح تنفذان إلى الطريق فى انتظار مرور « شعبان » .

ومر « عبد الهادى » من الطريق ، فتزايلت « وصيفة » ، وتضرج وجهها ،

وشعرت أنها تكاد تقع من طولها .. ولم تعرف كيف تصنع .

ولمحها « عبد الهادى » فتوقف ، وقال باهمال مصطنع :

- عواف يا « وصيفة » .

وراح لونها تماما ، وشعرت بأذنها تلتهبان ، وبأنفاس ثقيلة حارة ترتفع متلاحقة من أعماق صدرها ، وتخنقها .

ووقف « عبد الهادى » ينظر اليها وهى ترتعد :

- دهدى ؟ خبر ايه ؟ . . مابترديش ليه . . مالك ؟ ركبك عفريت ؟ الله . . جرالك ايه ؟ انتى عيانة ؟ جاتلك الوريته ؟ .

وفى الحق أنها كانت ترتعش ، ووجهها محتقن تماما ، كأنها مريضة بالملاريا .

واستطاعت أن تقول له آخر الأمر بصوت مجهد :

- روح يا « عبدالهادى » روح لحالك .. روح أحسن شعبان والاحد يشوفنى واقفة قدامك كده يبقى الكلام سدق ! يبقى شعبان كلامه سدق ! .

وجرت إلى داخل الدار ، ومازالت الدموع تنهمر من عينيها بلاتوقف .

وأدرك «عبد الهادى» أن «شعبان» قال كلاما عنه وعن « وصيفة » فمضى محنقا ينوى به شرا .

و « عبد الهادى » على الرغم من كل شىء ، مازال يفكر فى الزواج من « وصيفة » .

ونضارة القطن الابيض الجديد فى الحقول تحمل إلى نفسه الفرحة والأمل ، وهو يعتقد أنها تحمل إلى « وصيفة » نفس الأمل ونفس الفرحة .

فهو ينوى أن يجمع القطن بعد أسابيع قليلة ، ليبيعه لأحد الخواجات الذين يزورون القرية فى مواسم القطن ، وعندما يقبض ، يؤجل مال الحكومة ويدفع مهر « وصيفة » ويتزوج .

و « عبد الهادى » يمضى منطويا على حلمه هـذا السعيد ، منذ عاد من سجن المركز ، فقد كلم « محمد أبو سويلم » فى الموضوع أول ليلة فى السجن ، ونهره « أبو سويلم » لأن السجن ليس هو المكان الصالح للاتفاق على الزواج ، ولكن «عبدالهادى» كلمه مرة ثانية فى طريق العودة ، فوافق وأجله إلى مابعد جمع القطن .

على أن « عبد الهادى » لم يكد يرى حال « وصيفة » ويسمع ماقالته ، ولم يكد يشعر بحيرتها وعذابها واضطرابها العظيم ، حتى أقسم أن يكسر رقبة « شعبان »

أمام دوار العمدة نفسه .

ومشى « عبد الهادى » ليضرب « شعبان » ومن يتعرض له ! .

* * *

وحين كان يمضى مندفعا إلى دوار العمدة باحثا عن «شعبان» مر فى طريقه بدكان «الشيخ يوسف» ، وسمع صوته يرتفع ، محتدا على أحد الفتيان الذين عادوا إلى القرية بلا عمل .

كان «الشيخ يوسف» يلعن الولد وأباه وأمه ، ويعيره بشعره الطويل كشعر البنات .. ويسخر من لهجته القاهرية المائعه كنسوان آخر الزمن ، والفتى ينظر إلى «الشيخ يوسف» فى اهمال ، ويمر بيده المعروقة خلال رأسه العارية ، ويطمئن على ثبات الخصلات المصفرة المصبوغة بالاكسيجين فى شعره الاسود اللامع ، ثم يؤكد «للشيخ يوسف» أن شق السكة الزراعية الجديدة سيكون فى مصلحة البلد لانه يوجد عملا لاولاد البلد العاطلين .

وظل «الشيخ يوسف» يصرخ :

- يا واد افهم . . بقى هيه الحكومة نقصاكم ؟ ! . . بقى هيه يعنى لسه حاتدور على أولاد البلد العواطلية علشان تشغلهم فى الزراعية ! ؟ وماتجيبشى له من عواطلية البندر ؟ .. وعمال الطرق راحو فين ؟ هوه الشغل بالساهل كده ؟ ! . . يا واد دا الناس بتجرى عليه وتشقى وبرضه ما تلاقيش .. أنت مش كنت خدام فى مصر .. تعرف تعملى إيه هنا ؟ ! حاتمسح بلاط الزراعية ؟ . . حاتطبخ فى الزراعية ؟ . . حاتشتغل ايه فى الزراعية بس ؟ تعرف تمسك فاس ؟ . . تعرف تفحت ؟ جاتكو وجع القلب زى ما وجعتوا قلبى . . جاتكو زيحة تزيحكم .

ونظر « عبد الهادى » طويلا الى الفتى . .

كان وجه الفتى جامدا برنزيا . . وكانت عيناه زائغتين . . وكان يهز كتفه فى رفض لكل ما يسمع .

وقال له « عبد الهادى » باشمئزاز :

- والقيراطين بتوع أبوك ما هم حيروحو فى الزراعية يا حضرة لفندى يابو شعر يابتاع مصر يا اللى بتفهم ! .. أرض أبوك حاتكلها الزراعية .. حاتكلوا منين انتو والجاموسة ؟ حاتشترى تبن للجاموسة ولا حاتشترى الطفح اللى بتطفحه من غير عرق . حاتشترى المش والعيش الدرة ؟ .

ثم أكمل « عبد الهادى » مقلدا لهجة أهل مصر :

ـ ولا حاتشترى . . جبنا ؟ ! .

وضحك «الشيخ يوسف» طويلا ، وضرب كفا بكف .. ثم هز رأسه قائلا :

ـ بقى بذمتك دول ناس ؟ .. بقى دى بلد ؟ يا خويا العيال العواطلية كلهم انقلب مخهم .. قلب مخهم الواد « شعبان » .. راكبهم عفريت اسمه الشغل .. الواد « شعبان » فهمهم ان الحكومة حاتشغلهم فى الزراعية . . مافيش غير ولدين تلاته كانوا صنايعية فى مصر هم اللى فاهمين الدور والباقى خلاص انقلب مخهم . .

وزمجر « عبد الهادى » وهو يصر على اسنانه :

ـ شعبان ؟ طب يا « شعبان » يابن ستهم . . والله لو كان عمرك اردب برسيم لاشحتره وألمه حبة حبة يا شعبان الكلب . . صبرك على يا «شعبان» .

فقال الفتى وهو يتهيأ للانصراف :

ـ وماله « شعبان » ؟ .. الشيخ « شعبان » عمل عمر البلد ما سمعت عليها ولا كانت تحلم بيها . . ضرب لكم رجالة الحكومة وكرشهم لوحده . . دى مش حلوة . . اداهم ضرب . .

وكان الفتى يتحدث بلهجة قاهرية . .

وضاق به « عبد الهادى » وقال بضيق وهو يقلده ساخرا بلهجته :

ـ حلوا .. اداهم ضرب . .

ثم لكزه « عبد الهادى » وهو يقول مشمئزا :

ـ بس ماتتقصعشى كده زى الغوازى . .

فصاح « الفتى » متحديا وهو ينسحب :

ـ ما حدش خرج من ايده يعمل اللى عمله « الشيخ شعبان » .. انتم غايرين من « الشيخ شعبان » . دى شطة . .

فهب فيه « الشيخ يوسف » :

ـ شطة ؟ شطة ايه اياك تنشط رقبتك عن جتتك ! . . اياك تنشط انت واللى همصك .. اسمع يا واد انت يا غازية .. اوعى تهوب ناحية الدكانة دى تانى ؟ ! ايه يا خويه كلام العوالم ده . اداهم ضرب ؟ . حلوا . جاك حلا فى شداقك ! .

ومشى الفتى النحيل الطويل ، يهز رقبته الرفيعة ويحنى رأسه اللامع الى الارض وعيناه الضيقتان ترسلان على التراب نظرات تائهة ، وظهره مثقل بأحلام العمل والمال . وكل ما يمنحه المال ! .

بينما أخذ « الشيخ يوسف » يصفق متعجبا لما دهى القرية منذ أقبل اليها « شعبان » هذا .

لقد جاءه منذ لحظات هذا الولد فظل يحدثه عن العمل الذى توجده الزراعية للعاطلين ، وشرع بلا مناسبة يتحدث عن مقدرة « عبد الهادى » فى لعب العصا ، ويحاول أن ينال منها . وزعم أنه هو نفسه يستطيع أن يلعب العصا خيرا من « عبد الهادى » وظل يرغى فى هذا الامر .

وعند ما سمع « عبد الهادى » هذا الكلام ضحك طويلا . فاحتد « الشيخ يوسف » عليه واستمر يقول « لعبد الهادى » إن البلد انقلب مخها وانقلب حالها . ففى هذا الصباح جاءه رجل سمين قصير من الناحية البحرية وقال له إنه سمع أن « عبد الهادى » عند ما كان فى سجن المركز ، غافل أهل القرية المسجونين معه واتفق مع رجال الحكومة على أن يسهل مأمورية شق الزراعية ، ما دام لا يملك أرضا فى حوض الترعة وان يصيبه ضرر ، ولهذا فهو لم يضرب كالآخرين فى سجن المركز ، وافرج عنه معهم رغم أنه هو الذى قطع الجسر أول الناس . وعاد الى القرية يضحك ولا يبالى .

وحين سمع « عبد الهادى » هذا ، ضحك مرة أخرى .ولكن «الشيخ يوسف» استطرد قائلا إن الامر لا يضحك ، «فشعبان» هو الذى أقنع الرجل الأبله بهذا ، وجاء الرجل بكل بلاهة يروى الامر كانه حقيقة ! .

وسكت « الشيخ يوسف » قليلا ثم قال إن الرجل الذى يقول هذا الكلام عن « عبد الهادى » عدة مرات عند ما حاول بعض جيرانه أن يهشموا رأسه الغبى ، وحاول أن يعلمه لعب العصا ، ولكنه لثقل جسمه وثقل عقله ، ولفرط غبائه لم يفلح ! .

وهز «عبد الهادى» رأسه قائلا باهمال :

ـ هوه ده اللى اتكلم عنى ؟ ! عرفته . يا أخى دا غلبان . خليه ياكل عيش . الله يسهل لك ياابا الشيخ يوسف . دول غلابه . إن كان هوه ، ولا الواد التانى اللى كان هنا دلوقت بيتقصع زى الغوازى . دول ناس هفق لاهنا ولا هناك . خليهم يقولوا . .

ثم سكت « عبد الهادى » قليلا ليقول بثبات :

ـ إن ما كنتش اقطع جدرك يا « شعبان » انت والعمدة النجس بتاعك .

ما أبقاش « عبد الهادى » .

وعاد «الشيخ يوسف» يعجب لما يصنعه «شعبان» .

فهو يتقرب من «علوانى» ويدخل عليه بأنه صديق ، وأنه يريد أن يقتل معه العمدة لمصلحة أهل البلد . ويطمئن اليه «علوانى» ويعترف له مفاخرا انه سرق الذرة والقمح من مخازن العمدة .

وبعد هذا الاعتراف بقليل . يقبض على العربى المسكين بتهمة قتل «خضرة» .

وتنهد « عبد الهادى » فى إشفاق على «علوانى» ومص شفتيه قائلا وهو ينظر فى الفضاء :

- يا ولداه عليك يا شيخ العرب .. والله كان مالى علينا البلد يا جدع .

واستطرد « الشيخ يوسف » يروى «لعبد الهادى» فى عجب قصة فتيان آخرين أوقع بهم « شعبان » .

فمنذ أيام ثلاثة ، جاء الى الدكان بعض الفتيان الطيبين من الذين لفظتهم المدينة بعد أن طردتهم المصانع - لم يكن « شعبان » قد أفلح فى إقناعهم أن الزراعية يمكن أن توجد لهم عملا ، فقد كانوا يخافون على الارض ، ويبحثون عن طريقة للدفاع عنها - وكانوا يعرفون أن كلام « شعبان » عن العمل ليس جدا . فلن يستطيع واحد منهم أن يعمل فى الزراعية .

لن يحمل واحد منهم الفأس لتحطم بها الحياة التى يتمتع بها أب أو أم أو أخ أو خال .

لم يكن عند واحد من هؤلاء الفتيان الطيبين أى استعداد لأن يشق الزراعية . لأن يدمر الأرض التى لعب عليها وهو صغير ، والتى يعيش فيها عند ما يطرده المصنع ، والتى يحيا عليها ويموت ، رجال ونساء تجرى فى عروقهم نفس الدماء !.

وعند ما كان هؤلاء الفتيان يبحثون عن طريق للدفاع عن الأرض ، أقنع « شعبان » بعضهم بسرقة حديد الزراعية .. وحكوا « للشيخ يوسف » أنهم اتفقوا مع « شعبان » على أن يأخذوا الحديد ، ويتولى هو بيعه ، وتقسيم الثمن عليهم :.

ولم يكد يمضى يومان على هذا الحديث أمام الدكان حتى أرسل هؤلاء الفتيان جميعا إلى خفر البحر ليحرسوا جسور النيل من الفيضان فى أماكن نائية ، بلا أجر ، ولا طعام ، وتحت لهب الشمس وسياط الجنود !.

ظل « الشيخ يوسف » يروى هذا بعجب ، وهو يرثى للفتيان يتعذبون على الشطآن البعيدة .

ثم قال :

ـ آدى أول دفعة من غفر البحر .. ويا عالم بقى مين رايح فى الدفعة الثانية .. وغفر البحر إيه دلوقت يا اخوانى .. الكلام ده كان من شهر .. حد ياخد غفر بحر دلوقت .. آه ياحكومة ! ..

وغاض لون « عبد الهادى » فجأة .. ثم لمعت عيناه ودارت فى رأسه الأفكار ، إن العمدة يستطيع أن يجمع كل رجال القرية إذن ويرسلهم فى تراحيل ! .

وفجأة تساءل « عبد الهادى » بلهفة وتحرق أين يمكن أن يجد « شعبان » الآن . ورد عليه « الشيخ يوسف » متسائلا إن كان « شعبان » قد ارتكب معه شيئا .

ولم يجب « عبد الهادى » .

وأمسك « الشيخ يوسف » بقلة كانت على أرض دكانه ، ورفعها الى فمه ، وشرب ، ومسح شفتيه بظهر كفه وهو يقول :

ـ يا أخى يا « عبد الهادى » ما حكاية الا حكاية « محمد أبو سويلم » مع « الشيخ حسونة » . دا الواد شعبان خبص البلد كلها . انت عارف منزلتهم عند بعض . ومع كلا كانوا خلاص خسروا بعض لولا لطف ربك ذو الجلال والاكرام ! .

وأقبلت امرأة تشترى ملحا بكوز من الذرة ، فقال لها « الشيخ يوسف » وهو يفحص الكوز الصغير :

ـ شوفى غيره . دى قرقره دى مش كوز ! .

فقالت له بيأس وحسرة :

ـ والنبى ماعندى غيره . هوه حد لاقيه .

تمهل « الشيخ يوسف » قليلا وهو يفحص الكوز . وأخيرا هز رأسه ورمى الكوز الى داخل الدكان فوق كيزان أخرى وأعطاها الملح .

وعاد « الشيخ يوسف » إلى « عبد الهادى » يكمل له مابدأه من حديث فيما حصل بين « الشيخ حسونة » و « محمد أبو سويلم » .

وما حصل .. حصل بالأمس فقط فى مندرة « الشيخ يوسف » نفسه .. اذ أقبل « محمد أبو سويلم » على « الشيخ حسونة » فوجده مغضبا .. وكان « محمد

أبو سويلم » هو الآخر يعانى حرجا .

وبدأ « الشيخ حسونة » عتابه .. فسأل « محمد أبو سويلم » لماذا يشيع عنه ـ على الرغم من صداقتهما القديمة ـ أنه انما ذهب الى المركز لا ليسعى من أجل القرية كلها فى مسألة الزراعية ، وانما ليقنع أصدقاءه هناك بأن يغيروا طريق الزراعية حتى لا تمر فى حقله هو .

وانفجر « محمد أبو سويلم » فى وجه « الشيخ حسونة » قائلا فى استنكار :

ـ أنا قلت عليك كده ؟ . كلام ايه ده يارجاله . سامع ياشيخ يوسف حضرة الناظر بيقول ايه ؟ . بقى أنا أقول كده ؟ . بقى أنا أقول عليك ياشيخ حسونة انك رحت المركز توالس مع الحكومة ؟ بقى ده كلام ياجدعان . ويدخل عقلك الكلام ده ياشيخ حسونة ؟ . ياحضرة الناظر !!.

وضاق « الشيخ حسونة » بلهجة « محمد أبو سويلم » فزعق :

ـ أيوه انت قلت كده . انت حاتتأرزنى يا أخى ؟ ! أيوه انت قلت ! .

فقال « محمد أبو سويلم » :

ـ دهدى !! قلت قلت . اللى فى قلعك انفضه بقى . ان كان فى قلعك ريح انفضه . هه . مادام بتزعق كده ، وعاوز تبوظ لنا المجلس .

فرد « الشيخ حسونة » فى ضيق :

ـ أنا حابوظ المجلس . هو أنا بابوظ المجلس . أنا زينة المجلس مش حابوظ المجلس . أما قلة أنسه صحيح ! .

فهاج « محمد أبو سويلم » :

ـ أنا قليل الآنسة ؟ أنا ياشيخ حسونة ؟ ! بقى كلنا بنقول عليك راجل متنور وبتفهم تقوم تتهمنى انى قلت عليك كلام ؟ على كده بقى تبقى انت قلت كلام فاضى على بنتى ! .

وجن « الشيخ حسونة » من الحنق فصاح :

ـ أنا باقول كلام فاضى ؟ ! أنا يامحمد ؟ ! أنا قلت كلام على بنتك ؟ ! دى مصغرة وشغلة عيال ! لكن انت مش غلطان ! أنا اللى غلطان ! أنا أستحق أكثر من كده اللى سبت أولادى لوحدهم ورجعت البلد دى ، قال ايه علشان نقف يد واحدة فى مسألة الزراعية .

وصعق « محمد أبو سويلم » قائلا :

- بقى أنا يافلاح أفهم الدور وانت اللى اسمك متعلم ومتنور لسه ماعرفتش ؟. هوه معقول أنك تقول كلام فاضى على بنتى ؟. لكن ماقولك ان اللى بلغك الكلام اللى مزعلك بلغنى برضه انك اتكلمت على بنتى . بقى يدخل عقلك الكلام ده ياحضرة الناظر ؟ ! ياسنة مهببه يا أولاد ! ! مش « شعبان » اللى قال لك ؟ ! هوه كلام « شعبان » خال عليك ، وفتحت له صدرك ؟ ! دا جه يكلمنى ، كنت حاقطع رقبته بالفاس زى تعبان الشراقى . ماحاكم الواد جه قبل كده يقول لى ان دياب مستحلف لعبد الهادى ، وحايضربه بالعيار ، من جرة عركة الجسر . قلت له ياشيخ شعبان ماااصطلحوا سوا ودحكوا سوا وانضربوا سوا . . قال لى ولو يكن . دياب بس مستنى لما الدرة يطول كان شويه وهو ومحمدأفندى مرتبين الشغلة على ايدى . سألت «دياب» و « محمد أفندى » حلفوا بتربة أبوهم أن الكلام ده ماحصل وماجرى من أصله ، وان مافيه بينهم وبين « عبد الهادى » أيها حاجة ، بس قارشين ملحته حبه من يوم ما عرفوا انه مستحلف لهم . القصد تنى وراهم وورا « عبدالهادى » لحد ماعرفت ان « شعبان » هو اللى مطلع الكلام . والمصيبة أنهم فى الأول ماكانوش راضيين يقولوا مين اللى قال لهم . بس يقولوا بلغنا من واحد مايكدبش . تقولشى يعنى قروا فى الجرايد ؟ ! عرفت بقى ياحضرة الناظر ؟ اش حال لوما كنتش انت قلت لنا فى الأول انك مقبوض من الواد « شعبان » ومش مستريح له ؟ اش حال لو ماكنتش انته اللى نهتنا فى الأول على « شعبان » ده ؟ ! بقى أنا أقول عليك موالس مع الحكومة ؟! يانهار أزرق ياشيخ حسونة . ويزلف لسانك كده دغرى وتهب فيه ؟ ! هو اللى بينا ايه يا أولاد ؟ ! عيش وطوب ؟ . هو الدم ده ميه ؟ هيه العشرة دى إيه ! . داحنا اخوات ياحسونة وأكتر من الاخوات كمان ! ياوقعة غبرا ؟ ! ياشيخ دا أنا فاكر انك انت اللى حاتمشى ورايا وتاخد العزا فيه وتشوف عيالى من بعدى ! .

واختلج صوت « محمد أبو سويلم » وتهدج . ثم اختنق بالدموع .

وخفق قلب « الشيخ حسونة » فى ندم ، وحب ، وهلع . . وجاشت نفسه بحزن مباغت . . واضطرمت عواطفه فجأة . فقام مندفعا الى « محمد أبو سويلم » وعانقه قائلا :

- معلهش يا محمد ياخويا . . أنا محقوق لك . . الخبص يعمل أكتر من كده .

وتعانق الصديقان ، وسالت دموعهما واختلطت .

وعندما جلس « محمد أبو سويلم » قال :

- ملاعيب العمدة ياسيدى .. ملاعيب العمدة .

ثم دعا « الشيخ حسونة » على العشاء عنده .

* * *

ولم يكد « الشيخ يوسف » ينتهى من رواية هذه القصة « لعبد الهادى» حتى أقبل « الشيخ الشناوى » مهرولا الى الدكان ، ليقول لهم إن حوض الترعة يمتلىء بالحديد وأدوات الحفر ، وأن « شعبان » هناك يقف مع الرجال الذين أقبلوا من البندر .

وبوغت « الشيخ يوسف » و « عبد الهادى » وترددت همساتهما :

- يا سنة سوده ؟ ! طب وايه العمل دلوقت ؟ .

واستمر « الشيخ الشناوى » يقول إنهم ألقوا بالحديد فى حقل « محمد أفندى» وفى حقل يجاوره .

ولقـــد حاول « دياب » أن يعترض ، ووقف فى طريق الرجال ، وحاول « شعبان » أن يهمس فى أذنه ، ولكن « دياب » نحاه بشدة ، واندفع يحاول منع الرجال من المرور فى حقله . وكان « محمد أفندى » هناك ، فناداه بانزعاج وأمره ألا يتعرض لأحد . وانسحب « دياب » فى إذعان ، ووجهه يتشنج على دموع لاتنهمر ، وقد اصفر لونه الاسمر ، واخضر ، وترك الرجال يدهسون القطن الابيض النضر الذى يشرح الصدر ويسر الخاطر . وحين رأى «دياب» قطنه يهوى على الأرض ، ويختلط بالتراب ، رفع يديه وخبط بهما وجهه ورأسه ، وأطلق صرخات يائسة ممزقة !

والتفت « الشيخ يوسف » إلى « عبد الهادى » قائلا فى صوت كسير :

- شايف بقى ، الحكاية وصلت لأيه ؟! شايف بقى « شعبان » ؟ ! ماخلاص !!

والتقطت امرأة فى الطريق كلمات « الشيخ الشناوى » عن حديد الزراعية فأطلقت صرخة . ترددت الصرخة ، وخرج النساء من الدور يسألن عن الخبر . وبعد قليل كانت القرية ترن بالصوت الفاجع يطلقه النساء .

وتجمع بعض النساء أمام دكان « الشيخ يوسف » فصاح فيهن أن ينصرفن فرجال القرية يعرفون شغلهم مع حديد الزراعية .

ودفع « الشيخ الشناوى » عنه امرأة شابة ، حتى لاتنقض وضوءه ، وزعق

فى النساء اللواتى يلطمن ورفع عليهن عصاه ، مهددا بالضرب .

ووقفت امرأة بدينة عجوز تشتم النساء بصوت حاد جاف :

- يابلد سايبه .. هو انتو مالكوش رجالة ؟ ماتسيبوا الرجالة يعرفوا شغلهم حاتطلعوا انتو تتحشروا فى بتوع البندر اللى جايين مع الحديد . عاوزين تتلزأوا فى الرجالة الغرب ؟ ! طب اطلعوا على حوض الترعة اتحكوا فى الرجالة . اطلعوا .

وغمر الحياء وجه النساء . وبدأ بعضهن ينصرف فى تعثر ، بينما وقف « الشيخ يوسف » يضرب كفا بكف وهو يصيح :

- آه يابلد مالهاش لا كاسر ولا كسار ! ! قعدتى تحقق فى الكلام ، وشغلك « شعبان » فى الكلام الفاضى والحكومة بتشتغل . لها حق الحكومة تعمل فينا زى مايعجبها . ماتنجرى ياوليه انتى وهيه وتسيبوا التساريف للرجالة .

وانسحب النساء الباقيات ، وتجمعن فى حلقات متناثرة على أبواب الدور ! بينما أخذ « الشيخ الشناوى » يقول أنه سمع أن « شعبان » سيعين شيخا للخفراء .

فأكمل « الشيخ يوسف » بنفس لهجته اللاذعة المحتدة . إن كله جائز فى البلد - ثم انتفض صارخا :

- ياشيخ !! وهيه دى بلد . بقى دى بلد .

أما « عبد الهادى » فقد سكت .

أخذت شفتاه تنطبقان على بعضهما فى عصبية ، واتسعت حدقتاه وترددت أنفاسه فى أنفه بصوت مرتفع ، واختلجت عضلات خديه ، وهو يصر على أسنانه . وظلت العروق تنبض على جانبى جبهته ، وأخيرا نكس رأسه وأسنده على عصاه الطويلة .

وبعد قليل تحرك « عبد الهادى » لينصرف . فطلب منه « الشيخ يوسف » أن يبقى لحظة ، ولكنه صمم على الانصراف دون أن يقول الى أين يمضى .

واتجه مسرعا الى بيت « محمد أبو سويلم » وعلى الباب تلكأ قليلا ، ولمح « وصيفة » تجلس على قالب من الطوب أمام الكانون ، والدخان يتصاعد فى حلقات كبيرة من القش ، وعيناها تدمعان .

وأوشك « عبد الهادى » أن يقف ليقول « لوصيفة » إن الرجال من المركز أقبلوا بالحديد لينزعوا الأرض من أبيها ومن الآخرين .

ولكنه هز رأسه ومضى .

فوصيفة تعرف الحكاية كلها .

ولايوجد فى القرية رجل أو امرأة أو غلام لايعرف الآن أن الحديد جاء من المركز ليدق فى الأرض المليئة بالقطن ، وأعواد الذرة الخضراء .

كل إنسان فى القرية يعرف أن الأرض لن تصبح ملكا للقرية .

« وعبد الهادى » لايملك أرضا فى حوض الترعة ، فأرضه كلها على الجسر ، ولن ينتزعوا منه هو شيئا . ولكنه مع ذلك حزين ضيق الصدر ، يكاد يتزايل الى أغوار نفسه ، فهو يعرف أنهم حين يعتدون على رجل واحد فى القرية فكأنما ضربوا القرية جميعا . ولئن اعتدى رجل واحد من القرية على الحكومة لاخذت به كل القرية ، واذا سكت هو اليوم وأرض « محمد أبو سويلم » ودياب تنتزع ، فسيرمونه هو غدا فى داهية بعيدة .

وما زال « عبد الهادى » يذكر أنه حين قطع الجسر ليروى أرضه لم يأخذوه وحده ، انما أخــذوا معه « محمد أبو سويلم » . وعذبوه وضربوه وأذلوه . إن الحكومة تعودت أن تعامل رجال القرية كأنما هم رجل واحد . وإنه الآن ليشعر أن الحكومة لاتخطىء حين تعاملهم جميعا كأنما هم رجل واحد ، فهو منذ سمع بمقدم الحديد ، يعانى فى أعماقه كل مرارة النكبة .

إنه لايستطيع أن يتصور حال « محمد أبو سويلم » لو أخــذوا منه القطن والذرة .

إن « عبد الهادى » فى الحق يحب أرض القرية كلها : أرضه هو الذى اختلط عرقه بترابها ، وأرض الآخرين .

وهو لايطيق أن يمسى ويصبح فاذا الأرض الريانة بالخضرة ، تغـدو أرضا صلدة جرداء يمر فيها الناس والعربات .

إن قوة خفية لايعلمها تعصر قلبه كلما فكر فى أن الأرض ستنتزع ، وأن هذه القوة الخفية التى تعصر قلبه بلا رحمة لتدفعه الآن إلى أن يرفع عصاه ليجعل هـذه الأرض على الدوام خضراء ريانة مزدهرة ، تقدم للذين ينحنون عليها طول النهار طعامهم على الأقل ! .

وهكذا اندفع « عبد الهادى » وقد تفجرت من أعماقه طاقة هائلة ينتفض بها بدنه . طاقة تمكنه من أن يكسر الحديد على رأس العمدة ، وشعبان ، والحكومة .

واهتزت العصا فى يده ، وأحس بها « عبد الهادى » قوية حاسمة . كالبندقية .

وانطلق راكضا الى الحقول فى حوض الترعة . الى المكان الذى كدس فيه رجال الحكومة حديد الزراعية .

كانت أشعة النهار تصفر ، والريح الفاترة تسرى فيها أول رعشات الخريف . والغربان السوداء تهوم فى الفضاء فوق الحقول ! .

وعلى رأس حقل « محمد أبو سويلم » فوق كومة من التراب ، كان « الشيخ حسونة » و « محمد أفندى » و « دياب » يجلسون . بينما وقف « محمد أبو سويلم » ينظر إلى الرجال والحديد . وإذ لاح له « عبد الهادى » ناداه « محمد أبو سويلم » فلم يرد « عبد الهادى » ومال عن الطريق ، واندفع فى الحقل إلى الرجال .

وأحس « محمد أبو سويلم » أن « عبد الهادى » يمكن أن يعتدى على الرجال ، ففى هيئته الشر . والشر يغلى له ! .

وقفز « محمد أبو سويلم » من فوق الكوم ، ولحق « بعبد الهادى » فأمسك به وطلب منه أن يجلس معهم فوق الكوم ليتراودوا .

ولم يذهب معه « عبد الهادى » إلا بعد أن قال له « محمد أبو سويلم » فى همس :

ـ ما احنا رتبنا الشغلة . طول بالك انت بس . بالراحة .

وعلى الكوم جلس « عبد الهادى » محنقا . ولم يحاول أن ينظر الى أحد .

كانت كيزان مشوية من الذرة الجديد ، قد ألقيت أمامهم وهم يأكلون فى ثبات .

وقدم اليه « الشيخ حسونة » كوزا من الذرة قائلا :

ـ خد يا « عبد الهادى » . دره زرع بدرى أهه . كله قبل ما تاكله الزراعية .

وأطلق « محمد أبو سويلم » ضحكات مثقلة . كالزفرات ! .

وعلى كل الشفاه ترددت قهقهات متكسرة ، تنبع من أعماق الحسرة . من حيث تنبع الدموع والمخاوف والندم ! .

أما « عبد الهادى » فلم يضحك .

كانت عيناه تنظران إلى بعيد ، ورجال الحكومة يقفون أمام الحديد الذى يطأ الزرع ، ويهشمه . وإلى جوار الحديد يقف «شعبان» والخفير «عبد العاطى» .

وتمتم « عبد الهادى » ويده على عصاه :

ـ الواد « شعبان » ايه حشره ؟ ! بقى هيه الحكاية كده ! ! على كده دا نازل شيخ غفر صحيح ! .

وقال « الشيخ حسونة » بأناة كبيرة :

- يا أخى حلمك شوية . ماتبقاش شرانى . كله يتعدل . تتعدل .

فزمجر « عبد الهادى » بضيق :

- مين اللى حايعدلها بس ؟ .

وإذ ذاك همس « محمد أبو سويلم » فى أذن « عبد الهادى » بكلمات . وبدأ قطوب وجهه ينفرج شيئا فشيئا . وأخيرا أشرق وجه « عبد الهادى » وابتسم ، وهو ينظر إلى « محمد أبو سويلم » و « الشيخ حسونة » فى أمل وإعجاب .

وهز « عبد الهادى » رأسه ونظراته تتألق :

فقال « محمد أبو سويلم » باعتزاز وثقة وهو يضحك ببساطة :

- أمال يا «عبد الهادى» ؟ انتو برضه لسه صغار . حاكم أنا «وحضرة الناظر» نابنا زارق فى الشغلة دى . من أيام الانجليز ياوله .

* * *

وبعد صلاة العشاء بوقت طويل أطفئت الأنوار فى دوار العمـــدة وفتحت القرية أبوابها التى أغلقها الليل . ومن وراء الأبواب التى فتحت فى حذر ، تسلل الرجال فى الطريق الضيق الى حوض الترعة .

كانوا متشابهين : كلهم ، يلبس الثياب السوداء ! وكل شىء من ورائهم ساكن إلا كلاب تنبح ، وأمامهم حشرات الحقول تطلق أصواتها المختلطة فى فراغ شاسع من الظلمات يخفق بنسمات يدب اليها البرد لأول مرة .

واقترب الرجال تحت شعاع النجوم من حقل محمد أبو سويلم .

ومن بينهم رجال كانوا منذ لحظات يشتكون المغص من حصوات فى الكلى ويعانون آلاما ممضة من التهاب البول . . ولكنهم مع ذلك مضوا فى خطوات ثابتة : تتلاحق أنفاسهم والعزم فى صدورهم أكيد قوى أقوى من الألم ! .

وهمس «محمد أبو سويلم» لرجل طويل ملىء يسرع الخطى متقدما الصفوف :

- طول بالك يا «عبد الهادى» ارجع ورا أنت شوية احسن يشوفوك يضربوا عيار نار ! . مش عاوزين عيار واحد ينضرب

وتراجع الرجل الطويل فى السواد .

وإلى جوار حديد الزراعية فى وسط الحقل ، دعك «شعبان» عينيه ، ورفع رأسه قليلا وهو ما يزال راقدا . وقال :

ـ اعوذ بالله . حاكم الحتة مسكونة . سامع الوشوشة يا « عبد العاطى ؟ » العفاريت طلعوا لنا ! ! .

وسكت «شعبان» قليلا ، وصدره يخفق من الرعب ثم همس :

ـ حاسس بالنفس الملهلب يا واد يا « عبدالعاطى » ؟ ! العفريت ! العفريت ؟ واد يا عبد العاطى . يا وله . يا عبد العاطى ! .

ولكن «عبدالعاطى» لم يجب . .

وأخذ « شعبان » يتمتم بشتيمة «لعبدالعاطى» ، وقطع الشتيمة وأخذ يهمس بأوراد دون أن يجرؤ على رفع صوته فى الظلام المترامى ، بينما كان « عبد العاطى » يستلقى على الأرض غير بعيد عنه ، وقلبه يدق فى انتظار الرجال .

وتحسس « عبد العاطى » بندقيته وبندقية « شعبان » وأمسك البندقيتين بيده جيدا وتظاهر بالنوم العميق ، وأخذ يطلق الشخير . وفى لحظات كان الرجال ينقضون على الحديد . .

ووثب « شعبان » ووقف مروعا وقد أدرك أنهم الرجال . لا العفاريت ! .

ثم انحنى على الارض ليبحث عن بندقيته ولكن « عبد العاطى » كان ممسكا بها ، وقد ماتت يده عليها ، وهو راقد بلا حركة يطلق الشخير المرتفع ، كما اتفق مع « محمد أبو سويلم » قبل المغرب .

وبدأ رجال القرية يحملون قطع الحديد ، ويندفعون بها إلى الترعة القريبة ، ويقذفونها فى الماء .

فوجىء « شعبان » بالرجال ، ولم يفلح فى انتزاع بندقيته من يد « عبد العاطى » فحاول أن يرفع قضيبا من الحديد ليهشم به رؤوس الرجال . غير أن «عبد الهادى» انقض عليه وسد فمه ، ثم رفعه ، وحمله على ظهره ـ كغمر الذرة ـ تماما .

وجرى « عبد الهادى » وهو يحمل « شعبان » فى ضيق بالغ ، ووقف أمام شاطىء الترعة وهزه قليلا بين يديه ثم قذف به إلى أعماق الترعة . وكأنما هو قطعة من حديد الزراعية الذى أرسلته الحكومة لتفسد الأرض .

وحمل كل رجل قطعة فوق ظهره وأخذ يترنح تحتها قليلا فى الظلام ، وما أن يقذفها فى الترعة حتى ينتصب قامته ، وهو يشعر بمثل القوة التى يتخيلها دائما حين يسمع قصة أبو زيد الهلالى .

وتعالت صرخات « شعبان » من أعماق الترعة ، وعلى شطها بعض الرجال

يضحكون ويهددون « شعبان » بألا يعود وإلا قتلوه بالبلغة . كالبرص ! .

وأطلق « شعبان » آخر صرخة وهو يتخبط على ماء الترعة قائلا فى استغاثة «الحقونى» فقال له أحد الرجال :

ـ خلى العمدة يلحقك . خلى الحكومة تلحقك .

وعند ما تأكد الرجال أن «شعبان» قد غطس تماما فى الماء عادوا إلى رمى ما بقى من قطع الحديد والادوات وهم يحسبون أن « شعبان » قد مات ! .

لم يتح لهم أن يعرفوا أن «شعبان» قد غطس قليلا كما يفعل الصيادون ، ثم ظهر على سطح الماء بعيدا عن مكان الرجال ، ليعيش فى قرية أخرى ! .

ولم يكد الرجال يفرغون من القاء الحديد كله فى الترعة ، حتى عادوا وهم يتصايحون مغتبطين .

وكان «عبد العاطى» ما زال متناوما يطلق الشخير كما اتفق معهم وضحك « محمد أبو سويلم » قائلا :

ـ يا جاتك الغم يا واد يا عبد العاطى . . تقولشى تعلب ياخى ؟ والله عفارم عليك ! زى النمس تمام .

وضحك الرجال وبعضهم يقول :

ـ أى يا واد . شخر كمان شخر ! .

وعادوا إلى الدور ، يتندرون بمنظر بعضهم وهم يحملون الحديد ، وبمنظر « شعبان » وهو محمول على ظهر «عبد الهادى» ثم وهو يهوى فى الترعة . ويضحكون بصفة خاصة من « عبد العاطى » الذى استمر يشخر . حتى بعد ما انزاح «شعبان»

كانوا على طول الطريق يمشون فى خفة مرحة ، محمولين على رنين الضحكات ، وكأنهم لم يبكوا من قبل ! .

ولم يكد الرجال يبلغون دورهم ، ولم تكد الأبواب تفتح لهم حتى انطلقت الزغاريد .

ـ غير أن صراخا عميقا من بعيد مزق هرج الزغاريد . وتصاعدت من عند الدوار صيحات هلع . هذه الصيحات المروعة اليائسة المتتابعة التى تعلن دائما من خلال العجز والانهيار : موت إنسان ! .

ووجمت القرية لحظة ثم سرى النبأ أن العمدة العجوز مات .

مات فى الثمانين . وصاح أحد الرجال :

- كل ظالم وله نهاية . ويصوتوا على إيه . دا عمره ييجىماية وخمسين سنة ؟!

وانطلق صوت شاب : ياريتنا نعيش نص ما عاش !!.

وزاحمه صوت آخر :

- إيوه . كل ظالم وله نهاية . كل ليل وله آخر ياأولاد .. زغرتى يابت . أدى احنا خلصنا من الزراعيه ومن «العمدة» ومن «شعبان» سوا ، فى ليلة واحدة ! .

وذهل الباقون لبعض الوقت . . فلم يكن أحد فى القرية يستطيع أن يصدق أن هذا كله يمكن أن يحدث فى ليلة واحدة .

ولحظة بعد لحظة زحفت موجة كبيرة من الفرح تغمر القلوب .

وانطلقت الأكف تصفق على أنغام الزغاريد والنساء يغنين مع الرجال :

يا ليـــلة بيضه الليـــله دى

والفرح جـــانا الليـــلة دى

وهز «محمد أبو سويلم» رأسه والابتسامة تغزو وجهه وقال متأملا :

- يا اولاد هو حد يشمت فى الموت ؟! لكن القصد . مبروك عالبلد . كل شىء وله آخر .

وتلقت القرية أول شعاع من الفجر وهى ترقص وتزغرد . وينطلق فيها الغناء .. أصدق الغناء .

فى مضيفة القرية ، وقف أقارب « العمدة » يستقبلون المعزين .

ولبس شيخ البلد ، ابن عم العمدة ، عمامته ، والجلابية الكشمير التى وضعت بعناية تحت المرتبة بعد أن ضربتها زوجته « بالجندرة » .

وبعد صلاة العصر اتخذ شيخ البلد مكانه على رأس أقارب العمدة فقعد وحده من دونهم فى منطقة الكراسى المذهبة الممتدة فوق بساط أحمر باهت يحتل مساحة ضيقة من أول المضيفة .

أما « محمد أبو سويلم » فقد اختار مكانه على دكة من الدكك الخشبية العديدة ، انحط عليها الفلاحون وبقية المعزين من فلاحى البلاد المجاورة ، فى آخر المضيفة .

وكانت هذه الدكك مصفوفة على أرض المضيفة بلا بساط ولا حصير ، وإلى جوارها فرشت الحصر ، ووضع عليها الكنب البلدى الذى جمع من بيوت أعيان القرية .

كان شيخ البلد قاعدا على كرسى كبير مذهب فى مواجهة باب المضيفة وهو يفكر بزهو فيما قاله المأمور عن التليفون : أن يقوم هو بأعمال العمدة . أن يكون هو نائب العمدة .

وبدأ يصنع تماما كما كان يصنع العمدة فى مثل موقفه : فهو يقوم نصف قومة ، أو يقف منتصباً أمام الكرسى ، أو يمشى خطوات بعيدا عن الكرسى حسب مقام الرجل الذى يقبل للعزاء ، وحسب رغبته فى أن يبدو هذا القادم محترما أو نصف محترم !

وأحس شيخ البلد أنه الرجل الاول فى القرية الآن .

ولكنه مع ذلك استرجع مواقف العمدة ، وأخذ يقارن بين نفسه وبين العمدة الراحل .

كان العمدة رجلا آخر ، أبيض الشعر ، رهيبا .

وكثيراً ما كان يسلم على الناس وهو قاعد ، ولا يقوم إلا للعزيز القوى ، فاذا وقف ليستقبل أحدا قام معه الجميع .

أما شيخ البلد . فهو يقوم ، ويمشى ، ويقعد ، ولا أحد يشعر به ! .

وقرر بينه وبين نفسه ألا يترك الكرسى المذهب الكبير ليستقبل معزيا ، إلا إذا شاهد إحدى عربات الحنطور مقبلة من المركز .

يجب أن يستعد ليكون عمدة . بهيبة العمدة ! .

وألقى نظرة متعالية من كرسيه المرتفع إلى القاعدين على الدكك .

كانوا يسمعون « الشيخ إبراهيم » أشهر مقرىء فى الناحية ، ويطلقون صيحات الاستحسان ويطلبون منه أن يعيد من الأول ويزيد . كأنهم فى مولد لا فى مأتم ! .

وقام اليهم شيخ البلد بنفسه ، وتحسس جلبابه الكشمير ، ثم عقد يديه خلف ظهره ، ووقف يهز بدنه النحيل ، ويطلب منهم فى حسم أن يسكتوا وأن يطفئوا السجائر ، وهم يسمعون القرآن .

واطفأ بعضهم السجائر . . ثم بدأوا يبتسمون ، ويتبادلون النظرات ، ويتهامسون ! .

وقال « دياب » لجاره فى صوت منخفض :

ـ بيشخط قوى كده ليه ؟! جرى له إيه شيخ البلد ؟! يعنى بقى من الحكام ! .

فأجابه جاره هامسا :

ـ أنا عارف له أصفر الوش ده ؟ . . دا كل حين ومين على ما واحد مقتدر ينقلب ونسمع «الشيخ ابراهيم» فى ماعزته ! دا بقى له خمس سنين ماقراش فى العب دا كله .

وما كاد شيخ البلد يعود إلى مكانه حتى ارتفع صوت «الشيخ ابراهيم» يرتل آية جديدة بأعذب نغم .

وصاح أحد الفلاحين من على الدكة :

ـ أيوه يا شيخ ابراهيم يا مشبع ! . . والنبى تقراها لنا بالسبعة وترنح كان يابو خليل يا مقنع .

وابتسم الفلاحون من حوله وابتسم «الشيخ ابراهيم» نفسه وهمس فلاح آخر :

ـ آدى القراية صحيح . آدى الصييت اللى بالمعنى. مش الفقها بتوعنا اللى عاملين زى الضفادع . آدى القرآن مش اللى بيكره سيدنا !.

وصاح «الشيخ الشناوى» وعلى وجهه أمارات احترام كبير «للشيخ ابراهيم» :

ـ صلوا عالنبى واسمعوا يا اولاد . . أيوه يا عم الشيخ ابراهيم ربنا يفتح عليك .

وأنصت الجميع بلهفة ، بينما كان شيخ البلد يميل برأسه إلى أمام وجسده غارق فى الكرسى الكبير المذهب .

كان يحاول أن يستمع إلى رجال جاءوا من المركز للعزاء ، «والشيخ حسونة» يجلس بينهم ، وكلهم يتحدث بصوت خافت كالهمس .

لقد أحس شيخ البلد بأن عليه أن يشترك معهم فى الحديث ، أو على الأقل فليحسن السمع ، ليتنور ! .

وسمعهم يتكلمون عن صحف تصدر فى القاهرة ويغلقها صدقى ، فتصدر فى اليوم الثانى باسم جديد .

وسمعهم يتذاكرون ــ بأكبار ــ أسماء رجال يعيشون هناك فى القاهرة ولا يعرف عنهم الفلاحون كثيراً .

وهزته كلمات حارة قالها صاحب الأجزاخانة الكبرى . . كلمات عن «طه حسين» وجريدة الجهاد . والجامعة . وشىء اسمه الديمقراطية . وحرية الفكر ! .

وتحرك شيخ البلد فى كرسيه ومال بنصف جسده ورفع حاجبيه كأنما يريد أن يثبت فى أذنيه ، وفى قلبه ، كل كلمة يسمعها .

وتكلم المحامى الذى كان نائبا عن الدائرة ــ قبل حكومة حزب الشعب ــ فجذب شيخ البلد كرسيه إلى أمام وأحنى ظهره وامتدت رقبته أكثر من قبل ، وهو يقول بصوت هامس دون أن يحفل بقراءة «الشيخ ابراهيم» :

ـ سمعنا يا حضرة الاستاذ . سمعونا الكلام الحلو بتاعكم ده . احنا مش دارين الدنيا ماشية ازاى ! .

وتهدج صوت المحامى وارتفع قليلا عن الهمس ــ وهو يتكلم عما صنعت الحكومة وتهدد الموكلين فى مكاتب المحامين، وهى تحاول أن تتلف أراضى خصومها وتخرب متاجرهم ، وقد منعت الماء بالفعل عن مساحات كبيرة من الأرض ، وأطلقت رجال البوليس يعذبون الفلاحين هنا وهناك .

واسترسل المحامى فى صوته المتهدج يتحدث عن الأزمة التى لن تنفرج إلا إذا كانت فى مصر حكومة ديمقراطية ، ثم استطرد يصف أعمال الحكومة بالوحشية ويروى ما رآه وما قرأه عن المظاهرات فى المنصورة وطنطا وبنى سويف والفيوم . وكيف حاولوا هناك قتل زعيم الأمة عدة مرات فتلقى عنه طعنة السنكى نائب جرىء اسمه سينوت حنا .

ومضى النائب يروى كيف حاولت الحكومة منع زعيم الأمة من رحلاته وحاولت اعتقاله فى بيته ولكنه خرج متحديا سلطانها وسلطان الأنجليز ، وشق صفوف الجند فاضطروه إلى النوم على أرصفة المحطات . ومع ذلك صمم على أن يعلن إرادة الشعب ولتفعل القوة الغاشمة ما تشاء ! .

ولم يكد المحامى ينتهى من كلامه حتى اندفع «الشيخ حسونة» بصوت حار يذكره بتحطيم سلاسل مجلس النواب ويطالب منه أن يشرح بالتفصيل موقف ويصا واصف رئيس المجلس البطل الذى اقتحم دار البرلمان متحديا قوة الرصاص بعد ما أذاع النواب أنهم لا يعترفون بحل مجلس النواب ولا بالغاء الدستور ولا بخرافة الدستور الجديد . دستور حزب الشعب ! .

وبدأ المحامى يشرح فى كبرياء ، فاختلجت القلوب .

وهز شيخ البلد رأسه ، وسحب الكرسى المذهب الثقيل ، فازداد اقترابا من المحامى ، وشعر بخفقات قلبه تتعالى . . وشاعت فى نفسه حماسة يخالجها الأمل .

وامتلأ شيخ البلد إحساسا ببطولة الذين حطموا السلاســـل ، وناموا على أرصـــفة المحطات ، وملأوا الشوارع فى القاهرة وطنطا والمنصورة والفيوم وبنى سويف ، ولم يحفلوا بالرصاص .

وهز رأسه متحسرا لأنه لم يكن يعرف هذا كله ، وكان يمشى وراء العمدة ينفذ سياسة الذين وضعوا الحديد على مجلس النواب ، وأطلقوا الرصاص على الناس فى الشوارع .

واضطربت نفس شيخ البلد قليلا وحاول أن يسأل المحامى عن كلام قاله المحامى ولم يفهمه هو . كلام قاله المحامى عن وجوب إعادة الحياة النيابية وإطلاق الحريات لتنفرج الأزمة الاقتصادية .

ولم يعرف شيخ البلد كيف يصوغ سؤاله . ولكنه قال فجأة :

- طيب وياحضرة الأستاذ إيه رأيك فى القطن بقى ؟ مش حايشوف له يوم زى زمان ؟ .

وهز المحامى كتفه بسخرية وقال مستهزئا إن صـــدقى باشا اقتصادى جبار ذو كفاءات والانجليز فى حكمهم لمصر يعتمدون على أمثال هذه الكفاءات ! .

وأدرك شيخ البلد من ابتسامات السخرية ومن تجربته أنه لاصلاح للقطن ولا لأى شىء فى مصر مادام صدقى يحكم البر ومعه رجال يركبون ظهور الناس ، ويهزون أرجلهم .

وأحس شيخ البلد أنه كان هو من قبل ، يعرف شيئا كهذا ، ولكنه كان فقط يريد أن يفهم من المحامى أين الطريق إلى الخلاص !

ولكنه سكت لحظة ، وسكت المحامى والذين من حوله . وصـــوت « الشيخ ابراهيم » يرتفع يتلو الآيات بالقراءات السبع ويعيد الآية الواحدة بأنغام ولهجات مختلفة ، والفلاحون يتصايحون أكثر من ذى قبل . وقال أحدهم :

- الله الله يا « شيخ ابراهيم ! » داحنا مش عايشين ياولاد .

فجاوبه آخر :

- آه يا « شيخ ابراهيم » الهى يموت لنا كل يوم عمدة عشان نسمعك ياشيخ .

بينما ارتفعت من خارج المضيفة شتائم قاسية تصطحبها جلبة عربة حنطور .

ووقفت العربة بعيدا والشتائم تنصب على رجال يقفون أمام حبل طويل ربطت فيه حمير المعزين بعيدا عن المضيفة .

وأخذ الرجال يجذبون الحمير التى حملت المعزين من بلاد بعيدة . فواصلت العربة سيرها الى باب المضيفة ، بعد ماانفسح أمامها الطريق من ركائب المعزين .

وقبل أن تقف العربة أمام الباب ارتفعت همهمة باسم « محمود بك » والمأمور ، وهب شيخ البلد من مكانه ، وجرى مسرعا الى باب المضيفة وقد تخلى - فجأة - عن كل هيبته التى ظل يدخل فيها منذ دخل المضيفة .

وخرج وراءه الى الباب « محمد أفندى » و « الشيخ الشناوى » وبعض أعيان القرى المجاورة ليكونوا فى استقبال المأمور و « محمود بك »

وهمس أحد الفلاحين لجاره فى ذعر واضح :

- المأمور ؟ يكونشى درى بحكاية حديد الزراعية ! .

فأجابه جاره باهمال :

- دهدى .. مايدرى !.

وبدأ كل من فى المضيفة يقف . الا المحامى الذى كان نائبا للدائرة فلم يتحرك لاهو ولا الذين جاءوا معه من عاصمة الاقليم ، ولا « الشيخ حسونة »

وهمس المحامى قائلا إنه لاسلام مع رجال الحكومة أو رجال حزبها أو المتعاونين معها كما يعرف الجميع !.

واستمر «الشيخ ابراهيم» يقرأ الآية التى كان يقرأها . وكان يقرأ «بالسبع» !

وعندما كان المأمور يخطو باب المضيفة ، وهو يشد بدلته العسكرية على بدنه الغليظ المتكرش والفلاحون ينظرون اليه فى حذر ورهبة انطلقت الآية :

« وانظر إلى حمارك »

ووقف المأمور فى المدخل والكل ينظر اليه والى بدنه السمين وصوت المقرىء يعيد :

« وانظر إلى حمارك »

وتقدم المأمور الى منطقة الكراسى المذهبة ، والى جواره « محمود بك » فى طربوشه الفاقع الشاهق ، وجلباب بلدى أبيض ينسدل هفهافا على جسده الفارع .

ومن ورائه « الشيخ الشناوى » و « محمد أفندى » وشيخ البلد ، وبعض أعيان البلاد المجاورة .

وبدأ الواقفون يتنحون عن أماكنهم للمأمور ، و « لمحمود بك »

وجلس المأمور فى صدر المضيفة . مكان شيخ البلد ، وعن يمينه « محمود بك » و « محمد أفندى »

وتنقل الناس من أماكنهم ، وهبط بعض الذين كانوا على الكراسى المذهبة فجلسوا على الكنب ، وترك بعض الذين كانوا على الكنب أماكنهم ليجلسوا على الدكك الخشبية وذهب « الشيخ الشناوى » يجلس على دكة وسط الفلاحين .

وألقى شيخ البلد بنفسه على طرف كرسى أخضر مذهب عن شمال المأمور .

وشعر شيخ البلد بكبرياء وهو يجلس الى جوار المأمور و « محمود بك » .

واستلقت عيون الفلاحين على المأمور ، و الشيخ ابراهيم » مازال يرتل بالسبع « ويمد كلمات الآية :

« وانظر إلى حمارك »

وأحس المأمور بالأنظار تتجه اليه ، ورفع بصره قليلا الى المقرىء ليجاوز الآية . ولكن « الشيخ ابراهيم » كان مشغولا باعادة الآية وترتيلها بأجمل ما يملك من صوت . وبكل مايعرف من طرق ، وحيل ! .

أما شيخ البلد فقد ملأته الراحة ، وهو يتأمل إلى جوار كتفه كتف المأمور . وأخرج من جيبه علبة سجائر ، اشترتها عائلة العمدة ليقدم منها للأكابر من المعزين ، ووقف أمام المأمور وقدم له سيجارة ، وسيجارة أخرى « لمحمود بك » .

وعاد يقعد فى مكانه على طرف الكرسى إلى جوار المأمور وهو ينادى :

- قهوة لسعادة المأمور ياجدع .

و « الشيخ ابراهيم » مازال يعيد فى الآية :

« وانظر إلى حمارك »

وابتسم القادمون من المركز مع المحامى .

ومال المحامى على جاره وهمس فى أذنه وأخفيا الضحكات ، وهما ينظران إلى المأمور و « محمود بك » والآذان تلتقط كلمات الآية .

وسرت نفس الهمهمة فى الفلاحين ، وعيونهم محطوطة على المأمور وبدأ بعضهم يكتم الضحك .

وأحس شيخ البلد بحرج كبير .

ونظر إلى المأمور فوجده مقطبا ينفث دخان سيجارته بعصبية وأنفاسه تتردد عالية فى منخريه . وإلى جواره « محمود بك » محتقن الوجه من الغضب .

وهرول شيخ البلد إلى المقرىء وهمس فى أذنه :

- شوف لنا آية غير دى فى عرضك . عـــدى الآية دى بق . بلاش تقرا بالسبعة فى آية وانظر إلى حمارك دى . لاحسن الناس بتبص عالمأمور .

ولكن المقرىء نظر اليه باهمال واستهجان ، وثبتت يداه على صدغيه ، وحاجباه يرتفعان بغضون جبهته ، وانطلق يرتل :

« وانظر إلى حمارك » .

وأخذت الهمسات الساخرة تتزايد بشكل ملحوظ فى منطقة الكراسى المذهبة ذات القطيفة الخضراء الكالحة .

فصاح « محمود بك » فى ضيق :

- خلاص يا « شيخ ابراهيم » ؟ ! مافيش فى القرآن غير دى ؟ ! من ساعة مادخلنا وانت عمال تلت وتعجن فى الآية دى ! همه مصلطينك ؟ !

وانفجرت الضحكات صريحة قوية من الجالسين على الدكك .

فوقف المأمور قائلا فى صوت حاسم :

- صدق الله العظيم ! طب يا أخى ماتقرا آية وحشرناهم يوم القيامة وفدا .

وسكت المقرىء . مغضبا .

وسكت الضاحكون من فوق الدكك .

وجلس المأمور صارم الوجه .

وخيم الصمت على الجميع لحظة . ثم رفع المأمور يده ، ولوح بها للجالسين على الدكك وهو يقول :

- طيب يابلد ! مش انتو بتوع حديد الزراعية . مش انتو بتوع يحيا الوفد .

فقال المحامى بطلاقة :

- ليسوا هم فقط ! دى مصر كلها كده ياحضرة المأمور . والا انت زعلان علشان حكاية يحيا الوفد دى خدت فى وشها المأمور اللى فات والحكمدار كمان ؟ ! أمال الناس يعنى حاتقول يحيا صدقى ؟ حايقولوا يحيا حزب الشعب ؟ ولا يحيا الانجليز ؟ . إنتم فاهمين !نكم رايحين تحكموا البلد بالحديد والنار ؟ ! لا . . دا بعدكم ياحضرة المأمور !! هيه البلد دى بتاعتكم ؟ إنتم فاهمين إيه ؟ هيـــه بلد مين ؟ دى بلدنا كلنا : بلد الفلاحين دول أولا ! . كفاية بقى شغل قطاع الطرق ده .

وبهت المأمور .

بينما شاعت الراحة والثقة فى قلوب الجالسين على الدكك فهزوا رؤوسهم فى رضى وهم ينظرون إلى نائبهم السابق وهمهموا :

- قول له ؟ ! يمكن فاكرين ان البر ده بتاع حزب الشعب .

ولم يتكلم المأمور لبعض الوقت .

ولكنه لم يشأ أن يرد ، حتى لايدخل فى مناقشة فيقلب المأتم الى اجتماع سياسى .

وبعد صمت طويل متوتر قال المأمور فجأة بصوت كالنذير :

- مين اللى رمى حديد الزراعية امبارح ؟ .

وهمس أحد الفلاحين :

- هو عزا دا ولا تحقيق .

فقال له جاره فى سخرية هامسة بالمأمور :

- شوف شوف ! وانظر إلى حمارك !.. بس يابتاع وانظر إلى حمارك ! .

وكتما الضحكات فى كمهما . . بينما بقى الآخرون جامدين ينظرون إلى النائب السابق ، ثم إلى المأمور وقلوبهم تخفق من خشية المجهول .

ووقف شيخ البلد وأقسم للمأمور أنه لا يعرف من الذى رمى حديد الزراعية والخفير الذى كان يحرس الحديد يقول إن العفاريت أناموه ، ورموا الحديد فى الترعه .

ومضى شيخ البلد يقسم أن العمدة المرحوم كان فى صحة جيدة ولكنه عند ما عرف الحكاية مات بحسرتها ! . .

وقدم للمأمور سيجارة جديدة ، متملقاً .

ونهض المأمور من فوره قائلا :

- طيب أنا حاعرف أربى البلد دى وأخليها عبرة .

وانصرف وكرشه يهتز قبل أن يشرب القهوة ومعه سيجارة لم تشتعل وانصرف معه « محمود بك » وهو يهدد .

وقام وراءه « الشيخ الشناوى » مهرولا معتذراً وتبعه شيخ البلد .

وقام « محمد أفندى » يسير وراءهما مودعاً فنظر إليه خاله « الشيخ حسونة » مؤنباً ولكنه لم يلحظ فناداه محنقاً . . وعاد « محمد أفندى » إلى خاله على الفور فهمس خاله فى أذنه بكلمات قارصة وأمره أن يحترم نفسه ، وينحط على الكرسى بدلا من الهرولة خلف المأمور .

وركب المأمور إلى جوار « محمود بك » فى العربة الحنطور ، ووقف شيخ البلد وبعض أقارب العمدة على باب المضيفة يرفعون أيديهم شاكرين للمأمور سعيه ، ولكن المأمور لم يرد . .

ووجهوا الشكر إلى « محمود بك » ولكنه لم يجب . .

وعند ما بدأت العربة تتحرك ، أطل المأمور على شيخ البلد وسلقه بالكلام ! .

ومضت العربة فى طريق العودة والصغار والنساء أمام الدور يهمهمون فى وجل واستغراب .

ـ الحكومة . . الحكومة كانت فى المعزه ! . .

* * *

وعاشت القرية بعد ذلك تتحدث عن مأتم العمدة بلياليه الثلاث وعن « الشيخ ابراهيم » وعن زيارة المأمور وكلامه ، وتطلق ضحكاتها وهى تسترجع حالة المأمور حين فاجأه فى مدخل المضيفة . . صوت المقرىء يرتل :

وانظر إلى حمارك . .

وكانت القرية تقطع هذه الأحاديث لتتكلم طويلا عن الليلة التى رمت فيها إلى الترعة بحديد الزراعية و « شعبان » .

وأصبحت تلك الليلة تسمى فى القريه « ليلة الحديد » . . ويوماً بعد يوم صارت كليلة حريق الانجليز ـ نبضاً دافقاً فى همود القرية ! . .

وظل «دياب» كلما التقى « بعبد الهادى » يذكره بصراخ «شعبان» حين ألقى مع الحديد فى الترعة . . ثم يلعن «شعبان» ، والعمدة والحديد . . أعداء القرية الذين تخلصت منهم القرية فى ليلة واحدة . . بيضاء ! . .

وكان الفلاحون كلما دفعوا رؤوسهم عن الفئوس يقلدون صوت المأمور وهو يتكلم عن ليلة الحديد ، ثم يضحكون غير حافلين بما يمكن أن يصنعه هذا المأمور الجديد ذو الكرش الكبير والبدن الغليظ ! .

على أن « الشيخ يوسف » فقد اهتمامه بكل هذا وانشغل بالتفكير فى أمر العمدة الجديد ! .

من يكون العمدة الجديد ؟ .

يجب أن يكون من عائلة أخرى غير عائلة العمدة القديم ! .

أن عائلة العمدة القديم متفرقة متخاصمة ، ولا أحد فيها يملك الزمام المطلوب من الأرض . . ولكن « الشيخ يوسف » يعرف أن هذه العائلة تتفق حتما على اختيار شيخ البلد . . فأفرادها يختلفون ، ويضربون بعضهم ، ويتخاصمون أمام المحاكم والواحد منهم لا يطيق أخاه . . ولكنهم كالكلاب يجتمعون لينبحوا معاً عند ما يظهر غريب .

وتحدث « الشيخ يوسف » فى الأمر مع « محمد أبو سويلم » ، فقال « محمد أبو سويلم» باصرار :

ـ والنبى شيخ البلد ما هو شايفها ، لما حتى تنقلع عينه بشطيه . .

ولم يكن « محمد أبو سويلم » قد فكر بعد فى رجل بالذات يمكن أن يصبح هو العمدة ، ولكنه فقط كان يقول دائما :

ـ عايزين نبعـــد عن السلسال النجس ده . . قال بيقولوا ان أجواز بنات العمدة جم من البلد دى والبلد دى ، واتفقوا مع العيلة كلها انهم يسيبوا العمودية لشيخ البلد ! يا أخى دا بعده ! والله العيلة دى ماهى طايلاها تانى . .

* * *

وذهب « الشيخ يوسف » إلى المركز ذات يوم فاشترى شالا جديداً لعمامته ، وعاد بجلباب من الكشمير فلبسه ، وظل يطوح أكمامه متخايلا ، ويرفع ذراعه ، ويكشف عن كم طويل لفانلة جديدة صفراء .

ـ وقعد يوماً مع « الشيخ حسونة » وأخذ يهز يده ليكشف عن الفانلة ، وينفش الجلباب الكشمير والصديرى الشاهى ، ثم قال فى ضعف :

. شايف ياحضرة الناظر ؟ ! أهو كل ده للعمودية ! يا سلام كده عليه أنا بقى لو بقيت عمدة ؟ ! . . دانا أنطلى فى العمودية قوى يا حضرة الناظر ! والنبى أنا مطلى فيها ! ! لما يقولوا لى كده يا حضرة العمدة تبقى كده خايلة عليه ! ؟ شايف بقى لبس العمد . . هىء هىء . . أهو انته حضرة الناظر ، وأنا حضرة العمدة ! .

وكانت ألفاظه تقتحم فمه فى خجـــل وتردد . . وهو يحاول جاهداً أن يستر ضعفه فى ضحكات متكسرة يسوقها إلى شفتيه .

ولم يرتح « الشيخ حسونة » لكل هذا فقال :

ـ خبر ايه ياشيخ يوسف ! ! دى العمودية قلت عقلك ! عمودية ايه ياراجل ؟ عمودية ايه وهباب ايه اللى شاغل به نفسك ؟ ! ياشيخ وفر فلوسك ياشيخ انت وهات بهم هدمتين للأولاد ، بدل ماهم دايرين بهدومهم مقطعة ؟ ايه اللى لبس عمد ؟ كلام إيه ده ؟ ايه الكلام الخايب ده ؟ ! .

وصدم « الشيخ يوسف » من هذا الكلام ، ولكن « الشيخ حسونة » كان حاسماً جافاً لا يجامل ، ونظراته تنبعث فى حدة واستخفاف !

وبعد لحظات من الصمت ، تكلم « الشيخ حسونة » طويلا عن « محمود بك » وكيف يلعب بالقرية كعادته . . فهو ينتهز فرصة خلو العمودية ليشبع لعباً ويأخذ مالا من هذا ومن ذاك وفى النهاية يسعى ليكون هو نفسه عمدة ! .

وظل « الشيخ يوسف » يسمع فى خجل . .

ولم يعد يتحدث فى أمر العمودية مع أحد . .

وفكر فى صمت أن يدبر مالا « لمحمود بك » كما صنع الآخرون ، ولكن عبد الهادى شعر به فسخر منه . . فأقسم « الشيخ يوسف » ألا يتكلم مرة أخرى فى الموضوع .

وشطح فكره فى «علوانى» !..

لو أن «علوانى» فى القرية لكان هو الوحيد الذى يطرب لتفكير «الشيخ يوسف» ولتحمس وهز ذراعيه ولصاح بكلمات كثيرة مختلطة تملأ النفس بالكبرياء والعزة والأمل ! .

إنهم هنا كلهم يكسرون النفس .. فأين «علوانى» ؟! .

ولكن «علوانى» الآن فى سجن المركز !.

ربما كانوا يضربونه ويسقونه بول الخيل . . بلا ذنب ! .

وعادت الحسرة على «علوانى» تفيض فى أعماق «الشيخ يوسف» وهو يستعيد فى خياله كل ماصنعه العمدة الميت فى القرية ! .

واسترجع موقف « محمود بك » من العمدة والقرية .

ووثبت إلى ذهنه صور عديدة لما ارتكبه «محمود بك» فقال لنفسه إن « الشيخ حسونة » «وعبد الهادى» على حق ! . .

ولكن المهم ألا يسمح لأحد من عائلة العمدة القديم بأن يكون عمدة . .

وخلع « الشيخ يوسف » جلبابه الكشمير والفانلة الصفراء الجديدة والصديرى الشاهى وعاد يلف عمته بالشال القديم ويجلس فى دكانه يقرأ سيرة أبو زيد الهلالى ويقف طويلا بالصفحات التى تروى صبر أبو زيد الهلالى على نكد الأيام . . ثم يمتلىء حماساً وهو يقرأ انتصار البطل بعد هزيمة ، وسطوع نجمه بعد أفول ! .

* * *

ومضت الأيام بالقرية دون أن يعرف أحد فيها من هو العمدة الجديد .

وفى الحق ان أمر تعيين عمدة جديد لم يكن يشغل الفلاحين فى الحقول ، فقد كانوا يقولون لبعضهم إنه لا يهم أن ينكشح عمــدة ، ويجىء آخر ، فالعمدة الجديد لن يرفع سعر القطن ولن يعدل مواعيد الرى ، ولن يغير مشروع الزراعية . . مادامت الحكومة فى مصر باقية كما هى . . فى يد حزب الشعب ! .

لم يكن أحد على الاطلاق يفكر فيمن هو العمدة الجديد إلا ثلاثة رجال أو أربعة يريد كل واحد منهم أن يكون عمدة . . ومن ورائهم قلائل يعنيهم الموضوع ! . .

أما بقية القرية فقــد كانت تفكر فى موقف الحكومة بعد أن رمت القرية حديد الزراعية ، وفيما يمكن أن يصنعه المأمور بعد أن أنذر القرية فى مأتم العمدة .

وقالت « وصيفة » لأمها أنها حلمت حلما أخافها .

وقاطعتها أمها منزعجة قبل أن تحكى الحلم :

- ماتفسريشى فى وشى ! ربنا يجعله خير ! ربنا يفوت السنة دى على خير ! هيه يعنى الحكومة حاتسكت على ليلة الحــديد ؟ ياما أنا مشغولة على أبوكى ! ياعالم الحكومة ناوية تعمل إيه فى رجالة البلد . على الله السنة دى تفوت بس بالطول والا بالعرض .

كان قد مر أكثر من أسبوع على ليلة الحديد ، وبدأت عائلة العمدة تحتفل بالخميس الثانى لموته .

وحضر أزواج بناته من البلاد المجاورة .

وأمام مقبرة العمدة ، التى تقع فى أول الجبانة ، منفصلة عن بقية المقابر ، وراء أسوار تميز المقتدرين بعد الموت . هناك أمام المقبرة ، بعد صلاة العصر ، جلس المقرئون وإلى جوارهم على الحصير . أولادهم الصغار .

وأخــذ المقرئون يطوحون رقابهم فى حركات منتظمة متحمسة وهم يتلون فى سرعة « سورة يس » و « سورة تبارك » .

وأخيرا قرأو الفاتحة فى صوت واحد ، وهم يلتقطون الفطائر والتين البرشومى من يد شيخ البلد . رحمة ونورا على العمدة .

وعندما انصرفوا همس شيخ البلد فى أذن أحــد المقرئين ، وطلب منه أن

يذهب إلى الدوار ليتلو القرآن هناك من فوره ، وسيقبل « الشيخ الشناوى » يسنده فى القراءة . بعد صلاة العشاء .

وفى الطريق من الجبانة إلى القرية قال شيخ البلد للعائدين معه إن المأمور أرسل أشارة تليفونية اليه - بصفته نائبا للعمدة - يخبره بأن الهجانة مقبلون إلى القرية ، وأن التجول ممنوع بعد أذان المغرب . إبتداء من اليوم .

وسكت شيخ البلد قليلا ، فتجمع الناس حوله يسألونه فى اهتمام عن الهجانة وعما يعنى المأمور بكلامه « أن التجول ممنوع » .

وقال شيخ البلد فى لهجة آمرة إن الهجانة مقبلون لحماية الأمن فى البلدة ، بعد أن اضطرب . وسترسل الحكومة مرة أخرى حديد الزراعية ، وعلى أهل البلد أن يلزموا دورهم من المغرب ! .

وساد صمت تقطعه أنفاس تتلاحق من الرهبة . ولم يكن فى الفضاء غير شعاع العصر الشاحب ، وغربان تطير هنا وهناك وهى تنعق ! .

ومشى شيخ البلد ، ويداه معقودتان وراء ظهره ، وخيزرانته الطويلة تحت إبطه .

كان يسبق الناس فى طريق العودة إلى القرية ، وهو يقول بأنفة إن هذه هى أوامر الحكومة ، وهو يبلغها بصفته نائبا للحكومة . وكل حى يعرف شغله ! .

وبعد قليل ارتفع صوت من ورائه قائلا :

- ويعنى هجانة على إيه ؟ احنا عملنا جريمة ! وحايعملولنا إيه الهجانة يعنى ؟!-

والتفت اليه شيخ البلد ، ورفع الخيزرانة الطويلة فى يده قائلا :

- اسمع ياوله ! واد انت يالمض ! أنا هنا نايب الحكومة ؟ إنت فاهم ؟ بلاش لماضه ! أنا ماعنديش غير ضرب الوطا . فضك بقى من الزمان داكا ! أيوه أنا حكمى حاجة تانية ! سامعين كلكم يابلد ! . أنا حكمى كده ! باقول لكو أهه ؟ أنا هنا نايب الحكومة ومسئول عن الأمن ! .

ثم اندفع شيخ البلد فى طريقه .

وبدأت حمرة الأصيل تغمر الأشعة الصفراء . آخر أشعة النهار ، وشيخ البلد ومن ورائه الرجال والمقرئون يدخلون القرية .

ومن بعيد تعالت دفعة واحدة صرخات متوالية مفزعة . واقتحمت الطريق جاموسة تجرى ، ومن ورائها حمار يضرب الفراغ برجليه الخلفيتين . واصطدم غلام صغير أثناء جريه المضطرب بالوز يهرب . فزعق الوز وصفق بأجنحته . وامتلأ الفضاء بأصوات الذعر وماج صراخ النساء والأطفال والحيوان . والكل يصيح :

- الهجانة وصلوا ! ! ياوقعة غبرا ياجدعان ! الكرابيج اشتغلت فى البلد ! إجرى ياوله .

وكان بعض الرجال يقبلون لاهثين صفر الوجوه . فيختلطون بكل الأشياء الهاربة من أمام الكرابيج ! .

وخلال الكلمات المضطربة التى تساقطت من أفواه الهاربين عرف شيخ البلد ما حدث .

هبط رجال الهجانة بالكرابيج ، ومروا على الزرائب فى الحقول على الجسر فانهالوا ضربا على الفلاحين ، وأمروهم بالرجوع إلى الدور . ثم نزلوا إلى القرية يسوقون أمامهم الرجال والأطفال والبهائم ، وأخذوا يضربون كل من يقابلهم فى طرقات القرية ويأمرون الناس أن يلزموا بيوتهم .

ضربوا كل من قابلهم حتى « الشيخ يوسف » ضربوه وأغلقوا دكانه !

وذهل الرجال الذين كانوا مع شيخ البلد ، وسيطرت عليهم حيرة جزعة . بينما وقف شيخ البلد يحاول أن يحمل اليهم الطمأنينة ، ومادام هو معهم ، فلن يمسهم أحد بسوء . وهو نائب الحكومة ، كما يعرفون ، ويعرف الهجانة ! .

وعندما كان شيخ البلد واقفا فى مدخل القرية ثابتا يهدىء الرجال ويأمرهم أن ينصرفوا إلى دورهم آمنين ، طلع الهجانة من زاوية الطريق ، والكرابيج الطويلة تقرقع ! .

وهمهم الرجال وعيونهم قلقة توزع نظراتها على الكرابيج السودانية الملفوفة بالسلك الاصفر ، بينما تقدم شيخ البلد بخطوات ثابتة إلى الهجانة قائلا :

- أنا نائب الحكومة هنا ! حاسب ياحضرة الشاويش كده وقول لى إنت اسمك إيه ؟..

ولكن الشاويش الذى كان يتقدم الهجانة ، رفع يده بالكرباج وقرقع به فى

الهواء ونهر شيخ البلد ، وأمره بأن يسرع إلى داره قائلا - باعتـــداد - إنه هو «الشاويش عبد الله» ولا كلام له مع أحد !

ووقف شيخ البلد يشرح للشاويش ولثلاثة جنود معه ، أنه نائب الحكومة فى البلد ، ولكن الكرباج هوى عليه وظل يهوى ، وهو يزعق ، حتى اضطر آخر الأمر إلى أن يجرى من طريق الهجانة ، ليصل إلى بيته بجوار دوار العمدة عن طريق آخر ! .

وغاب شيخ البلد فى زحام الرجال الذين جروا ، وذعرهم يختلط بالسخرية قائلين :

- ضربوا نايب الحكومة ياجـــدع ! إجرى ياوله . الحكومة ضربت نايب الحكومة ! .

وبعد لحظات كان كل رجل يسكن إلى داره وهو يرتعد من المفاجأة !

وعندما أقبل الليل كان الخوف قد أخذ يزايل النفوس وبدأت الصور تطوف بالرؤوس حاملة الضحكات إلى الشفاه .

فقد أخذت القرية تضحك من قصة «الشاويش عبد الله» وشيخ البلد .

وكان جيران « الشيخ الشناوى » يضحكون وهم يذكرون إصرار « الشيخ الشناوى » على أن يخرج إلى الجامع لصلاة العشاء ولقاءه مع «الشاويش عبدالله» . لم يكد « الشيخ الشناوى » يسمع فرقعة الكرباج فى الهواء ويرى منظر «الشاويش عبد الله » ، حتى جرى عائدا إلى داره وهو يلعن البلد وأهلها والجامع والصلاة . والذين يصلون فى الجامع ! .

وفى الصباح كان الفلاحون يتحدثون عن حديد جديد أرسلته الحكومة للزراعية .

وكان « علوانى » يعود من المركز بعد أن بان أنه لم يقتل « خضرة » .

وسمع « علوانى » بما صنعته الهجانة فتساءل أين بات رجال الهجانة بالأمس ؟ ولم يجد جوابا . وعاد يسأل : أين شربوا الشاى ؟

ولاح سؤاله للناس فى القرية غريبا حقا .

وتمنى « علوانى » بينه وبين نفسه لو أنه كان مازال يملك الخيمة التى ورثها عن أبيه والتى كان يقيم فيها أول صباه . ولكنه باعها منذ زمن ، ليبيت فى الحقول التى يحرسها ! . لو أنه كان مازال يملك هــذه الخيمة - وراء دور القرية -

لاستضاف فيها رجال الهجانة ، وسقاهم الشاى !.

وقال « علوانى » :

ـ لو كنت أنا هنا فى البلد ماكانش دا كله حصل . حاكم دول عرب . لكن مسيرهم ياخدوا عالفلاحين .

واستقبله « الشيخ يوسف » بحرارة ، وسأله عن حاله وعما حدث له فى السجن . ولم يحفل « علوانى » بأن يحكى « للشيخ يوسف » وإنما اهتم بمواساته لأن رجال الهجانة ضربوه .

وقف « علوانى » طويلا مع « الشيخ يوسف » يطيب خاطره على ما وقع له من الهجانة . فقال « الشيخ يوسف » باشمئزاز وكبرياء :

ـ يا واد الزعما بتوع البلد انضربوا فى بنى سويف والمنصورة والفيوم ، وانضربوا فى مصر قدام البرلمان !.

فقال « علوانى » بلهجة مطمئنة :

ـ على كل حال دول عرب يابا « الشيخ يوسف » ! دول مشايخ عرب . عرب أجاويد . لكن اللى فى المركز قالوا لهم اضربوا الفلاحين . نزلوا ضرب فى الفلاحين . آدى الشغلة !.

فأجابه « الشيخ يوسف » بوجيعة :

ـ ياك تنشغل فى بطنك ؟!. شغلة ايه الغبرا دى ! بيضربونا ليه ؟!.. علشان الزراعية !. عشان كلام الباشا والحكومة يمشى على رقابنا ؟ هه ! . وهيه الحكومة عاملة لهم إيه يعنى لما يسمعوا كلامها قوى كده ! لبستهم حرير ؟ أكلتهم عيش قمح ؟ مشت لهم المركب فى الشراقى ؟ جاتكو الغم عرب ! لو ما كانوش عرب ، لو كانوا يعرفوا غلاوة الأرض وحلاوتها وشقاها لو كانوا بيزرعوا ويقلعوا كانوا عذرونا . بق لو واحد منهم بيزرع وجات الزراعية خدت غيطه كان حايسكت ! كانوا يعملوا إيه ؟ جاتكو عمل يطير عقلكم ياصنف العرب .

فقال « علوانى » مهدئا له :

ـ معلهش يابا « الشيخ يوسف » بكره ياخدوا عالبلد .

فقال « الشيخ يوسف » وهو يتحسس آثار الكرباج تحت ملابسه :

ـ ياك تاخدكو غاره بحق جاه المصطفى ياشيخ .

ثم استرسل يقول فى ندم :

كان « الشاويش عبد الله » يفكر فى أمه ويحدث نفسه فى ندم
أنه ضرب فى هذه القرية رجالا كأبيه ... ونساء كأمه

- يعنى لو أجرت القيراطين اللى حيلتى وفتحت الدكانة دى فى مصر !! ياريتنى عملت كده وخلصت من وجع القلب ده ! وهيه دى بلد تنسكن ! .

وفى تلك اللحظة بالذات . كان «الشاويش عبدالله» يجلس فى دوار العمدة يفكر فى أبيه الذى تركه فى الصحراء البعيدة جنوب أسوان .

وكان يفكر فى أمه ويحدث نفسه فى ندم أنه ضرب فى هذه القرية رجالا كأبيه ، ونساء كأمه ! .

وضرب أيضا أطفالا صغارا كأخوته . وكالأطفال الذين أحبهم فى قريته .

كان «الشاويش عبد الله» مازال يسأل نفسه لماذا ضرب هؤلاء الناس جميعا بلا رحمة ! .

لماذا جعل القرية كلها بالأمس تطوى يوما حزينا يائسا .

ولم يجب «الشاويش عبد الله» على نفسه .

وإنما قام ومعه رجاله عند الأصيل ، واستعدوا للطواف فى طرقات القرية عندما تغيب الشمس .

وقبل الأصيل كان الفلاحون يعودون إلى دورهم مسرعين يسوقون البهائم من حوض الجسر وحوض الترعة ، ومن وراء البهائم فتيات حافيات يتزاحمن على التقاط الروث .

وعندما مر العائدون من الحقول بالمكان الذى ستشق فيه السكة الزراعية رأوا الحديد الجديد قد هشم مزيدا من الأعواد الخضراء وقد انحدرت على تراب الأرض قطع كثيرة من القطن الأبيض .

وزحفت الحسرة إلى النفوس . وفى كل صدر يتردد سؤال حائر حزين ما العمل ؟ .

وقبل أن تغرب الشمس . كان كل حى فى القرية يغلق باب داره قبل أن يظهر فى الطريق كرباج «الشاويش عبد الله» !

- ١٩ -

ثم أقبل الخريف على قريتى !.

ولم تكن الذرة الجديدة قد نضجت بعد فى الحقول ، بينما دور الفلاحين قد خلت تماما من الكيزان القديمة .

وكنت أجلس بعد كل عصر تحت ظل الجميزة على ساقية « عبد الهادى » ، أفكر فى المدرسة الثانوية التى سأدخلها لأول مرة بعد أسبوعين ، وفى الحلمية الجديدة التى تملأها همهمة حزينة من أمسيات الخريف ، واسترجع كل ماقرأت من كتب وروايات خلال أجازة الصيف .

وتعودت أن أرجع إلى بيتى . والشمس تنحدر عبر النهر ، إلى الأفق الذى يغيب وراء أشجار التوت المتوجة بطيور صغيرة بيضاء ، تنطلق عند المغيب لتجرى هنا وهناك فى الفضاء ، وخفقات أجنحتها تذوب فى همهمة المساء ! .

لم أكن أستطيع أن أنتظر على الجسر أبدا حتى تختفى الأشعة الحمراء فقد غضب أبى على من أول الأجازة لأنى تأخرت مرة على الجسر فى انتظار « وصيفة » إلى ما بعد صلاة العشاء فأمرنى ألا أبرح البيت وحدى طول الصيف ! .

وعندما جاء الخريف على قريتى كانت أعواد الذرة قد ارتفعت وأصبحت أطول من أى رجل ! .

وأعواد الذرة التى ترتفع مثقلة بالكيزان الجديدة على طول الجسر كانت تعنى لنا نحن الصغار كل مخاوف المخبأ فى الغيب وعديدا من قصص قديمة عن رجال أقبلوا من قرى بعيدة وتربصوا فى حقول الذرة ليضربوا أحد أهل القرية بالعيار !

ومن أجل ذلك فقد كنت أبرح مكانى على الساقية ، حين يتخذ الماء لونه الذهبى الداكن عندما تعكس صفحته شحوب الأصيل والظلال .

وكنت وأنا على الساقية أسترجع ما قرأت فى الصيف .

كنت أسترجع دائما كتاب « الأيام » و « ابراهيم الكاتب » و « زينب » .

وكنت أرى فى قريتى أطفالا عديدين أكل الذباب عيونهم كالقرية التى عاش فيها صاحب الأيام .

وتمنيت لو أن قريتى كانت هى الأخرى بلا متاعب ، كالقرية التى عاشت فيها « زينب » . . الفلاحون فيها لا يتشاجرون على الماء ، والحكومة لا تحرمهم من الرى ولا تحاول أن تنتزع منهم الأرض أو ترسل إليهم رجالا بملابس صفراء يضربونهم بالكرابيج ، والأطفال فيها لا يأكلون الطين ولا يحط الذباب على عيونهم الحلوة ! .

وتمنيت لو أن قريتى كانت هى الأخرى كقرية « زينب » لاينزل فيها من الرجال والنساء بعد البول دم وصديد ولايدهم أهلها المرض المفاجىء فى جنوبهم ، فيتلوى الانسان منهم لحظة ، ويطلق صرخات يائسة فاجعة من حدة الألم . ثم يسكت . يسكت الى الأبد ! .

كانت قريتى هى الأخرى جميلة كقرية « زينب » وأشجار الجميز والتوت تمتد على جسرها وتلقى ظلالها المتشابكة على ماء النهر .

وكان النهر فى الظهر يبدو تحت أشعة الشمس كصفحة من فضة ، وفى الأصيل يبدو من ذهب ، وفى الليل كان مختلجا قاتما يتسكع فى طريقه إلى المجهول كالحياة فى قريتى ! .

وفى حوض الترعة من قريتى - حيث تنتزع الحكومة الأرض - كانت الحقول مجللة بمساحات رائعة بيضاء من القطن وعلى حوض الجسر تمتد السماء بلا نهاية فوق خضرة متموجة من حقول الذرة ، تتراقص ذوائبها الشقراء .

وكان النساء فى قريتى يحملن الجرار ، كنساء القرية التى عاشت فيها « زينب » وكانت لهن أيضا نهود .

ومن بينهن كانت « وصيفة » ضاحكة ريانة مفعمة بيضاء ممتعة تثير الخيال . . أكثر مما كانت « زينب » فى الكتاب الذى قرأته ! .

ولكن « وصيفة » كانت شاحبة بعض الشىء . كان شىء ما يحبس بعض الدم عن وجنتيها ، ويلقى على فتنة وجهها لونا من الذبول ويحبس كنوز جسدها الأنثوى وانطلاق نفسها مع الحياة .

على أن قرية « زينب » لم تعرف طعم الكرابيج ، كما عرفت قريتى .

ولم تذق قرية « زينب » اضطراب مواعيـــد الرى ، ولم تجرب بول الخيل يصب فى الأفواه .

ولم تعرف قرية « زينب » زهو النصر وهى تتحـــدى القضاء والانجليز والعمدة والحكومة وتنتصر لبعض الوقت .

و « زينب » التى لم تكن أبدا على الرغم من كل شىء جميلة « كوصيفة » لم تذهب إلى قاعة الطحين ذات يوم لتعود إلى أمها باكية . كما صنعت « وصيفة » عندما رأيتها لأول مرة بعد أن انقطعت عن رؤيتها طوال شهور الصيف ! .

* * *

كنت إذ ذاك قد سمعت عن « الشاويس عبد الله » وعرفت كثيرا مما صنعه بأهل قريتى .

وكنت أتخيله لكثرة ماسمعت عنه رجلا طويلا كالباب مليئا مثل كيس القطن ، شديد السواد كهباب الفرن ، أسنانه بيضاء كالجبن . لايضحك ولا يتكلم ولا يجيد غير الضرب بالكرباج !

وكنت أسمع أشياء عجيبة عنه ، منذ هبط إلى قريتى .

فأهل قريتى يملأون حياتهم بالحديث عنه حتى أصبح « الشاويش عبدالله » جزءا من أمثال القرية وحكمها وتراثها .

فإذا جاءت إلى القرية بائعة بدينة سمراء تهامس الناس فيما بينهم : « الشاويش عبد الله » ! .

وإذا زعق رجل قالوا ضاحكين « يعنى الشاويش عبد الله » ؟

والصغار فى القرية حين يلعبون يلتقط أحدهم فرعا من التوت ويهوى به على زملائه قائلا « أنا الشاويش عبد الله ! » وربما وقف أمامه صغير آخر بفرع من التوت وقفز وتواثب قائلا : « طب وأنا عبد الهادى ؟ » .

ولم يكن « لعبد الهادى » لقاء مع الشاويش عبد الله بعـد ، ولكن الصغار كانوا يتخيلون هذا اللقاء دائما ويتساءلون عمن يغلب !

وفى الحق أنى ظللت أسمع قصصا غريبة عن « الشاويش عبد الله » . ولكنى لم أره . فلم يكن يتاح لى أن أخرج من البيت طول الصيف ، وأقبـــل الخريف

وأوشكت الأجازة على نهايتها وسمح لى بالخروج وحدى على أن أكون فى البيت ، قبل أن يهبط المغرب على القرية ! .

وسمعت فجأة أن «الشاويش عبد الله» لم يعد يضرب أهل القرية ، وشرع الناس يقولون عنه إنه رجل طيب .

وحكى لى أحد الأولاد أنه رأى «الشاويش عبد الله يضحك» ! .

وسمعت أيضا أنه زار « الشيخ يوسف » فى داره وضحك معه ، وأنه جلس ليلة مع « الشيخ حسونة » و « محمد أفندى » و « عبد الهادى » على مصطبة « محمد أبو سويلم » فنادى « محمد أبو سويلم » ابنته « وصيفة » وأمرها أن تحضر القهوة ولكن « الشاويش عبد الله » طلب الشاى فأعدته « وصيفة » وعندما ذاقه «الشاويش عبد الله» تنهد بارتياح قائلا :

- يدوم الحماس يا عرب .

فضحك الجميع وانبسطت وجوههم ، وأدركوا أنهم يجلسون مع واحد من الناس مثلهم ! .

وعلمت أن «الشاويش عبدالله» أصبح الآن يترك « الشيخ الشناوى » يذهب إلى الجامع لصلاة العشاء ، ويسمح « للشيخ يوسف » بفتح دكانه حتى صلاة العشاء أيضا وأنه يجلس عادة على مصطبة « محمد أبو سويلم » ويأمر رجاله الثلاثة أن يطوفوا بالقرية ليدخلوا الناس الدور بهدوء ثم يعودون إليه على مصطبة « محمد أبو سويلم » .

وتهامس بعض أهل القرية أن «الشاويش عبد الله» ينوى الزواج من «وصيفة» وأنه لم يكلم أباها بعد ولكن الأمر مفهوم . وقال الآخرون إنه تكلم معه واتفقا ولكن « محمد أبو سويلم » يكتم الأمر .

وشاقنى أن أرى «الشاويش عبدالله» وأن أعرف كيف يتكلم هذا الرجل الذى ضرب القرية كلها بكرباجه لأول يوم أقبل ! ! وهل هو يضحك حقا ؟ ! . وهل يمكن أن يكون له كالآخرين زوجة وأطفال ؟ ! .

وأحسست بالحاجة الجارفة إلى رؤية « وصيفة »

ربما لأنى لم أرها منذ زمن طويل أو لأنى سمعت أنها ستتزوج من «الشاويش» الغريب . أو ربما لأنى مسافر عن قريب .

وعلى أية حال فقد ذهبت اليها ذات صباح .

كان الضحى يملأ طرقات القرية بشمس سبتمبر الفاترة والأنسام تهب على القرية رقيقة طلقة رفافة . وكان باب دار « وصيفة » مفتوحا إلى آخره ككل الأبواب فى القرية أثناء النهار .

وقبل أن أدخل إلى الدار سمعت أم « وصيفة » تستعجلها أن تعود من قاعة الطحين بما بقى من كيزان الذرة لتحمصه فى الفرن وترسله إلى الطاحونة . . فقد انتهى الخبز ! .

وتقدمت أنا خطوة ، وجاوزت عتبة الباب إلى داخل الدار ، فزعقت الاوزة التى كانت تسير متمايلة إلى الباب ، وصفقت بجناحيها قليلا ! .

وخرجت « وصيفة » من قاعة الطحين فى آخر الدار ووجها محتقن بالغيظ وفى عينيها دموع لم تنسكب بعد .

وسمعت صوتها يتهدج :

ـ مافيش دره للتحميصه يا امه ؟ .

وخفق قلبى فجأة وفتحت عينى فوجدت أم « وصيفة » قد شحب وجهها تماما .

ووثب إلى ذهنى ما قاله لى أبى بالأمس عندما رفضت أن تصلح لى بدلة أحد إخوتى الكبار وبكيت فى طلب بدلة جديدة أذهب بها إلى المدرسة الثانوية . فقد نظر إلى أبى ـ إذ ذاك ـ بعطف حائر وهو يقول :

ـ يا ابنى دا حتى اللقمة بقت نادرة . بدلة جديدة إيه بس والناس بتشقى على لقمة العيش ! .

واستدرت على الفور . من دار « وصيفة » ، ومشيت على مهل وأنا منقبض حزين قبل أن أسأل « وصيفة » عن حكاية « الشاويش عبد الله » .

وعندما جاوزت العتبة إلى الطريق سمعت أمها تقول باذعان :

ـ طب كتفى الوزه دى ودورى بها على حد يشتريها أهى تجيب كيلة دره . شوفى كده « محمد أفندى » ولا الشاويش عبد الله ! يارب . لنا رب .

وازدحمت نفسى بمشاعر عديدة مختلطة . وفكرت فى ربها هذا متى يملأ القاعة بالطحين . ويجود على بالبدلة الجديدة ؟

متى ؟ وكيف ؟ .

وتذكرت أن قاعة « محمد أبو سويلم » لن يدخلها الذرة هـذا العام . فالذرة الجديدة فى حقله بحوض الترعة ستبتلعها الزراعية وستبتلع أيضا حقل القطن .

تمنيت أن أرى « عبد الهادى » على الفور وأن أتحدث إليه ولـكنى لم أستطع فى ذلك الضحى أن أراه .

وعدت أقلب صـفحات رواية « زينب » و « إبراهيم الـكاتب » ولـكنى لم أجد أبدا ما يحمل العزاء .

لم أجد مأساة قريتى . وتمنيت أن أصنع « كالشيخ يوسف » وألتقط نفسى الشاردة من خلال قراءة كتاب كبير أصفر يروى قصة البطولة والصبر كرواية « عنتر » أو « أبو زيد الهلالى » ! .

* * *

وفى الأصيل عندما كانت الظلال المليئة بالهمسات تغمر الأشـــعة الحمراء . انحدرت أنا على الجسر عائدا إلى القرية ـ كعادتى ـ فوجـدت كومة مغطاة بكيزان الذرة الخضراء عند ساقية « عبد الهادى » .

كنت أفكر فى أشياء كثيرة لا أتبينها ، والوحشة تنزح إلى صـدرى فتغشاه مع ظلال المغرب ، وأحلام بالمجهول تضطرم هنا وهناك فى الأعماق منى .

أحلام يختلط فيها أبطال القصص التى قرأتها بمظاهرات القاهرة ، بالمدرسـة الثانوية « ووصيفة » والممثلين الذين أحبهم ، وجارات لى فى الحلمية الجـديدة . وذكريات العذاب الذى لقيه الرجال فى سجن المركز ! .

كان الناس قد عادو بالبهائم من الحقول . تماما كما أمرهم « الشاويش عبدالله » .

ولم يعد فى طريق الجسر غيرى .. والماء .

ومن بعيد ارتفع صوت قوى جاف على نبرات حزينة :

نار الحطب دوم ولا نار المحبـة يوم

نار الحطب تنطفى ونار المحبـة تدوم

كان هو « عبد الهادى » يخرج من حقل الذرة الذى يستلقى تحت الساقية من وراء بطن الجسر ، وفى إحدى يديه حزمة من الحطب الجاف ويده الأخرى تسند إلى ظهره حملا من الذره مليئا بالـكيزان .

وألقى « عبد الهادى » حمله أمام الجميزة دون أن يقطع غناءه ، وبدأ يخلع الكيزان من أعوادها .

كنت أنا قد سرت خطوات على الجسر فى الطريق إلى القرية ، وإذ رأيت « عبد الهادى » ناديته فرحا بلقائه .

وطلب منى أن أعود وأقعد على الساقية قليلا ليشوى لى كوزين ، ولكنى صممت على الرواح إلى البيت فما ينبغى أن أتأخر على الجسر حتى يقبل الليل .

وصحبنى « عبد الهادى » ومضينا إلى القرية .

وفى الطريق علمت منه أن «الشاويش عبدالله» طالع إلى الجسر فى حلق المغرب ، بعد أول لفة فى القرية .

واهتزت نفسى ، وتمنيت لو عدت إلى الجميزة لأسهر قليلا مع « الشاويش عبد الله » ! .

وطلبت من « عبد الهادى » أن يستأذن لى أبى . فأعود معه .

وبعد المغرب كنت أطلع الجسر مع « عبد الهادى » وأجلس إلى جوار الساقية . كان كل شىء من حولنا ساكنا . «وعبدالهادى» يحدثنى عن سفرى القريب ويقول وهو يصفق بيديه :

ـ شى الله يامصر . أمانة ياشيخ تسلم لى على مصر . بقى « محمد أفندى » يروح مصر ويرجع زى ماهو . حتى ما يقول لناشى حاجة عن مصر ؟ آه لو كنت انا اللى رحتك يامصر ؟ حاكم اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى ! وأستمر يقول ـ نشيطا ـ فى نغم ، وهو يرفع حاجبيه ، ويبتسم :

دا اللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى

ولم أفهم بالتحديد ما يحبه « عبد الهادى » فى المدينة الكبيرة المصطخبة التى أعيش فى مدارسها بين واجبات الحساب واللغة الانجليزية وعصى المدرسين ! .

وحاولت أن أحدث « عبد الهادى » قليلا عما رأيته فى شوارع المدينة التى يحسب أن الذى بناها حلوانى ! .

حاولت أن أحدثه عن الذين يسيرون فى الطريق واجمين . وعن التلاميذ الذين يذهبون إلى المدرسة بأحذية ممزقة يدارون فيها رتوق الجوارب . عن البنطلونات المفتوقة ، والبدل الناحلة ، والرصاص فى الشوارع ! .

ولكني وجدت نفسي أحدثه عن « وصيفة » وأحكي له كيف بكت لأنها لم تجد في قاعة الطحين ذره .

وقطع « عبد الهادى » ابتسامته ، وقطب . وأطرق برأسه لحظه . ثم رفع وجهه ونظر فى الظلال التى تلقيها أشجار التوت على الشاطىء المقابل للنهر وتختلط هناك بعتمة السماء .

وأخيرا قال بصوت خفيض :

- ياعم ما الدنيا كلها اتنيلت بنيلة . حد عارف إيه آخرتها . دا الناس من الجوع قربت تاكل بعض ! والحكومة شاطرة تبعت لنا هجانة تدخلنا الدور من قبل أدان المغرب ! طب ماهى الناس بيسرقوا فى النهار عينى عينك ! حد بيسرق بالليل . ياشيخ والله دا الناس بتسرق الدره الاخضر من الغيطان ويحمصوه وياكلوه فريك . قال الحكومة بعتالنا عساكر ؟ طب تبعت لنا دره ! وهو يعنى الضرب دا حايشبع الناس على رأى الشاويش عبد الله ؟ ! .

ووجم « عبد الهادى » قليلا ثم استطرد قائلا :

- يا ولداه يابا « محمد أبو سويلم » ! طب دا مش طالع له السنة دى لا درة ولا قطن ! الزراعية واخداه كله . ويعيش منين دا يا اخواتى ؟ قال حا ياخد تعويض ! وعلى ما ياخد تعويض ياكل منين ؟ وحايعمل إيه بفلوس التعويض ؟ حايتاجر ! والا يعنى حايتاجر ؟ حا يعمل إيه بالفلوس بعد ماخدوا الأرض ؟ حايشترى أرض تانية . ومين فى البلد يبيع أرض ؟ !

ثم وجم قليلا . ونظر فى الظلمات هامسا لنفسه :

- آه ياحكومة !!. ياحكومة بلا معنى ! .

واسترسل يقول متمتما بأبيات من موال أدهم :

يا حكومة دانا الادهم . والادهم أجيبه منين

يا حكومة دانا الادهم قتل لى م العيال ولدين

وسكت « عبد الهادى » وأخذ يهمهم بشفتيه همهمة حزينة ثم انطلق يروى لى قصة أدهم الذى دوخ الحكومة وتحداها ولعب عليها ، وكان يهاجم الكبار ويأخذ من مخازنهم ويعطى للفلاحين الفقراء .

وظل « عبد الهادى » ينظر أمامه إلى الظلال المنعكسة على ماء النهر الداكن وعاد يقول فى حزن كأنما يحدث نفسه :

ـ والله خسارة يا ادهم . خدوك خونة ياجدع ! ما كانوش يقدروا يعشوا زراعية فى بلدك أبدا وياخدوا الأرض كده غصبن عن حبة عين الناس الجعانة ! دا لما الدره شح على أيامك انسقطت على مخازن الوسايا وخدت القمح ووزعته على اللى مش لاقيين . ياخسارتك ياجدع . قتلوك غدر يابطل ! .

وأخذت عينا « عبد الهادى » تلتمعان ، وصوته يختلج ! .

ونهض واقفا وهو ينشد بنغم حزين فقرات موال أدهم تحكى عن صراعه مع الحكومة ورجال الحكومة .

وبعد أن انتهى « عبد الهادى » هز رأسه قائلا :

ـ صحيح . صحيح منين أجيب ناس لمعناة الكلام يحكوه .

وفجأة رمى كيزان الذرة على الحطب دون أن ينزع منها أغلفتها وسألنى إن كنت آكل كوزا بخيره ، حتى يأتى « الشاويش عبدالله » والجماعة ، فاقترحت عليه أن ينتظر .

وإذ ذاك أمسك عودا تشيع فى خضرته حمرة خفيفة ونزع قشرته بأسنانه وذاق بلسانه ماتحت القشرة .

وقال لى :

ـ خد مص العقلة دى ، أحلى من القصب .

وتناولت منه عود الذرة ، ومال هو على كوم الحطب وأشعل عودا من الكبريت . ونفخ فى الحطب .

ثم مشى قليلا بعيدا عن الجميزة إلى الجسر وأخذ يتأمل الطريق ولكنه لم يستطع أن يتبين أحدا وقال لنفسه هامسا :

ـ ولا ساروخ ابن يومه !. الجسر فاضى خالص . ياخوى الجماعة غابوا ليه ؟.

كانت حقول الذرة تمتد بأطرافها الصفراء فى حوض الجسر تحت بصر « عبد الهادى » وهو ينظر فى الفضاء القاتم الواسع ، وأنسام الخريف تسرى بين أعواد الذرة ، وتحدث فيها أصواتا كالوشوشة .

وتنهد « عبد الهادى » وهو ينظر إلى الأرض الواسعة المفعمة بالكيزان ، ومن ورائها تبدو من بعيد حقول القطن فى مساحات بيضاء يظللها الغروب .

تنهد « عبد الهادى » وعيناه معلقتان على حقول الذرة وقال :

ـ معلهش يا وصيفة . كل شىء وله أوان يا وصيفة .

وعاد يجلس تحت الجميزة ، قلقا لغياب « الشاويش عبد الله » والجماعة .

ولكن انتظاره لم يطل فقد سمع من بعيد همهمة عرف من خلالها ضحكات « علوانى » .

وقام إلى الجسر وأخذ ينظر فى الظلام . واستطاع أن يميز بياض جلباب « محمد أفندى » فصاح :

ـ الجسر منور يارجاله . أتارى الجسر منور كله ومزهزه ! مراحب ياعرب . ياعرب .

وحملت إلينا أنسام المغرب كلمات خافتة قالها «الشاويش عبدالله» . كان صوته هادئا ، مفعما ، حنونا .

وتمنيت لو أن «الشاويش عبد الله» تكلم مرة أخرى . ولكن « محمدأبوسويلم » زعق من بعيد وهو يضحك :

ـ دهدى يا « عبد الهادى » أمال فين الراكيه ياجدع . تكونشى جايب لنا دره من التحميصه ! .

وكان عود الكبريت الذى أشعله « عبد الهادى » قد أنطفأ داخل الحطب ، وتركه « عبد الهادى » ينطفىء بلا كلمة ! .

وارتفعت الضحكات من بعيد وقال « الشيخ يوسف » :

ـ ولع الركيه ياجدع ولع .. مستنى إيه .. عايزينه دره بخيره .

وحمل « عبد الهادى » كيزان الذرة من على الحطب ، ثم أشعل عودا من الكبريت ، ورفع الحطب قليلا ، ووضع العود ، فاشتعلت نار صغيرة ، وأخذ ينثر أعواد كبريت غير مشتعلة فى أماكن متفرقة من الحطب .. وسرت النار بعض الشىء . وتوقدت العيدان الأخرى فقال بسرور :

ـ أهى النار كلها دقت أهه .

وبدأ يرمى على النار التى ارتفع لهيبها ، كيزان الذرة الخضراء دون أن ينزع الأغلفة ليكون الذرة بخيره . وتمتم ضاحكا :

نار الحطب دوم ولا نار المحبة يوم

وكانوا قد أقبلوا ، فقال « علوانى » مبتسما :

ـ سلامتك من المحبة ونار المحبة يا عبد الهادى .

وقال « محمد أفندى » بانطلاق محاولا أن يصنع نكتة من القرآن :

ـ يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ! .

ثم أخذ يطلق قهقهة سريعة متلاحقة وهو ينظر إلى «الشاويش عبدالله» ويلكزه .

فابتسم « الشاويش عبد الله » . وإذ ذاك تعالت ضحكات « محمد أفندى » .

وسلم « عبد الهادى » على « الشاويش عبد الله » وزملائه العساكر الثلاثة .

ثم سأل :

ـ أمال فين حضرة الناظر ؟ .

وأجابه « محمد أفندى » إن خاله « الشيخ حسونة » لم يستطع الحضور ، لأنه مسافر غدا بأول قطار يقوم من المركز فى الفجر .

فقال « عبد الهادى » :

ـ والله خساره ؟ المسامحة خلصت دغرى . أمال يا اخويه مدرسة بلدنا ما بتشتغلشى ليه ؟

فقال « محمد أفندى » :

ـ دهدى ما بكره تشتغل . مدرستنا ومدرستهم حايشتغلوا فى يوم واحد .

وضحك « عبد الهادى » باستخفاف :

ـ ياعم انتو بتشتغلوا إلا فى العيش القمح والحلاوة الطحينية .

وابتسم « محمد أبو سويلم » وهو يقول فى ابتسامة تقطر بالمرارة :

ـ أى والله ! اشتغلوا انتو فى الرز المعمر ياعم ، واحنا مش لاقيين نشتغل فى المش والعيش الدكر ! .

وابتسم « الشاويش عبد الله » والجنود الثلاثة ، وضحك « محمد أفندى » وقهقه « علوانى » . وتقدم إلى الساقية ورفع من على كتفه الحرام المخطط ، وفرشه على خشب الساقية قائلا :

اتفضلوا هنا على كبير الساقية . اتفضل هنا ياشاويش عبد الله عالكبير . . اتفضلوا .

وحين جلس «الشاويش عبد الله» والعساكر ، قال « علوانى » مستدركا وكأنه نسى شيئا :

ـ لكن قول لى بس يا ابا محمد . إنتو مش لاقيين العيش والمش ليه ؟ أمال احنا يعنى نقول ايه ؟ يعنى اللى زى حالاتى ده يقول ايه ؟ .

ولم يجب « محمد أبو سويلم » فالتفت « علوانى » إلى « الشيخ يوسف » وقال له كأنه يكمل حديثا سابقا معه :

ـ هو انته يابا « الشيخ يوسف » مش ناوى عالعمودية برضه . وحياة مقام الشاويش عبد الله ماينطلى فيها ياشيخ كده ويخيل غيرك انت . آه ياحضرة العمدة . ياما انت منطلى كده فى الكلمة دى ! . ياحضرة العمدة ! .

وكان « الشيخ يوسف » إذ ذاك يشد جلبابه إلى أعلى من على ظهره ويمسك بأطرافه من تحت ويتهيأ للجلوس على كبير الساقية . فتوقف فجأة ليقول فى صرامة :

ـ ما تجبشى سيرة العمودية دى تانى ياواد ياعلوانى . . قطيعة تقطع العمودية وسيرة العمودية ! . . أنا باقول لك أهه . . إن عنت تجيب سيرتها تانى ياواد انت ياعرباوى .

وتوقف « الشيخ يوسف » عن الكلام فجأة ، وأحس أن لسانه سقط حين قال ياعرباوى .. وتحرج ، وتنحنح ثم جلس على الفور . وهو يرفع يديه ، ويلوح ويقول للشاويش عبد الله وزملائه العساكر :

ـ أهلا ياعرب .. مراحب ياعرب .. دا احنا مالناش بركة غيركم ياعرب . . اللهم صلى وسلم وبارك على النبى العربى سيد الخلق أجمعين ! منورين المنزل كله والله يا مشايخ العرب ! . .

وابتسم « الشاويش عبد الله » ، ورفع يده إلى جبينه شاكرا ، بينما أخذ « علوانى » يقهقه صائحا فى ظفر واعتزاز وجرأة :

ـ إيوه كده يابا « الشيخ يوسف » انعدل . عرفت بقى إننا احنا الخير والبركة ؟! مش عنتر كان عربى .. وأبو زيد الهلالى عربى .. والزير سالم كان إيه ؟. إيوه اتوزن كده .. بقى تقول لى ياعرباوى ويا شيخ الغجر .. بطل بقى

وتضايق « الشيخ يوسف » من لهجة « علوانى » وكظم غيظه .

فتمتم « عبد الهادى وهو يقلب الذرة على النار بعصا طويلة :

ـ وأدهم يا جدع ماهو فلاح ! . .

كان اللهب ينعكس على وجه « عبد الهادى » البرنزى . وعيناه تتألقان . واتجه « علوانى » إلى حيث يجلس « عبد الهادى » أمام النار ، ثم جلس مستندا على مقدمة قدميه دون أن يمس الأرض بجسده وأمسك بطرفى جلبابه من ناحيتين متباعدتين وأخذ يرفع يديه ويخفضهما بسرعة والجلباب يحدث قرقعة يتدفق منها مع كل هزة هواء يزيد النار اشتعالا .

وبدأت الكيزان تطقطق واسودت أغلفتها الخضراء . فمد « عبد الهادى » يده إلى النار واختطف كوزا .

وصرخت أنا إذ ذاك فى « عبد الهادى » محذرا أن تحرق النار يده فضحك ، وهو يسحب يده من النار بهدوء وفيها كوز ملتهب وقال لى بهدوء :

ـ يعنى هيه النار حانعمل فينا إيه ؟ ياسيدى ياما انشوينا ! سيبك بق من شغل مصر ده . خلينا هنا . هنا فى وسط الحريقة .

وخفق صوته الساخر على نبرات حزينة .

وحيانى « الشيخ يوسف » وكان قد انتبه لوجودى إذ ذاك وطلب منى أن أجلس على كبير الساقية غير أنى ترددت شاكرا وظللت أقف مكانى بجوار الجميزة . أرقب النار ، وأرى إن كان « الشاويش عبد الله » يبتسم أو يتكلم . . كالناس ! .

وهمس « الشيخ يوسف » فى أذن « الشاويش عبد الله » ، وسمعت إسمى وإسم أبى وإذ ذاك نادانى « الشاويش عبد الله » . وتقدم إلى فاخذ بيدى وأجلسنى إلى جواره .

وغمرنى الفرح وأنا أجلس إلى جوار « الشاويش عبد الله » ، ولم أستطع أن أقاوم فضولى . فتحسست الكرباج المثبت فى وسطه . ومد هو يده مبتسما ورفع الكرباج قليلا وتركنى أمسك بمقبضه المعروق بالسلك وأنا اضطرب بين الرهبة والاشفاق .

ورأيت وجـــه « الشاويش عبد الله » يبتسم . . كان وجهه الصامت مليئا بالابتسام . . وكانت قسماته هادئة ، وشفتاه مطبقتان على طيبة خارقة وعجبت أن يكون هذا هو الرجل الذى ضرب قريتى منذ أيام ! .

وراعنى أن يكون هذا الكرباج الذى أمسكه بيدى هو نفسه الذى شوى ظهور

النساء والرجال والأطفال ! .

وسألني « الشاويش عبد الله » في أية مدرسة أنا ، فقلت له إنني داخل المدرسة الثانوية بعد أيام .

فقال مبتسما إن له أخا مثلي كان يريد هو الآخر أن يدخل المدرسة الثانوية في أسوان . ولكن « الشاويش » لايظن أن هذا ممكن ! .

وسكت « الشاويش » وشردت عيناه في الظلام .

وتقدم « عبد الهادي » منا بعد أن قشر كوز الذرة . وقدمه إلى « الشاويش عبد الله » والدخان يفيض ويتموج من حباته البيضاء .

وأمسك « الشاويش عبد الله » بالكوز الملتهب وقدمه إلى . فاعتذرت شاكرا ولكنه ألح ، وفي النهاية . قطم الكوز وأعطاني قطعة كبيرة منه .

وإذ أمسكت بالكوز لذعتني حرارته ، فتركته يهوى من يدي وأنا أداري ألمي . فابتسم « الشاويش عبد الله » وأخذه من على الأرض ، ومسحه بيده ببساطة ، وقدمه إلى قائلا إنني يجب أن أتعود على النار . فالحياة عندما نكبر تصبح كلها من نار ! .

وابتسمنا جميعا .

وأخذ « عبد الهادي » يقدم كيزانا أخرى « للشاويش » وللذين من حوله . وظلت الأيدي تتداول الكيزان الملتهبة .

كانوا جميعا يقضمون الذرة ، وهم يلهثون ويوحوحون من سخونته ، ويضحكون . ومن حين إلى حين ترتفع كلمة ثناء على « عبد الهادي » والذرة الذي يشبه كيزان العسل .

وسرح خيالي في كل ماصنعه « الشاويش عبد الله » بقريتي . وهممت أن أسأله لماذا صنع كل هذا عندما أقبل في أول يوم .

لماذا ضرب النساء والعجائز والأطفال والرجال ؟ ! .

ولكنني أخذت أتأمل « الشيخ يوسف » وحبات الذرة تختلط بشاربه وهو منهمك في القضم . وحاولت أن أسأله كيف صالح « الشاويش عبد الله » . ومتى . وكيف شرب « الشاويش » عنده الشاي ! .

ولكن الجميع كانوا صامتين يأكلون الذرة ، ولاشيء يرتفع غير وحوحة الأنفاس .

وقطع صمتنا غناء يقبل من مركب بعيد يمر بالنهر الصغير .

يا بهيه وخبريني عاللى جتلوا يسين

والتفت « الشاويش عبد الله » إلى النهر وأخذ يرقب الضوء الخافت الذى يبتعد .

كان المركب قد جاوزنا دون أن نشعر به ومضى يتابع رحلة الليل تحت ظلمات واسعة . إلى بلاد لا نعرفها نحن فى قريتنا ! .

وتذكرت جلستى مع « وصيفة » فى أول الصيف فى هذا المكان بالذات ، والمركب الذى مر . « ووصيفة » تضع قدمها فى الماء ، وتسألنى عن مصر ، حالمة بأن يحملها مركب ذات يوم إلى مصر . أو أن تصبح فتجـــد أمامها جره مليئة بالنقود .

وفجأة ألحت على صورتها عندما خرجت من قاعة الطحين تبكى وتقول لأمها إن الذرة لا يكفى بعد للطعام ! .

وزحفت على صدرى كآبة غامضة .

وكان الصمت جليلا لا يخفق فيه غير نغم بعيد من المركب الذى يختفى فى الظلمات .

وفجأة ارتفع صوت حزين بالقرب منى يتمتم :

اشمعنى جفاهم أبيض وجفانا جالوص طين

واشمعنى الخير حداهم . . واحنا شحاتين !

كان هو « الشاويش عبد الله » .

وكان لصوته رنين عميق كأنه نبضات قلب موجع . وعلى الرغم من أن أنغامه وطريقة نطقه كانت غريبة علينا ، فقد كان فى صوته الهادىء رجع رهيب كأنما هو تلخيص كل آلام قريتى وكل المخاوف من المجهول .

ولكن « عبد الهادى » لم يسكت ليترك «الشاويش» يكمل الغناء بأنغامه الغريبة علينا ، بل وقف « عبد الهادى » يصيح :

ـ أيوه « ياشاويش عبد الله » أيوه .. آى كده .. قول كان ياسيدى قول .. قل لنا والنبى « عطشان والنيل فى بلادنا » .. قول ياشيخ ! .. وحياة النبى لتقول

كمان موال أخضر من بتوع بلدكم !..

وقطع « الشاويش عبد الله » همهمته ، وأطلق ضحكات متكسرة ، ودهمه الخجل فسكت ، وترك نظراته المفعمة تضرب فى الليل العريض الرحب .

وقال « علوانى » وهو يقف بعيدا عن النار :

- سامع ياعم « الشيخ يوسف » ؟ سامع يابا « الشيخ يوسف » المغنى ؟ مغنى عرب ! سامع ؟ اللى يدور عليك دلوقت يلاقيك محتار . مسكين محتار .

فقاطعه « الشيخ يوسف » بضيق :

- أم ؟ مسكين ؟ ! يا أخى جاك سكينة لما تحش رقبتك ! . . ما تسكت ! .

وضحك « علوانى » واستمر يقول بصوت مرتفع :

- معلوم . محتار . دهدى ! بقى انت كان ظنك إن حضرة « الشاويش عبد الله » يبقى فى قلبه ريحة الغنا ؟ . بقى انت كنت تفتكر كده ؟ لكن ياعم .. الحق عالكرباج !! .

وضحك « علوانى » بعصبية ، ومسح « الشاويش عبد الله » جبهته من الحيرة ، ولم يقل شيئا . ولكنه أطلق بلسانه وشفتيه طقطقة استنكار بينما انفجر « الشيخ يوسف » محنقا :

- جرى إيه يا واد يا « علوانى » ؟! جاتك الغم ما أبردك ؟! دهدى ! مابلاش السيرة الغبرا دى .

فقال « محمد أبو سويلم » :

- ماهو « الشاويش عبد الله » ما كانش علمه أن الدور حايقلب بصحوبية . . كان لسه غريب علينا ! لكن دلوقت بقى . خلاص . ماهو بقى من الرفقة العزاز .

وساد الصمت .

ولم يعد يرتفع غير صوت الجمرات التى تتآكل ، و « علوانى » يغرس أبريق الشاى فى النار .

ومن بعيد على الشاطىء الآخر كانت ساقية تدور ، وترسل فى الليل صريرا خافتا يختلط بالأنين .

وتنهد « الشاويش عبد الله » . والتفت وراءه إلى ناحية الساقية على الشاطىء الآخر .

وشعرت كأن « الشاويش عبد الله » يطوى نفسه على سر كبير .

وحاولت أن أسأله .. ولكننى لم أستطع .

فقد سعل « محمد أفندى » ليقول كلاما وكان يسكت طول الوقت .

ولم أسمع ماقاله « محمد أفندى » ، ولكننى سمعت أحد العساكر يرد عليه بهمس قائلا إن النيل هناك فى بلادهم واسع جدا حتى لكأنه أب لهذا النهر الصغير .. غير أنهم هناك لايعرفون السواقى ولا الحقول : فالنيل يجرى مندفعا وسط الرمال والصخور فى صحراء لاحقول فيها ولا خضرة ولا حياة .

والتفت « الشاويش عبد الله » إلى العسكرى الذى يتحدث مع « محمد أفندى » وسأله إن كان يشعر بوحشة هنا وسط هذه الجنة لأنها بعيدة عن أهله ! .

ولم يجب العسكرى . ولكنه أطلق زفرة عميقة مشحونة :

ـ هيه !! ..

وتمتم « الشاويش عبدالله » بكلمات خافتة لم يكد يسمعها احد .. كلمات تبينت منها ضيقه الحزين لبعده عن أمه وأبيه ، وحنقه لأنهم جاءوا به إلى هنا ليذل قرية لم يعرفها أبدا من قبل ، وليس بينه وبين أهلها عداء ! .

وعرفت من تمتمته أنه حين تعرف فيما بعد على الذين ضربهم أول يوم ظل ساهرا طول الليل يحرقه الندم ، حتى لقد بكى بدموع العين .

وهزتنى كلماته التى غرقت فى التنهدات .

وألح على شعورى بأن « الشاويش عبد الله » يملك سرا غريبا .

وحاولت أن أسأله عن أشياء كثيرة وقبل أن أبدأ الكلام سألنى هو إن كنت أعرف الانجليزية . ولم يتركنى لأجيب ، فقد طلب منى فى همس أن أعلمه الانجليزية .

وسكت أنا . وسكت هو .

بينما كان أبريق الشاى يفور « وعلوانى » يرفع عنه الغطاء قليلا فتصعد منه الفورات تملأ المكان الصامت تحت ظلمات الليل .

وفجأة . وجدنا أمامنا أحد الخفراء ينادى بانزعاج :

ـ يا حضرة « الشاويش عبد الله » .

وانتفض « محمد أبو سويلم » يسأله :

ـ خبر ايه ياواد يا « عبدالعاطى » ؟ ! .

فقال « عبد العاطى » بانزعاج :

ـ المأمور جه ! ! .

ووقف الجميع فى حيرة ، إلا « الشاويش عبدالله » . فقد نهض متثاقلا ، وقال لعبد العاطى :

ـ طب . روح انت .

ووقف « عبد العاطى » يحك قفاه . وقال متحرجا :

ـ دانا كان غرضى أقول لك يعنى .. انه .. يعنى .. طايح فى البلد ومعه تلات عساكر بالخيل نازلين ضرب فى الخلق ! وكان . . يعنى جاى يتمم عليكو انتو . . ولما لقى شوية أولاد بيلعبوا قدام دكان « الشيخ يوسف » . قال . يعنى . القصد . قال حاجات وحشة على حضرتك ياحضرة الشاويش !. مابلاش تيجى أحسن وأنا أقول له إنكم فى بلد تانية ! .

وكان « عبد العاطى » مايزال يحك قفاه .

فنهره « محمد أبو سويلم » قائلا فى انفجار :

ـ ما بلاش هرش فى عرق الهيافه ده ياوله ! . . عمال تحك فى قفاك ليـــه . جاتك الغم ! .

وابتسم « الشاويش عبد الله » لعبد العاطى بحنان :

ـ يعنى المأمور لقى القتيل ؟ ! . طب بس روح انت .

وانصرف « عبد العاطى » مضطربا .

ووقفنا جميعا ننتظر ما يصنعه « الشاويش عبد الله » .

والتفت إلينا « الشاويش » ، وطلب من زملائه العساكر أن يصحبونا إلى دورنا ، وأن يلحقوا به عند الدوار .

وانصرف . مرتفع القامة ، والكرباج فى يده ، وخطواته راسخة فى الأرض المتربة ، ورأسه شامخة ينظر إلى السماء .

ومضينا وراءه فى كبرياء ننتظر فى قلق : ما يكون ! . .

— ٢٠ —

قعدت أفكر فيما يمكن أن يحدث بين « الشاويش عبد الله » والمأمور الجديد . والليل الطويل يمضى بى ! .

ولكننى فى الصباح قمت مع الشمس ، وذهبت إلى عاصمة الإقليم ، وعدت .

وفى القرية بدأت أسمع ماجرى فى الليل بين المأمور والشاويش .. كان الناس يقولون كلاما غريبا ، ويقطعون كلامهم أحيانا ، ليطلقوا ضحكات ساخرة من المأمور ، وهم يتذاكرون يوم دخل فى مأتم العمدة « والشيخ ابراهيم » يقرأ « وانظر إلى حمارك » ! .

وسمعت « الشيخ يوسف » يقول أن مايجرى فى هذه القرية ، ماجرى أبدا وما كان . . حتى « الشاويش عبد الله » الرجل الطيب خرج عن حده أول يوم هبط فيه القرية ، ولقد عاد إليه هدوؤه لبعض الوقت ، ولكنه حين قابل المأمور ركبه مايركب القرية كلها .. فقد عاد من الجسر يهز طوله ، والمأمور يسأله من على ظهر الحصان عن سبب غيابه وهو لايجيب ! .

وترك المأمور يشتمه وهو لا يرد .. وفى آخر الأمر تأخر خطوتين ، ورفع الكرباج ولسع به المأمور ، وعاد يلسعه حتى شواه ! . .

ورأيت « علوانى » يزيط وهو يتكلم بفخر عن شهامة العرب ، وحكى لبعض الشبان كيف أمسك « الشاويش عبد الله » بالمأمور ورماه عن ظهر الحصان ، ومرغ به الأرض ! .

وسمعت « عبد العاطى » الخفير يقول إن الحكاية غير هذا ، وأنه وحده يعرف الدور . ولا أحد غيره يعرف ماهو الدور . ولكنه لايريد أن يحكى !

أما « الشاويش عبد الله » نفسه فلم يعد يتكلم فقد ظل صامتا يسمع ما يقوله الناس عنه وهو يبتسم ، وعيناه تنظران فى الفراغ ! .

وعندما تكلم لأول مرة بعد صمته الهادىء الطويل ، قال إنه حزين لأن « الشيخ حسونة » سافر وترك البلد .

ثم سكت « الشاويش » قليلا واستطرد يقول إنه يخاف أن يذهب هو الآخر من البلد ، ولا يراها مرة أخرى ! .

وفى الليل ، كان « الشاويش عبد الله » يجلس مع زملائه العساكر وبعض رجال القرية على مصطبة « محمد أبو سويلم » بلا كلام بين الصمت والحذر والمخاوف .

وجاءت إشارة تليفونية من المركز تستدعى « الشاويش عبد الله » وصاحبيه . وأدركت القرية أنهم لن يعودوا بعد ! .

وفى الصباح ، قبل أن يرتفع شعاع الشمس كان رجال الزراعية يملأون حوض الترعة ويهوون بفؤوسهم ومعاولهم على الأعواد المثقلة بالقطن والذرة .

بينما اجتمع على الجسر رجال من القرية يعانقون « الشاويش عبد الله » ، وعلى الوجوه لهفة وجزع ! .

وزعق « علوانى » وهو يبكى وصوته يفيض فى النشيج :

- آه ياخسارتك يا « شاويش عبد الله » . . آه يازين العرب . . يابطل ! آه ياخسارة الرفقة العزاز ! .

ومسح « الشاويش عبد الله » عينيه وركب . . ولم يقل شيئا .

وتمتم « الشيخ يوسف » بصوت متهدج :

بقى البلد دى مالهاش نصيب دايما كده !! .

ومضت الركائب « بالشاويش » وصحابه وهى تثير وراءها دوامة من الغبار .

واختنق صوت « محمد أبو سويلم » وهو يقول :

- وداد مش وداع ! . .

ولكنه وداع ! . .

« فالشاويش عبد الله » لم يعد إلى القرية أبدا . .

ذهب « الشاويش عبد الله » وأصحابه من طريق الجسر ، وجاء إلى حوض الترعة رجال يدهسون الزرع ويهشمون الأعواد ! ! .

* * *

وبعد العصر أقبل من المركز ثلاثة جنود وصول من بوليس المديرية ، وقالوا إنهم مقيمون فى دوار العمدة حتى يستأجروا مكانا يجعلون منه نقطة بوليس ! .

ورنت كلمة نقطة البوليس فى القرية كضربة مفزعة ! .

وبدأ العجائز فى الدور يتذكرون أيام السلطة العسكرية والحرب ..

وذهبت امرأة عجوز إلى « الشيخ يوسف » تسأله إن كان عساكر النقطة سيأخذون البهائم والدجاج والبيض والسمن والدقيق من القرية ويربطون الرجال فى سلاسل وحبال ويسوقونهم أمامهم زاعمين أنهم متطوعون ثم لا يعود الرجال بعد هذا إلى القرية إلى آخر الزمان ! .

ولم يجبها « الشيخ يوسف » ، ولكنه نظر إلى « علوانى » الذى كان يقف أمامه وقال مضطربا .

ـ آدى آخرة العايل السودة . . آدى آخرة منا كفتنا ويا الحكومة ؟ ؟ أهى النقطة جاية أهه ! إلهى تجيلهم نقطة على عينهم ! إلهى ياشيخ ينصابو بريح النقطة ! . آدى آخرة شهامة العرب وهباب العرب . زعلان قوى علشان « الشاويش عبدالله » ؟. بتعيط عليه علشان ماكان بيديك قرش بعد ما تعمل له الشاى ! ياك يعيطوا عليك من بدرى ! .

فقال « علوانى » بضيق :

ـ خبر ايه ! ايه الكلام ده .. قرش ايه ؟ يعنى خدت حريتك فى شتيمة العرب دلوقت ، إنت راخر كنت بتعيط الصبح وانت بتطرق « الشاويش عبد الله » ! ولا دا كان ضحك ! ! ما تخللينى فى اللى أنا فيه . . يا أبا « الشيخ يوسف » ! . . بقى أنا باقول لك اشترى نعجتين وأنا أسرح لك بهم تقوم تقول لى عرب ونقطة وعفريت أزرق ! ! والنقطة يعنى حاتعمل لنا إيه أكتر من اللى احنا فيه ؟ هه ؟ ! ياك انت خايف على العمودية ! .

ثم التفت « علوانى » إلى العجوز التى تسأل وقال لها :

ـ روحى ياوليه انتى ! النقطة حاتعمل لنا إيه ؟ دا المفلس يغلب السلطان . وايش ياخد الريح من البلاط ؟ ! .

وذهبت العجوز وبقى « علوانى » يحاول أن يقنع « الشيخ يوسف » بأن يشترى غنما يقوم هو على رعيها ، وتطرح فيها البركة ! .

كان يفكر فى عمل . . أى عمل بعد ما باع شيخ البلد حقل البطيخ الذى كان يحرسه طوال الصيف .

وقال « علوانى » وهو ينصرف يائسا من عند « الشيخ يوسف » :

- وقلت ايه بق ؟ يعنى أروح لمين ؟ لا أبويا « محمد أبو سويلم » عاوز يشترى غنم ولا « عبد الهادى » فايق للغنم ولا حد خالص . يا ناس دا مافيش من نبى إلا ورعى الغنم ، فقال « الشيخ يوسف » مغضبا :

- إنت حاتلخبط فى الحديث الشريف كمان . . الحديث بيقول ما من نبى إلا ورعى الغنم ! لكن الكلام ده مش فى البلد دى ! ! إنت حاتحط راسك براس الأنبيا ؟ ! مرة تقول إنك من نسل الإمامو على ، ومرة تحط راسك براس الأنبياء والمرسلين ؟ ! دا إيه دا يا ناس ؟ روح ياشيخ روح وخللينى فى همى . . جاك ريح لما ينفضك ! .

* * *

وبق « الشيخ يوسف » وحده يفكر ! .

إنه يعرف أن النقطة عندما تدخل بلدا لا ترعى لأحد وقارا إلا للذين لهم رجل فى الحكومة .

ونقطة البوليس هذه تقضى على كل أمل له :

فما دامت المديرية فكرت فى نقل نقطة البوليس إلى البلد ، فهى طبعا لن تفكر فى تعيين عمدة ! .

ومن الحق أن « الشيخ يوسف » كان قد عدل عن التفكير فى أن يكون عمدة ، ولكن حلمه بالعمودية كان يغزو رأسه فى بعض الأحايين .

على أن « الشيخ يوسف » لم يكن هو الرجل الوحيد الذى يخشى على منصب العمودية من وجود نقطة بالبلد . . فشيخ البلد هو الآخر كان يكتم أحزانه ، ويدارى . ولكنه آخر الأمر ، وقف على ناصية طريق فى القرية . يشكو « لمحمد أفندى » من وجود نقطة فى البلد . . فهذا يعنى ضياع هيبته كنائب للعمدة ، وهو يعنى أيضا أن الحكومة قد عدلت عن تعيين عمدة .

وتحشرج صوته وهو يقول :

- من هنا ورايح كل واحد حايقول ياللا عالنقطة ! بق فيه حد يستجرى

يبجى يقول يا عمدة وللا ياشيخ البلد ؟ ! . . والله رحنا بلاش يا ولاد .

وفى دار « محمد أبو سويلم » وقفت « وصيفة » تخبط صدرها وتقول لأمها أن نقطة البوليس جاءت للبلد .. وياما يجرى من عساكر النقطة !

وشردت « وصيفة » وأمها تقول فى حسرة :

- لو كان لكى بخت كان قعد لك « الشاويش عبد الله » ! .

أما « عبد الهادى » فقد جلس أمام داره يجز على أسنانه ، وتتقد عيناه وتحدث معه « محمد أبو سويلم » قليلا عن الرجال الذين يحفرون الزراعية .

وسكت « محمد أبو سويلم » بعد هذا وظل « عبد الهادى » ساكتا ..

ولحظة بعد لحظة أخذت الأصوات تفيض فى الحلوق .

بينما كان « عبد العاطى » يقف أمام الدوار فارغ القلب . إنه لايعنى بشىء من هذا كله .. فسواء جاءت الهجانة أم نقطة البوليس ، وسواء عينوا فى القرية عمدة جديدا أم لم يعينوا .. فان هذا كله لن يزيد أو ينقص من القراريط الأربعة التى يملكها على الجسر ، ويزرعها ذرة فى الصيف وفولا فى الشتاء .. وهو يأخذ مرتبه كخفير ويعيش بلا حلم .. إلا خيالات غامضة تطوف بعقله من حين إلى حين فيصرخ وحده : « ربنا يستر .. يامنجى ! » .

« وعبد العاطى » يريد أن تدوم له اللقمة .. ولقد يشرد أحيانا فيتمنى أن يحدث شىء ما يهز حياته فيطلق ضحكات لاتثقلها المرارة ولا الذكريات ولا القلق الغامض .

وتطلع « عبد العاطى » إلى شباك الدوار ، وكانت تقف وراءه أرملة العمدة . وهى امرأة صغيرة تزوجها العمدة على كبر ولم تنجب منه ! .

كانت تلبس السواد ، ولا تخرج إلى الطريق ، ولايدخل عندها رجل .

وهى لم تر الطريق منذ حملها العمدة من بيت أبيها فى قرية مجاورة ، إلا بعد أن مات زوجها العمدة ، فتعودت أن تقف فى الشباك تتأمل الناس ، وتتكلم مع « عبد العاطى » .

ورفع « عبد العاطى » رأسه وحاجبه مغازلا - وفى ذهنه صورة أولاد البندر حين يغازلون - وترك صوته يرتفع مغنيا بخفة :

سراية يا سراية بدى أنزلك غفير . .

غفير من غير ماهية علشان خاطر الجميل

ورنت ضحكة أرملة العمدة وتمايلت ، بينما وقف شيخ البلد محنقا :

ـ علشان خاطر الجميل ؟ ! جميل . . جميل مين يا اخواتى ؟ ! ايه يا واد يا عبد العاطى ؟ جميل ايه ياك يبرك عليك جمل ماتقوم ! البلد كلها فى ايه يا اخويا وانت فى ايه ؟ ! تعال هنا . .

وجرت أرملة العمدة من الشباك إلى الداخل .

وتقدم « عبد العاطى » من شيخ البلد باستخفاف ، ورفع شيخ البلد يده ليصفعه ولكن « عبد العاطى » أمسك بيده يد شيخ البلد وقذفها بعيدا وهو يقول :

ـ إوعى تقرب ناحيتى ! ؟ تضربنى بالكف على سدغى ليه ؟ ليه يعنى ! ؟ ما حدش له ضرب عليه ؟ بقى ما صدقنا نخلص من العمدة تيجى انت كمان تضربنا ! ؟ . .

واهتز شيخ البلد من الغيظ وهو يحس بيد « عبد العاطى » قوية تكاد تهرس يده . .

ووقف يصيح فى مرارة :

ـ يا واد يا واد ! ! خلاص بقى فجرتوا ! ما هى النقطة جاية . . ولاعاد فيه عمدة ولا نايب عمدة ! ماحدش بقى ليه قيمة ولا سيمه ! آه ياغجر . . طب والله لاوريك ، أصل احنا بلد تخاف ما تختشيش .

وانصرف « عبد العاطى » باستخفاف من أمام شيخ البلد وعندما اختفى تماما زعق معرضا بيوم رمى النساء عمدتهم الذاهب بروث البهائم :

ـ خبر ايه ياشيخ البلد ! ؟ تخاف ايه ؟ ! انت باين عليك عاوزلك مقطفين جلة زى المرحوم ! ! . .

وجلس شيخ البلد أمام داره فى مواجهة الدوار يهز رأسه تحت شعاع العصر الهزيل الشاحب . وهو يتمتم بالشتائم .

وعندما أقبل المساء على قريتى ، كانت أبواب الدور مغلقة ولاصوت يرتفع . لاشىء إلا الرهبة من داخل الدور ، والحذر ، والخوف من المجهول ! .

وطرقت أرجل الخيل أرض القرية تحمل خمسة رجال فى الطرابيش والملابس

الصفراء المشدودة ، والبنادق ! . .

كانوا أربعة من العساكر على أحصنة بيضاء يتقدمهم على حصان أسود رجل بدين أحمر الوجه ، فى بدلة عسكرية صفراء مفتوحة من على رقبته ، وعلى وسطه حزام من الجلد معلق به مسدس واضح للعيون ! .

ومن شقوق الأبواب والنوافذ أخذ رجال القرية ينظرون إلى الخيل والرجال . وتهامس الأطفال فى ذعر :

ـ الحكومة !! الحكومة نزلت البلد بالخيل ! .

وارتفعت همهمة من كل دار والعيون ترتد من على وجه الصول الاحمر .

ـ يانهار اسود . الراجل ده شكل الانجليز ! . دى سنة مطينة ! .

وانتهى الصول والعساكر من سيرهم إلى دوار العمدة ونزلوا عن الخيل وجلسوا فى المندرة الواسعة التى أعدها شيخ البلد لمبيتهم ، بعيدا عن مكان الحريم فى الدوار .

وحمل إليهم الطعام من داخل الدوار . حمله « عبد العاطى » ، وهو يبتسم .. ولكن الصول نظر إلى الصينية المغطاة بمكبة من الخوص ، وقال أنه لا يأكل طعاما عند العمد .

فأعادها « عبد العاطى » بلا كلمة ، إلى داخل الدوار ، وعندما حاولت أن تأخذها منه المرأة التى ناولتها له من داخل الدوار ، لكزها « عبد العاطى » ودخل بنفسه . إلى مكان الحريم ووضع الصينية أمام أرملة العمدة .

ووقف ولم يتحرك .

وبعد قليل ناداه شيخ البلد فلم يجب .

ونادى الصول بصوت أجش رهيب :

ـ يا غفير .. يا واد انت يا غفير ! .

فأقبل « عبد العاطى » مرتبكا :

ونهض الصول بعد أن استراح قليلا ، ونهض وراءه العساكر الأربعة فطافوا بالقرية ومن ورائهم « عبد العاطى » .

كانت الطرقات خاوية لا حياة فيها كالأرض الخراب . وشعر الصول فى أول

الطواف بما يملك من هيبة فامتلأ رضا عن نفسه ، وظل يتقدم فى طرقات خالية بين أبواب مغلقة لا يرتفع من ورائها صوت . ولا شعاع ! .

وخطوة بعد خطوة كان قد ألف رضاه عن نفسه ، وبدأ يستشعر إحساسا جديدا .

كان صامتا . ومن ورائه العساكر والخفير صامتون .

وأحس فى القرية الهامدة المظلمة بوحدة مقبضة ، فوضع يده فى جيبه وأخرج علبة السجائر ، ووجدها فارغة .

وسأل إن كان فى القرية بقال يبيع السجائر .

وجرى « عبد العاطى » إلى دار « الشيخ يوسف » وطلب منه أن يفتح الدكان بأمر الصول ، وأن يجهز كل ماعنده من أنواع السجائر ليختار منها الصول .

وقام « الشيخ يوسف » مترددا فى وجل ففتح الدكان وأعد علب السجائر فى ضيق وتوجس ! .

وعندما مر الصول بالدكان . اختار علبة على عجل ، ودون أن يسأل عن ثمنها أعطى « للشيخ يوسف » قطعة فضية بقرشين .

وحملق « الشيخ يوسف » فى القطعة الفضية وسكت ، وشيع الصول بنظرة طويلة ولم يفكر فى أن يطالبه بالباقى ! .

ونظر الصول إلى العلبة وفتحها وأشعل سيجارة وأطلق دخانها من بين خياشيمه ، وانطلق مع الدخان من بين شفتيه صوت مرتفع كصوت الكبش المعلوف .

وعندما عاد الصول من دورته ، جلس فى الدوار على كنبة كبيرة ، ووقف العساكر ، حتى أذن لهم أن يجلسوا .. ثم أعطى « عبد العاطى » قطعة فضية بعشرة قروش وطلب منه أن يشترى حلاوة طحينية وبيضا وأرغفة من القمح ! .

ولم يكن فى القرية أحد يبيع أرغفة القمح ! .

وذهب « عبد العاطى » يخبط على باب « الشيخ يوسف » مرة أخرى وطلب منه حلاوة طحينية ، وروى له حكاية البيض وأرغفة القمح ! .

فتناول « الشيخ يوسف » القروش العشرة من « عبد العاطى » وقال متشفيا :

- هو سرقنى فى قرشين صاغ بقية حق علبة السجاير . . والله لأسرقه أنا فى

أربعة ! والله لأعمل اللى عمره ما أتعمل فى البلد . حابيع عيش قمح ! . بق ياخد علبة سجاير بقرشين صاغ .. وياعالم .. يمكن يطلعوا برانى !..

وخرط « الشيخ يوسف » قطعة من الحلاوة الطحينية قضم منها بأسنانه حتى استوت حروفها ، وأعطى « عبد العاطى » قطعة أكلها « عبد العاطى » متلذذا سعيدا ، ثم مص أصابعه من آثارها . ولف « الشيخ يوسف » ما تبقى من قطعة الحلاوة ودفع بها إلى « عبد العاطى » . ودخل إلى الدار ، وعاد بأربعة أرغفة يابسة من القمح ، وأربعة أرغفة من الذرة . وعدة بيضات ! .

وانصرف « عبد العاطى » فقدم الحلاوة والبيض والأرغفة للصول ، وحين رأى الصول الأرغفة الجافة ثار فى « عبد العاطى » فأرغفة القمح مقددة ، وقال له وهو يرمى بالخبز فى وجهه ويقول إنه لم يطلب منه أرغفة من الذرة ! .

وسكت قليلا وبرم شاربه المصبوغ اللامع ثم قال :

ـ إسمع ياولد . إنت من بكره . تشوف لى واحدة تكون نضيفة . واحدة تخبز وتطبخ . فاهم ؟ ! .

فقال « عبد العاطى » وهو ينظر إلى خاتم ذهبى كبير يشع فصه الأخضر فى أصبع الصول :

ـ والله ياحضرة لفندى ماعندناش الحاجات دى هنا .

فقام الصول محنقا وقام معه شيخ البلد ، وتقدم الصول من « عبد العاطى » وضربه بالكف على صدغه وهو يصرخ :

ـ إنت واد لمض قليل الحيا .. والله لأربيك .

وطرب شيخ البلد وقال :

ـ قوى ! واد نجس عديم الربابة .. ربيه ياحضرة الافندى ! .

وعاد الصول يجلس على الكنبة وهو يسأل « عبد العاطى » :

ـ إسمع ياولد .. إنت امك إسمها إيه ؟ .

وحملق « عبد العاطى » مستنكرا وهو يقول :

ـ أمى ؟ وايش دخل أمى فى شغل الغفر بق ! اش دخل أمى فى الحكومة ؟ !

وارتفع صوت شيخ البلد يقول :

- اسمها زهانه .. أمه اسمها زهانه ياحضرة الأفندى .

فغمغم « عبد العاطى » وهو يحملق فى وجه الصول وشيخ البلد :

لأ ما اسمهاش زهانة ! . زهانة دى مين ؟ ! دى باين أم شيخ البلد ! ! .

فقال الصول متوعدا :

- طيب يا ابن زهانة والا هبابة ! القصـــد ! ادخل هات العشا اللى جوا وتعالى ؟ ! بعد العشا أعرف شغلى وياك .

ودخل « عبد العاطى » لحمل الصينية من جديد ، وحاولت أرملة العمدة أن تسأله عن شكل الأفندى الذى يجلس فى المندرة ، ولكنه حمل الصينية وهو يقول لنفسه بغيظ :

- أهه شكله معفرت وراكباه العفاريت كلها ! . . قال واحدة نضيفة تخدمه قال ؟ ! انت فاكرنا ايه ياحضرة الصول ؟ ! انت فاكرنا ايه ياافندى ! ! . .

وقبل أن يعود « عبد العاطى » بالصينية ، التهم الصول قطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية . ولم يرتح لطعمها . ثم التهم قطعة أخرى . ولف القطعة الصغيرة الباقية باشمئزاز ، « وعبد العاطى » يدخل بالصينية .

ووضع « عبد العاطى » الصينية أمامه على منضدة من الرخام مخدوشة السيقان ، وحمل الابريق والتشط ، وصب على يد الصول .

وقبل أن يصب على يد العساكر قال له الصول :

- خد الحلاوة دى اديهـا للبقال وقول له دى حلاوة مزنخة وزى الزفت ! ! وخد عيشه ده والبيض رجعه وهات منه العشرة صاغ وقل له لو باع حلاوة زى دى مرة تانية حاخرب بيته .

ومضى « عبد العاطى » يحمل مابقى من الحلاوة ويحمل الأرغفة والبيض وهو حائر فيما يقول « للشيخ يوسف » . وفى الطريق فتح ورقة الحلاوة وقضم قطعة أخرى .

وخبط على باب « الشيخ يوسف » وهو يقول لنفسه مقطعا من موال :

خبطت عالباب قال لى الباب يا وعدى !

وعندما فتح له « الشيخ يوسف » أعطاه الحلاوة والبيض والأرغفة وبلغه رسالة الصول .

وتناول « الشيخ يوسف » الأشياء من « عبد العاطى » متكدرا ، وتحسس قطعة الحلاوة قائلا فى صوت خافت مرتعش :

- ياليلة غبرا ؟ ! بعد ماطفح اللى طفحه يرجع لى الباقى ! وهو باقى حاجة من الحلاوة ! ! مالهفها كلها ؟ خد أدى البريزه أهه الله لايبارك له فيها ..

ثم مضى يلعن النقطة ورجال النقطة والزمن الذى جاءت فيه ، وأهل البلد جميعا ..

وهمس « عبد العاطى » وهو ينصرف :

- وقال إيه .. عايز واحدة تخدمه ! فاكرنا مغفلين ؟ ! .

فقال « الشيخ يوسف » وهو يغلق الباب :

- بكرة يلاقى عشرة ! حاكم دى بلد ! بلد مايعلم بيها إلا ربنا ! .

وانصرف « عبد العاطى » وهو يفكر فى الصول وما يصنعه .

وبلغ الدوار فدخل المندرة متباطئا .

وعلى باب المندرة وجد شيخ البلد يمسك بالابريق ويصب على يد الصول ، والصول يتمخط ويتمضمض ويبصق ! .

ونظر « عبد العاطى » إلى شيخ البلد بشماتة .. ودخل المندرة فوضع القروش العشرة على الكنبة ورفع الصينية فى صمت .

وعندما كان الصول يمسح فمه بالفوطة الحمراء ذات الخطوط الصفراء المتشابكة خرج « عبد العاطى » بالصينية على رأسه فسأله الصول :

- قال لك ايه البقال ؟ ! إداك الفلوس من سكات ولا برطم ؟ ! قال ايه ؟ .

فقال « عبد العاطى » باستخفاف :

- الفلوس أهى عالكنبة . وهو بيسلم عليك ! .

وجلس الصول يدخن سيجارة . وكانت خياشيمه تطرد الدخان بصوت مرتفع ، وكان يشخر كذكر البط السمين .

وأخذ يلعب فى أسنانه ، ويتجشأ . وبعد قليل تمطى وتثاءب ونظر إلى الكنبة وهو يقول :

- الواحد ينقلب بقى ياخد له تعسيله على الكنبة دى وزى ماتيجى تيجى ! .

ثم نادى بصوت جاد :

- وانت يا عسكرى انت وهوه خدوا بالكم كويس . واحد يقف هناك على باب الدوار والباقيين يلفوا البلد ! واللى يتخايل بحاجة من ناحية المركز يكح . واللى يسمع الكحة من بعيد يكح جامد . وانت يا عسكرى ياللى قدام الدوار أول ما تسمع كحة تيجى جرى تصحينى ! .

وهمس لنفسه :

- يمكن البيه المأمور يمر الليلة . . دا الودوده كان حرق البلد دى وخلص !

وخرج العساكر . وشيخ البلد . والصول يخلع حذائه ، ثم ألقى ببدنه على الكنبة . وتمطى . وتصاعد شخيره بسرعة .

كان راقدا بملابسه العسكرية ولكنه قام فجأة يحك جلده ويفحص الكنبة ويشتم الفلاحين وبيوت الفلاحين وعمد الفلاحين .

وحاول أن ينام مرة أخرى ، ولكنه قفز من على الكنبة يحك جلده ويخلع سترته ويفتش فى جسده عن الحشرات التى لسعته .

* * *

وفى الصباح رحت مع أبى إلى عاصمة الاقليم لدكتور العيون . وكنت على طول الطريق أفكر فى المدرسة الثانوية التى سأدخلها بعد أيام قليلة .

وبعد أن انتهيت من زيارة طبيب العيون ، مضت بنا العربة الجنطور حتى وقفت أمام باب المديرية . . وفكرت قليلا فى الحديث الذى كان يدور دائما بين طبيب العيون وأبى .

كان طبيب العيون عضو شيوخ سابق كافح مع سعد . وكان يقول لأبى دائما انه لا الانجليز ، ولا الملك فؤاد ، ولاحزب الشعب ، ولا المدافع ، ولا كل مصانع السلاح الأوربية ، ولا كل قوى العالم تستطيع أن تخرس صوت شعب مصر أو تحكمه على الرغم منه ! .

ستظل الأمة مصدر السلطات على الرغم من كل شىء . وسيظل الشعب مصرا على أن يكون صاحب الكلمة ! ولربما أفلحت البنادق فى أن ترهب ، ولكن الرصاص لن يخرس صرخات العدل والحرية .

ولقد تفلح القوة الغاشمة فى أن تنتزع الأرض من الفلاحين ، وفى أن تزحم

السجون بالأحرار ، وفى أن تصنع الأزمة فلا يفكر أحد إلا فى اللقمة ، ولكن الناس يدركون أن الحرية هى التى توفر الطعام ، وأن الدستور هو الذى يضمن الحقوق ، وأن اختيارهم الحر لمن يحكمون ، هو الذى يضمن شروطا إنسانية للحياة !

وكان طبيب العيون يقول ساخرا إن حزب الشعب قد وضع دستورا وصنع برلمانا .. ولكن لا أحد فى مصر يعتقد أن هذا هو برلمانه ، ولا أحد فى مصر يثق فى كلمة يقولها نائب من حزب الشعب حتى لو كانت كلمة حق ! . . ذلك أن شعب مصر يدرك أن حزب الشعب خدعة أريد بها تضليل الناس ليقضى فيهم قضاء العدو ! .

وكان دكتور العيون يقول هذا كله وهو يضع فى عينى شيئا لزجا على مرود زجاجى . .

وتركنى الطبيب ونظر إلى أبى وهو يكمل قائلا إن المهم ليس هو ما يقوله الحاكم ، فالكلام كثير ويستطيع الطاغية البارع أن يقول أجمل كلام . . وإنما المهم هو باسم من ينطق الحاكم ! لحساب من يعمل ! والذى يحدد هذا كله هو أن نعرف من هو الذى اختار هذا الحاكم ! وكيف تم الاختيار ؟ والرجل الحافى فى الحقل والشارع يدرك هذا أكثر مما يدركه أرباب الكفاءات . ومن أجل هذا فهو لايثق إلا فى الذى يختاره للحكم بارادته الحرة .. وهـذا عدل . . لأن الذين يختارهم الشعب ليحكموه يعتمدون دائما فيما يواجهون على الارادة الخالقة لملايين الناس ، ومن هنا تنبثق فيهم القوة والصلابة . . ثم أنهم يجعلون مصلحة الملايين التى انتخبتهم هى مقياس مايأخذون وما يدعون ومايصدرون من قوانين ! .

ثم قال الطبيب إن الطلاب الذين يتظاهرون فى مصر يدركون هذا .. وهم أقوى الناس وأنبل الناس فى هذه الأيام ! .

* * *

كنت ـ ونحن نقف بالعربة أمام باب المديرية ـ أفكر فى هذا الكلام الباهر الذى قاله طبيب العيون ، وحاولت أن أحدث به عم كساب سائق العربة ولكنه قال لى فجأة إن أبى دخل إلى المديرية ليسعى فى دفع نقطة البوليس عن القرية . وسكت قليلا ثم التفت إلى وقال فى صوت رهيب إن وجود نقطة البوليس فى البلد مصيبة كبيرة .. فالعساكر إن أقاموا ، خسرت كل البنات .

وكان وجهه النحيل الاصفر يختلج ورموش جفنيه تخفق . . وكان واضحا لى أن السائق يعانى إحساسا زريا بالخجل والعار والمهانة والعجز .

لم تكن له فى القرية أرض ، ومع ذلك فقد كان مهتما بالزراعة ولم تكن له أسرة ولا بنات وعلى الرغم من هذا فقد كانت كلماته عن خسارة البنات تقطر بالمرارة والهزيمة والحنق .

واندفعت كلماته فى عروقى بحرارة لم أحتملها ، ووثبت أمام عينى فجأة صورة « وصيفة » وتخيلتها هى الأخرى تخسر ! .

« وصيفة » . والعساكر ؟ .

ولم أحتمل الفكرة . . وزايلتنى البهجة والثقة والكبرياء . . وكل ما شعرت به منذ لحظة ، وأنا أسمع كلام طبيب العيون ، وشعرت بأشياء ملتهبة تقف فى حلقى .

واستمر السائق يقول لى إن البلد فقيرة ، والبنات والنساء لايجدن المال ولا الذرة ، ولا أحد فى القرية يعرف القرش بينما العساكر يملكون القرش ! .

وسكت قليلا ، ثم قال لى فى رهبة إن العساكر يجب ألا يقيموا فى البلد فربما اصطادتهم البلد واحدا بعد واحد .. ربما استفردت البلد بواحد منهم فلم تتركه إلا ميتا . وعلى أية حال فيجب أن يعرف رجال المديرية أن الناس لا يسكتون عادة على الهوان إلا إذا كانوا يدبرون انتقاما ! .

وسكت السائق عم كساب قليلا ، وهو يهز رأسه وينظر إلى الفضاء ثم عاد يقول لى إنه يعرف كل شىء . فقد عاش فى الأسكندرية وكان يعمل سائقا للحنطور أيام الحرب وعرف ما يصنعه الجنود الأجانب عندما يهبطون مدينة كبيرة فقيرة . وهو يعرف ما يمكن أن يصنعه عساكر يملكون القرش فى قرية صغيرة تنتزع الأرض من أهلها .

وتنهد قليلا واستمر يقول إنه اشتغل فى مائة شغلة ، فكان سائقا على عربات الحنطور ، ووقف خفيرا فى الدريسة ، وعاملا فى العنابر ، وعاملا فى النسيج . وعندما قامت الثورة اشترك فيها وهو عامل فى الأسكندرية . وبعد الثورة اشترك فى إضرابات العمال . وسجن من أجل الاضراب وذاق المر ! .

وفى السجن لقى عمالا يفهمون أشياء لم يكن يعرفها ، ومنهم تعلم الكثير من

الأسرار . وخرج من السجن فعاد يبحث عن عمل ، وحاول أن يشتغل . فلم يجد أحد يرضى . لأنه سجن مرة من أجل الاضراب ، فعليه أن ينتظر السنوات حتى ينظف صحيفة السوابق ، وهو ينفق هذه السنوات فى القرية يسوق العربة الحنطور ويدخر المال ، متأكدا أنه فى يوم ما سيعود إلى الأسكندرية ليستأنف حياته هناك من جديد . وهو يعلم أن الرجل يجب أن يرفع رأسه دائما ويجب أن يدرك أن فى الإمكان دائما أن يبدأ من جديد . هكذا علمه الذين لقيهم فى السجن ! .

وعجبت لكلام عم كساب . ووجدته مثل كلام طبيب العيون :

يفتح العقل على كثير من الأشياء ! . .

وعندما سكت هو ، كنت ما أزال مبهورا بالدوامة الرائعة التى هى حياته .

وتذكرت أن النساء فى قريتى لا يملكن القرش حقا . . وعادت تلح على صورة « وصيفة » عندما لقيتها فى أول الصيف ، وفرحتها وأنا أعطها قطعة نقد فضية ، وقولها لى وقدماها فى الماء تحت ساقية « عبد الهادى » إنها تتمنى أن تصبح فتجد زلعة من النقود . . وألحت على صورتها عندما خرجت منذ أيام باكية من قاعة الطحين لتقول أن كيزان الذرة الباقية لا تكفى للطحين ! .

ما زال رنين فاجع من كلماتها ، يسيل من أذنى إلى أعصابى ويهزنى حتى البكاء ! ...

إن السائق الذى يخاف على بنات القرية من العساكر يفهم كل شىء حقا . يفهم كل شىء عن العساكر والبنات الفقيرات . تماما كما يفهم طبيب العيون كل شىء عن الأزمة والبرلمان والانتخابات وحزب الشعب ! .

أيمكن أن تخسر « وصيفة » حقا !! .

وحاولت أن أقول شيئا . ولكن عم كساب سائق العربة فاجأنى بقوله وهو يتنهد :

- ياخسارة يا « محمد أبو سويلم » . ياخوفى عليكى يا « وصيفة » ! .

ووثب من مكانه المرتفع فى العربة ودخل المديرية مسرعا دون أن يرى اضطرابى لكلامه المفاجىء . . أيفكر عم كساب فى « وصيفة » أيضا ؟ .

أيمكن أن تفكر فيه « وصيفة » ؟ ! .

أيمكن أن تحب « وصيفة » هذا الرجل الهادىء النحيل ذا الوجه الجاف

والشارب الرمادى القصير ؟ ! .

إن الشعرات البيض تبدو واضحة فى شاربه وشعره الطويل المتناثر من تحت طاقيته الصوف .. إنه رجل لايتكلم ، وهو يعيش فى صمت مع حصان العربة ، ولا أحد على الاطلاق يعرف عنه شيئا . فهو لايسهر على مصطبة « محمد أبو سويلم » ولايكاد يذهب إلى دكان « الشيخ يوسف » .. ولايكاد يكلم أحدا .

أيمكن أن تتزوج « وصيفة » هذا الرجل الذى يقرب عمره من عمر أبيها ، والذى اشتغل مائة شغلة ، وعاش فى الأسكندرية قبل أن تولد هى ، وحبس وهى طفلة ؟ ! .

وبرزت أمامى صورة « عبد الهادى » .

ولكن لماذا لايبادر « عبد الهادى » فيقرأ الفاتحة على « وصيفة » ! .

ونظرت إلى بناء المديرية الاصفر ذى الشبابيك الرمادية . . وعاد بى فكرى إلى ماقاله طبيب العيون عن الرجل الحافى الذى يجب أن يختار حاكميه ، واختلط كلام الطبيب فى رأسى بما قاله عم كساب عن الأسكندرية وعن حياته هناك ، وعن قدرة الانسان دائما على أن يبدأ جديد ! .

ورأيت عم كساب يقبل ضاحكا من داخل فناء المديرية . وعلى أسنانه المهشمة السوداء بريق خاطف . كان يسرع إلى وهو يضرب الأرض فى ثبات بحذائه الكبير القديم وقال بفرح طيب :

ـ مبروك .. خلاص .. النقطة غارت .. حايخللوها داورية تيجى بعد المغرب وتمشى من الفجر .. ياسلام يا كساب . . كان قلبك حاسس ياجدع ! والله العظيم دا الحكومة عاملة الحكاية دى خوفا من البلد ! شالت النقطة خوفا من البلد ! مش حكاية وسايط . . جاتكو رزية ! آه لو كنا طوحنا الزراعية كمان . . لكن معلهش ياواد ! .

وراعنى أن عم كساب ذات الشعرات البيضاء يقول لنفسه ياولد ، تماما كما نقول نحن الصغار عندما نحدث أنفسنا . . وعجبت لاهتمامه بالزراعة وهو لايملك أرضا فى البلد .

وقفز عم كساب إلى المقعد المرتفع فى مقدمة العربة . . وبعد قليل أقبل أبى مبتسما يحمد الله .

وانطلقت بنا العربة ، وارتفع صوت عم كساب على قرقعة كرباجه فى الفضاء يطلب من الناس فى الطريق العام المزدحم أن يوسعوا السكة .

كان صوته ملآن بالنشوة ، وفى قعدته المشدودة زهو الانتصار .

وعدنا إلى القرية والضحى لم يغمر الحقول بعد بشعاعه الساطع .

وعلى الجسر فى الطريق إلى القرية وجدنا « محمد أبو سويلم » يسير وإلى جواره « وصيفة » .

وأوشك قلبى أن يثب فى ضلوعى .

وألقى أبى السلام على « محمد أبو سويلم » وناداه وطلب منه أن يركب معنا العربة .

وتوقد وجه « وصيفة » وضحكت الغمازات فى خدودها والتمعت عيناها . وظل قلبى يخفق .

وكانت « وصيفة » تمسك فى يدها رغيفا من القمح مطويا على طعمية تفوح رائحتها .

وتردد « محمدأبوسويلم » قليلا ولكن أبى ألح عليه ، وتقدم « محمدأبوسويلم » فسلم وركب فى الكرسى المقابل . وتقدمت « وصيفة » وحاولت أن أفسح لها مكانا إلى جوارى ولكن أبوها قال لها ببساطة :

- اطلعى جنب عمك كساب .

وركبت « وصيفة » إلى جوار عم كساب السائق . وما زال قلبى يدق ويتابع تموجات شعرها المسترخى تحت « النشرة » السوداء مستلقيا على ظهرها البديع . .

وهمست لنفسى لو أن « وصيفة » أكلت أرغفة القمح دائما كبنات القاهرة ، لكانت أجملهن .

وساد صمت قطعه « محمد أبو سويلم » بالسؤال عن حكاية نقطة البوليس . .

فاندفع عم كساب يقول مبتهجا إن النقطة لن تقيم فى البلد . وأكمل أبى قائلا أنها نقلت من البلد لتصبح مجرد داورية تجىء وتروح كل ليلة بعد المغرب .

وتنهد « محمد أبو سويلم » بارتياح . .

وسألته أنا مترددا لماذا كان فى المركز ولماذا يعود إلى القرية ماشيا .

ونظر إلى أبى مستنكرا .

ولكن « محمد أبو سويلم » ابتسم فى هدوء ، وقال لى أنه كان يزور ابنته المقيمة مع زوجها فى المركز ، بعد أن باع الجحشة لأحد الذين يشتغلون مع زوج ابنته فى مدرسة الزراعة المتوسطة .

ثم سكت قليلا وشرد فكره فى ابنته التى تزوجت فى المركز ، وقال فى حيرة إن زوجها مسكين فهى تلد له باستمرار وبلا توقف ! . ثم همس قائلا :

ـ جاتها رزيه ! عماله تزرب له عيال ! . . لوكان امال ربنا يفتكرهم بالرزق زى ما هو مفتكرهم بالعيال ! . . إلا بس عمالين يخلفوا كل سنة حنك جديد مفتوح ومافيش اللقمة اللى تسده ! .

ووجمنا جميعا ، بينما أطلق « محمد أبو سويلم » الزفرات .

ومضت بنا العربة فى صمت ، وعيناى على « وصيفة » ورأيتها تنظر إلى « عم كساب » وخدها المكور يلمع بالحمرة تحت الشمس ، بينما الخفقات من قلبى تكاد تحطم ضلوعى .

وخشيت أن يسمع أبى ضربات قلبى ، وأخذت أبلع ريقى .

وسمعت همهمة بين « وصيفة » «وعم كساب» .

وقبل أن نبلغ القرية قطع « محمد أبو سويلم » الصمت بقوله إن الانفار الذين يشقون الزراعية وصلوا إلى زمام « محمد أفندى » ، فهم الآن يحفرون فى أرض « الشيخ يوسف » التى يضع « محمد أفندى » يده عليها ، وربما حفروا فى أرض « محمد أفندى » غدا . وفى أرض « محمد أبو سويلم » نفسه بعد غد .

واقترح أبى على « محمد أبو سويلم » أن ينجو بمحصول القطن من الزراعية فيجمع منه ما يستطيع جمعه قبل أن يدهسه الرجال ! .

ورحب « محمد أبو سويلم » بالفكرة ، وتحمس لتنفيذها بلا مناقشة ، وطلب من «عم كساب» أن يقف ليحاول جمع بعض الأنفار من على الجسر يساعدونه فى جمع القطن .

ونزل « محمد أبو سويلم » وأنا أعجب له كيف لم يدعك رأسه ، ويقلب الفكرة الجديدة قبل أن ينفذها كما يصنع المدرسون فى المدرسة ، وكما علمونا دائما ألا نتعجل ففى العجلة الندامة وفى الأناة السلامة . وكيف لم يقنع بما قسم له مادام المقسوم هو أن تلتهم الزراعية قطنه . وأخذت أدير فى رأسى كلمات تعلمناها فى دروس

الدين والتهذيب .. كلمات تقول إن القناعة كنز لايفنى ! !

ولكن « محمد أبو سويلم » كان قد ترك العربة ، وقفز « عم كساب » من مقعده العالى ووقف أمام « وصيفة » ومد إليها يده لتقفز مستندة إلى يده ، ولكنها لم تمد يدها . واحمر وجهها وارتبكت ثم وضعت قدمها على العجلة ، فتحركت العربة وأوشكت أن تسقط فأمسكها «عم كساب» من خصرها بيديه ، وأنزلها بسرعة .. ووجهها كالورد ! .

ولفحنى غيظ مبهم واختلجت أجفانى المثقلة بمرهم المس .. وأنا أحدق فى بدن « وصيفة » بين يدى « عم كساب » !

وعندما هبطت على الأرض انحنت فى دلال وغندرة ، وهى تبتسم . والغمازات الشائقة ترقص فى وجهها !

وعاد «عم كساب» يفرقع الكرباج فى الفضاء ، ويطلب من الحصان فى صوت نشيط أن يسير !

وبلغنا الدار ولم نكد نهبط من العربة حتى ذهبت أبحث عن « عبد الهادى » .. وما زالت اللفحات الغامضة تثقل على صدرى ! .

* * *

أمام دكان « الشيخ يوسف » وجدت « عبد الهادى » و « محمد أفندى » و « علوانى » يقفون ، « والشيخ يوسف » محتقن الوجه .

كان «محمدأفندى» يقول أنهم دهسوا الزرع وقطعوا الأعواد الخضراء بلارحمة ، « والشيخ يوسف » يجيبه إن هذا كله لايعنيه ولايهمه أبدا أن يدهسوا الزرع أو يحرقوه ، فهو ليس زرعه ، وهو لايستفيد من هذه الأرض التى يضع عليها « محمدأفندى » يده ومادامت الأرض مرهونة تحت يد « محمدأفندى » فما شأنه هو؟ إن كل مايشغله حقا هو متى يأخذ التعويض عن الأرض ما دامت الأرض المرهونة مازالت ملكا له ! . .

وكان « محمد أفندى » يقول له إنه لايستحق إلا نصف هذا التعويض لأن الزرع ملك « لمحمد أفندى » ، والشيخ يوسف » يزعق فى « محمد أفندى » قائلا إنه يستحق التعويض كاملا فالأرض مازالت أرضه ، والتعويض الذى تدفعه الحكومة عن نزع الملكية حق له وسيدفع منه ديونه « لمحمد أفندى » على بلغه قديمه ! .

ولم يكن هذا الحديث كله يعجب « عبد الهادى » .

كان يجز على أسنانه ، وأنفاسه تتردد قوية فى أنفه ثم يقول « للشيخ يوسف » :

ـ خلينا نكلم بالراحة يا « شيخ يوسف » ومانغلطش فى بعض ! اتكلم كويس مع « محمد أفندى » .

ـ يعنى ياواد ياعرباوى أقفل الدكانه واشترى لك غنم عشان تنبسط ؟ !

وأبدى « الشيخ يوسف » عجزه عن فهم مايريده « محمد أفندى » منه .

فتطوع « علوانى » بأن يقول مصرحا :

ـ سيبكوا من الكلام ده . . بقى يابا « الشيخ يوسف » . . بقى حقيقة ربنا كده ياعم « الشيخ يوسف » إنت ماحقكش تبيع حاجتن تخلق لانفار الزراعة ! . آدى اللى عايزه « محمد أفندى » . هه أنا قلتها لك أهه بالمفتش ! .

وأزاح « الشيخ يوسف » عمامته من على مقدمة رأسه وحك منبت الشعر ثم دفع العمامة ذات الشال الكبير المتسخ فغمرت جبهته ، واستندت إلى حاجبيه وأخذ ينظر طويلا إلى « علوانى » ويهز رأسه ، وأخيرا قال له باشمئزاز :

ما أبيعش لانفار الزراعية إزاى يا واد يا عرباوى ؟ طب داهم اللى روجوا الدكان ! عجايب . أمال افتحها يعنى على الشكك ؟ ! على بكرز فلفل ، وبيضه ملح ، وورقة دخان على الحساب ؟ ! دا أنفار الزراعية دفعوا لى امبارح بس قد اللى دفعته البلد كلها فى شهر ! ودا لسه أول يوم . . ياهادى ! طب دا أنا كنت لسه باقول وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . قال كنت زعلان من الزراعية زعلان ليه ؟ حتة الأرض اللى عندى ، وحاخد بدلها فلوس أفك ضيقتى ! أزعل ليه بقى ؟! وعلى كل آهى كانت مرهونة ، ولما الحكومة تاخدها أحسن لى الف مرة من سيبانها كده غيرى يتمتع بها .. آدى باب .. وتانى باب ، الانفار بيقبضوا ويشتروا كل حاجة بالفلوس .. يعنى حايروجوا البلد كلها ويملوها خير ! أزعل من الزراعية ليه بقى ! !

ولم يحتمل « عبد الهادى » هذا الكلام فزعق فى « الشيخ يوسف » :

ـ كده على طول بين يوم وليله غيرت رأيك ؟ ! كدهه القرش قلب مخك . . أمال قريت فى الازهر ايه ونيلت ايه ؟ ! يا أخى أفتكر مشايخ زمان اللى قريت عنهم ، كانوا بيعملوا ايه مع الحكومة . . ما حدش من جدودنا قال لك على اللى

عملوه أيام عرابى ؟! نسيت عمايلهم فى الخديوى والانجليز؟ نسيت كلامهم على اللايحه ؟ بقى انت بعد اللى عملته سنة ١٩ ، وبعد ماوقفت ضد حزب الشعب تيجى تخيب نفسك كده ؟

وغاض وجه « الشيخ يوسف » ، وارتعشت شفتاه ونظر إلى « عبد الهادى » محنقا ولم يقل شيئا . ولوح «علوانى» بذراعه ليتكلم ، فصرخ فيه «الشيخ يوسف» :

ـ هس ! .

ولم يهس « علوانى » بل زعق موجها الكلام « لعبد الهادى » :

ـ يا أخى يا « عبد الهادى » دى الفلوس تقلب العفريت .

فانفجر « الشيخ يوسف » يعول « لعلوانى » :

ـ ياك تنقلب ماتقوم . اسمع يا واد انته : اوعى تيجى هنا تانى !

فقال « عبد الهادى » وهو يتحرك :

ـ والله ياشيخ ماحد جاى لك هنا تانى . دا انت راجل غلس وقلبك ردى ـ

واندفع « الشيخ يوسف » يقول :

ـ اسمع يا « عبد الهادى » : أنا ساكت وباقول لنفسى يا واد اقصر الشر ـ أنا باقول لك يعنى !! أنا يعنى باعمل كده عملا بقوله تعالى واجب بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ! آه . . انت مالك ومالى يا أخى . . الله ! انت شريكى ؟ جرى ايه ؟ ! ما كل واحد بيقول ياللا نفسى . . انت مالك ومال الزراعية يا أخى .. ايش حشرك فيها ؟ . لا لك أرض هناك ولا حاجة . . هو شكل للبيع يعنى ؟ ثم يعنى لما أنا ما أبيعش لانفار الزراعية ما هم حايشتروا من غيرى من بلد تانيه . ويعنى افرض إن الزراعية مش عاجبانى . حا اعمل إيه ؟ إيه العمل يعنى ؟ يعنى احنا اللى حانوقفها . ما رميتو الحديد فى الترعة ، واهى مشيت برضه على رقبة أحسن واحد ! ! احنا حانقف قصاد الحكومة ؟ ما « الشاويش عبد الله » عمل شملول . أهو جاب النقطة ! جاب العسكر ! !

فاحتد « عبد الهادى » قائلا :

ـ نقطة ايه وعسكر ايه ؟ طيب خلهم يعمروا فى البلد كده ! غيرشى همه بيستهفوا اللى زيك ! . . ما الواد « عبد العاطى » حكى لى على حكاية الحلاوة الطحينية والسجاير وخيبتك مع الصول .. اسكت اسكت بقى بلاش كلام خايب .

ياراجل دانت بتقول كلام يفرس ! ! يانهارك اغبر يا « شيخ يوسف » الله يخيبك يا شيخ ! . .

وتدخلت أنا فى الحديث ، وقاطعت « عبد الهادى » قائلا إن النقطة رحلت من البلد وأنها ستكون مجرد داوريه .

وتهللت الوجوه . . ومضيت أنا وسط الاستفسارات أحكى كل ما أعرف من الأمر .

وقال « محمد أفندى » « للشيخ يوسف : »

ـ إيه رأيك بقى ؟ ! قدرت الحكومة تحط نقطة بوليس غصبن عنا ؟ ! وحياة النبى يا شيخ لو قعدت النقطة لكانت شافت الويل نقطة بخطرنا أهلا وسهلا لكن غصب عنا .. يا أخى بعدك !

وبهت « الشيخ يوسف » ، وتزايل ، فاندفع « محمد أفندى » يقول :

ـ إنت يا « ياشيخ يوسف » مش قلت من قيمة جمعه إنك مش رايح تكلم حد من بتوع الزراعية .. حتى كنت ناوى ماتردش السلام .. إيه اللى خلاك تبيع لهم دلوقت ؟ !

فقال « الشيخ يوسف » متزايلا ببرود :

ـ دهدى ! آى قلت ! قلت ورجعت . حد شريكى ؟ وانا ان مابعتش ماغيرى فى بلاد تانيه رايحين يبيعوا لهم .

فقال « محمد أفندى » بازدراء :

ـ إيه اللى قلت ورجعت ؟ ! إيه اللى غيرك فى بلاد تانيه حايبيعولهم ؟ ! مايبيعوا . . لكن انت ماتبيعش ! وتخلى الانفار يطفحوا الكوتة رايحين جايين . قطيعـــه يا شيخ تقطع الزراعية واللى جلب الزراعية واللى يسلم على بتوع الزراعية ! . .

ونظر اليه « الشيخ يوسف » قائلا :

ـ هيه ! تقدر تقول الكلام ده قدام « محمود بيه » ؟ تقدر كده تطلع الزراعية وتقول كده .

فثار « محمد أفندى » ولعن « محمود بك » وقال إنه مستعد لأن يضع أصبعه فى عين « محمود بك » هذا .

ومضى يقول معرضا « بالشيخ يوسف » إن « محمود بك » بعد ما عمل فى مسألة الزراعية ومسألة حبس الرجاله ، أصبح لايهم أحدا ولايهتم به أحد فى البلد ، إلا أنه يرجو أن يكون عمده !

وقال « الشيخ يوسف » « لمحمد أفندى » وصوته يرتعش :

ـ والله ما انا مستعنى كلامك ! مش حارد على الكلام الفاضى ! مش رادد على حد من أصله .

ثم دس يده فأخرج كتابا سميكا أصفر وبدأ يقلب صفحاته فى فتور ويقرأ ..

وقال « علوانى » مستنكرا :

ـ وبتقرا قصة أبو زيد الهلالى ليه بقى ؟ . سيب أبو زيد وعنتر والحاجات دى لنا احنا . سيبها « لعبد الهادى » ! اقرا لك مولد بقى ، ولا عدية يس .

وضحك « عبد الهادى » فجأة بانطلاق . . وأكمل « محمد أفندى » ضاحكا :

ـ والا اقرا جريدة حزب الشعب ! .

وكظم « الشيخ يوسف » غيظه ولم يرفع رأسه عن الكتاب .

وعندما انصرف « محمد أفندى » و « عبد الهادى » و « علوانى » رمى الكتاب فى ضيق ، وأخذ يلعن غيرة البلد .

وبعد قليل دخل إلى داره بجوار دكانه ، فلبس الجلباب الكشمير الذى اشتراه من أجل العمودية ، ولبس الفانلة الصفراء ذات الأكمام الطويلة ، والعمامة بشالها الجديد الأبيض الفاقع . وخرج من باب داره يفتح صدره متحديا ، وإن كان فى أعماقه ليشعر بالهوان ! .

وعاد إلى دكانه ، وصمم على أن يذهب إلى « محمود بك » ليتفق معه على السعى لتعيينه عمدة مقابل نصف المبلغ الذى سيأخذه من الحكومة تعويضا عن أرضه المنتزعة للزراعية .

وعندما يصبح عمدة . . فهو قادر على أن يعرف شغله مع « عبد الهادى » ، و « محمد أفندى » وحتى مع « محمد أبو سويلم » . وعلى أى حال فلابد من تأديب الولد العرباوى « علوانى » فى أول يوم لتعيينه عمدة ؟ ! . . لماذا لايعيد موضوع « خضرة » ويسلطه على « علوانى » . . وعلى « عبد الهادى » و « محمد أفندى » إن لزم الأمر ! .

وظل ينظر أمامه فى الطريق ، واستهيأ له أن الذين يمرون يتحاشون النظر اليه ، ونكس رأسه .. ونظر فى دفتر الحسابات ..

* * *

انصرف « محمد أفندى » إلى حوض الترعة ليرى ما صنع الرجال بحقله ، وكان طوال الطريق يفكر فى « محمود بك » هذا .

إن « محمد أفندى » ظل يعتقد أن من الممكن أن يصنع هذا الرجل شيئا للبلد ، ودفع له من جيبه الخاص مالا وانتظر أن يفاجىء القرية بأنه ألغى الزراعية أو أفرج عن رجالها ليسترد « محمد أفندى » ماله من أهل البلد . ولكن « محمود بك » لم يصنع شيئا . وضاع على « محمد أفندى » مادفعه ولم يجد فى نفسه استعدادا لأن يقول لأحــد إنه دفع مليما « لمحمود بك » ، ودارى الأمر فى قلبه ، وكتم فيه احتقاره « لمحمود بك » ، وأخذ فى كل مناسبة يعلن هذا الاحتقار .

ولم يكد « محمد أفندى » يصل خارج القرية فى الطريق إلى حوض الترعة حتى كان « علوانى » و « عبد الهادى » يسيران وراءه .

واندفع هو إلى حقله .

أما « عبد الهادى » و « علوانى » فقد كانا يسيران على مهل يتحدثان .

وقال « عبد الهادى » « لعلوانى » إنه نوى بعد أن يبيع القطن أن يشترى غنما يرعاها « علوانى » وطلب منه أن يعتبر نفسه شريكا فى الغنم نظير رعيها .

وطار « علوانى » من الفرح وقال فى أمل :

ـ يا سلام .. أقله الواحد يلاقى حته يبات فيها ! ياشيخ دا الواحد من عزم ما فيه كان قرب يفكر إنه يشتغل فى الزراعية ! . لكن والله بقيت مستعيب قوى وصعبانه عليه نفسى يا « عبد الهادى » ! .. يانهار اسود . دى الحوجة تكفر صحيح يا اخواتى ! . . إن ما كناش احنا نشيل بعض بقى بس يبقى إيه العمل ؟ يعنى الواحد يعمل زى « الشيخ يوسف » ! ! ياخسارتك يا « شيخ يوسف » بقى ما بعد ما تقرا دا كله ، وتحفظ شعر عنتر وأبو زيد ، تقوم تبيع لانفار الزراعية ! ! دا كان حقك تقطع رجل اللى ييجى منهم ناحية الدكان ! .

وطلب « عبد الهادى » من « علوانى » أن يقيم عنده وأن يساعده فى جمع القطن حتى يشترى الغنم .. ثم ابتسم « عبد الهادى » قائلا « لعلوانى » :

ـ بس اوعى يا « علوانى » تعمل فى الغنم دى زى ما كنت بتعمل فى غنم البيه . ما انت اللى قلت لى . نعجة تشط ولاحاجة تتوه .. الأمر مايخلاش .

وأكمل « علوانى » ضاحكا :

ـ أى أى ! والا خلفه كده تتدارى والا حاجة تقع !! .

ثم سكت فجأة ، وأكمل وهو جاد :

ـ لا .. لا يا « عبد الهادى » ! الكلام ده كان يصح مع البيه بس . لكن بقى أنا أعض فيك . إحنا نعض فى بعض !! .

وطابت نفس « عبد الهادى » ، وقال وهو يضحك :

ـ يا واد دا كلام .. أنا باقولك كلام دحك ! .

وحاولت أن أكلم « عبد الهادى » قبل أن يبلغ الطريق المؤدى إلى حوض الترعة لأعود أنا إلى دارنا ، ولكن « علوانى » سبقنى بقوله :

ـ استنى يا « عبد الهادى » ! حا اطلع كده من غير عصاية ؟ لما أجيب عصاية أحسن الاولاد بتوع الزراعيـــة يقبحوا علينا بكلمة ! ولا يغنوا أو يألسوا .. والا يترأوا ! . . حاكم أنا عارف بتوع البندر دول ! . .

وذهب « علوانى » ، ووقف « عبد الهادى » ينتظره متكئا إلى عصا قصيرة غليظة فى يده .. ووجدت الفرصة مناسبة للحديث مع « عبد الهادى » عن « وصيفة » ولم أعرف كيف أبدأ فسألته بلا مقدمات .. لماذا لايتزوج « وصيفة » .

وقال بانطلاق :

ـ على ماترجع فى المساحة الجاية تلاقيها معمرة الدار . . تلاقيها منورة وشايلة عيل على كتفها ياجدع ! سافر انت بس مطمن .. اطمن قوى ..

وضحكنا ولم أقل شيئا .

ثم سألنى « عبد الهادى » متى أسافر ؟ . فقلت له إننى مسافر بعد أربعة أيام . فقال لى بأسف :

ـ ياخسارة ! ماحققتش أقول لك المواويل اللى كنت عايز تسمعها منى فى أول المساحة ! راحت المساحة فى ملاعيب العمدة وافترا الحكومة .

ثم همهم :

ـ الجايات كتير .. بكره الدنيا تروق .. والنكد ينزاح .

وسكت . .

وشردت فى الأجازة التى ذهبت ، والدراسة التى تبدأ بعد قليل .

وكنت أشعر بانفعالات مبهمة عديدة تضطرم فى الأعماق منى .. والأسى الغامض يملأ صدرى . .

وارتفع صوت « عبد الهادى » حزينا مفعما يغنى :

بكره السفر يا حبايب خللى بالكم معنا

يا اللى علشانكم سالت مدامعنا

واسترسل « عبد الهادى » يغنى إلى آخر الموال ، بينما كان « علوانى » يقبل بعصا طويلة وضعها على كتفيه وأسند اليها قفاه ورأسه ، ومضى « علوانى » مع « عبد الهادى » إلى حوض الترعة .

وفى حوض الترعة كان « محمد أبو سويلم » يسوق بعض الأولاد لجمع القطن ووقف مع ابنته « وصيفة » على رأس حقله . وغير بعيد منهم وقف « محمد أفندى » و « دياب » . .

كان الرجال يعملون بهمة ورئيسهم يراقب ، وهم يتقدمون فى الحقول أكثر مما توقعت القرية . . وكانوا قد فرغوا من كسر الأعواد فى أرض « محمد أفندى » وتقدموا إلى زرع « محمد أبو سويلم » ، و « دياب » يزعق ، ويكاد يشق جلبابه وأخوه « محمد أفندى » واجم لا يكاد ينطق ! .

وبدأ الرجال يدهسون أرض « محمد أبو سويلم » ، ويكسرون الأعواد بأقطانها ، والمعاول فى أيديهم تخبط .

وأحس « محمد أبو سويلم » بعقله يطير وهو يرى قطنه يهوى أمامه ويختلط بالتراب .

وأطلقت « وصيفة » صرخة مروعة مشحونة باليأس ! . . وكانت فتيات من القرية يحملن صفائح الماء من الترعة ويخطرن وسط الرجال يضحكن للكلمات البذيئة . . وطلبت إحداهن من « وصيفة » أن تصبر وتعقل ، وأن تأتى لتشتغل وتأخذ ثلاثة قروش فى آخر كل نهار ، فتشترى كل ثلاثة أيام كيلة من الذرة ! .

وأخذ « محمد أبو سويلم » ينقل نظراته بين القطن الذى يهوى على التراب ،

« ووصيفة » ، والفتيات !.

إن شقاءه الاسود يجد عزاء فى هذا القطن وحـــده . . ولـكنهم يدهسونه بلا حساب . ولقد باع الجحشة ليشترى بثمنها ذرة ، ولـكنه فى حاجة أيضا إلى ثمن القطن . وهو ينتظر أن يهبط أحد الخواجات فيبيعه المحصول بأى ثمن . . كما تعود الخواجات فى آخر كل صيف ! فلئن لم يستطع « محمد أبو سـويلم » أن يظفر من كل عمله طوال العـام بذرة أو قطن .. فمن أين يستطيع أن يعيش ! . لو أنه تركهم يدهسون فى القطن فسيترك لهم « وصـــيفة » تعمل كالأخريات : تغنى مع الرجال الغرباء بكلمات نابية ، وتضحك للألفاظ البذيئة ، ويجذبها هذا أو ذاك ! ومن يدرى ؟ ! . . ربما غابت فى أحد حقول الذرة ودخل وراءها رجل أو رجلان أو ثلاثة ! . . فقد رأى « محمد أبو سويلم » بعينيه فتيات يصنعن هذا .

فتيات كن لا يستطعن أن يرفعن الرأس أمام رجل غريب . من فرط الحياء !

وتقدم « محمد أبو سويلم » إلى رئيس الانفار ، وطلب منه أن يؤجل حفر الحقل يوما حتى يجمع القطن .

وقال رئيس الأنفار :

ـ يعنى نبطل لك شغل الحكومة علشان تجمع انت القطن بتاعك . .

ثم التفت إلى الأنفار قائلا :

ـ الخت ياواد الخت ! همتكم شوية . .

كانوا كلهم من بلاد بعيـدة متفرقة . . وقد تعود رئيس الانفار أن يجمعهم ويسرح بهم فى عملياته الـكثيرة .

وعاد « محمد أبو سويلم » يحاول أن يشرح لرئيس الأنفـار . . ولـكن الرجل أزاح طربوشـه المعفر إلى وراء ومشى فى ضيق وهو يمسح كرشه المسترخى تحت الجلباب الواسع السمنى اللون ، ودعك وجهه الحليق المتـكور ، ثم تنخم وبصق ، ومسح شاربه الرمادى الأشعث النافر الشعرات وقال « لمحمد أبو سويلم » فى حسم إنه لا يستطيـع أن يتأخر يوما واحـدا فالحكومة تحاسبه باليوم ، وهى تستعجل الزراعية وقد أزف موعد التسليم المحدد !.

وقال « محمد أبو سويلم » :

ـ ياسيدنا لفندى حرام عليك . . وهوه يوم حايعمل إيه للحكومة ؟ . . إيه

يعنى لو تتأخر الزراعية يوم . . طب دا يوم الحكومة بسنة ؟ اشمعنى جاية تتدأر وتحبكها فى الزراعية ؟ يافندى ! ! يعنى ترموا لنا شقا السنة بحالها فى التراب كدهه قدام عنينا ؟ ! يا سنة سودة يا اولاد ! . . يعنى نطلع فى آخر المواخر من غير درة ولا قطن . . يعنى يطلع حبابى عنينا طول السنة وبعدين لا نطول لا ابيض ولا اسود . . الهى تسود عيشة الحكومة يا شيخ ! . . هيه دى كمان مشيخة الغفر ؟! ما كفاية بقى ؟ رايحين فين . . هيه الحكومة رايحة فين ؟ عاوزة إيه تانى بعد اللى عملتوا فينا ! ! .

وإذ ذاك صرخ فيه رئيس الأنفار :

ـ بس اخرس . .

وصاحت « وصيفة » فى حسرة :

ـ يا خرابك يا ابا . . .

وحملق رئيس الأنفار بعينيه المنتفخين فى « وصيفة » ، ومرت يده من فوق جلبابه وأخذ يمسح بطنه ، ويحك مهبط كرشه فى حركة نابية ، ورفع حاجبيه وغمز بعينيه « لوصيفة » .

ثم أمسك بالشحم المتدلى من تحت ذقنه ، وقال « لمحمد أبو سويلم » :

ـ وزعلان ليه ؟ . ويعنى انت كنت حاتبيع القطن بكام ياخى ؟ يعنى قطن الدايرة ؟ ما كان الخواجة حا يلهفه منك بالتراب ! ماتخللى بنتك اللى دايرة تصوت دى تيجى تشتغل فى الزراعية ! دى الزراعية جاية لكم مصلحة بس انتوا اللى بهايم ! . . دانا مشغل اتناشر بنت من بلدكم ، وبيوتهم انفتحت ! .

ثم التفت إلى « وصيفة » ويده على مهبط كرشه وعينه تغمز وقال :

ـ هه ياقمورة ! . . ما تيجى تشتغلى يابت . . باين عليكى جامدة وكويسة . . حاديها خمسة ساغ مش تلاتة زى التانيين ؟ إيه رأيك ؟ .

وتقدم إلى « وصيفة » وقد رق صوته ، ومازالت يداه فى حركات فاضحة تعبث من فوق الجلباب وقال لها :

ـ إيه رأيك يا حلوة . . إيه ياعروسة . .

ودارت راس « محمد أبو سويلم » واشتعل جسمه وتخيل ابنته تقف كالأخريات مع رجال غرباء تضحك لمعاكساتهم . وتتمايل بصفيحة ماء على رأسها ، وتدخل

حقل الذرة فى انتظار رجل !.

ولم يحتمل « محمد أبو سويلم » أفكاره ، وأوشك أن يهوى على رأس الرجل . ولكنه قبل أن يقول كلمة سمع ضحكة فتى غليظة الصوت .. ورفع صاحب الضحكة قامته من على المعول فبان وجهه ، كان هو نفس الفتى الذى مشى وراء « شعبان » ذات يوم ، وطرده « الشيخ يوسف » من دكانه لأنه حاول أن يقول كلاما غير طيب عن « عبد الهادى » . . ولكن « الشيخ يوسف » لم يعد يطرده فى هذه الأيام ، بل فتح له صدره .

واهتز « محمد أبو سويلم » وهو يسمع ضحكة هذا الفتى واختلج « عبدالهادى » من الحنق .

وظل الفتى يضحك وهو يقول فى سخرية :

ـ والله « وصيفة » تستاهل بريزة كمان ! ولو دخلت الدره حاتلم كمان بريزة يوماتى على الله ! . بس « عبد الهادى » مايفرطش فيها ! . .

وقفز « عبد الهادى » على الفور ، وقد ارتفعت العصا فى يده وخبط بها رأس الفتى فوقع على الأرض ساكتا .

وتحرك رئيس الأنفار فى مكانه مرتبكا . . ووقف الأنفار جميعا وقد رفعوا المعاول فى أيديهم .

وابتعدت الفتيات ووقفن إلى جوار « وصيفة » ، وقالت إحداهن :

ـ إوعى حد يقرب من « عبد الهادى » دول ولاد بلد واحدة يعرفوا خلاصهم مع بعض .. خللى « عبد الهادى » يأدبه . . جاه قطع لسانه ما أبرده واد تلح ! .

وكان « محمد أبو سويلم » يقف على رأس الفتى الواقع على الأرض وفى يده جاروف التقطه من أحد أنفار الحفر . . وتقدم « علوانى » يهز عصاه واندفع « دياب » بالفأس ومن ورائه « محمد أفندى » . . ووقف الأولاد الذين جمعهم « محمد أبو سويلم » . وقفوا يترقبون وفى أيديهم الطوب .

وزعق « محمد أبو سويلم » فى أنفار الزراعية بصوت رهيب :

ـ اللى حايمد إيده حاكسرها له . . اللى حايقطع عود حاقطع رقبته !

ونظر رئيس الأنفار مروعا وسط صيحات التهديد التى ارتفعت من « محمد

أبو سويلم » ، وتتابعت من « علوانى » و « دياب » و « عبد الهادى » و « محمد أفندى » ، ونقل بصره إلى النساء اللواتى يشتغلن معه ويأخذن القروش منه ، فوجد فى يد كل واحدة حجرا تتهيأ لرميه على رأس من يتعرض لأولاد بلدها ! .

وقال رئيس الأنفار متلجلجا ، ويداه ترتفعان فى توسل :

ـ الله . . الله . . بسم الله الرحمن الرحيم ! خبر ايه يارجاله ! .. انتو لامين بعض كده نسوان ورجاله وجايين تخربوا الدنيا ! . . انتو عاملينها مخصوص علشان تلموا علينا البلد ! لاحول الله ، طب وانا مالى ؟ واحنا مالنا .. دى زراعية الحكومة ! .

ثم التفت الى الأنفار قائلا :

ـ طب بطلوا .. بطلوا ياولاد ! .. بطلوا حفر بقى .

ومشى قليلا وهو يمسح جبهته ووجهه متمتما :

ـ يا تيجى الحكومة تحرس الزراعية بتاعتها يامافيش زراعية ! .

واتجه إلى الطريق منكس الرأس حتى أصبح أمام الفتيات .

ولم تنخفض أيدى الفتيات بالاحجار .. كن مازلن على استعداد لقذف كل طوب الارض على رؤوس الرجال الغرباء الذين يحفرون الزراعية .. على رؤوس نفس الرجال الذين كانوا يضحكون ويختفون فى الذرة معهن منذ ساعات !

وجاوز الرجل الفتيات واتجه إلى القرية . وترك عمال الزراعية يرمون بمعاولهم إلى الأرض ، وينسحبون فى سرور واضح .

وبدأت ترتفع بينهم الضحكات وهم يشيعون المقاول الذى جلبهم من بلاد بعيدة وظل فى كل مناسبة يتشطر عليهم ، قائلا إنه سبع ! .

وفجأة حين ظهرت له العيون الحمراء وقف يرتعش وزاغ .

وجلس الأنفار بعيدا على الارض التى سووها من قبل وأخذوا ينظرون إلى الرجل الذى سقط تحت عصا « عبد الهادى » وهو يتحرك محاولا أن يقوم .. ولم تنقطع ضحكاتهم أبدا ! .

* * *

اما « محمد أبو سويلم » فدخل إلى حقل القطن ، ومن ورائه الأولاد الذين جمعهم من القرية . ودخل معه « دياب » و « علوانى » .

وعلى الطريق أمام الحقل وقف « عبد الهادى » يقول « لوصيفة » :

ـ اقعدى يا « وصيفة » انتى هنا على راس الغيط .

وفرش أكياسا فارغة جلست عليها « وصيفة » ، تنتظر مايجىء به الذين يجمعون القطن .. ثم تقدم فى الحقل .

وتحرك « محمد أفندى » قليلا .. ثم تردد لحظة ، ولكنه عاد إلى القرية .

والتفت « عبد الهادى » إلى الفتيات اللواتى يشتغلن فى الزراعية قائلا :

ـ يا للا يا بنت انتى وهيه كل واحدة تربط وسطها بنسيرة تيل وتخش تجمع فى عبها . .

واندفعت الفتيات يقطعن أعواد التيل من على حافة حقل القطن ويقشرنها جاعلات من القشرة الطويلة حزاما .. وأخذن يوسعن الجلاليب السوداء من على الصدور المتهدلة المترجرجة ليضعن فيها ما يجمع من القطن .

واندفعن إلى الحقل يلتقطن من على الأعواد الخضراء كل حملها من القطن الابيض ويضعنه فى الصدور : فصا على فص .

وصنع الاولاد نفس الشىء . .

وانطلق صوت إحداهن بالغناء :

علاية .. علاية

فايت على دارنا لاسلم ولا اتكلم

علاية

وردد الأخريات فى فتور :

علاية

فقالت « وصيفة » وهى تقف على رأس الحقل :

ـ لا مش كده . .

وتقدمت إلى حقل القطن وارتفع صوتها حنونا صافيا يغنى :

يالولى بمرجان عالميه يعوم

والكف المحنى

هو اللى قتلنى

والشاعر يغنى

على سود العيون

يالولى بمرجان عالميـة يعوم

ورددت الفتيات وراءها بنشاط :

يالولى بمرجان عالميـه يعوم

بينما جلجل صوت « عبد الهادى » وهو يروح ويجىء فى الحقل :

- ايوه . .

وتقدم من الفتيات صائحا فى مرح :

- خدى الفص ده يابت .. اوعى توقعى حاجة عالأرض أحسن أخللى وقعتك غبرة ! . .

وقالت إحدى الفتيات بعبث وهى تنظر إلى « وصيفة » :

- وقعتك شهد يا « عبد الهادى » .. مش كده يا « وصيفة » ؟ ! .

واحمر وجه « وصيفة » ، وضحك « عبد الهادى » وهو يقترب من « وصيفة » .

وصاح « محمد أبو سويلم » من بعيد :

- خبر ايه يا « عبد الهادى » ؟ ايه اللى غرزك فى وسط البنات كده زى جحش البنات ما كفاية عليك شيل البنات ليلة الفرح ! .

وضحك « عبد الهادى » وضحكت البنات والاولاد . .

وكان « عبدالهادى » إذا راقته عروسة فى ليلة الزفاف ، ظل يترقب الجمل الذى يسير بهودجها حول البلد وسط الزغاريد .. حتى إذا برك الجمل أمام منزل الزوجية ليتقدم أحد أقارب العروس فيحملها إلى الدار كالعـادة ، اقتحم « عبد الهادى » الزحام ، وحمل العروس وسط صياح الطرب وأغانى النساء . .

وقالت إحدى الفتيات ضاحكة وهى تغمز « لوصيفة » :

- والنبى يا « عبد الهادى » لأخلى « علوانى » هو اللى يحمل عروستك !.! .

وضحكت « وصيفة » . ورنت ضحكاتها البسيطة الرائقة ! . .

وقطع « محمد أبوسويلم » الضحكات واستمر يزعق فى خفة قائلا « لعبدالهادى » :

- ما تيجى ياجدع تاخـــد بالك من بقية الجميعة ! وانتى يابت يا « وصيفة »

ماتتطلعى على راس الغيط تعبي القطن اللى يجيلك . . خليكى عند الاكياس . . ايه اللى حشرك هنا !.

وترددت الضحكات فى الحقل . . واحمر وجه « وصيفة » ، ونكست رأسها ، وألقت نظرة سريعة على « عبد الهادى » وهى تترك الحقل لتقف عند الاكياس .

وخفق قلب « عبد الهادى » ، وأشرقت أمامه الدنيا لحظة ، وأحس بحاجة لاتقاوم إلى أن يغنى ، ويضحك فى زحام الناس .

وقال « علوانى » مداعبا :

- ايوه ماتيجى هنا يا « عبد الهادى » عندى ! أنا جرى ء !.

وغمرت الضحكات غناء الفتيات بينما كان يرتفع من بعيد غناء عمال الزراعية فى نغم غريب عن القرية .

وأخذ الذين يجمعون القطن يترددون من الحقل إلى الاكياس التى تقف عندها « وصيفة » : يفرغون ماحملوا تحت الجلاليب المنتفخة ، ويعودون ليلتقطوا فصوص القطن من على أعوادها فى خفة وسرعة وحذر !.

ولم يكد يجتمع تحت قدمى « وصيفة » ملء كيس من القطن .. حتى نادت أباها أن يقبل لكبس القطن فى كيس .

ولم يجبها أبوها . .

وترددت قليلا ، ثم اضطرب صوتها ونادت « عبد الهادى » ، وطلبت منه أن يضع هو القطن فى الكيس لأنها وحدها لا تستطيع .

وقال « محمد أبو سويلم » فى ابتسامة :

- طب روح يا « عبد الهادى » انت ! هه ! .. روح حط القطن فى الكيس ! والله اللى انجمع ماييجى نص كيس !.

واستدار « عبد الهادى » إلى « وصيفة » ، ومضى بين أعواد القطن . . وأمام عينيه ترقص الحقول كلها والأشياء ، وفى صدره وأذنيه تتجاوب كل الأنغام التى أحبها . .

وقبل أن يبلغ « عبد الهادى » مكان « وصيفة » ارتفع من ناحية القرية صوت أجش :

- انتوا قاعدين تغنوا ! قاعدين تغنوا وسايبين البنات تجمع القطن . . تجمعه

بفلوسى ؟ ! وانتوا قاعدين تغنوا ؟ ! قوم انت وهوه الحت انفتحت لكم تربة .

وتهامس العمال من بعيد وهم يقومون متثاقلين :

ـ ياك تنفحت لك ألف تربة انت واللى جابوك ! .

كان هو رئيس الأنفار يقبل من القرية يمسح كرشه ، ويدعك وجهه ، وقد مال طربوشه على جبهته ، وتطوحت فتائل زره فى خيلاء ! .

ومن ورائه أقبل الصول ، يركب حصانه ، وخلفه العساكر يمشون . ورو عت « وصيفة » . . وقعدت ! .

وبعد قليل عادت فوقفت . .

ولم يتحرك « عبد الهادى » من مكانه .

واقتحم حصان الصول حقل القطن ، فصرخت الفتيات .

وذهلت « وصيفة » فلم تستطع أن تقول كلمة ، بينما اضطرب الأولاد وجروا هنا وهناك . . وصاح الصول يأمرهم ألا يتحركوا وسأل :

ـ مين فيكم صاحب الغيط ؟ ! مين محمد أبو زفت ؟ ! .

وتقدم منه « محمد أبو سويلم » ، ورفع رأسه متماسكا .

وعاد الصول يسأل :

ـ الله فين الواد أبو هباب ! . .

فقال « محمد أبو سويلم » فى صوت هادىء حزين :

ـ أنا « محمد أبو سويلم » . . وماتشتمنيش كده قدام بنتى ! . . انت تحب حد يشتمك قدام بنتك ؟ ! .

واهتز الصول على حصانه ووضع يده على مسدسه وقال :

ـ انتم فاكرينى رئيس الانفار ؟ ! كلمة واحدة واضربك بالرصاص . .

وابتسم « محمد أبو سويلم » فى ثبات ، ولكن « عبد الهادى » صاح :

ـ رصاص ؟ يعنى تاخدوا أرضنا وتضربونا بالرصاص كمان ؟ طيب ورينا كده ! ورينا الرصاص ده .

وانهمرت الكلمات من فم « علوانى » قائلا « لعبد الهادى » :

ـ تسلم يا « عبد الهادى » !

وقال « دياب » ، « لعبد الهادى » فى إكبار وحماسة :

ـ ايوه ياجدع قل لهم زى ما قال الادهم :

وان عشت ياحكومة لألبسكم طرح وشيشان .

وقال « علوانى » للصول متحديا :

ـ رصاص ايه ياحضرة لفندى ؟ واحنا كمان ما احنا بنضرب بالرصاص ! .

وتبعه « دياب » بانفجار وهو ينقل بصره بين الصول ورئيس الأنفار :

ـ ما بيقولوا النقطة غارت من البلد قاعدين ليه بقى ؟ ده اللى قدر عليه ريس الزراعية ! جايب لنا الحكومة بخيلها تضربنا بالرصاص ؟ طب تورينا الرصاص كده لما نشوف مين اللى حيغلب . قولى ياحكومة كده واحنا نقول .

وبهت الصول ورفع يده عن مسدســـه ، وسال عرقه على الشارب المصبوغ بالسواد فأخرج منديلا يجفف به وجهه .

والتفت « محمد أبو ســـويلم » إلى « عبد الهادى » و « علوانى » و « دياب » وقال بهدوء :

ـ بس يا اولاد . . اسكتوا انتو لما اشوف ايه العبارة ! لما نشوف أخرتها ايه .

ونظر إلى الصول قائلا :

ـ انت عايز منى إيه ياحضرة الافندى ! .

فقال له الصول :

ـ إنت بتخالف أوامر الحكومة وبتتعدى بالقوة على أملاك أميرية .

وزعق دياب :

ـ أميرية ؟ ! أميرية يعنى إيه ؟ دى أرضنا احنا ؟ بقت ميرى من امتى ! .

واستمر الصول يقول :

ـ إطلع من الأرض دى ياأخينا وسيب الرجالة يفحتوا !.. إطلع أحسن لك !

فقال « محمد أبو سويلم » بحرارة :

ـ قطنى يا افندى ! قطنى ! شـــقايه ! أنا باقول لهم استنوا النهاردة بس . . ياخدوا النهاردة راحه لحد ما اجمع شوية القطن . . دى فيها إيه ! .

وهرش الصول فى رأسه وقال :

- تقدر تدفع تأمين ؟ ! تدفع جنيه يعنى ؟ ! .

فأسرع « علوانى » يقول :

- إحنا قادرين ندفع تمن كيلة درة لما حندفع السخام ده اللى بتقولوا عليه !

واستدرك « محمد أبو سويلم » قائلا للصول :

- ما ادفعشى حاجة ! تأمين ده إيه ؟ أدفع لمين ؟ حتاخدوا الارض وادفع لكم فلوس كمان ؟ مين ده اللى حياخد الجنيه ! ! ياك ينجن ! .

فقال الصول وهو ما زال يهرش رأسه :

- ادفع ياراجل الجنيه .

فقال « محمد أبو سويلم » :

- دا مش مال ؟ يعنى ادفع ضريبة المال ؟ ياسيدى احبسونا والا احجزوا علينا مابندفعشى مال للحكومة دى .. والحكومة عارفة ؟ ! .

ونزل الصول من على الحصان . وترك حصانه لأحد العساكر . . وسار إلى « محمد أبو سويلم » قائلا بهمس :

- ادفع جنيه يا راجل وانت تسلك أمورك .. خليك نبيه وحرك ! . . تقدر تدفع جنيه والا لأ . .

ورأى « دياب » حصان الصول يميل برأسه ليأكل أعواد القطن ، فقال للعسكرى بضيق :

- ما تحوش اللى ينذهب ده كمان ! .

ونهره العسكرى ولكنه ظل يزعق ، بينما كان « محمد أبو سويلم » يقطع همس الصول ليصيح :

- يعنى عايز تاخد جنيه وتسلك الشغله ؟ ! برطلة يعنى ؟ ! لأ مفيش . . أجيب منين الجنيه ده . . أجيب فلوس منين يعنى علشان أبرطلك ؟ !

وامتقع وجه الصول ، واصفر وصرخ فجأة :

- انت ياراجل انت مبتفهمش ! انت ياراجل بتقول كلام فارغ .. اسمع انت بتتعدى على ملك الحكومة وبتحرض البلد على كده ! انت مش عارف ان الحكومة حتدفع لك تعويض .. يعنى مالكش حق فى القطن ده ! انت بتسرقه من الحكومة .

فزعق « محمد أبو سويلم » :

ـ أنا باسرق الحكومة والا هى اللى بتسرقنا ؟ ! .

وهوى الصول على وجه « محمد أبو سويلم » بكفه ..

ورنت الضربة فى فضاء الحقول ، وترنح « محمد أبو سويلم » على الارض التى ظل راسخا عليها مدى خمسين عاما . وبوغتت « وصيفة » . فانفجرت صرخاتها متوالية مفزعة كأنما انشقت فى أعماقها الهاوية . . وانطلقت تدعو بشلل اليد التى امتدت على ابيها .. وتستغيث بالناس أن ينقذوا أباها والقطن ..

وذعر الصول واضطرب لحظة .. وأمر العساكر أن يضربوها ، واتجه اليها وظهره إلى « محمد أبو سويلم » ، وظل يشتمها وينعتها بألفاظ مخيفة لم تسمعها هى من قبل ! .

واضطرمت فى صدر « محمد أبو سويلم » انفعالات ملتهبة .. وبدأ يعانى شعورا زريا يعصر قلبه ، وهو يقف عاجزا أمام رجل يضربه قدام ابنتـــه ، ثم يشتمها ويطعنها بكلمات جارحة فاضحة ! . .

وجحظت عيناه ، ونظراته ملتصقة على ظهر الصول ، ورقبتـــه الغليظة . . وارتفعت يداه ، وتشنجت كفاه حول رقبة الصول الغليظة المتدلية الشحم كرقبة الثور ولكن العساكر أحاطوا به وأمسكوا بذراعيه فى عنف .. وجذبوه إلى وراء . واستدار الصول ، فضربه فى صدره بحذائه العسكرى الثقيل . . وأمر العساكر أن يحبسوه هو ومن معه من الرجال فى غرفة التليفون بدوار العمدة حتى ينتهى أنفار الزراعية من عملهم فى حقله .

وتحرك العساكر ، و « محمد أبو سويلم » ، وبقيـــة الرجال ، وتركوا القطن ملقى على الحصير .

ومضى الصول فى المقدمة على حصانه ، واندفعت « وصيفة » تمسك بالصول فدفعها فى بطنها بقدمه ..

ووقعت « وصيفة » على الأرض . .

وعندما وقعت كان الصول مازال فى المقدمة والعساكر يمضون بأبيها والرجال .

وكان الصول يهمس لأحد العساكر أن يرسل خفيرا ليأخذ القطن فى كيس لأنه حق الحكومة ! ! .

ومشت « وصيفة » وراءهم تلطم ، والنساء اللواتى يعملن فى الزراعية يصرخن ويدعون على الصول بالخيبة وقصف العمر والنقمة ! .

والتفت الصول إلى « وصيفة » والنساء يشتمهن ويأمرهن بالعودة .

ووقعت عيناه على وجه « محمد أبو سويلم » ووجوه الرجال فرأى من وراء الشحوب اضطرام المرارة والحقد ..

وارتجف .. وشد جسده وتقدم .

وطاردته أصوات النساء ودعاء « وصيفة » أن تشل يداه .

ودهمه خوف مباغت من الغيب وأوشك أن يصرخ ويأمر باطلاق سراح الرجال .. ولكنه نظر إلى أمام وتحسس شاربه المصبوغ وتقدم ومن ورائه صراخ النساء وشحوب الرجال ، والحقد المضطرم .

وأمام باب حجرة التليفون نزل من على الحصان دون كلمة ، ووضع الرجال فى الحجرة ، وعندما أغلق عليهم الباب . أدار الصول ظهره إلى الباب وصراخ « وصيفة » يملأ نفسه مختلطا بكلام « محمد أبو سويلم » إن الرجل لا يحب أن يهان أو يشتم أمام ابنته ! !

وتزايل إلى أغوار نفسه وارتعد ! .

ولكنه سعل فى شدة ، ورفع قامته .

ولاحت أمامه صورة سريعة لابنته ، وللمأمور ! . . لو أن الله انتقم منه استجابة لدعاء النساء فيه وانتقم منه فأوحى للمأمور أن يضربه أو يشتمه أمام ابنته ! .

وارتعش من جديد . . ولكنه خبط الأرض بقدميه ، ووقف ثابتا لبعض الوقت ثم نادى شيخ البلد وأمر بألا يسمح للرجال بمغادرة حجرة التليفون .

وغاض صوته وهو يقول إنه راجع الآن إلى المركز وسيعود إلى القرية فى الليل .. ولن يقيم فى القرية بعد ، وإنما سيمر عليها كل ليلة ! .

وقفز إلى ظهر الحصان وقفز من ورائه العساكر .. على خيولهم .

وتقدم به الحصان منكس الرأس .

وعندما غادر القرية ومضى به الحصان على الجسر ، كانت تدوى فى أعماقه

كلمات « محمد أبو سويلم » « إنت تحب حد يشتمك قدام بنتك » .

وعادت صورة ابنته تطوف أمامه ، وزحف عليه إحساس مرهف بالعار ! .

وامتلأت آذانه برجع صرخات « وصيفة » وانتفض أمامه كيانها الذى يتلوى من الألم ، ويدعو عليه فى جزع أن تشل يده .

وكان يشكو من ضغط الدم .. وارتجف برعب هذه المرة ! .

وفكر فى أن يعود ، فيأمر بإخراج « محمد أبو سويلم » والآخرين من حجرة التليفون .. ولكنه ترك الحصان يتقدم به إلى المركز .

ومضى الحصان متهدلا منكس الرقبة ، ومن فوقه الصول يهتز على وقع خطواته دون أن يرفع وجهه . وعندما رفع رأسه وهو يقترب من المركز سقطت من خديه على الأرض دمعة كبيرة .. دمعة ندم .. وإشفاق من المصير ! .

- ٢١ -

وقف « عبد العاطى » أمام حجرة التليفون يخبط كفا على كف ويزعق فى الخفراء من حوله :

- بقى أبوى « محمد أبو سويلم » ينحبس فى أودة التلافون واحنا اللى نحرسه ؟! يانهار اغبر يارجالة ! . . بقى شيخ الغفر يجرى له كده ؟ ! بقى شيخ الغفر يجرى له كده ؟ ! و « عبد الهادى » كمان ؟ ! ياسلام يا اولاد ! ياسلام على بدع الحكومة !.

ولم يتكلم أحد من الخفراء . .

كانت وجوههم داكنة ، حزينة وكانوا يرسلون - فى بطء - أنفاسا ثقيلة مفعمة بالحسرة . .

وأخيرا قال رجل منهم :

- يا أخى بس ياك ماتيجيش اشارة من المركز يطلبوهم هناك ! .

ولاح هذا الخاطر للجميع مروعا حقا ، فبادر « عبد العاطى » قائلا :

- فال الله ولا فالك ياشيخ ! . .

وعاد الصمت يخيم على الجميع ، والعيون ملقاة على الباب الخشبى القديم البنى الذى حشر وراءه « محمد أبو سويلم » و « عبد الهادى » و « دياب » و « علوانى » ومعهم عامل التليفون ..

وصاح « علوانى » من الداخل :

- آه ياحكومة ! . . من يوم مانزلتى البلد وأنا قلبى بيطب . . لكن برضه كل شدة وتزول .. دا ابو زيد انحبس ياحكومة وفى الآخر طاح فى اللى حبسوه . .

ورنت من وراء الباب الخشبى ضحكة « عبد الهادى » و « دياب » .

ولم يسمع أحد صوت « محمد أبو سويلم » . .

وارتفع صوت « عبد الهادى » يقول لعامل التليفون :

ـ وانت حابس نفسك معانا ليه . . يا جدع اطلع انت وان جت أشارة من من هنا والا هنا حاخدها لك انا .

وعندما كان « عبد الهادى » يتكلم من وراء الباب ، كان « عبد العاطى » الواقف فى الحراسة يقول لزملائه الخفراء :

ـ دا الصول من جبره عاوزنى أجيب له هنا القطن اللى انجمع من غيط أبويا محمد . . قال دا قطن الحكومة ؟ ! عاوز يحطه فى بطنه ياعم ! ! ابلعى ياحكومة . . ابلعى ! . .

وتحرك « عبد العاطى » متثاقلا إلى حقل « محمد أبو سويلم » .

وفى الحقل وجد رجال الزراعية يهوون بسرعة عجيبة على أعواد القطن . . واختلج وهو يرى القطن الأبيض يسقط على الأرض ، وهمهم لنفسه :

ـ مافيش رحمة ! ياسلام ! .

وعندما بلغ كيس القطن وجد « محمد أفندى » يجلس وراءه . وحيدا ، ورأسه بين يديه .

وربط « عبد العاطى » الكيس الذى لم يكد يمتلىء ، وبدأ يحاول أن يحمله على ظهره قائلا « لمحمد أفندى » إن الصول يريد أن يأخذ القطن للحكومة .

وقال له « محمد أفندى » :

ـ ارمى الكيس فى دارنا . أنا حاشتريه وادفع فلوسه لدار أبوك محمد . ياراجل دا ما عندهمشى ريحة الدرة . وابقى قول للصول انك على ماطلعت الغيط ما لقيتشى القطن . .

ورمى « عبد العاطى » الكيس ، وأطلق أنفاسا تحمل التعبير عن الراحة . . واقترح على « محمد أفندى » أن يجمع هو الآن ما يستطيع من القطن قبل أن تدهسه أقدام عمال الزراعية .

وقبل أن يجيبه « محمد أفندى » كان « عبد العاطى » يلتقط الفصوص ويضعها فى صدره بعد أن ربط خصره بحبل من التيل وجده إلى جوار الكيس . .

ونادى على الفتيات اللواتى يعملن فى الزراعية ، فأقبلن عليه يساعدنه فى حماس كبير ، تاركات عملهن فى الزراعية .

وزعق رئيس الأنفار فيه فقال « محمد أفندى » بمكر وهدوء :

ـ سيبهم ! . . دا حضرة الصول اللى عايز كده . . عايز ييجى يلاقى القطن فى الدوار ! .. وحملق رئيس الأنفار قليلا ثم تمتم :

ـ طب ياسيدى .. يعنى ادفع الأجرة للبنات ويشتغلوا فى جمع القطن ؟! طب ياسيدى .. مادام حضرة الصول عاوز كده ! . . أمره ! .

واستطاع « عبدالعاطى » والفتيات أن يملأوا الكيس .. وأخذ « عبدالعاطى » يدك الكيس بقدميه والبنات ممسكات بأطراف الكيس .

وعندما انتهى من دك الكيس ربطه قائلا بسرور :

ـ بقى قنطار أهه بزيه ! .. ياللا يابت اسندى على ضهرى اسندى ! .

ورفع الكيس بمساعدة الفتيات و « محمد أفندى » . . وسار به مقوس الظهر حتى بلغ دار « محمد أفندى » فوضعه على المصطبة فى مدخل الدار صائحا لنفسه :

ـ والله عفارم عليك يا « محمد أفندى » .. والله مرجلة ياجدع ! آى كده ! .

ومضى « عبد العاطى » إلى الدوار فروى للخفراء وللمحبوسين ما كان من أمر القطن . وقال « محمد أبو سويلم » بصوت خفيض :

ـ لك الشكر يا « محمد أفندى » . .

أما « محمد أفندى » ، فقد عاد من الحقل منكس الرأس مثقلا بالأفكار . كان يرتب فى ذهنه كلمات يكتبها فى تلغراف إلى النائب العام يشكو فيه من القبض على رجال القرية وحبسهم بلا سبب ..

ولم يفكر فى أن يلجأ إلى « محمود بك » هذه المرة .. ولاحت له صورة « محمود بك » كريهة كالصول ، وكالذين أمروا بأن تشق الزراعية فى وسط الأرض وتنتزع الحقول وتسحق أعوادها الخضراء ! .

وقرر أن يرسل صورة من التلغراف إلى الصحف التى تهاجم الحكومة .. وإلى كل الكتاب الذين تطاردهم الحكومة . . وفكر فى أن يرسل صورة أخرى لوزير الحقانية ، وصورة رابعة لرئيس محكمة الاستئناف . . ولنقيب المحامين ! . .

ولكنه تذكر أن الحكومة أغلقت نقابة المحامين . . هكذا قرأ فى إحـــدى الصحف منذ عام ! . .

وحين استقرت فى ذهنه كلمات البرقية . . أسرع فى مشيه ، ولم يفكر فيما يمكن أن يحدث له .. وفى ذهنه أن يضع عليها توقيع أهل البلد . .

ووصل داره ، واندفع إلى أمه ، فطلب منها أن تذبح أوزة وأن تخبز «طرحة» من طحين القمح ، وأن تحضر الصينية ، وترسلها إلى الرجال المحبوسين فى الدوار .

وكانت أمه - كنساء كثيرات فى القرية - تبكى ، وتقطع بكاءها أحيانا لتعرى رأسها وترفع يديها إلى السماء وتدعو لابنها «دياب» وللرجال ! .

وصعد «محمد أفندى» إلى حجرته فوق السطح .. ونزل مسرعا يتحسس جيبه ، بعد أن لبس الحذاء والطربوش والجلباب البلدى الكشمير .

واندفع إلى بيت «محمد أبو سويلم» .. وقابلته فى الطريق فتاة فحاولت أن تهذر معه ، ولكنه انفجر فيها يلعنها ويلعن الذين خلفوها .

واحمر وجه الفتاة واضطربت وقالت لنفسها :

- ماله كده ياه . . دا انا عمرى ما شفته مطهوم قوى كده . . عمره ما كان كده ! . .

وأمام باب «محمد أبو سويلم» وقف «محمد أفندى» ينقل نظره بين نساء باكيات ، يجلسن من حول زوجة الرجل .

كانت كل واحدة تروى الأحلام المخيفة التى رأتها فى أول الصيف . . وكانت إحداهن تقسم أنها عندما رأت الصول ورجاله يدخلون البلد على ظهور الخيل ، تأكدت أنه مادامت الحكومة دخلت البلد فواقعة البلد زرقاء ! . . ولم يسمع «محمد أفندى» صوت «وصيفة» . . ولم يستطع أن يتبين وجهها بين النساء . . واضطرب «محمد أفندى» ، وشعر بدموعه تكاد تخنقه . . وعادت الكلمات التى أعدها للبرقية تلتهب فى ذهنه ، وانبعثت من أعماقه كلمات جديدة ملتهبة واتخذت فى فكره مكان الكلمات القديمة ، وفكر فى أن يوقع هو بنفسه البرقية وليجر ما يجرى ! وأخيرا لاحت له «وصيفة» . . خرجت من قاعة فى داخل الدار ومشت إلى أمها . . ورآها لاتكاد تستطيع أن تثبت خطوتها . . وكانت تتحسس بدنها ، وتتوجع .. وكان خدها متورما ، وعيناها مقروحتان وفى أجفانها ذبول ، والصفرة الشاحبة تغمر وجهها كله .

وناداها «محمد أفندى» فمشت اليه بانكسار ، ولم تكن تستطيع أن ترفع عينيها .

ووقفت على الباب معه بلامبالاة ، صفراء كأنما عروقها توقفت عن النبضات .

وسألته عما يريد بصوت مبحوح ..

وكان « محمد أفندى » هو نفسه كسيرا ، متعب القلب ، تحمل نبرات صوته تهدجا حزينا كالنشيج .

وقال لها إنه اشترى القطن الذى جمع من حقل أبيها ، وهو يريد أن يعطيها ثمنه .

وفتحت « وصيفة » عينيها لحظة .. ثم نكست رأسها قائلة :

ـ لما اشاور أمى .. بعدين يا « محمد أفندى » لما اشاور أمى .. والا لما ..

ثم غاض صوتها وسط الدموع . . وتوقفت قليلا ثم استمرت تقول وقد اتخذ صوتها رنين النادبات :

ـ والا لما أقول لأبويه ..

وانهارت فى بكاء ..

واستدار « محمد أفندى » . ومشى ، وصدره يعلو ويهبط ، والدم يغلى فى عروقه ..

وركب الجحشة وركض بها إلى المركز ليرسل البرقية ..

* * *

وحاولت أنا أن أتحدث إلى « وصيفة » ، ولكنى لم أستطع .

دخلت دارها مقتحما الزحام الحزين من النساء الجالسات على الأرض : الرؤوس فى الأيدى ، والجلاليب السوداء تغمر المكان .. ووجدت « وصيفة » بينهن ترقد على رجل إحداهن .

وملأنى المنظر بالرهبة . ولم أجد كلاما أقوله ، وعدت من فورى إلى دارى . أعد للسفر . فقد كان على أن أرحل بعد يوم واحد إلى المدرسة الثانوية فى القاهرة .

وحاولت أن أكلم إنسانا عن « وصيفة » .

ولم أجد غير « عم كساب » .. سائق العربة الحنطور .

ولكن « عم كساب » ، لم يرد أن يتكلم .. كان يدخن السيجارة من السيجارة ، ويتنهد ، ويهز رأسه .

وعندما تكلم آخر الأمر قال لى إن « محمد أبو سويلم » مهما يحصل له فهو يقدر على أن يبتدىء من جديد ! .

ولم يكن هذا هو ما أريده من « عم كساب » .

غير أن « عم كساب » لم يقل لى غير هذا ، ثم قام بمسح ظهر الحصان ، وأخذه إلى النهر .

ودخلت إلى أمى فوجدتها تمتحن السلال . وتختار منها سلة كبيرة لتضع فيها ما أحمل إلى القاهرة من زاد ، وملابس .

ولم أقل شيئا وخرجت إلى الطريق .

ووجدت نفسى أندفع إلى دكان « الشيخ يوسف »

كان يجلس فى داخل الدكان ومعه « الشيخ الشناوى » يقرآن معا خطبة الجمعة التى سيلقيها « الشيخ الشناوى » بعد يومين . كانا يقرآن من كتاب أصفر قديم تعود « الشيخ الشناوى » أن يقرأ منه خطب الجمع .

وكان « الشيخ يوسف » يلبس العمامة ذات الشال النظيف الأبيض والجلباب الكشمير والفانلة الصفراء . وكل ما اشتراه ليكون عمدة ! .

وكان يقف امام الدكان شاب حافى القدمين ينظر اليهما مبهورا .

ورأيت « الشيخ يوسف » يرفع رأسه عن الكتاب ويقول فى سرور :

- أيوه يا « شيخ شناوى » . أيوه ياسيدنا . ابقى زعق شوية وانت بتخطب فى الحتةدى.أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . يعنى العمد. هه. يعنى اللى مايطاوعنيشى وانا عمدة يبقى كافر وابن كافر كمان ! .

ثم استطرد فى زهو وخفة :

- أنا راجع من عند البيه محمود دلوقت .. وهو معشمنى بالعمودية خالص .

وانخفض صوته وهو يقول :

- وحياتك انت دا لاهف له النهارده اتنين جنيه كده عالصبح .

وقال « الشيخ الشناوى » بطيبة :

- ياسيدى ربنا ينجح مقاصدك بحق جاه المصطفى عليه الصلاة والسلام .. الفاتحة للنبى ولأهل البيت .. الفاتحة ! .

وقرأ الشاب الواقف على الدكان الفاتحة معهما . . وعندما انتهوا من قراءة الفاتحة وأكفهم مفتوحة ، مسحوا وجوههم بأكفهم . .

والتفت « الشيخ يوسف » إلى « الشيخ الشناوى » قائلا :

ـ حاكم دى مش بلد ياسيدنا .. دى بلد عاوزه الربابة .. إن ما كنت أدبهالك تمام .. شوف يا أخى « محمد أفندى » بيعمل إيه .. يخلى الراجل فى الحبس ويلعب بعقل البنت ويديها قرشين .. قال إيه .. قال اشترى الشوية القطن اللى الصول حجز عليهم .. المصيبة إن الصول خادمهم .. وانا شايفه بعينى دى ! .. البت جات شاورتنى من قيمة شوية قلت لها اوعى لنفسك .. أحسن لها تروح تشتغل فى الزراعية بدل « محمد أفندى » مايأكل بعقلها حلاوة .. ماهى بلد خبص ! .

وقبل ان ينفرج تقطيب « الشيخ الشناوى » عن أية كلمة ، تدخل الشاب الذى كان يقف أمام الدكان حافى القدمين .. فقال :

ـ كلام ايه ده يا « شيخ يوسف » ؟ ! . ياجدع دا شارى القطن بحق وحقيق ! بقى كل حاجة تلوعوها كده ؟ ! بقى « وصيفة » حيتلعب على عقلها ؟ ! و « محمد أفندى » خلاص بقى انهبل يعنى ؟ يا راجل اختشى ! .. يا راجل حط فى عينك حصوة ملح .. ياجدع اتنحرر كده وماتقلبشى العمل الحلو تخليه عمل سو ! .. عيب عليك ! .. بقى انت شفت القطن بعينك رايح للصول ؟؟ والله انك كداب فى أصل وشك .. ومن كتر الكدب القطن مافاتش من على دكانتك من أصله ! أنا شايفه بعينى دى اللى تنقلع ، داخل دار « محمد أفندى » ! ياخبر اسود يا اخواتى على دا كدب ! ..

وانفجر « الشيخ يوسف » فى الشاب :

ـ كدب ؟ .. اخرس قطع لسانك انت واللى نفضك .. غور ياواد من قدامى ، ياك تنقلع عينك ؟ ! هوا انت يا « معوض » عاوز تمهزأنى ؟ .. دا كلام تقوله لى ؟ . دام كلام تقوله لواحد مقامه عالى زيى ؟ .. جاتكو البلى فى ملافظكو .. بلد حلاليف ! .. هوه ياواد يا « معوض » علشان « عبد الهادى » ماطلع لك جاموستك من البير تقوم تمشى وراه ! ! والله لأربيكى يا بلد ! ..

وقال « معوض » وهو ينصرف :

ـ أنا ماشى ورا « عبد الهادى » ! .. « عبد الهادى » ما اتحبس وانت عمال تجرى عالعمدية ! والله ياشيخ مايخشعك غير عصايتين من « عبد الهادى » ! ..

ومضى الشاب .

ويبقى « الشيخ يوسف » يهتز من الضيق .. وأخذ « الشيخ الشناوى » يقول :

ـ الأكاده الواد ده عليه كدب ؟! بقى هو شاف القطن داخل دار « محمد أفندى » .. إذا كنت انت شايفه رايح للصول ! . .

ولم يعلق « الشيخ يوسف » ، وأحس برغبة فى ألا يتحدث مرة أخرى فى موضوع القطن . فهو فى الحق لم ير القطن يحمل إلى الصول وهو يعرف أنه كان يكذب منذ لحظة ، وأن « الشيخ الشناوى » يكذب الآن ليجامله .

وعاد « الشيخ الشناوى » يقرأ خطبة الجمعة بصوت مرتفع . ويرفع عينيه عن الكتاب أحيانا ليسأل « الشيخ يوسف » تفسير جملة من الجمل العديدة التى ظل يقرؤها سنوات . ويسمع لما يقوله « الشيخ يوسف » بإعجاب .

وتركت أنا الدكان . وعدت إلى دارى ، أختلط فى هرج الاستعداد للسفر .

وانصرف النساء من عند أم « وصيفة » ، وهمست « وصيفة » لأمها بأن « محمد أفندى » يزعم أنه اشترى القطن ويريد أن يدفع لها الثمن . ولكن « الشيخ يوسف » أكد لها أن هذا لم يحصل وهو ينصحها ألا تأخذ مليما واحدا من « محمد أفندى » .

وشردت أمها قليلا قبل أن تقول لها :

ـ له حق أبوكى « الشيخ يوسف » . الناس تقول ايه ؟! ناخد فلوس من « محمد أفندى » ليه ؟ .

فاستطردت « وصيفة » تقول لأمها إن « الشيخ يوسف » نصحها أيضا أن تشتغل فى الزراعية ، وهو مستعد للكلام مع رئيس الأنفار .

ولم تتردد أمها فى أن تقول لها :

ـ قومى روحى له يشغلك . الدره اللى اشترَيناها بتمن الركوبة مش راح يقضى كان خبزتين . بس ياك يدوكى أجرة حلوة ! .

ثم دمعت عيناها وهى تقول :

ـ آه ياما تشحططنا من بعدك يا محمد ! .

وذهبت « وصيفة » إلى « الشيخ يوسف » تسأله إن كان يجب أن تشتغل فى الزراعية ؟ !

كانت تشعر فى أعماقها بالهزيمة وتود ألا تذهب لتقف مع الرجال الغرباء الذين يقولون أى كلمة بلا تحرج . ولقد فكرت فى أن تذهب مع أمها للاقامة

مع أختها فى عاصمة الاقليم ، ولكنها لم تقو على أن تترك القرية وأبوها محبوس فى الدوار .

وقال لها « الشيخ الشناوى » متطوعا إنها يجب أن تعمل فى الزراعية ولكن عليها ألا تتكلم مع الرجال الغرباء .

وتحمس « الشيخ يوسف » قائلا إن الرجال الغرباء لن يأكلوها . ووعدها أن يكلم رئيس الأنفار بعد العصر ، لتستلم عملها من الصباح ، والعمل هناك بسيط وهو يغنيها عن مد اليد « لمحمد أفندى » ، وعن سؤال اللئيم ! .

ووقفت « وصيفة » تنظر فى التراب ، وتتخيل نفسها تحمل الماء للرجال الذين يسحقون زرع أبيها ! ! .

وجاشت نفس « وصيفة » ، ولم تستطع أن ترفع رأسها ، ولكن « الشيخ الشناوى » ظل يكلمها ويدعو لها بالبركة . ولم يتوقف « الشيخ يوسف » عن إلحاحه عليها أن تعمل لتحافظ على سمعتها التى يهددها أخذ المال من « محمد أفندى » .

وعندما رفعت « وصيفة » رأسها ، وأدارت عينيها المغرورقتين فى وجه « الشيخ يوسف » رأت وجهه قد اصفر فجأة .

وسمعت من ورائها صوتا قاصفا يقول :

ـ إيه الكلام دا اللى بتقول عليه يا « شيخ يوسف » ! . إيه الكلام ده اللى قلته « لمعوض » .

والتفتت « وصيفة » لتجد « محمد أفندى » يطير الشرر من عينيه .

كان يقف أمام دكان « الشيخ يوسف » لأول مرة منذ وقت طويل . ويتحدث بانفعال دون أن يلقى السلام .

وكان « محمد أفندى » قد تعود أن يمر على الدكان دون أن يرمى السلام وهو يقول لنفسه إن « الشيخ يوسف » أصبح لا يستأهل من الواحد أن يرمى عليه السلام !

ولم يجب « الشيخ يوسف » .

وقال « محمد أفندى » مرة أخرى :

ـ ماتنطق ! .

كان « محمد أفندى » قد ذهب إلى المركز فأرسل البرقيات وعاد على الفور دون

أن يضيع دقيقة ، وهو بعد أن كتب برقية الاحتجاج ، يعود يشعر بأنه قوى .. قوى إلى حد أنه يستطيع أن يواجه كل من فى المديرية بكلام قارس شديد .

وتدخل « الشيخ الشناوى » متعجبا :

ـ خبر ايه يا « محمد أفندى » . . انت مالك جاى كده ناوى شر . . ما ترمى السلام يا أخى ! .

ولكن « محمد أفندى » لم يلتفت إليه ، وظلت عيناه ترمى الشرر فى وجه « الشيخ يوسف » .

وانسحبت « وصيفة » مضطربة .

وانفجر « محمد أفندى » فى « الشيخ يوسف » :

ـ انت ياراجل مش حاتبطل اللت بتاعك ده ؟ ! بقى الراجل مرمى فى الحبس واحنا عايزين نشوف مصالحه تقوم تروح تقول للبت الكلام ده ؟ ! أهى امها مش راضية تاخد تمن القطن ؟ ! يعنى يعملوا إيه ؟ ! ياكلوا منين ! آه يا راجل يا ضلالى ! .

وقال « الشيخ يوسف » مرتجفا :

ـ إسمع بقى لما أقول لك . سيبك من الكلام ده ! إنتو شايلين منى كلكو ليه يعنى يامشى وراكو ياتسيبوا عليه تشرمطونى . الله . ياأخى كل واحد بيقول ياللا نفسى . خالك « الشيخ حسونة » ماراح يسعى فى المركز لحد ماخلا الزراعية تحود بعيد عنكو . هيه خدت من أرضكو إلا حتة زيق لاهنا ولا هناك . أنا عارف انكو متغاظين من جريى ورا العمودية . يعنى اسيبهالكو ؟! والله ما انى سايبها ؟ ! اشمعنى انتو بتجروا ورا مصلحتكو ؟ ! دهدى !

وعاد « محمد أفندى » يزعق وهو ينظر باشمئزاز إلى « الشيخ يوسف » :

ـ كلام ايه دا ياراجل انت ؟ ! انت بتهبل بتقول أيه ؟ ! مصلحتنا ايه ياراجل انت يا ضلالى ياعديم المروءة يا قليل الطهى ! . انت اللى عمرك ما فكرت الا فى روحك . اسمع أما أقول لك . التخبيط الفاضى بتاعك ده لازم تبطله أحسن والله والله والله العظيم تلاتة وعزة الله يا شيخ . قسما بالذات العلية ماعندى لك من هنا وجاى غير البلغة . هه !! والله والله اندغك البلغة ! .

ووجم « الشيخ يوسف » . وفتح فمه وحملقت عيناه . . كأنه قدر أن « محمد

أفندى ، يمكن أن يجعله يمضغ البلغة بالفعل .

ولو سحب عليه « محمد أفندى » المداس فلن يستطيع أن يقول شيئا لأن البلد كلها أصبحت ضده ! .

واندفع « محمد أفندى » بعيدا عن الدكان إلى الطريق .. فوجد « عبد العاطى » يقف بعيدا ومعه الصينية بالطعام . . الصينية التى حملها من دار « محمد أفندى » للرجال فى الحبس ! .

وصاح « عبد العاطى » بطرب :

- والله عفارم يا « محمد أفندى » ! آى كده . . يكون فى علمك يا « شيخ يوسف » .. من هنا ورايح ماعندناش غير البلغة ندوبها على دماغ اللى مايعجبناش ! نندغهاله ! . .

ووقف « الشيخ يوسف » يتمتم وهو يرتعش . .

- طيب . . بكره كله يخلص يا بلد ! . . بس تيجى العمودية وانتو تشوفوا صحيح يعنى إيه ضرب البلغ . . يعنى إيه ندغ البلغ ! .

بينما تابع « عبد العاطى » سيره بالصينية . . وفتحت غرفة التليفون ، ووضع الصينية على الأرض ، ورفع المكبة الخوص ، فتصاعدت رائحة الأوز المحمر ، وأرسلت أرغفة القمح دخانها .

وانقض « علوانى » على الأرض ، وجلس بجوار الصينية وهو يزعق فرحا :

- عيش سخن وظفر .. ياولد ! . . يدوم الحماس ياجدعان ! .

ثم لكز « دياب » واستمر يصيح :

- كل ياوله عيش قمح كل . . الواحد مابيدوقوشى حتى لو مات من العيا . . اشتغل فى الظفر يا سيدى اشتغل ! . . ياك يا شيخ نقعد هنا كمان شهرين تلاته . . اشمط الوز اشمط .. كل وانبسط ياجدع . . كل وانجلى يادكر !

وضحك الجميع ، وقال « عبد الهادى » :

- بس نطلع احنا واشترى لك الغنم وانت تشبع عيش طرى ياشيخ العرب !

وحكى لهم « عبد العاطى » ما دار بين « محمد أفندى » و « الشيخ يوسف » ، فضحك « محمد أبو سويلم » ، ونظر « دياب » إلى الجميع بزهو قائلا :

- شايفين الشهامة ! .

فقال « عبد الهادى » بأعجاب :

- والله شهامة صحيح .. أهو كده يا « محمد أفندى » .

واستمر « عبد العاطى » يصف لهم منظر « الشيخ يوسف » عندما هدده « محمد أفندى » بضرب البلغ . كان « الشيخ يوسف » إذ ذاك يلبس الفانلة الصفراء ذات الأكمام الطويلة ، والجلباب الكشمير الواسع ، والعمامة الجديدة ذات الشال النظيف .

وصاح « علوانى » وهو يضع فى فمه لقمة كبيرة ملفوفة من رغيف القمح :

- هو « الشيخ يوسف » يعنى لابس العممة كده على طول ومعرضها ليه .. معرضها ليه بق . غرضه إيه . غرضك إيه يا « شيخ يوسف » غرضك تبقى عمدة ؟ يعنى غرضك تقبض . طب روح ما انتش قابض ! .

وضحك « عبد العاطى » طويلا وضحك الرجال .

ومال « علوانى » على « عبد العاطى » هامسا :

- الوز ده عاوز شاى .. شوف لك تسريفه بق فى الشاى ! .

وقام « عبد العاطى » . ووقف يفكر قليلا ، ثم حك رأسه ، واتجه إلى الدوار

ووجد أرملة العمدة . وحين رأت « عبد العاطى » نادته باسمة .

كانت تلبس قميصا اسود قصير الأكمام مفتوح الصدر . وغرس « عبد العاطى » نظراته على ذراعها السمين الأبيض ، ونحرها المكشوف وصدرها الرجراج .

وطلب منها أن تأذن له فى عمل الشاى للرجال ، فرحبت وسألته أن يسير وراءها إلى حجرتها لتعطيه السكر والشاى . . والتمعت عيناها ، واضطرب « عبد العاطى »

وبدأ « عبد العاطى » يحدثها عن علاقة الرجال « بالشيخ يوسف » ، وإصرارهم على ألا يشتروا منه ، وروى لها ماحدث بين « محمد أفندى » و « الشيخ يوسف » ، ورنت ضحكاتها ، وتثنت . ودخلت حجرتها ونادت « عبد العاطى » .

وتحرج شيخ البلد الذى كان يجلس أمام باب الدوار . ونادى « عبد العاطى » وظل يناديه ، ثم قرع باب الدوار بعصاه وهو ينادى « عبد العاطى » محنقا . . وعاد « عبد العاطى » يسأله عما يريد فى ضيق واضح ، فانقض عليه شيخ البلد يشتمه قائلا :

ـ إيه اللى مدخلك هنا . . اوعى تانى مرة تخش هنا من غير أمرى . . حتى لو نادوا عليك من جوه .. أما برود ! . . كنت تقدر أيام المرحوم العمدة تهوب ناحية جوه ؟ جاتك الغم ما أبردك ! . أنا هنا زى العمدة تمام .. يعنى العمدة تمام .

وهمهم « عبد العاطى » وهو ينصرف فقال شيخ البلد :

ـ إوعى تبوأ فيه . انجر . . ماتجحش كده ! . . إنتو فاكرين إن مالكوش عمدة ! . هيه بلد من غير عمدة ؟ . أمال انا هنا بانيل ايه ! .

وابتعد « عبد العاطى » وهو يقول :

ـ عمدة عمدة ؟ . . دا عامل عمدة ودا عامل عمدة . . جاتكو الغم فى العمودية بتاعتكم ! .

* * *

وقضت القرية نهارا مضنيا من القلق والانتظار . . وعندما احمرت الذوائب الصفراء من حقول الذرة تحت شمس الأصيل ، هبط على الفضاء ضباب سبتمبر ينشر الناموس فى قريتى ، وخيوطا دقيقة تهبط على الوجوه ولاتراها العيون .

وكان أبى إذ ذاك فى عاصمة الاقليم .

وأخذت أنتظر عودته بالبدلة ، والقرية تنتظر عودته بالأنباء .

ترى متى يخرج الرجال ؟ .

وغابت الشمس وراء أشجار التوت على الشاطىء الغربى ، ورأيت « الشيخ يوسف » مقبلا من ناحية عزبة « محمود بك » ، وكمه الواسع مشمر عن الفانلة الصفراء التى بدأت تتسخ . . واندفع إلى داره وطلب من امرأته أن تغسل الفانلة وشال العمامة ، قائلا لها إن « محمود بك » وعده خيرا ، وانتخابات العمودية غدا فى الصباح ، بالمديرية .

وعدت إلى دارى ، أرسل عينى إلى الجسر ، وأذناى تحاولان التقاط صوت العربة الحنطور ..

كانت البهائم كلها قد عادت من الزرائب على الجسر ، والطريق فارغ لاشىء فيه . حتى ماتلقيه البهائم من روث كانت النساء قد فرغن من جمعه ووضعنه فى المقاطف على رؤوسهن ، ومضين إلى الدور .

وأخيرا أقبلت العربة الحنطور ، ورأيت « عم كساب » يجلس على مقعده فى

العتمة ، مرتفع الراس ، مفتوح الصدر ، والابتسامة تملأ وجهه .

وهبط أبي من العربة يحمل لفة ، وأخذتها منه وقلبي يدق ، وفتحتها بسرعة ، وتأكدت أنها هي البـــدلة التي أصلحت لي ، واندفعت بها إلى أمي التي كانت قد وضعت الأوز المحمر والأرز المعمر والفطائر في سلة كبيرة ، وشرعت تبحث عن قطعة من الخيش والقماش لتغطي السلة الكبيرة .. ورأيت فتاة تعمل في الدار تقبل بالمسلة والخيط ، وعلى رأسها اللمبة الصفيح .

وأخذت أمي البدلة فرحة ، وتأملتها بسرور ، ثم وضعتها بعناية كبيرة في حقيبة الملابس وطلبت مني ألا أخرج لأتعشى وأنام . فالعربه الحنطور ذاهبة بي في الصباح لأركب قطار العاشرة إلى المدرسة الثانوية ! .

وكنت أنا أعاني خيبة أمل وحسرة لأني لم أحقق حلمي ببدلة جديدة ! .

غير أني اندفعت إلى الطريق . ورأيت « عم كساب » قد حل الحصان من العربة ، ومضى في خطوات ثابتة مبتسما .

وسألته إلى أين يمضي ، فقال لي مبتسما إن البلد تخلصت من الصـــول ، ولن يرى البلد مرة ثانية ، أما الرجال المحبوسون في الدوار فالمديرية تعد إشارة تليفونية للأفراج عنهم الليلة .

وكان « عم كساب » يمشي بخطوات راسخة ، وأنا إلى جواره أرفع رأسي اليه وأستمع إلى كلماته تنساب مطمئنة من فمه المبتسم .

واستطرد « عم كساب » يقول لي إن الدنيا كلها مقلوبة في المديرية من أجل الرجال المحبوسين . فالبرقية التي أرسلتها البلد إلى مصر هزت الحكومة هناك ، والكتاب الذين تضطهدهم الحكومة هاجموها في ـ صحف المساء ـ لأنها تقبض على الناس وتسجنهم بلا تحقيق وبلا جريمة ! .

كان « عم كساب » يشمخ برأسه وهو يتكلم . وحاولت أن أقول له إن « محمد أفندي » هو الذي أرسل البرقية ، فوجدته يعرف ويتحدث بأعجاب عما صنعه « محمد أفندي » .

وهمهم :

ـ أهو اللي عمله « محمدأفندي » ده كويس .. مش يجري لي ورا « محمودبيه » !. أهه ده الكلام .. أهه ابتدا يفهم !. احنا ياما شوفنا وياما جرينا .. هيه الحكومة

تيجى إلا بالسك ! . دا لو « محمد أفندى » شاف اللى شفناه فى اسكندرية وغير اسكندرية ماكانشى عمره فكر فى الجرى ورا الهوات والرجوات .. هيه .. أيام !. الناس ما بتتعلشى بالساهل ! .

وبدت لى كلماته دسمة مثقلة بالذكريات والتجربة ، وبفهم أسرار من الحياة لم أعرفها بعد أنا الذى تعلمت فى المدرسة وعرفت كيف أرسم للقارات الأربع ، وفهمت خطوط الطول والعرض واتجاه الرياح فى الدنيا وسر غليان الماء ! .

وتابعنا سيرنا .

وفجأة وقف « عم كساب » أمام باب مفتوح ، ودخل ! .

ودهشت أنا ، وتقدمت وراءه . .

كان « عم كساب » يدخل دار « محمد أبو سويلم » دون أن يتنحنح كما هى العادة أو يقول « ياساتر » أو يا « اولاد » كما هى عادة الذين يدخلون بيوتا غير بيوتهم فى قريتى . .

وكان مدخل الدار مظلما ، تتكسر على جدرانه الظلال الشاحبة ، ومن بعيد فى آخر الدار يشع ضوء لمبة صفيح .

وكانت الدار ساكنة تماما كأنما فارقها أهلها . وأصبح « عم كساب » فى وسط الدار فنادى على « وصيفة » .

وتقدمت « وصيفة » ، مرفوعة الرأس ، بخطوات حريصة واللمبة الصفيح على رأسها تلقى شعاعا باهتا على وجهها الحزين .

وابتسمت « وصيفة » تحت الشعاع الخافت ، وخفق قلبى بشدة ، وأنا أرى التماع عينيها ، وتألق وجهها بالغمازات .

وقال لها « عم كساب » بصوته الهادىء :

ـ أبوكى طالع الليله يا « وصيفة » . إحنا مستنيين إشارة من المديرية الليلة .

واهتزت « وصيفة » ، وأمسكت بيدها اللمبة الصفيح .. وسرت الرقصة الفرحة فى بدنها كله وانطلقت تقول ورأسها يهتز فى نظرات مضطربة إلى كل من حولها :

ـ صحيح .. والنبى .. أزغرت يعنى .. زغرتى يا امه .

وتحركت « وصيفة » ، ونقلت خطواتها فى اضطراب ضاحك ، ثم انقضت

على وقبلتنى فى جبهتى .

وشعرت بدفء شفتيها الدسمتين على جبهتى ، وبملمس جسدها الفائر الممتلىء يطوق بدنى الصغير . وغمرتنى سعادة مفاجئة ، واختلجت ، وارتفعت دقات قلبي !.

وانطفأ المصباح من يد « وصيفة » بينما ارتفع صوت أمها مقبلة من الزريبة ويداها متسختان بالروث وهى تقول :

- إلهى يبشرك بالخير يا كساب . . إلهى يجعل فى دخلتك علينا قدم السعد بحق دى المغرب .

ودهمتنى الحيرة وأنا أسمع هذه الكلمات .

وأخذت أنظر فى الظلام أمامى . وانبثق ضوء خاطف لعود كبريت ، وأوقد « عم كساب » المصباح بالعود بين أصبعيه ، ويده الأخرى تهتز على كتف « وصيفة » فى ابتسام مطمئن ! .

وسيطرت على الحيرة .

فأنا لم أر من قبل أحدا فى قريتى يضع يديه على كتف « وصيفة » .

ولم أر من قبل « وصيفة » تنظر إلى رجل من قبل فى قريتى ، وفى عينيها هذا البريق .

كان واضحا أنها تنظر إلى « عم كساب » فى إكبار وعرفان .

وارتمت نظراتى على شعره الرمادى ، وشاربه القصير الذى تنفر منه الشعرات العديدة البيضاء .

ولم أستطع أن أحتمل التفكير فيما يمكن أن يكون بينهما .

وقفزت أمامى صورة « عبد الهادى » بوجهه الضاحك ، وصدره المفتوح الذى يقول عنه أولاد القرية إن فيه شعرة من الأسد تخرق الصديرى ! .

وظللت أنظر إلى « وصيفة » فى صمت ، وتذكرت جلستنا على الجميزة فى أول الصيف ، وتمنيت أن أجلس معها الآن وحيدين . وتمنيت لو ألقت نفسها على مرة أخرى وقبلتنى .. وكان دفء قبلتها على جبينى قد بدأ يسرى فى دمى باللهب .

وقلت فجأة إننى مسافر إلى مصر من صباح غد .

ولكن « وصيفة » لم تلتفت إلى .

ظلت عيناها تنظران إلى « عم كساب » والابتسامة تتألق على وجهها كله .

وهبط على خجل مباغت . . وتمنيت لو وجدت نفسى بمعجزة ما بعيداً عن عينى « وصيفة » .

ولم أطق أن أتحرك أمام عينها وأمضى .. ولكنى نزعت قدمى بصعوبة وأنا أمضى .. وسمعت همهمة من « عم كساب » .

وعندما كنت أغادر عتبة الباب إلى الخارج ارتفع صوت « وصيفة » مختلطاً بصوت أمها :

ـ طريق السلامة .. اقرالنا الفاتحة فى مصر . إلهى يتمك بشهادة الخدامة !

وتسمرت على الباب .. وحاولت أن أستدير لأقول شيئاً . . ولكنى وجمت لحظة ، ونفسى تجيش ، وتحركت .

وسمعت « عم كساب » يقول فى صوت هادىء حاسم :

ـ لأ . . مافيش شغل فى الزراعية . . سيبكو من كلام « الشيخ يوسف » و « الشيخ الشناوى » . . أنا باقول لأ . . اوعى تشتغلى فى الزراعية . . اوعى تروحى ناحيتها ! .

ووصلت دارنا فوجدت أمى تنتظرنى على العشاء . . ولكنى لم أتعش . . ودخلت لأنام ، وعندما وضعت رأسى على الفراش ، ووجدت نفسى وحيداً فى الظلام .. انحدرت من عينى الدموع فى صمت . . دون أن أعرف على التحقيق لماذا أبكى ! .

وظللت أبكى وأنا أكتم صوتى فى خوف من أن يدخل أبى أو أمى أو أحد إخوتى الكبار فيجدنى أبكى . . من أجل « وصيفة » ! .

* * *

وفى الصباح كنت أعد نفسى لركوب العربة الحنطور .

وقبلتنى أمى ، ووضعت فى يدى بضع قطع فضية من ذات العشرة قروش ، وطلبت منى أن ألتفت لدروسى وأن آخذ بالى من روحى .

ووضع « عم كساب » كل ما أحمل من زاد أمامه فى العربة الحنطور ، وألقيت نفسى إلى جوار أبى وأخى الأكبر .

وظل أبى وأخى الأكبر يتحدثان طول الطريق عما تصنع الحكومة بالقرية والناس ، وسمعت أخى يتكلم بحماس عن مقالات الكتاب .

وبقيت أنا شاردا طول الطريق .

وسكت أبي ، وأخذت أنا أنظر بأعجاب إلى أخي الذي يدرس فى سنواته النهائية بكلية الطب .

وكنت شارداً طول الطريق .

وعندما اقتربنا من المدينة الكبيرة داعبنى أبى وأخى قائلين إننى أصبحت الآن رجلا فى المدرسة الثانوية ويلبس البنطلون الطويل .

وتردد فى حلقى صوتى الذى كان مازال ناعما ، وقلت كلمات أغالب بها شرودى !.

وذهب أبى وأخى إلى المديرية . وانطلق بى «عم كساب» إلى المحطة لأنتظر هناك.

وفى فناء المحطة وقفت أنتظر ، ووقف معى « عم كساب » . كنت على طول الطريق أفكر فى المدرسة الثانوية التى سأدخلها ، وفى إصراباب طلابها . وكانت صور مما جرى فى الصيف تغمر أفكارى على الدوام .

لم أستطع أبدا أن أنحى عن عينى صورة « وصيفة » وهى تبتسم فى عينى « عم كساب » . وأحدثها أنا عن سفرى فلا تجيب إلا بكلمات دعاء بعد أن تركت بيتها .

وكانت صورتها تختلط بصور عديدة لها أثناء الصيف ، صورتها وهى تضع قدميها فى الماء وتهمس فى حلم أنها تتمنى أن تصبح فتجد « زلعة مليانة براينز » ثم همستها لى أنها تتمنى أن يحملها مركب فى الليل إلى مصر لتعيش هناك .

وصورتها وهى تخرج من قاعة الطحين صفراء مخطوفة لتقول لأمها إن الذرة لم يعد يكفى . وفوق هذه الصور جميعا كانت تعصر قلبى صورتها بعد أن وضع أبوها فى حجرة التليفون .

لم أستطع أبدا أن أنحى عنى صورتها تلك .. ولقد أغمضت عينى ودعكتهما .. ولكنى كنت دائما خلال زحام الصور أرى « وصيفة » راقدة فى وسط الدار ، مقرحة الجفن ، متورمة الخد ، مبحوحة الصوت ، كسيرة مهزومة شاحبة . ومن حولها النساء فى السواد ! .

وحاولت أن أهز رأسى لأنفض عنها زحام الصور . ولكن الصور ظلت تلح على . ورفعت صوتى أكلم « عم كساب » وهو يرفع الزاد من العربة ويضعه على رصيف المحطة .

وسألته إن كانت « وصيفة » اشتغلت فى الزراعية فقال لى إن مكسورة الرقبة اشتغلت صباح اليوم ! .

قالها ببساطة ، بصوته الهادىء النابض بالغيظ المكتوم . .

وأشعل سيجارة .

ونظرت فى عينى الرجل ، فلم أستطع أن ألتقط نظرة .

واضطرم بي ألم غامض ، ودهمتنى المخاوف المبهمة ، وتذكرت يوم وجدنا « وصيفة » عائدة مع أبيها من السوق فركبت إلى جوار « عم كساب » . وأوشكت أن تقع وهى تنزل فحملها « عم كساب » وأنزلها ! .

أيمكن أن تكون « وصيفة » قد أصبحت كالأخريات ! .

أيمكن أن تذهب إلى الزراعية فتضحك للكلمات البذيئة ، وتغنى بلا تحرج ، وتتقصع وسط الرجال ، وتدخل الحقل أحيانا وراء هذا الرجل أو ذاك ! .

ولم أستطع أن أتحمل وحدى ثقل هذه الأفكار ، فسألت « عم كساب » إن كانت « وصيفة » يمكن أن تخسر ؟! .

وسكت .. وهز رأسه ! .

وارتمت نظراتى على رأسه الرمادى الزاخر بالشعرات البيضاء .

وخيل إلى أن « عم كساب » يمكن أن يكون عما « لوصيفة » اكتشفته فجأة ! .

وشاع فى تقاطيع وجهه حنو غريب . . وكسر عينيه ، وبدت نظراته التائهة مشحونة بالعطف الأبوى .. وبالرغبة فى السيطرة على المستقبل من أجل طفل صغير عزيز لاحيلة له ! .

وخطرت فى فكرى كلمات له قالها عندما قيل إن نقطة البوليس مقبلة إلى البلد .

وعدت أذكر فرحته الظافرة حين علم أنها لن تجىء ! .

إن عمال الزراعية هم أيضا - كالعساكر - يملكون القرش ، وليس عند بنات البلد ذرة ولا مال ، والقرش يمكن أن يقلب رأس أية واحدة .

وأخذت أنظر إلى وجه « عم كساب » الذى يفيض بالحنان والأصرار .

وتمنيت أن يقول كلاما يحمل الطمأنينة إلى نفسى ، وأمام عينى صورة « وصيفة » عندما خرجت من قاعة الطحين مروعة .

وسألت « عم كساب » مرة أخرى إن كانت « وصيفة » يمكن أن تخسر . .

وهززته بيدى مستجديا منه كلمات مطمئنة .

ولكنه بعد صمت طويل قال لى :

- أيوه سألتنى . .

ثم تنهد وقال :

ـ الجوع كافر ! .

وحاولت أن أقولى شيئا أدفع به زحف الاضطرام على حلق . ولكنى اهتززت تحت المخاوف المبهمة . ولم أستطع أن أقول شيئا .

وتحرك « عم كساب » إلى العربة الحنطور .

وتركنى واقفا على رصيف المحطة ، ومضى يقرقع بكرباجه طالبا منى أن أنتظر على الرصيف حتى يذهب إلى المديرية فيعود بأبى وأخى الأكبر .

وظللت وحدى مبهورا من « عم كساب » . معجبا بنظراته الثابتة ، وصوته الهادىء وكلماته الخاطفة المحملة دائما بالذكريات والتجربة .

وعادت إلى ذهنى صورته مع « وصيفة » يوم ركبت إلى جواره ، وقفز إلى الأرض وأمسك خصرها بذراعيه لتنزل . ثم ماصنعه بالأمس وهو معها فى وسط الدار . إنه يصنع أشياء لايصنعها الآخرون فى القرية ، ويقول كلاما لايقوله أحد .

واضطربت رأسى بصور مختلطة ، وتذكرت « خضرة » .

أيمكن أن تصبح « وصيفة » ضائعة « كخضرة » بعد أن ضاعت من الأرض .

أيكون بينها وبين «عم كساب» شيء كالذى كان بين «دياب» و«علوانى» و«خضرة» ! . وملأنى الضيق .

وعدت أفكر فى أن « وصيفة » ربما أعجبت « بعم كساب » . ربما تزوجته . وحتى هذا الخاطر لم يرحنى .

وتمشيت على رصيف المحطة وأنا أقول لنفسى إن « عم كساب » يكاد يكون فى عمر أبيها .

وظللت أمشى على الرصيف الذى بدأ يمتلىء بالناس والسلال والمقاطف والأخراج . ووجدت شريط السكة الحديد يمتد أمامى إلى بعيد .. إلى بعيد جدا فى خطين متوازيين يلتقيان على مرمى العين . وكنت أعرف أنهما لايلتقيان أبدا .. وإنما هكذا تخدع الصورة عيون الناس .

وفاضت نفسى بأحلام المدرسة الثانوية ، وما أصنعه فى القاهرة . وزخرت أعماقى بمشاهد مظاهرات الطلاب فى العام الماضى تطالب بالدستور والاستقلال والرصاص فوق الرءوس . وتوالت فى قلبى الخفقات واهتزت أمامى صور المواكب النابضة بالهتاف والوعيد .

وقلت لنفسى لئن سقطت الوزارة وعاد الدستور . فسيعود « محمد أبو سويلم » شيخا للخفراء ويعود « الشيخ حسونة » إلى القرية ، ويرتفع الحجز عن أرض كثيرة فى القرية ، ويروج الناس !

وظللت أروح وأغدو أنقل عينى من الفضاء الواسع إلى شريط السكة الحديد ، إلى فناء المحطة ، حيث تستلقى من ورائه المدينة فى الزحام .

وبعد قليل عادت العربة .

كان « عم كساب » على مقعده المرتفع يشد جسده . ويضحك .

وهبط أبى وأخى .. ودخلا ليقطعا التذاكر ويسألا عن موعد القطار بالتحديد .

وبقيت أنا على الرصيف ، و « عم كساب » يسلم على مودعا .

وقال لى وهو يضحك إن إشارة تليفونية أرسلت الآن إلى القرية وفيها أمر بالأفراج عن « محمد أبو سويلم » و « عبد الهادى » و « دياب » و « علوانى » .

وسكت لحظة ، وهو مايزال يبتسم ، ثم أطلق ضحكة مرتفعة ، وأنا أنظر إليه مندهشا فقال لى :

ـ أما حصل حتة دور فى المديرية دلوقت ! . مش « الشيخ يوسف » و « محمود بك » وقعوا فى بعض ؟ ! يا سيدى كان فيه لجنة شياخات علشان عمودية بلدنا . . وأجلوها .. القصد .. ياسيدى عمك « الشيخ يوسف » كان فاهم إن « محمود بيه » راح يساعده فى العمودية . لبس اللى على الحبـــل كله ، ولبس الجزمة الكشف والعمة الجديدة وراح لك عالمديرية ومعاه راجلين تلاته من البلد ، وشيخ البلد معاه كان تلاتة أربعة .. دخلوا لقيوا « محمود بيه » قاعد . و « الشيخ يوسف » بقى فاهم إنه معاه وعمال يديله فى فلوس ويخطف من هنا ويدبر من هنا ويدفع له على أمل إنه حيساعده فى العمودية . بس ياعم ويلاقى لك « محمود بيـه » مرشح نفسه للعمودية ورئيس لجنة الشياخات بيسأل تنتخبوا « محمود بيه » .

ثم كتم « عم كساب » ضحكاته واستمر يروى كيف اعترض « الشيخ يوسف » على ترشيح « محمود بك » ، وأعلن فى غلظة أن البلد كلها لا تحب « محمود بك » فهو يلعب بالناس ويأخـــذ منهم المال ليقضى لهم الشغل ، ولكنه يعمل لنفسه ولا ينفذ وعوده ! . . وإذ ذاك انقض « محمود بك » فضرب « الشيخ يوسف » بالرجل فى صدره وخبطه كفا على عمامته فطارت .

وخرج « الشيخ يوسف » يسب ويلعن ، وخرج وراءه أهل البلد وأقسموا كلهم بالطلاق ألا ينتخبوا « محمود بك » . واقترح « الشيخ يوسف » أن يوحدوا

الكلمة ويتفقوا على رجل واحد فاقترح شيخ البلد أن ينتخبوه هو قائلا « للشيخ يوسف » فى ود :

ـ ما احنا اخوات برضــه وأوامرك كلها أمشيها لك . وكفاية عليك انت الدكان يا « شيخ يوسف » .

ووافق « الشيخ يوسف » وحاولوا الدخول مرة أخرى على لجنة الشياخات . ولكن اللجنة أجلت اجتماعها عدة أيام ، فانصرفوا و « الشيخ يوسف » يقسم أن يشكو « محمود بك » ويطالبه بما أخــذ من مال . . ولن يسكت إلا إذا وضعوا « محمود بك » فى الحديد !

وملأنى السرور وأنا أستمع لما يقوله « عم كساب » ، وضحكت كثيرا . . وتمنيت لو أنى أعود إلى القرية اليوم فأقضيه وأعيش فيما يكون هناك ثم أسافر فى اليوم التالى .

ولكن اليوم التالى كان الجمعة . وأمى لم تكن تحب لأحد منا أن يسافر يوم الجمعة . ففيه ساعة نحس !

وشردت فيما يحدث الآن . . سيعود « الشيخ يوسف » مغيظا ، فيجد القرية تزغرد فرحة بالافراج عن الرجال ، ويمضى هو فيروى لهم ما حدث من « محمود بك » ويعانق « محمد أبو سويلم » و « عبد الهادى » . وربما عانق « علوانى » و « دياب » . وربما بكى من الندم ، وعانق « محمد أفندى » ثم فتح دكانه ، وأرسل إلى « علوانى » بالشاى والسكر . ووقف داخل دكانه المفتوح ، يصفق ويقول : يابلد وبعد هذا يحك رأسه ، ويلبس العمامة القديمة ، ويخلع كل ما اشتراه ليكون به عمدة ويفتح كتاب عنتر أو أبو زيد ويقرأ فصولها فى صوت مرتفع !

وجاء أبى ووراءه أخى الأكبر ، فطلب من « عم كساب » أن يستعد لوضع أشيائنا فى القطار لأن القطار قادم . .

وتحرك « عم كساب » بحقيبة فى يد وبسلة كبيرة فى اليد الأخرى . . ومضيت أنا وراءه أنظر فى الفضاء إلى وجه القطار الأسود الذى بدأ يزحف من بعيد .

وقال « عم كساب » مهمهما :

ـ بالسلامة . إن شاء الله الاجازة الجاية تلاقى دار جــديدة على الزراعية ، وما كينة . . وتلاقى « وصيفة » منورة الدار !

وباغتتنى كلماته . . واتسعت عيناى ، وسألته طالبا منه أن يقول فى سرعة كل ما يعنى . .

وقال لى ببساطة إنه قرر أن يشترى أرضا على الزراعية من بقايا الأرض التى نزعت ملكيتها ، فيبنى عليها دارا جديدة .. فاذا أخذ « محمد أبو سويلم » التعويض عن أرضه التى نزعت شاركه « عم كساب » فى بناء ماكينة طحين تكسب تماما ، وتمنح « لمحمد أبو سويلم » من المال والحياة الموفورة أكثر مما كانت تمنحه الأرض.

ووقف القطار ، فصعد « عم كساب » بالحقيبة والسلة وأنا وراءه أسأله إن كان حقا سيتزوج « وصيفة » .

فقال لى إنه اتفق منذ زمن . ثم تمتم :

ـ لما ارجع البلد حاجرها من الزراعية على ملا وشها . زراعيـــة إيه اللى بتشتغل فيها .. دا أنا حاخبيها ! هى ماكينة الطحين تكسب وحش !

وعدت أذكر ما كان يقوله « عم كساب » دائما .

كان دائما يقول لى إن الرجل يجب ألا يقع .. وأنه يجب، فى أى ظرف أن يتعلم كيف يبدأ من جديد !

وحاولت أن أتصور ما يمكن أن يصنعه « عبد الهادى » حين يعلم أن « عم كساب » سيتزوج « وصيفة » . لقد قال لى « عبد الهادى » أيضا إن « وصيفة » ستعمر داره ، وإننى سأعود فى الصيف القادم لأجدها تنور الدار ! .

وخيل إلى أن « عبد الهادى » لن يرضى بالزواج من « وصـــيفة » بعد أن اشتغلت فى الزراعية ولو لساعة واحدة . ولكنى فى الحق اشفقت عليه ، ورثيت له .

ونزل « عم كساب » بسرعة ولم أقل له شيئا .

وحضر القطار ، فوقفت مع أخى فى النافذة فسلم على أبى . وقبلنا بده عدة مرات ، ونفوسنا تجيش ، وقبلنا أبى ، ودعا لنا بالستر ونجاح المقاصد .

وصفر القطار .

ورنت نغماته الموحشـــة فى أذنى . . وفاض فى أغوارى الحنين وكل ما يثيره الوداع ! .

ومضى يشق بنا طريقا طويلا بين الحقول . . حقول واسعة يغمرها بياض القطن ، وخضرة كيزان الذرة . تماما كالحقول التى تركتها فى قريتى تهوى تحت المعاول . .

وعندما انتهت حقول الذرة ، بدأت تلوح لنا حقول واســعة من البرسيم الصغير .. ووجدت فتيات كثيرات يتناثرن هنا وهناك ، منحنيات على الأرض

يلتقطن من حشائش الحقول . . كنت أعرف أنهن يجمعن السريس والجعضيض وعنب الديب وأصنافا أخرى من النباتات الشيطانية ، ليأكلن بها الخبز الجاف . فهكذا كانت الفتيات والأولاد يصنعون فى قريتى .

وظل القطار يشق بنا الأرض دون توقف .

وبدأ يدخل محطات صغيرة تقوم عليها القرى، يقذف بركاب ويلتقط آخرين .

وتحرك منها . ورأيت طريقا زراعيا يوازى خط السكة الحديد .

والتفت أخى الأكبر ، وقال لى إن التلاميـــذ الصغار يقفون على الزراعية الجديدة فى انتظار سيارات الاوتوبيس لتعود بهم من المدرسة الابتدائية فى مدينة قريبة .

وسكت أخى قبل أن يقول لى إن بلدنا يجب أن ترسل أولادها الصغار على الزراعية الجديدة إلى المدينة فستمر بها سيارات الاوتوبيس .

وظللت أنظر من شباك القطار وفكرى فى قريتى . . وهدأ القطار عند إحدى القرى ، وسمعت أغنية حزينة تتردد نغماتها من أحد طرقات القرية :

يارب أقابل حبيبى عالزراعية

م العصر للعصر باطلع عالزراعية

وتحرك القطار . وتاهت منى كلمات الأغنيـــة . فنظر أخى إلى مبتسما وهو يقول لى إن هذه القرية تغنى للزراعية ، وقد دخلت الزراعية فى حياتها وغنائها .

وسكت أخى ثم استطرد يقول إنه مادامت الزراعية قد جاءت ، فهى تدخل فى وجود الناس ، ويحسن أن يسيطر عليها الناس .

وقلت له إن « عم كساب » سيبنى ماكينة للطحين على الزراعية .

فاستمر أخى يقول لى إن الأرض التى بقيت « لمحمد أبو سويلم » لن تصلح للزراعة بعد ، ومن الممكن أن يبنى عليها ماكينة بمبلغ التعويض مشتركا مع « كساب » ، ويستطيع من إيراد الماكينة أن يؤجر أرضا أخرى أكبر من التى كان يزرعها .

واستطرد أخى يقترح أن يبنى الناس على الزراعية بيوتا جديدة نظيفة .

ولم يقل لى كيف . . وعندما سألته سكت .

واستمر القطار يمضى بنا فى ضجيج رتيب منتظم . وعندما لاحت لنا القاهرة بقبابها . ورأينا من بعد ثلاثة أهرامات فى بياض الضباب ، بدأ أخى يحدثنى عن هذا العام الدراسى .

وزخرت فى صدرى صور المدرسة الثانوية ، وإضرابات الطلاب . . بينما كان قلبى مايزال ينبض بحزن على « وصيفة » و « عبد الهادى » وقريتى .

وعندما وصلنا القاهرة ، وتركنا القطار ، توالت دقات قلبى ، وأحسست بدمى يصرخ بى وينادى على أشياء مجهولة لا أستطيع أن أتبينها .

ودخلت وراء أخى فى زحام المندفعين إلى ميدان المحطة ، ومن ورائنا الشيال .

وركبنا عربة حنطور إلى بيتنا فى الحلمية الجديدة .

ودخلت بنا العربة من شارع إلى شارع ، والسائق يقرقع بالكرباج ويلقى شتائم لم أسمعها فى القرية فى كل شهور الصيف .

واحمر وجه أخى ، ورأيته ينظر إلى بطرف عينه . ليرى إذا كنت قد فهمت الشتائم التى يلقيها السائق .

والحق أنى كنت قد سمعت هذه الشتائم طوال أربعة أعوام من شوارع الحلمية الجديدة ، ومن تلاميذ المدرسة الابتدائية .

وملأنى إحساس عجيب . فقد شعرت ـ فى حب بالغ ـ أن أخى يريد أن يحمى أذنى من هذه الكلمات التى يلقيها السائق على الناس فى الطريق . وكأنه يريد أن يمارس إلى آخر حد مسئوليته فى تربيتى . هذه المسئولية التى بدأ يحسها منذ ودعنا أبى فى المحطة .

ولكننى كنت وأنا جالس إلى جوار أخى أفتح عينى على طرقات القاهرة ، مفتونا بالضجيج ، والعربات تجرها الحمير ، والسيارات الفاخرة المتعددة الألوان ، والنساء فى الفساتين ، والرجال بالبـــدل ، والترام ، والحفاة فى جلاليب غير زرقاء . والعساكر ! .

وهزتنى المرائى العديدة التى طال عنها غيابى أربعة شهور من الصيف وكأنى أرى لأول مرة مدينة لم أعرفها من قبل .

وازدحمت عينى بعشرات الآباء والأمهات والأولاد الصغار يتنقلون بين المتاجر .

وهمس أخى قائلا : ـ دخول المدارس ! .

ورنت كلماته فى أعماقى بوقع غريب .

وتقدمت بنا العربة فى الزحام الذى يختلط بأحلامى .

وشاهدت بوضوح أحلامى تموج بزحام الناس .

وظلت العربة تمضى بنا فى شوارع القاهرة . وعروقى تنبض بأشياء عديدة من قريتى . أشياء لم أستطع أن أنساها أبدا .

هليو بوليس ــ يناير سنة ١٩٥٤

Date Due

E.H.B. LIB. MAY 21 1974 JUN 4 74

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 02906 8924
PJ7862.H27 A7 al-Ar´¿ :